
نجد
في الأمس القريب

بسم الله الرحمن الرحيم



صور وملامح من أطر الحياة
السائدة قبل ثلاثين عامًا

تأليف
عبد الرحمن بن زيد السويداء



للطباعة والنشر
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة
لدار العلوم للطباعة والنشر
ص.ب. ١٠٥٠ ـــ هاتف ٤٧٧٧١٢١ ـــ ٤٧٧١٩٥٢
الرياض ـــ المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

الإهـداء

إلى روح من بذلَت الغالي والرخيص في سبيل تعليمي القراءة والكتابة، إنها جدّتي، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، إنه سميع مجيب،

المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

الحمد للّه مقلّب الأمور والأحوال، وصلىّ الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين. لما كانت المملكة العربية السعودية قد خطت خطوات سريعة نحو التطوّر والبناء في مختلف مجالات الحياة، تحت قيادة حكومتنا الرشيدة ـ أعزّها الله ـ وذلك بموجب الأسس العلمية الحديثة، وهذه القفزات السريعة تركت آثارها بما أحدثته من فجوة واضحة المعالم بما كانت عليه الحياة قبل عصر من الزمان وما هي عليه الآن، وبالأخص في البقعة مدار البحث «نجد» ومع هذا التغيير في معالم الحياة ستختفي ملامح مشرقة من وجه حياة مجتمعنا، تلك الملامح العريقة التي امتدّت منذ القدم إلى ما قبل ثلاثين عاماً، وتحلّ محلّها ملامح أخرى أكثر منها لمعاناً، ولكنها أقل جاذبية وأدنى أصالة، ولم يبق من معالم الحياة السابقة سوى الصورة والصدى الباهتين اللذين يعتلجان في خبايا النفوس، تغلّفهما أحياناً المرارة الشفّافة لفقدهما، وأحياناً أخرى تفجّرهما الذكريات المنعشة، وفي بحر هذا التغيير يخشى البعض من اتّساع هذه الهوّة في فترة قصيرة زمنياً بين جيلين متتابعين وينطمر في قعرها الصورة المشعّة والأصالة العريقة، وبذلك تفقد السلسلة حلقة من حلقاتها المتماسكة مما يحدث لها بتراً حتمياً، ولهذه الحالة آثارها السيّئة بالطبع، ولا شك أن الجيل الذي عاصر هذه الحياة بآمالها وآلامها، بحلاوتها ومرارتها، يدركها تماماً بكل خفاياها، لكن الجيل الذي نشأ بعد ذلك لا يعرف عنها سوى ما يسمعه من آبائه وأجداده في بعض الأحيان فلا يصدّقه، ويظنّه من ضمن القصص الخيالية، هذا الجيل الذي تسلّم

ويتسلّم الآن خدمة هذا الوطن وأعباء مسؤولياته يجب أن يكون على علم بما كان عليه آباؤه وأجداده وما نعموا به وما قاسوه في حياتهم اليومية، حتى تكون لديه خلفية صلبة يمكن أن يستند إليها فيغضّ النظر عن مساوئها ويستعين بمحاسنها ويطوّرها بما يتناسب والمفهوم الجديد، وربّ قائل يقول: أن هذه الحيثيات والمفاهيم تافهة ومعروفة تماماً لدى الغالبية العظمى من الناس ولا جدوى من تسجيلها، وربما كان كلامه صحيحاً بالنسبة لأولئك الأجيال الذين عاشوا هذه الفترة ولكن لتكن لهم على سبيل الذكرى والمقارنة بما كانوا عليه بالأمس وما هم عليه اليوم ليذكروا نعمة الله عليهم، ولعلّ قائلاً آخر يرى أن هذه الأمور ماض منته ولا فائدة من العودة إليه أو التذكير به، وتكمن الإجابة بأن هذه الصورة هي التي نشأ في ظلّها الآباء والأجداد ونعموا في صفائها ونقاوتها أجيالاً وأجيالاً، وقاسوا شظف العيش في إطارها بعض الأحيان، وهي أصل حياتنا الحاضرة، ومن ليس له أصل فلا فرع له، وهي في ذات الوقت نوع من التراث الشعبي الذي لا يخلو من فائدة، لا سيما وأن المرء إذا استعرض الكتب التي دوّنت عن مجتمعات العرب والمسلمين في الماضي لا يجد فيها التفاصيل المطلوبة عن حياتهم اليومية والتي تهم القارىء بصفة عامة، ولا يستغني عنها الباحث بصفة خاصة، وما دفعني للكتابة عن هذا الموضوع هو سؤال من إبني عن نوع جهاز التلفاز الذي كنا نشاهده عندما كنا صغاراً هل هو من النوع الملوّن أو العادي؟ فعند ذلك عزمت على تدوين المعلومات التي أعرفها عن تلك الفترة، ليعرف من خفي عليه شيء منها، وليدرك الفرق والتبيان بين ما كانت عليه نجد قبل ثلاثين عاماً وما هي عليه اليوم، ذلك الفرق الشاسع خلال عصر من الزمان واضعاً نصب عيني عدة أمور تتلخّص في فصول هذا الكتاب منها:

١ ـ العوامل المؤثّرة في تلك البيئة سواء أكانت عوامل جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، مع تأثير المواصلات في ذلك الوقت إضافة إلى تأثير الاعتبارات السائدة والمفاهيم المتعارف عليها يومئذ، والسلطة المشرفة على تلك البقعة، وما يكتنفها من مدّ وجزر وقوة وضعف.

٢ ـ النشاط اليومي للسكان، حيث ينهض الناس من نومهم مبكّرين لأداء

واجباتهم الدينية، والقيام بأعمالهم اليومية بكل جدّ ونشاط وحيوية منذ الصباح الباكر امتثالاً للحديث الشريف «بورك لأمتي في بكورها» وما يقوم به أفراد المجتمع الرجل والمرأة جنباً إلى جنب، كلّ يقوم بعمله على الوجه المطلوب حسب قدرته وبأقصى طاقته.

٣ ـ يتجسّد النشاط السكاني في الحقول التي تحويها هذه البيئة، فالحقل الزراعي الذي يمثل المركز الأول، يبدأ نشاطه بالبحث عن أماكن تواجد المياه الجوفية واستنباطها من أعماق الأرض، ثم غرس بساتين النخيل وما يتعلق بها من خدمات، وأنواعها ومنتجاتها، يأتي بعد ذلك، موسم الزرع في فصلي الشتاء والصيف وما يتطلّب من خدمات.

٤ ـ أهم المنتجات الزراعية، من تمور بأنواعها، وحبوب بأصنافها لموسمي الشتاء والصيف، ومدى كفايتها للسوق المحلية وما يصادفها أحياناً من المعوقات كالكوارث الطبيعية وغيرها.

٥ ـ في الحقل الرعوي الذي يمثّل المرتبة الثانية من النشاط السكاني ويبدأ منذ أن يلوح برق سحائب «الوسم» وتتّجه المجموعات الرعوية بمواشيها من أماكن إقامتها في فصل الصيف لتنتجع المَواطِن التي هطلت عليها الأمطار فتنصب مضاربها في وسطها، وتنعم مواشيها برعى الكلأ الذي اكتست به الأرض وتبدأ تلك المواشي بإظهار مردود تلك النعمة وذلك بإغداق الألبان ومشتقّاتها، التي تمثّل ثروة موسمية مناسبة، وما يقدّمه السكان من خدمات لتلك المواشي أثناء تمتّعها بمراعي مروج نجد الخضراء المزهرة التي تغنىّ بها الشعراء وأكثروا.

٦ ـ عمل المرأة التي تشاطر الرجل عمله في أي حقل من حقول النشاط السكاني، ذلك العضو الفعّال، والعامل الدؤوب الذي لا يملّ من العمل حسب اختصاصه، وقد أكسب العمل المرأة القوة والنشاط والصلابة، بالإضافة إلى الرشاقة والصحة والشباب المتجدّد، وذلك قبل أن تركن إلى

النوم وتكل كل شيء إلى الخادمات حتى تربية أبنائها، مما جعلها عرضة للإصابة بأمراض العصر، كالبدانة والترهّل والأمراض النفسية الناتجة عن الفراغ الثقيل.

٧ ـ أما التجارة فقد اقتصرت على السوق المحلية بالإضافة إلى البلدان المجاورة وذلك لتسويق المنتجات الزراعية والحيوانية، ومع بساطة حجمها نسبياً إلا أنها كانت كافية لخدمة هذا المجتمع في كثير من الأحيان، وتحتاج إلى الدعم في أحيان أخرى لكن العامل المهم فيها يتجسّد في الصدق والأمانة والقناعة في الربح البسيط المعقول في أغلب الأحيان إلا ما ندر.

٨ ـ يعجّ هذا المجتمع بمختلف أنواع المهن الفنية وغير الفنية لا كما يعتقد البعض، وإن كانت هذه المهن مقتصرة على صنع الضروريات وبعض الكماليات نظراً لما يعترضها من مفاهيم خاطئة غذّاها ونّماها مَن لا يريدون للعرب تقدّماً ولا بروزاً في هذا المجال، تحت ظل الجهل عن أبعاد وتأثير هذه المفاهيم، وقد صنعوا في هذه البقعة ما يقوم بأودهم وجعلهم يكتفون ذاتياً داخل مجتمعهم وهذه خطوة طيّبة لا يستهان بها، وقد أدّى أصحاب هذه المهن خدمة جليّ لمجتمعهم وبرز كثير منهم كلّ في مجال اختصاصه، وأُثروا من حصيلة عملهم وشغلوا مراكز مرموقة في بيئتهم لا تقلّ عما يحتلّه غيرهم.

٩ ـ قام أفراد هذا المجتمع بمهمة وزارة الدفاع بالدفاع عن وطنهم والذود عن حياضه، والمحافظة على كامل رقعته بما يؤدّونه للسلطة الحاكمة من دعم بشري ومادي لا حدود له بالكمية والوقت اللازمين وبذلوا الغالي والرخيص في سبيل خدمة السلطة الحاكمة، كما قاموا بمهمة وزارة التموين في إمداد الجيوش بالمواد الغذائية وجميع مستلزمات المحاربين.

١٠ ـ تجسّد رسوخ الدين الإسلامي فيهم بما يؤدّونه من صلوات جماعية في وقتها وما يقومون به من شعائر دينية، يدفعهم إيمانهم القوي بالله الواحد

الأحد، وتحدوهم الرغبة الصادقة في الفوز برضاء خالقهم العظيم، يساعدهم نقاء النيّة، وصفاء الطويّة، لا يخشون من الله لومة لائم، لا يخافون من أحد أن يعاتبهم على ما فعلوا، أو يراقبهم على ما تركوا سوى الله القوي العزيز. ومن هذا المنطلق فإن هذا الجانب لا شائبة فيه.

١١ ـ تتمثّل أصالة العربي المسلم في هذا المجتمع بالكرم والشجاعة والمروءة والشهامة والنخوة والوفاء وحق الجار والبساطة وتمتزج هذه الخصال وتنصهر في بوتقة واحدة لتكون الجانب القوي في بنيان هذا المجتمع المتكامل في كثير من الخلال.

١٢ ـ برغم ما يعانيه المجتمع من كابوس الجهل إلا أنه لم يقف مكتوف اليدين عملاً بالمثل القائل «شمعة بسيطة خير من الجلوس في الظلام» ومن هنا فقد ساهم في إيجاد مدارس الكتاتيب، وحلقات الذكر لإنارة عقول الناس وإيجاد نواة للنهضة التعلّمية الحديثة التي تعمّ البلاد حالياً، لذا نجد أن بعض مَن هم في قمم المناصب الآن قد درسوا في مدارس الكتاتيب المشار إليها.

١٣ ـ وقد طرقوا باب الأدب لكنهم لم يدخلوا سوى من «خوخة» الباب خاصة في اللغة العربية الفصحى، لما يعتّم ذلك من ظلال كابوس الجهل البغيض، أما اللهجة الشعبية فلهم فيها شوط جيد في مجال الشعر والقصة الشفهية.

١٤ ـ أما الفنون الشعبية فلهم فيها خطوة ممتازة خاصة في اللهجة الشعبية وذلك من خلال ممارسة أفراد هذا المجتمع لمختلف أنواع الغناء، كالعرضة النجدية، والسامري، والربابة، وغير ذلك مما هو مفصّل في موقعه، والذي يحتاج إلى بعض التطوير المبني على الأصالة، حتى يصبح من التراث الشعبي الذي يجب أن نحافظ عليه، ونفتخر به كنوع من

تراث الآباء والأجداد الذين تركوا بصماتهم لنا ضمن الكلمة والصوت والأداء في فنونهم الشعبية.

١٥ ـ أما الحياة الاجتماعية فهي حلقات متشابكة متماسكة قوامها التعاون والألفة والمحبة، وتتمثّل في العادات والتقاليد، ومناسبات الأعياد والأفراح وحلقات السمر وهي ولا شك تلفّ أفراد المجتمع بغلالة رقيقة شفّافة متينة يرتبط الناس بداخلها بهذه الخيوط الرفيعة.

١٦ ـ ولا يخلو جو هذا المجتمع من رائحة ونكهة وطعم المأكولات الشعبية وهي من المنتجات المحلية، وتعمل حسبما تتطلّبه الحاجة ووفقاً للذوق المحلي، وتشمل حوالي عشرين وجبة من مختلف أصناف المواد الغذائية وهي وجبات شهيّة ومحبّبة، ولها شعبية كبيرة بين السكان لا يزال بعضها محبوباً ورائجاً حتى الوقت الحاضر.

١٧ ـ كما أن للمشروبات الشعبية وعلى رأسها القهوة العربية التي تغنّى بها الشعراء ودوى صيتها في مختلف الأرجاء، وتسابق الناس في تقديمها لضيوفهم واعتبروها بوّابة الكرم العربي، حيث تقدّم للضيف بعد كلمات الترحيب مباشرة وقبل القِرَى.

١٨ ـ ولقد مارس السكان هواية الصيد، وهي الهواية العربية العريقة على مختلف أشكاله ومستوياته كنوع من الهواية، وفي نفس الوقت استفادت منه فئة كمادة غذائية، وقد استخدموا مختلف الأسلحة المحلية البدائية التقليدية، والمتطوّرة النارية مع الاستعانة بالصقور المدربة على مختلف مستوياتها مع كلاب الصيد على اختلاف أنواعها.

١٩ ـ وفي وسط هذا الجو المفعم بالنشاط فقد مارس السكان ما يزيد على خمسة وعشرين نوعاً من أنواع الرياضة البدنية بخلاف ما يعتقد البعض أن هذا المجتمع خامل لا حراك فيه، وما علم من يعتقد ذلك أن معظم الألعاب التي نشاهدها الآن قد طُوّرت مما هو موجود أصلاً في مجتمعنا، فهناك

الألعاب التي يمارسها الذكور والإناث، وقد تحتاج إلى تطوير في الوقت الحاضر لتأخذ دورها ضمن الألعاب العالمية محتفظة بالطابع العـربي الأصيل.

٢٠ ــ ولا تفوتني الإشارة إلى الناحية الصحّية ومدى العناية بالنظافة، ومكافحة الأمراض السائدة والوافدة، والتداوي بمختلف الوسائـل كالأعشـاب والمركّبات الكيمائية وغيرها مع أخذ الاحتياطات اللازمة لمنع انتشار الأمراض المعدية من شخص لآخر.

٢١ ــ كما قد صنعـوا بأنفسهم الأدوات المنـزلية الـلازمـة لهم والتي تفي باحتياجاتهم حسبما تمليه عليهم العادات والأعراف وما تفرضه عليهم ظروف البيئة المحلية من متطلّبات.

٢٢ ــ كما اختاروا لأنفسهم الملابس الملائمة للرجال والنساء، وتفنّنوا في صنع تلك الملابس من تصميم وخياطة وتطريز ونقوش وما إلى ذلك مما يتعلّق بهذه الناحية.

٢٣ ــ كما تفنّنوا بصنع الحلي والمصاغ للمرأة بالذات، حيث تمكّنت المرأة من اقتنـاء الحلي الثمينـة والجميلة جداً، كـما نال الـرجال نصيبـاً طيّبـاً مما يتيتحلّ به كالسيوف والخناجر وغيرها.

٢٤ ــ ولم يغفلوا الأسلحـة التي يدافعـون بها عن أنفسهم أو يقهـرون بها عدوّهم، سواء القديم منها أو الحديث وكانت تمثّل لديهم مركزاً مرموقاً وتحتل الأسلحة في نفوسهم مكانة عظيمة.

٢٥ ــ كما أن لديهم أشياء ثانوية في حدّ ذاتها لكنها ذات قيمة لا يستهان بها، حيث يشغل كل منها نطاقه المميّز، كالوسم الذي يميّز ممتلكات الناس من بهيمة الأنعام، والحمى الذي يمثّل نموذج المراعي الجيّـدة، والأسماء السائدة التي تضفي طابعاً مميّزاً لسكان هذه المنطقة، وغير ذلك من الأشياء الأخرى.

٢٦ ــ وعلى اعتبار أن البقعة المشار إليها تغطّي مساحة كبيرة، فلا بد من وجود اختلاف بسيط في بعض المسمّيات التفصيلية لبعض الأشياء غير أن هذا الاختلاف بسيط جداً لا يتعدّى ٢ ٪، بحيث تبقى الغالبية العظمى من هذا المسميات بمفهوم واحد تقريباً كما أن الخطوط العريضة لنمط الحياة موحّدة بصفة عامة.

٢٧ ــ وبما أن اللهجة السائدة هي اللهجة الشعبية، فإن الشعر ينضوي بالطبع تحت هذا الاعتبار، ولهذا السبب اضطررت إلى الاستشهاد بالشعر الشعبي لهذه الفترة، وذلك لعدم تعرّض الشعر العربي الفصيح لكافة شؤون الحياة بشهادة من هم أطول مني باعاً في هذا المجال، لكنني جعلت لكل بيت أوردته في هذا الكتاب من الشعر الشعبي شرحاً لمعاني الكلمات الصعبة الواردة فيه وشرحاً إجمالياً لمعنى البيت، وهذا الشرح موجود في آخر الكتاب ليسهّل على مَن لم يفهم معنى البيت باللهجة النجدية أن يعرفه باللغة العربية الفصحى، ويعلم الله لو وجدت بالشعر العربي الفصيح ما يفي بالغرض ما نحيت هذا المنحى. كما أن الشعر يعتبر المرجع الوحيد الذي أحتفظ بوصف بعض الحوادث والمعالم وأبقي عليها خاصة في الفترة الزمنية التي نحن بصددها.

٢٨ ــ قد يجد القارىء أثناء قراءته بعض الإسهاب في بعض الفصول وأحياناً تكرار بعض الجمل في فصل آخر لكن ذلك ضرورة لا بدّ منها لإعطاء كل فصل حقّه، كما قد يصدم القارىء من رؤية الصورة التي تتّسم بالجدّية، والقوة، والصراحة، التي تغلّف ذلك المجتمع، وهذه بطبيعة الحال تمليها الظروف المعيشية السائدة آنذاك، لكن هذه الصدمة سرعان ما تمتصّها الصورة الصادقة البسيطة المعبّرة التي تنبىء عن طهارة القلوب ولين المعشر، وصدق الكلمة، وصفاء النيّة وكرم الضيافة والارتباط الوثيق الصادق الذي لا مراء فيه بالخالق العظيم، مع حب الإيثار على النفس، والشجاعة والمروءة والبساطة في كل شيء.

٢٩ ـ قد يوافقني جلّ القرّاء إن لم يكونوا كلهم في أن خير من يكتب عن موضوع معينّ هو ابن البيئة التي يُكتب عنها، وذلك لقوة التصاقه بهذه البيئة ومعرفته ببعض الدقائق التي تخفى على غيره، وليعزف بنفسه النغمة التي قد تلامس شغاف قلوب سامعيه، وتجتذب انتباه الآخرين نحوه، وقد وضعت شمعة بسيطة على مدخل هذا الباب الذي آمل أن ينبري للولوج فيه نخبة من الباحثين المدقّقين الذين يظهرون تراث أمّتنا القيّم على الوجه المطلوب، في تلك الفترة التي أغمضت عليها عين النسيان، وليبرزوا هذا التراث بأسلوب يلائم حياة العصر مع الاحتفاظ بطابع الأصالة وعمق الجذور.

٣٠ ـ حيث تفتخر معظم الشعوب بتراثها الحضاري بكافة أشكاله ومختلف ضروبه، وتبرزه بشكل واضح جلّي تحترمه وتحافظ عليه وفي نفس الوقت تستمر ببناء صرحها الحاضر مقتبسة من ماضيها محاسنه، سالكة أسلم الطرق المؤدّية إلى حياة أفضل غير مفرطة بتراثها، ونحن كعرب مسلمين يجب أن نكون في مقدّمة هذه الشعوب ونولي تراثنا كل عناية واهتمام.

٣١ ـ أما حبي لهذه البقعة فكان من الدوافع التي شجّعتني على طرق هذا الباب، حيث نظّمت ذلك شعراً قبل عدة أعوام بقصيدة حاولت فيها ترجمة المشاعر التي أكنهّا لها، والقصيدة مطلعها هذا المقطع:

نجد التي من صميم القلب أهواها
قلب الجزيرة نبض في خلاياها
قد غازل البعض شيئاً من شمائلها
كابن الملوح غنىّ في مزاياها
عليلها حين يسرى من حبيبته
بما ينافحه من نشر رياها

وقـد نسي ذكـر أشيــاء شُغفت بهـا
حتى سرت في دمائي في خباياها
(المؤلّف)

وبقية الأشياء المشار إليها بالقصيدة.

٣٢ ـ لقد عاش العرب في هذا الجزء بكل حيوية ونشاط ونعموا برغد من العيش أوقاتاً كثيرة، وقاسوا من الحاجة والعوز لسعات مؤلمة، لكنهم رغم ذلك صمدوا وثبتوا وحافظوا على دينهم ومُثلهم العليا، وعاداتهم وتقاليدهم، يقتاتون الطوى، وتخنقهم الحاجة في كل شيء ولا يفرط الفرد منهم ذكراً كان أم أنثى بذرة واحدة مما يحسّ في أمور دينه أو وطنه أو مثله العليا، والقرائن في هذا المجال كثيرة تزخر بها قصصهم الواقعية التي تنمّ عن مواقف مشرّفة وقفها أناس شديدو المراس.

٣٣ ـ ولا أدّعي أنني غطّيت كافة الجوانب المشرقة، أو خلافها، لكني ساهمت بقدر استطاعتي، ولا يلام مَن أدّى ما استطاع، وعسى أن يبرز مَن هو أقدر مني على الإتيان بتفاصيل أدقّ، وصورة مشرقة أكثر وضوحاً، ليبرز جزءاً مغموراً من صور مجتمعنا، في فترة زمنية مهمة لإظهارها جليّة إلى حيّـز الوجود، ويسرني أن أتلقى التصويبات من ذوي المعرفة لتلافيها في الطبعة القادمة، وأرحّب بالنقد البناء كما لا يفوتني شكر من ساعدني ببعض الصور وبعض المعلومات التفصيلية، وسوف أجمع ما يصلح منها للطبعة القادمة. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الرياض: ١٠/ ١٠/ ١٤٠٠هـ
٢١/ ٨/ ١٩٨٠م

(المؤلّف)
عبد الرحمن بن زيد السُّويداء

الفصل الأول

العوامل المؤثّرة

□ البيئة الجغرافية:

لا بدّ من إدراك المرء لما هي عليه الجزيرة العربية من وضع جغرافي متميّز، وعلى الأخص قلب هذه الجزيرة، المسمّاة هضبة نجد وما جاورها، إذ أن المناخ السائد فيها هو المناخ الصحراوي، بما له من إيجابيات وسلبيات تتحكّم في النشاط السكاني داخل هذه المنطقة، ولو أن المناخ بصفة عامة في الفترة التي سيجري البحث فيها ألطف بكثير مما هو عليه الآن، حيث يتوالى هطول الأمطار لسنوات متتالية، وإذا حدث أن أصاب الأرض جدباً فإن ذلك لا يطول لأكثر من سنة أو سنتين إلا ما ندر، خلافاً للوقت الحاضر الذي تتوالى سنوات الجدب فيه بالأربع والخمس سنوات، وعليه، فإن المناخ الصحراوي المشار إليه يتحكّم في النشاط السكاني ويصبغ حياة الناس بطابع مميّز له من الإيجابيات ما يفوق سلبياته، كالصبر وشدة التحمّل، والكرم، والشجاعة، والوفاء، والمروءة، والإيثار على النفس، والبساطة في كل شيء، والتعاون. إلى جانب سلبياته المتمثّلة في الحاجة، والشح في الرزق، التي تضطرّ بعض ضعاف النفوس أحياناً إلى السلب والنهب، وهنا يدور قطب المشاكل التي يعاني منها المجتمع، والتي يتعذّر على السلطة أحياناً السيطرة عليها، بل إننا نجد السلطة المشرفة نفسها والمتمثّلة في شيخ القبيلة أو أمير المقاطعة تحت طائلة العوز والحاجة تلجأ إلى فرض أتاوة على من تحت يدها بالإضافة إلى الزكاة التي يفرضها الدين الإسلامي، وذلك لتأمين احتياجاتها الضرورية، لهذا ترى أن هطول الأمطار

وستر الله يجنّبان المنطقة شرور الكوارث الطارئة، مثل موجة البرد القارس، أو عـواصف رعديـة ممطرة، أو عـواصف رملية حـارقة، أو مـوجة الجـراد الصحراوي، هي المرتكز الرئيسي الذي تقوم عليه هذه البيئة، ويرتفع مقياس حيوية السكان ونشاطهم، إلى أعلى درجة، أو ينزل إلى ما تحت الصفر.

كما أن لموقعها الجغرافي البعيد نوعاً ما عن البحار، ما جعل سبل الرزق فيها متوقّفاً على الزراعة والرعى، والمهن المساندة لها بدرجة رئيسية، كما حرمها من كثير من الإيجابيات كتلطيف درجة الحرارة في فصل الصيف، وإمدادها بالسلع التموينية، لكن هذه البيئة تمتاز بتربة خصبة جداً من الناحية الرعوية، إذ تنبت أصنافاً متعدّدة وممتازة من الأعشاب، إذا ما أنزل الله عليها الأمطار ولبست الأرض سندسها وأزينت، فإنها تنسي أهلها كل ما صـادفهم من مصاعب ومتاعب، وقد عبّر أحد أبنائها عن هذه الحالة أصدق تعبير بالبيتين التاليين:

١ ـ نجـد يعـزى عن غثـاها عـذاهـا
لو هي مقر ابليس في بعض الأذكـار[1]

٢ ـ نـركض ومن صـاد الجـرادة شـواهـا
وللنـار من عقب مـن المـال دينـار

(مهدي الهبداني/ رشيد العلي)

وبيئة كهذه تتّصف بهذه الصفات لا يعبر إليها إلا أهلها، لذا نجدها لهذه الأسباب وغيرها خالية من العناصر الأجنبية إلا ما ندر، وذلك لعدم وجود المغريات وعلى العكس نجدها تصدّر المجموعات البشرية إلى الأراضي المجاورة لها في العراق والشام التي تجلب الغرباء إليها، ولبعدها نوعاً ما عن البحار التي قد يتسرّب منها بعض العناصر المتطفّلة. وإذا أمعنّا النظر فإننا نجدها منطقة قارية مصغّرة وعلينا أن ندرك هذه الصفة جيداً عند تعمّقنا في هذه البيئة.

---

(١) أبطال من الصحراء ص ٢١٨.

□ البيئة الاجتماعية:

بإلقاء نظرة سريعة على تركيب البنيان الاجتماعي نجد أن المجتمع في تلك الفترة يتكوّن في غالبيته من المجتمع الرعوي والزراعي، حيث تشكّل القبيلة أو القرية العمود الفقري لهذا المجتمع. ويوجد هناك تماسك قوي العراء في كل من هاتين الوحدتين من البنيان الاجتماعي، فالفرد في القبيلة يمثّلها في الواجهة من خير وشر، وربما حُمِّل فرد من أفراد هذه القبيلة وزر ما ارتكب أحد أبنائها الذين لا تربطهم بهذا الفرد أي صلة أو معرفة، اللهم إلا أنه من هذه القبيلة. وتنطبق هذه الحالة على الأسرة، وربما أحياناً على المدينة أو القرية، غير أن المدينة أو القرية تختلف بعض الشيء، حيث أن سكانها ينتمون إلى مجموعة من القبائل يربطهم تواجدهم بهذا المكان ومصلحتهم المشتركة، وبذلك يكونون أقل شمولية للفرد من وحدة القبيلة فيما يلحق الفرد من تبعات من جرّاء فرد آخر.

وإيضاحاً لما سبق، فإنه ربما ارتكب أحد أفراد هذه القبيلة أو الفخذ من القبيلة أو العائلة خطأ ما بحق شخص من قبيلة أخرى فإن هذا الشخص إن كان حيّاً، أو عصبته إن كان ميتاً يثأرون من الفاعل، وإن لم يتمكّنوا منه فمن أحد أقاربه بالعصبية، فإن لم يكن فأحد أفراد قبيلته أو فخذه أو عائلته بأي وقت وفي أي مكان يتمكّن فيه من الحصول على من يعتبره خصمه، وربما امتدت هذه المطاردة غير المعلنة إلى عدد من السنين.

ومن هذا المنطلق فإننا نجد بعض الأفراد إذا ارتكب جريمة قتل وأيقن أن قبيلته أو عائلته لا تستطيع حمايته من خصمه، فإنه يلوذ بالفرار ويختفي بمكان بعيد عن متناول يد غريمه ويعيش بهذا المكان الجديد متخفّياً وربما غيّر اسمه الحقيقي وجحد اسم عائلته، أو تلقّب بلقب يختاره لنفسه، ولولا خوفه من من معرفة لهجة قبيلته لأخفى اسمها، كل هذه الإجراءات تتمّ من قِبَلِه بكل سهولة ويسر إذا أدركنا أنه لا يحمل هوية أو أية وثائق ثبوتية تدل على اسمه الحقيقي،

فيمكث في هذا المكان إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً بصلح أو غيره، وربما طاب له المقام في المكان الجديد ولا سيما إذا طالت المدة عليه، أما كيف يعيش في هذا المكان فإنه في الغالب يفضّل عدم الظهور ويقتنع باليسير من الأمور، سواء في أسلوب معيشته، أو المهنة التي يزاولها، أو الزوجة التي يقترن بها، وربما أدركته المنيّة فجأة دون أن يُطلع أبناءه على أساس منشئه أو قبيلته ومن أين أتى على اعتبار أنهم صغاراً لا يحتفظون بالأسرار، وبعد أن يقضي ينشأ أبناؤه لا يعرفون عن أصلهم إلا أنهم أبناء فلان، ولذلك نجد بعض الأسر تخضع لهذا الاعتبار، وربما تمرّ سنين قبل أن يتّضح نسَب هذه الأسرة بعد التحرّيات الدقيقة من ذوي المعرفة.

وباعتبار أن النشاط الاجتماعي ينحصر بالزراعة والرعى والتجارة والأعمال المساندة لها، وعلى اعتبار أن الزراعة والتجارة يقوم بها الحضر المقيمون في المدن والقرى على مواقع المياه الجوفية، بينما يقوم بعملية الرعى البدو الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى آخر تبعاً لوجود الكلأ الذي تعيش منه مواشيهم ولكل هذين الشقّين عاداته وتقاليده وأعرافه، التي تتكوّن في مجموعها من العادات والتقاليد والأعراف العريقة الضاربة في القدم التي جاء إليها الإسلام وهذّبها وأضاف إليها تشريعاته السمحة الهادفة، نجد تأثير عادات فئة على أخرى واضحة المعالم في كثير من الأحيان، فعادات وتقاليد البادية قد ألقت بظلّها على عادات وتقاليد الحضر وبالعكس، ويتكوّن هذا المجتمع من طبقة واحدة تقريباً هي الطبقة الكادحة والعاملة في الزراعة والمهن والرعى، يشذّ عنها نسبة بسيطة هي طبقة الحكّام والتجّار التي تعيش قريباً من مستوى سابقتها.

وحينما نعود إلى السلطة المشرفة سواء أكانت في القرية أو القبيلة أو إمارة المنطقة نجدها تطبّق التشريعات الإسلامية وأحياناً تستعين في الصالح من العادات والتقاليد والأعراف إذا كان فيه حل للأشكال بدون ضرر لأحد ولا يتعارض مع مبادىء الإسلام، على أن السلطة نجدها في أبسط صورها بدون كتابات أو تدوين للقضايا إلا ما كان منها مهمًا، كأن يتعلّق بملكية أو صلح

في منازعات كبيرة أو ديّات ومـا في مستواهـا، لكن تلك الكلمة أو الجملة الشفهية المبلّغة للفرد أو الجماعة على مسمع من الملأ أو بصفة منفردة من القاضي أو الأمير أو شيخ القبيلة تكون نافذة المفعول مطاعة بدون قيد أو شرط أو تردّد. وبذلك نجد هذا المجتمع رغم بداءته وتكوينه الاجتماعي يعيش متماسكاً سهل القيادة أحياناً، صعب المراس أحياناً أخرى، خصوصاً إذا وجد من يستفزّه نحو هدف معينّ أو نيل من كرامته وعلينا أن نضع في اعتبارنا هذه الصورة حينما نتعمّق في هذا البحث.

□ السلطة المشرفة:

تتمثّل السلطة المشرفة في أمير المقاطعة أو شيخ القبيلة، وإذا كان من الفئة الأولى فإنه في الغالب يرتكز على السلطة المركزية التي يمثّل رأس الهرم فيها. إذ أن الأمير ومَن حوله من المستشارين المعدودين والذين اكتسبوا الخبرة بالممارسة ولديهم إحاطة بالشؤون الداخلية للإمارة وربما تعدّى ذلك إلى معرفتهم بأحوال الإمارات المجاورة وشؤون القبائل المحيطة بهذه المنطقة، ولا يوجد حكومة بمعنى الكلمة كما يدل عليه مسمّاها في الوقت الحاضر، لها وزراء ووزارات ودواوين متخصّصة، لكن الأمير هو كل شيء في إمارته يتولىّ تصريف شؤونها الداخلية والخارجية بإرسال المندوبين الذين يمثّلونه، بعد إعطائهم التعليمات اللازمة لهذا الشأن أو غيره. وأحياناً لا يعرف هذا المندوب مغزى تعليمات الأمير، وما عليه إلا أن يوصلها ويأتي بالرد عليها، وهذا المندوب يسمّى أحياناً «مرسالاً» وله ضمانة كافية على حياته وممتلكاته، ويقال في المثل السائر «المرسال لا يُقطع له رأس»، وغالباً ما يختار الأمير لكل مهمة ما يناسبها من المندوبين ولكل أمير ما يتناسب مع مقامه، ويتولىّ الأمير كما أسلفنا كافة السلطات فهو وزير الدفاع والداخلية والخارجية والزراعة والمالية وهي السلطات الرئيسية بالإضافة إلى ما هو أقل منها، ويقوم بخدمته في وقت السلم مجموعة من الجنود غير النظاميين هم خدم الأمير وهم طوع بنانه، ينفّذون تعليماته بكل دقّة، أما في وقت الحرب فإنه ينضوي تحت لوائه أعداداً كبيرة من أفراد إمارته فيما يقابل في الوقت الحاضر

قوة الاحتياط، وهؤلاء يتطوّعون لخدمة الأمير بدون مقابل إلا ما يجود به عليهم من هبات أو عطايا، وأحياناً تكون هذه الخدمة إجبارية وبدون مقابل حينما يداهم هذه الإمارة خطراً ما من الخارج أو تمرّد من الداخل، وتتكوّن واردات الإمارة من الزكاة على المنتجات الزراعية والمواشي. وما يُفرض على الأفراد من الأتاوة بين الحين والآخر من الحاصلات الزراعية، أو الحيوانات وخاصة الإبل والخيل والأغنام وذلك لتجهيز الغزو، أو الدفاع عن حدود الإمارة، أما مصروفاتها فهي تمثّل مصروفات الأمير الخاصة ومصروفات تجهيز الجيوش أو ما يُدفع للإمارات أو السلطات الأقوى المجاورة دفعاً لشرّها أو رجاء حمايتها. ويكون للإمارة هيبتها وضمانها، ويحمي الأمير من يلوذ به ويطلب حمايته بما يسمّى في الوقت الحاضر اللجوء السياسي، خاصة إذا كان اللاجىء قد أتى من قبيلة أو إمارة أخرى على أن يعيش بهذه الإمارة كأي فرد من مواطنيها، وتمتد الإمارة وتنكمش حسب قوة هذا الأمير أو ضعفه وتبعاً لقوة الإمارات أو القبائل المجاورة، وتمشّياً مع الظروف المؤاتية لهذا الأمير. وبحكم أن الإمارة تدين بالدين الإسلامي فإن الذي يتولى القضايا الشرعية هو قاضي أو مجموعة من القضاة يبتّون في المواضيع الشرعية حسب نصوص التشريعات الإسلامية دون الرجوع إلى الأمير، أما القضايا الإدارية فإن الأمير يتولىّ البتّ فيها هو أو من ينيبه، وعادة يتّخذ الأمير عاصمة إمارته مدينة متوسّطة يبني فيها قصر الإمارة ومنه يدير شؤونها.

أما شيخ القبيلة فإنه أقل شأناً من أمير المقاطعة خاصة إذا كانت قبيلته من الحجم المتوسّط عدداً، ومع أن أفراد قبيلته هم الجسم الهرمي الذي يمثّل قمّته، ويتّخذ من بيت الشعر مقرّاً للإمارة، وعادة يكون بيت الشيخ مميّزاً عن غيره من بيوت الشعر وذلك بكبر حجمه وارتفاع «رفّته» ووجود البيوت الأخرى الملاصقة له، ويتم بجزء من هذا البيت «الرفّة» وهو القسم الخاص بالرجال التجمّع لشرب القهوة وتناول الطعام، ومناقشة المسائل التي تهم القبيلة، من غزو أو انتجاع مكان معشب أو أية قضية تتعلّق بالقبيلة أو أحد أفرادها، فهذا الجزء يعتبر بما يقابل قصر الحكومة في الإمارة، وأحياناً يكون مقرّاً للسمر والمساجلات

الشعرية. ومع أن أفراد القبيلة يمثّلون عصب الحياة لهذا الشيخ إلا أنه لا يُكرههم على أمر معينّ كغزو مكان ما، إلا بإرادتهم حسب أغلبية الآراء، ولكل فرد ماكسب من هذا الغزو وعليه تحمّل ما يلحقه من تبعات، وعادة يخوّلون أميرهم عندما يظفرون بكسب، أن يأخذ الشيخ جزءاً من هذه الغنائم والباقي يوزّعه على الأفراد، وبهذه الطريقة يضمن طاعتهم وولاءهم له. أما إذا داهم القبيلة خطر ما فإن أفراد القبيلة يدافعون عن ذمارها بكل ما أوتوا من قوة، بالمال والسلاح والأرواح، ونجد أن شيخ القبيلة له من الأحترام ما لأمير المقاطعة وله من السلطات ما لغيره كحماية المستجير وغيرها. وإذا أدركنا هذا الوضع السائد، أمكننا أن نكوّن فكرة شاملة واضحة المعالم عما نحن بصدده.

□ الناحية الاقتصادية:

يتركّز الاقتصاد في ذلك الوقت على ثلاثة عناصر رئيسية هي الزراعة والرعى والتجارة، ويستند العنصر الثالث على سابقيه، فالنتجات الزراعية، كالقمح بنوعيه، والشعير، والذرة والدخن بنوعيه، بالإضافة إلى التمور بأنواعها المتعدّدة، ركيزة أساسية يقوم الاقتصاد عليها، أما الركيزة الثانية فهي الحيوانات والمنتجات الحيوانية، وتمثّل الإبل، والأغنام، والماعز، سلعاً تجارية رائجة كثيرة التداول بين الناس، بالإضافة إلى المنتجات الحيوانيـة، كالسمن، والألبـان المجفّفة والأقط والصوف، والجلود التي تعتبر سلعاً تحتل مكانها وتمثّل قطاعاً مساعداً. وعلى هذين القطاعين تقوم التجارة، بنقل هذه السلع وتسويقها من مكان لآخر داخل المنطقة وخارجها في أوقات مختلفة من العام، حيث يحتفظون بالمنتجات الزراعية المتوفّرة في بداية فصل الصيف كالحبوب ليتمّ بيعها في وقت الشتاء عندما تكون الحاجة إليها ملحّة، ويخزّنون المنتجات الحيوانية في فصل الربيع ليبيعوها في فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء، ويكنزون التمور في فصل الخريف ليسوقوها في فصل الشتاء والربيع، إضافة إلى ذلك تقوم التجارة باستيراد المنسوجات كالأقمشة والمفروشات والسلع الضرورية الأخرى كالأسلحة والقهوة والهيل التي تُعتبر سلعاً نافقة، كذلك الحال بالنسبة للسلع الكمالية كالمسوغات النسائية والعطور وغيرها.

أما دخل الفرد فليس هناك مقياس يمكن أن يستدلّ به عليه، حيث لا يوجد كما هو في الوقت الحاضر ميزانية لإحصاء الواردات والمصروفات لكل سلطة، وإنما الأفراد بمجموعهم يعملون بهذه الحقول الثلاثة والحقول المساعدة لها، ويعيشون عيشة قد رضوا بمستواها، وهي ترتفع وتنخفض تبعاً للعوامل المؤثّرة فيها، فتجدها ترتفع في سنين الأمطار والخيّرات، بحيث يصل مستوى المعيشة إلى مستوى طيّب تتوفّر فيه جميع أصناف الأرزاق، ويعيش الناس في رغد من العيش، ثم تجدها تنخفض في سنوات الجدب إلى مستوى الحضيض، بحيث يأكل الناس جلود الحيوانات اليابسة، والنوى، وجذوع النخل، ويعيشون على الأعشاب وغيرها بما يسدّ الرمق بصرف النظر عن قيمته الغذائية. ولا يوجد للفرد دخل شهري معينّ من الإمارة أو من الأفراد، إذ أن العاملين لدى الإمارة يحصلون على هبات مقطوعة في أوقات غير منتظمة، حسب المناسبات، وإذا حصل وقرّر لهؤلاء الأفراد مرتّب معينّ، فإنه يأتي إليهم بعد ستة أشهر وربما سنة، وأحياناً يسلّم إليهم نقداً وفي أحيان أخرى يعطون مقابله سلعاً مما يتوفّر لدى السلطة.

أما العاملون لدى الأفراد فغالباً ما تكون أجرتهم سنوية أو موسمية كفصل الشتا أو الصيف مثلاً، وفصل الشتاء يتكوّن من فصلي الشتاء والربيع، والصيف يتكوّن من فصلي الصيف والخريف، ولا يتعدّى الأجر مبلغاً زهيداً لكن الفرد يقبل به، بالإضافة إلى ما يتناوله لدى رب العمل من الطعام والشراب، ومجمل القول أن دخل الفرد الذي هو أساس مقياس مستوى المعيشة من الناحية الاقتصادية متدنّ جداً إذا ما قسناه بمقياس الزمن الحاضر. ومن هذه الصورة لما هو عليه الوضع الاقتصادي آنذاك، يتبينّ لنا بقيّة تفاصيلها عندما ندخل في صميم الموضوع.

□ الناحية الثقافية:

الناحية الثقافية هي الدعامة الأساسية لأي مجتمع وعليها يتم بنيان بقية أعمدته الصلبة والجميلة في آن واحد، وإذا عدنا إلى الوراء وألقينا نظرة عامة

على الناحية الثقافية منذ بزوغ فجر الإسلام مروراً بعهد الخلفاء الراشدين والعصرين الأموي والعباسي، نجد أن شبه الجزيرة العربية بصفة عامة ومنطقة نجد بصفة خاصة التي نحن بصددها لم تظفر من العلم إلا بتعلّم القرآن الكريم فقط وعلومه أحياناً وذلك لبعدها عن مراكز الخلافة في المدينة المنوّرة ودمشق وبغداد، ومما زاد الطين بلّة عندما جاء العهد التركي الذي استمرّ أربعة قرون رزحت البلاد العربية تحته فترة مظلمة من تاريخها، هذا ما يختصّ بمراكز الإشعاع أما المكان المهجور أساساً فلا تسأل عن حاله!! لذلك اقتصرت الناحية الثقافية على تعليم القرآن الكريم وعلوم التوحيد والفقه والحديث وما يتعلّق بالعلوم الشرعية وتعليم القراءة والكتابة، ولما كانت اللغة العربية الفصحى قد دبّ فيها التلاشي، فقد دخلت مادة اللغة العربية من قواعد وعروض وغيرها، إلى جانب العلوم الدينية وأصبحت تدرّس في حلقات الذكر وعلى المشائخ بالإضافة إلى العلوم الشرعية، أما تعليم القرآن الكريم والكتابة فيقوم بهذه المهمة الكتاتيب الذين ينتشرون بالمدن والقرى ويقومون بالتدريس طواعية من أنفسهم دون مرتّبات تذكر، إلا ما يجود به عليهم أولياء أمور الطلبة من هبات تتمثّل في شيء من المحاصيل الزراعية أو الحيوانية، ورغم هذه الظروف القاسية إلا أنه نبغ كثير من الفقهاء، والعلماء، والمؤرّخين والشعراء المتضلّعين بعلومهم، والذين بزوا أقرانهم في وقتهم، وأبقوا لنا الآثار التي تعكس الوضع الذي كانوا عليه، أما الشعر فإن اللهجة العاميّة قد طغت عليه، بحيث أصبح جزء كبير منه باللهجة العاميّة، ومع ذلك فإن قوّته ورصانته وقوة تصويره للأشياء وخلجات النفوس، بما يمس شغاف القلوب من تأثيره على الفرد والجماهير، ظلّ كما كان عليه في العهد الأموي وربما العهد الجاهلي، حيث أصبح في استطاعة الشاعر أن يقيم الدنيا بقصيدة ويقعدها بأخرى، وهو بمثابة وزارة الإعلام في الوقت الحاضر. أما ما يدخل تحت مسمّى الناحية الثقافية من تراث آخر كالفنون الشعبية وبعض العادات والتقاليد والألعاب فقد بقيت جيّدة محتفظة برونقها الأخّاذ، وأصالتها العريقة رغم البساطة التي كانت عليها.

ويتبينّ لنا من ذلك ما هي عليه هذه البقعة من الناحية الثقافية، حتى نكون على علم بهذه الصورة عند دخولنا في تفاصيلها.

□ المـــواصلات:

تُعتبر المواصلات الشرايين التي تدبّ من خلالها الحياة في كافة أنحاء الكائن الحي، ويتوقّف عليها مدى نشاطه أو خموله، في العصر الحديث وفي العصور السابقة، ولما كانت المواصلات بهذه الدرجة من الأهمية فإننا سوف نلقي نظرة عليها لنرى ما هي عليه في تلك البقعة، حيث نجدها تقتصر على الوسائل البدائية القديمة، وذلك قبل انتشار وسائل المواصلات الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات، وبرق وهاتف، وأقمار صناعية... إلخ، وإذا أدركنا أن المواصلات في تلك البقعة التي نحن بصددها تنحصر في الخيل، والإبل، والحمير، فالخيل تستخدم للمسافات القصيرة نسبياً بما يتراوح بين ٢٠٠ ــ ٢٥٠ كيلاً إذا أريد إيصال خبر مهم بأقصى سرعة ممكنة، وهي، أي الخيل، غير صالحة لحمل الأثقال. أما الإبل فهي تستخدم للمسافات الطويلة سواء لإبلاغ الأخبار والتعليمات وما في حكمها، أو لحمل الأثقال وهي بلا شك عصب المواصلات آنذاك، أما الحمير فإن خدمتها تقتصر على المسافات القصيرة والأحمال البسيطة، وهي بمثابة السيارات الصغيرة في الوقت الحاضر، يقضي عليها الفرد لوازمه اليومية.

وإذا كانت المواصلات في ذلك الوقت ترتكز على الإبل في معظم الأحيان وذلك لنقل البضائع والسلع سواء ما كان منها منتجاً محلياً أو ما كان مجلوباً من البلاد المجاورة أو مستورداً من الموانىء البحرية في الشرق والغرب للجزيرة العربية، وإذا علمنا أن الإبل في حالة كونها تنقل أحمالاً لا تقطع مسافات طويلة بالنسبة للزمن الذي تستغرقه فإنه يترتّب على هذا الاعتبار مجموعة من النتائج التي تتلخّص في تأخير الإمدادات التموينية في بعض الأحيان، وعدم نقل السلع الطازجة لمسافات طويلة، والشعور ببعد المسافة بين نقطة وأخرى، بالإضافة إلى احتياج الإبل لأحمال ثقيلة تستحقّ تكليفها بقطع المسافات الطويلة، مع ما يعترض الحملات أحياناً من أخطار قطّاع الطرق وطمع الأعداء، وفي هذا الحالة فإن القافلة تحتاج إلى حماية مسلّحة من نقطة انطلاقها إلى مكان وصولها، من هذا يتبينّ لنا أن المواصلات لها أثر كبير على حياة الناس وطرق معيشتهم

ونوعية السلع التي يستعملونها، سواء أكانت ضرورية أو كمالية، كما أن لها أثراً كبيراً في رفاهية السكان وعوزهم ولا سيما إذا كانت الأرض مجدبة والإبل هزيلة، فإن ذلك يسبّب نكسة كبيرة في مستوى معيشة السكان، قد تمتد إلى فترة سنتين أو أكثر دون أن تستعيد الحياة العادية نشاطها، كما أن هذه النقطة تؤثّر تأثيراً مباشراً في أداء فريضة الحج إذا كانت الإبل هزيلة لا تستطيع إيصال الحاج إلى مكة وإعادته إلى أهله، وأحياناً تكون الإبل وغيرها سبباً لاستهلاك المواد التموينية المخصّصة للإنسان فتأكلها وتموت في نهاية الأمر، وبذلك تكون الخسارة مزدوجة، مثال ذلك العربي الذي له نخل في بلدة خيبر فأخذ مؤونة بيته من التمر وذلك لإعاشة بعيره حتى يوصله إلى خيبر لجلب التمر من هناك، وعندما وصل خيبر كان قد استنفد ما لديه وفي طريق العودة استهلك الجمل التمر الذي جلبه الرجل ثم فارق الحياة، وعندها قال الرجل: «خيبر من وراء تمراته» فذهبت مثلاً.

لكنها، أي الإبل، في أحايين كثيرة تجلب على ظهورها الرخاء والرفاهية للسكان حسب المستوى السائد في ذلك الوقت، من هذه النقطة يجدر بنا ألّا نفاجأ بشيء مما يتعلّق بهذه الناحية عند دخولنا في صميم تلك البيئة.

□ الاعتبارات السائدة:

هناك مجموعة من الاعتبارات المختلفة التي تغلّف المجتمع وتلفّه بثوب شفّاف لا يراه إلا مَن عاش بداخله، ومعظمها نابع من الظروف المحيطة بها وينعكس ظلّها على أفراد أو جماعة من الناس، وفي اعتقادي أن للجهل الضارب أطنابه في هذا المجتمع كبير الأثر في تكوين هذه الاعتبارات، ثم تغذيتها وبالتالي إبرازها وكأنها حقيقة لا غبار عليها؛ منها التنافس والتفاضل بين القبائل العربية والبطون المتفرّعة عنها بعضها على بعض دونما مبرّر يذكر، والتفاضل بين فئة وأخرى مما كان له أثر كبير في بعض الأحيان في إثارة الحزازات والمشاكل، ومنها كذلك اعتبار الفئات العاملة في المهن فئة من الدرجة الثانية حتى ولو كان هذا

الفرد أو الفئة من نفس القبيلة أو البطن متى امتهن هذه المهنة أصبح خارج محسوبية هذه الفئة، وهذا ولا شك سبب في تأخير ازدهار الصناعة المحلية التقليدية وتطويرها والتفنّن بها، واكتفت الفئة العاملة بالمهن بما يقضي شؤونهم الحياتية اليومية، كذلك اعتبار العناصر القادمة من خارج المنطقة عناصر من الدرجة الثانية أيضاً وربما الثالثة مهما كان مركزها في منطقتها الأولى أو مكانتها عند قبائلها التي انفصلت منها لسبب أو آخر من أسباب الحياة إلا إذا استطاع هذا الفرد أو الجماعة إقناع مجتمعه الجديد بأهميته وصحة أرومته في موطنه الأول، وأنىّ له ذلك إذا علمنا صعوبة المواصلات وبعد المسافات، متى انطبعت في أذهان المجموعة صورة معيّنة عن فرد أو جماعة فإنه من الصعوبة إزالتها إلا على المدى الطويل وفي طرق مقنعة.

فهذه الأسباب وما في مستواها أوجدت خلخلة في البنيان الاجتمعي نتجت عنها شروخ بسيطة عازلة أثّرت في التماسك البنياني مع أنه في غنى عنها، ومع أن الإسلام حذّر منها وجعل الناس سواسية كأسنان المشط «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» صدق الله العظيم[1]. لكن رغم هذا سادت هذه الاعتبارات، وعلينا إدراك مدلولها وظلّها أثناء دراستنا للموضوع.

□ □ □

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

الفصل الثاني:

البرنامج اليومي

من هذا البرنامج اليومي المعينّ على مدار السنة منذ مئات السنين يتّضح لنا مدى النشاط والحيوية والانضباط التي يتمتّع بها هذا المجتمع على بساطته وخلوه من التعقيدات وإنما تعوّد على هذا البرنامج وأصبح جزءاً من حياته اليومية، بل من لحمه ودمه وذلك تنفيذاً لتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، ووفاء بمتطلّبات الحياة. ويتكوّن البرنامج اليومي مما يلي:

١ ـ يصحو الناس جميعاً رجالاً ونساء عند طلوع الفجر والأذان التالي، لأن المؤذّن يقوم بأذانين الأول يتم قبل التالي بحوالي ساعة من الزمان ويسمّى آذان «النباه» ومع أن الساعات لم تكن منتشرة في ذلك الوقت إلا أنه يتم تحديد الوقت بواسطة الظواهر الطبيعية كطلوع النجوم وبزوغ الفجر وطلوع الشمس وغروبها.

وعند آذان الفجر يؤدّي الناس صلاة الفجر جماعة بالمساجد بالنسبة للرجال، أما النساء ففي البيوت وهذا الوضع يستمرّ في كافة فصول السنة عدا بعض الفئات مثل المسافرين، وسائقي السواني، والذاهبين للفلاة «الفلالي» فإنهم يبكّرون قبل الأذان الأول بساعة زمنية أو أكثر.

٢ ـ يتم بعد صلاة الفجر تناول القهوة العربية وشيء معها مما يطلق الريق كالتمر، والمقشوش، والأقط وغيره كلّ حسب مستواه المعيشي، غير أن ألذّ

شيء مع القهوة صباحاً هو التمر الحالي الذي يكسر مرارتها اللاذعة، وربما يستعاض عن القهوة باللبن أو الحليب الطازج من ضرع أمه ساخناً، والمضاف إليه شيء من السكر بعد غليه أحياناً، أو ما تيسّر من طعام الإفطار. وربما عاد مَن لا عمل له إلى النوم مرة ثانية، كذلك الحال بالنسبة لكبار السن ينامون فترة قصيرة تسمّى «التصفيرة» حتى موعد صلاة الإشراق بعد طلوع الشمس (ركعتين).

٣ ـ مباشرة العمل مع طلوع الشمس كلّ بعمله على مختلف الفئات والتخصّصات، وتفتح الأسواق التجارية ويستمر العمل إلى أذان الظهر، وموعد أذان الظهر إذا زالت الشمس عن سمت الرأس، وهناك فئة تتناول طعام الغذاء قبيل صلاة الظهر مباشرة وبعد الغداء يتوجّهون لأداء الصلاة وهم طبقة التجّار ومَن في مستواهم أما الباقون كالعمال والفلاحين فيتناولون غداءهم بعد الصلاة مباشرة.

٤ ـ تتم فترة استراحة بعد صلاة الظهر ويستفيد منها البعض في أخذ قسط من النوم وهي نومة القيلولة المعروفة بصحة نومها كما قال الشاعر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
هواناً ونومات العصير جنون

ألا إن بين الظهر والعصر نومة
تحاكي إلى أهل العقول فنون

والبعض الآخر يتجمّعون في هذه الفترة بالقهاوي بما يسمّى «شبّة الظهر» يتجاذبون أطراف الحديث وربما تعرّضوا لحل بعض المشاكل التي قد تنشأ، ويتناول البعض، من أراد وجبة خفيفة تكون عادة من التمر أو الأقط أو الكليجا تسمّى وجبة «الهجور» مع القهوة أو اللبن أو مفردة وعادة يتناولها الذين يزاولون الأعمال.

٥ ـ عندما يحين موعد صلاة العصر حال كون ظل كل شيء مثليه، تؤدّى الصلاة جماعة بالمساجد إلا مَن هم على رأس أعمالهم في المزارع فإنهم يؤدّونها جماعات أو فرادى في أماكنهم دونما رقيب إلا الله سبحانه وتعالى.

٦ ـ يباشر الناس أعمالهم كلّ في اختصاصه بعد صلاة العصر مباشرة وتفتح الأسواق التجارية حتى غروب الشمس عندها يحين موعد إغلاق الأسواق حتى صباح الغد، وفئة من التجّار ومَن في مستواهم يتناولون طعام العشاء قبل صلاة المغرب، أما الفئات الأخرى فإنهم يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المغرب مباشرة، وربما تأخّر عنهم عمال المزارع إلى ساعة أو ساعتين من الزمان. أما في البادية فإن طعام العشاء يتأخّر إلى ما بعد صلاة العشاء.

٧ ـ ارتياد المقاهي والمجالس لتبادل الحديث، وليدلي كل واحد بما صادفه خلال يومه العملي وما سوف يقوم به في الغد وما يحتاج إليه من المعونة إن كان يفكّر في غده في عمل جماعي، وقد يكون هذا الوقت مناسباً للمفاوضات التجارية أو زيارة الأصدقاء والأقارب والأحباب.

٨ ـ وعند وجوب صلاة العشاء الأخير بعد غروب الشفق الأحمر تؤدّى الصلاة جماعة للرجال، أما النساء ففي بيوتهن ثم يخلد معظم الناس إلى الراحة والنوم، عدا فئات معيّنة من الشباب والرجال تبقى في تجمّعات وحلقات سمر لبعض الوقت يتطارحون فيها أصناف الحديث والقصائد والذكريات والقصص في مختلف مناحي الحياة، ثم بعد ذلك ينامون أيضاً وغالباً ما يتم النوم للجميع فيما يقارب الساعة العاشرة مساء حسب التوقيت الزوالي الآن.

٩ ـ هذا البرنامج ينطبق على الحضر المستوطنين وعلى البدو المقيمين على المياه وبجانب القرى، أما البدو الرحل فإنه يوجد هناك اختلاف بسيط في بعض الأعمال خاصة فيما يتعلّق بالرعاة، حيث يسرحون بأغنامهم بعد

طلوع الشمس ويعودون بها مع أذان العشاء الأخير. أما الإبل فإن رعاتها يبكّرون في الذهاب ويتأخّرون بالعودة، أما الرجال فإنهم يقضون جزءاً من وقتهم في التنقّل بين مقاهيهم في بيوت الشعر لتبادل الأحاديث وارتشاف فناجين القهوة، والتباحث في كثير من الأمور إلا مَن كان ذاهباً لصيد أو غيره.

□ □ □

الفصل الثالث:

الزراعـــة

□ معرفة المياه الجوفية:

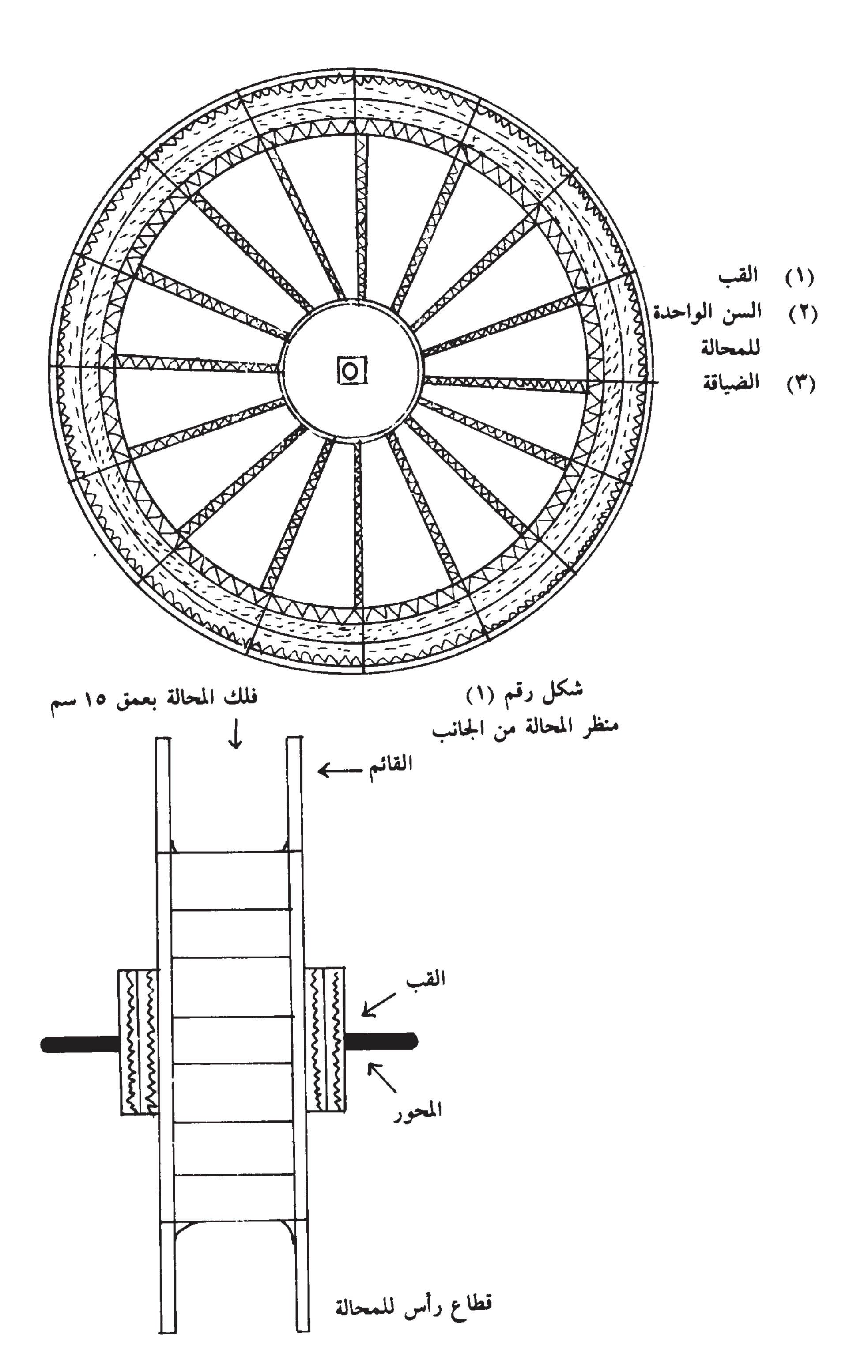
لما كانت المنطقة قد حرمها الله من الأنهار التي تكوّن الركيزة الثانية للزراعة، ولم يمنحها الأمطار التي تعوّض عن الأنهار، لم يقطعها من المياه الجوفية التي تؤدّي نفس الغرض بطريقة أقل حجمًا وأشد مئونة، والمياه الجوفية تستخرج من الآبار العميقة، ويجد السكان صعوبة في الكشف عن مكامن المياه الجوفية إلا بواسطة أشخاص معيّنين أعطاهم الله سر هذا العلم دونما دراسة أو تدريب، ويعرفون مكامن هذه المياه بالفطرة وحسب ظواهر معيّنة يحتفظون لأنفسهم بأسرارها وذلك قبل وصول علم «الجيولوجيا» إلى هذا المجتمع، وتسمّى هذه الفئة «سوّاس الماء» وقد يخطئون أحياناً ولكن كثيراً ما يصيبون، فإذا اكتشفوا مكان وجود مكمن للماء أشاروا إلى من يرونه ونصحوه بحفر بئر بهذا المكان أو ذاك ويخبرونه كذلك إذا كان هذا الماء مالحاً أو حلواً ومدى غزارته من عدمها وما قد يصادفه أثناء الحفر من طبقات صلبة أو صخرية وما إلى ذلك من المعلومات الهامة التي غالباً ما يصدقون فيها.

وعندما يحصل الشخص على أرض زراعية فإنه يبحث عن هذا الرجل الذي «يسوّس أو يصنت الماء» ليدلّه على مكان موضع البئر وليتبع إرشاداته وتعليماته ويعطيه مقابل ذلك مبلغاً من المال أو بعض الهدايا حسب مستوى صاحب المصلحة. وعندها يبدأ بالحفر بالطريقة اليدوية العادية بطريقة تعاونية

يساهم فيها أقاربه وجيرانه بدون أجر، بحيث لا يخسر في تكاليف هذا البئر شيئاً يُذكر، اللهم إلا في بعض الأحيان أجرة معيّنة أو هدية للبعض، وكل ما يكلّفه هو طعام العاملين معه أثناء الحفر وفي الغالب الأعم حتى الطعام يتسابق الجيران إلى تقديمه بطريقة دورية بحيث يكون كل يوم عند واحد منهم، وهكذا يفعل هو معهم عندما يكون لدى أحدهم عمل مماثل.

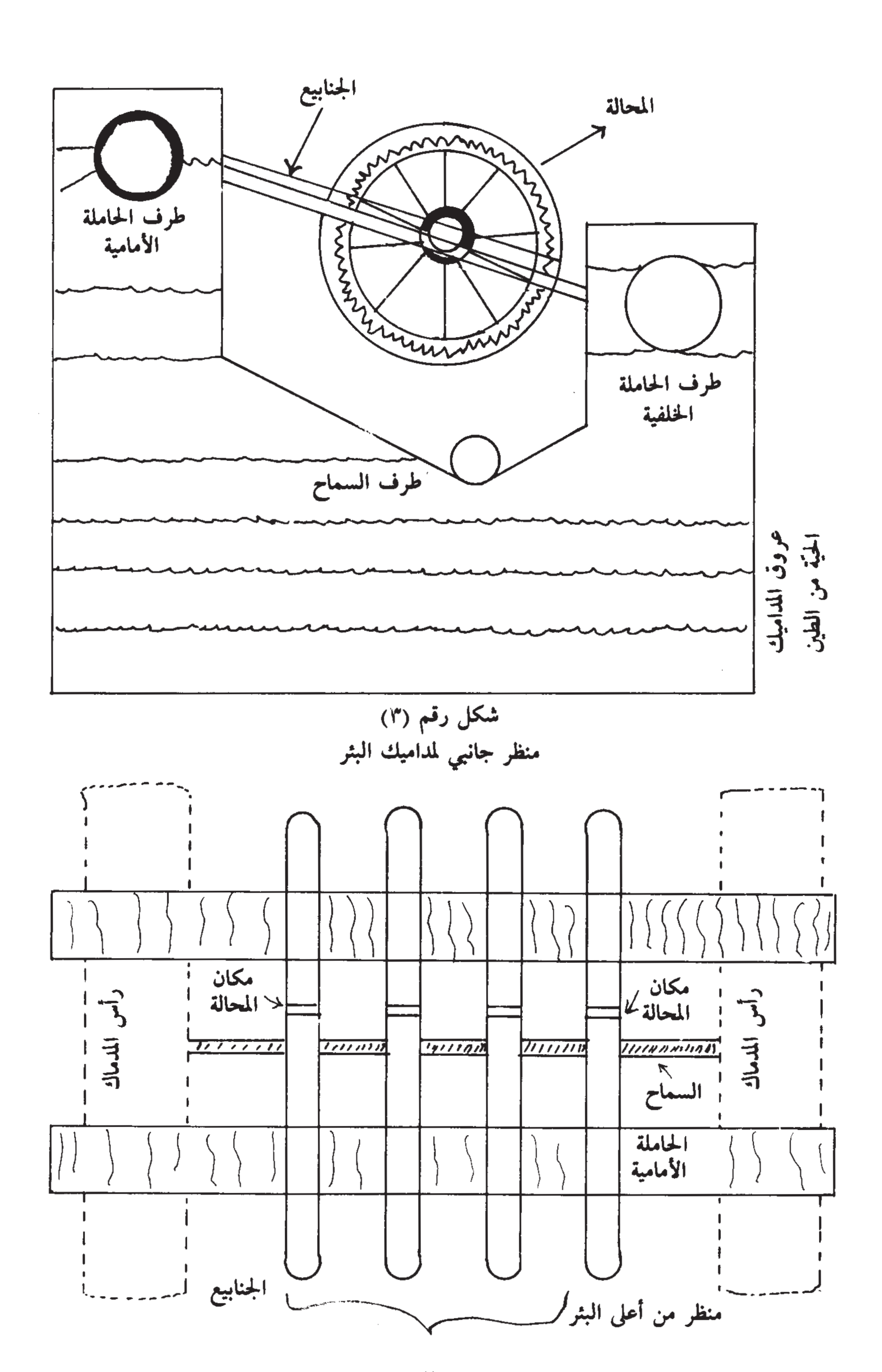
أما الأدوات التي يحفر بها البئر القليب فهي تتكوّن من «الفاروع» و«المسحات» أو «المنساف» وعمود الحديد «العتلة» و«الهيم» وهو كتلة أو كرة كبيرة من الحديد بها عصا يكسر بها الصخر، وعادة يتّزر العمال في حالة تكسيرهم للصخر بقطع من الجلد تقيهم شرر النار الخارجة من الصخر، وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من الزنانيل الصغيرة «محافر» المصنوعة من خوص النخيل ولها عراو مثبّتة بها جيداً مفتولة من ليف النخل، ثم الرشا وهو مفتول من ليف النخل أيضاً ومكوّن من ثلاثة «بتوت» فروع ملفوف على كل فرع سريدة طويلة من جلد البعير ثم مجدولة هذه الفروع الثلاثة إلى بعضها، بحيث تكوّن حبلاً متيناً ملء قبضة اليد يتم بواسطته «صل» الرجال إبرادهم إلى قاع البئر وإخراجهم منه واحداً واحداً، بالإضافة إلى إخراج «نثيلة» البئر التراب المخرج منه، ويتكوّن الرشا من عدد من الوصلات تشبك أطرافها بحبل من ليف ويكون بطرف الرشا مما يلي البئر اثنين من المحاجن «جوازل» مفردها «جازل» مصنوعة من فروع الأشجار عند التقاء غصنين ببعضهما وتكوّن عادة من الأشجار القوية ويربطهما حبل من الليف الغليظ، يثبّت طرف الرشا بمنتصفه أما حبل الرشا فيطوّل ويقصّر حسب عمق البئر وقد يصل إلى ٥٠ متراً أو أكثر من ذلك.

ويركّب على فوهة البئر مركازين من خشب الأثل الغليظ، بحيث يثبّت عند التقائهما البكرة «المحّالة» وهي عبارة عن بكرة خشبية شكل رقم (١) ومع فلكها يجري الرشاء الذي تجرّه الدابة من طرفه الظاهر على وجه الأرض وأحياناً يجرّه الرجال وقد تساعدهم النساء في بعض الأوقات، وطرف الرشاء مما يلي



شكل رقم (١)
منظر المحالة من الجانب

قطاع رأس للمحالة



شكل رقم (٣)
منظر جانبي لمداميك البئر

الدابة مثني يشبّك بالقتّب المركّب على ظهر البعير شكل رقم (٢)، بحيث يجرّه روحة وجيئة لإخراج التراب من البئر ولإيراد الرجال إلى قاع البئر وإخراجهم منه، ويساق البعير مع طريق مستقيم يسمّى «المجر» أو «المنحاة»، فإذا خرج الزنيل المملوء بالتراب تلقّاه رجل واقف لهذا الغرض ثم وضعه جانباً وعلّق «بالحازل» الزنبيل الفارغ وصلّه على من في البئر ثم فرّغه بعيداً عن فم البئر، وهناك كلمات تقال في هذه العملية فعندما يملأ الرجل الذي في قاع البئر الزنبيل فإنه يقول: «يا الله الأول» بصوت مرتفع ومجرور وذلك إيذاناً بإخراج الزنبيل الملآن، فيجيبه من على فم البئر «طالع من شرّه» بصوت موزون، وعندها يسمع سائق البعير ذلك فيصدّر بعيره، وعند موازاة الزنبيل للرجل الواقف على فم البئر يمسكه ويقول «عوّد»، فيأخذ الزنبيل الملآن ويرسل الفارغ لمن بقاع البئر، ويتمّ العمل على هذه الوتيرة نهاراً حتى يتم الوصول إلى الماء ويتراوح عمق البئر العادي بين ٣٠ ــ ٤٠ متراً وربما أكثر من ذلك في بعض المناطق، ويكون البئر دائرياً في الغالب بحيث يكون قطره بين ٤ ــ ٦ أمتار وأحياناً أكثر من ذلك ويتّسع البئر العادي لغربين أو ثلاثة، وأحياناً عندما تكون المياه غزيرة جداً يكون البئر على واجهتين كل واجهة غربين أو ثلاثة وربما أكثر كما هي عليه الحال في بئر هدّاج بتيماء في ذلك الوقت وبعد أن يتم الوصول إلى الماء وإغمار البئر تُبنى عليه المداميك شكل رقم (٣) ويركّب عليه مستلزماته وهي:

١ ــ **الحاملة الأمامية**: وهي خشبة أثل غليظة يصل قطرها إلى ٣٠ سم وتكون بطول ما بين المدماكين.

٢ ــ **الحاملة الخلفية**: وتكون أقصر نسبياً من الأولى وأغلظ منها، بحيث يصل قطرها إلى ٤٠ سم وهي من خشب الأثل أيضاً.

٣ ــ **السماح**: وهو خشبة أدق من سابقتيها بنفس امتدادهما ويُستفاد منها في حالة تركيب «المحالة» والعمل بها.

٤ ــ **«الجنابيع»**: وهما خشبتان مثبّتتان على الحاملة الخلفية والحاملة الأمامية بطريقة عرضية وفي منتصفهما فرض تركّب عليه «المحالة» بطريقة رأسية.

٥ ــ «**المحالة**»: هي بكرة مصنوعة من الخشب (الشكل رقم ١) وتتكوّن من أسنان طويلة مفروض برأسها مجرى للرشاء مثبّتة هـذه الأسنان عـلى اسطوانة من الخشب المتين «القب» مثقوبة من وسطها يدخّل بهذا الثقب المحور المصنوع من الخشب ويثبّت على مكان بـين «الجنابيـع» لحمل «المحالة» وعندما يتّسع ثقب القب فإنه يحفر وتركّب له قطعة خشب تسمّى «ضياقة» تثقب بثقب أضيق من الأول.

٦ ــ **الوسادة**: وهي خشبة غليظة تكون في مقدّمة «المقام» المصبّ وعليها سقف يغطّي حوالي ثلث فوهة البئر وفوق هذا السقف تصبّ الـدلاء الغروب ويثبّت على حافة الوسادة خشبة أدق منها تسمّى «الجازي» بها فرض يثبّت عليه أعمدة الدراجة وهما عمودان مائلان يرتكزان على «الجازي» ويستندان على الحاملة الخلفية وعلى ارتفاع ٤٠ سم من أسفلهما شقّان ضيّقان يثبّت بهما الدراجة ويربط إلى أحدهما عصا متوسّطة تمنع خروج «المقاط» عن الدراجة وهذه العصا تسمّى «الممراس».

٧ ــ **الدراجة**: وهي عبارة عن خشبة اسطوانية قطرها من ٢٠ ــ ٣٠ سم وطولها ٥٠ سم وبطرفيها يثبّت مسماران سماكة كل منهما ١٦ سم شكل رقم (٤)، وتثبّت الدراجة على العمودين المركّزين على الجازي والذي سبق ذكرهما، وتدور الدراجة بطريقة اسطوانية محور ارتكارها على المسمارين المشار إليهما وذلك ليمرّ من فوقها «المقاط» أو «السريح» بكل راحة وبدون تلف.

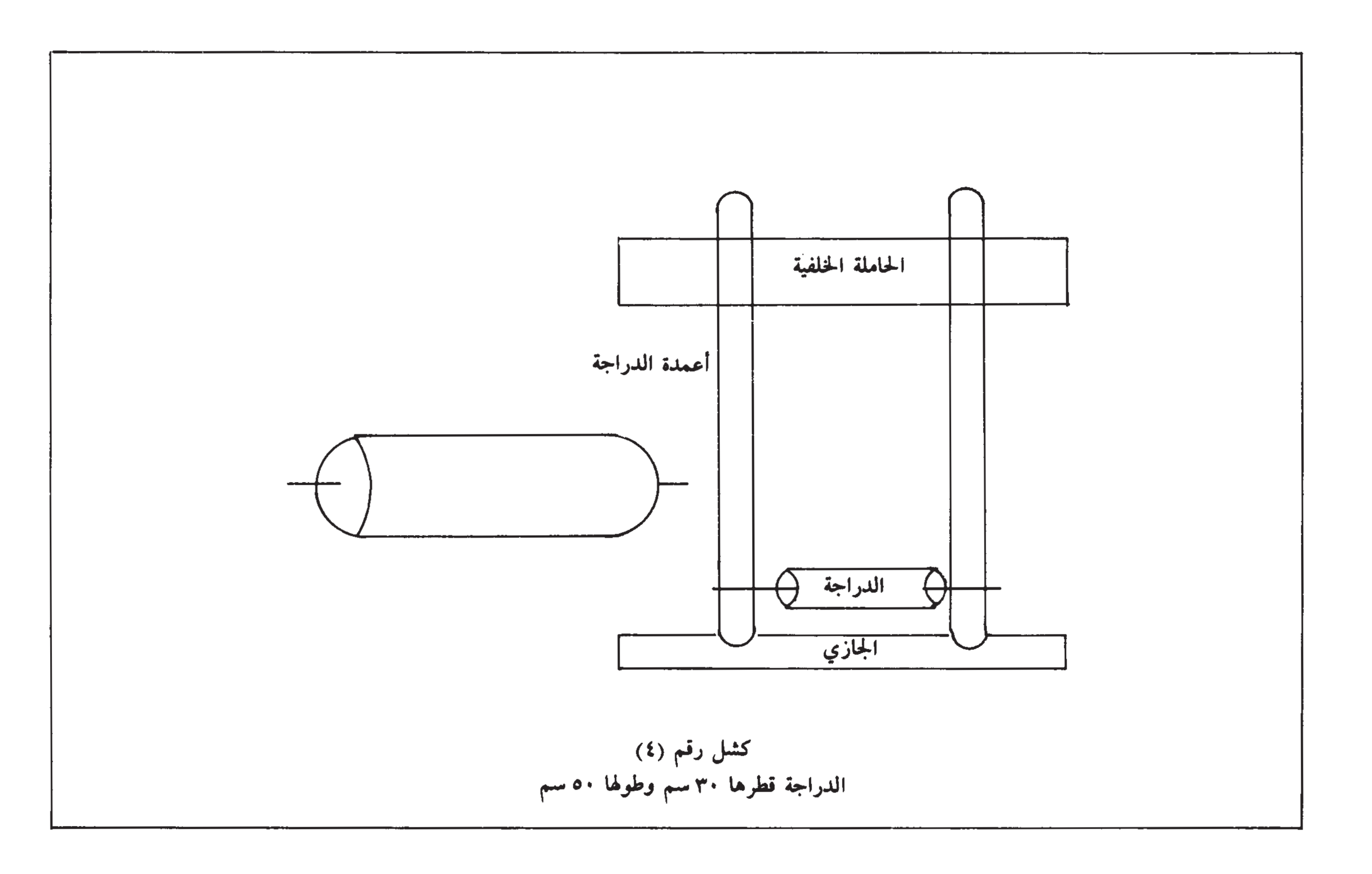
٨ ــ **الرشاء**: سبقت الإشارة إليه.

٩ ــ «**المقاط**»: وهو حبل مفتول من الليف من ثلاثة «بتوث» فروع مجدولة مع بعضها ويكون سماكة ٢٠ سم تقريباً. ويربط طرفه مما يلي الـدلـو «الشرعة» والطرف الثاني يثبّت بمجمع الرشا مما يلي البعير وينوب عن المقاط «السريح»، وهو شريحة واحدة من جلد البعير أو البقر بطول البئر

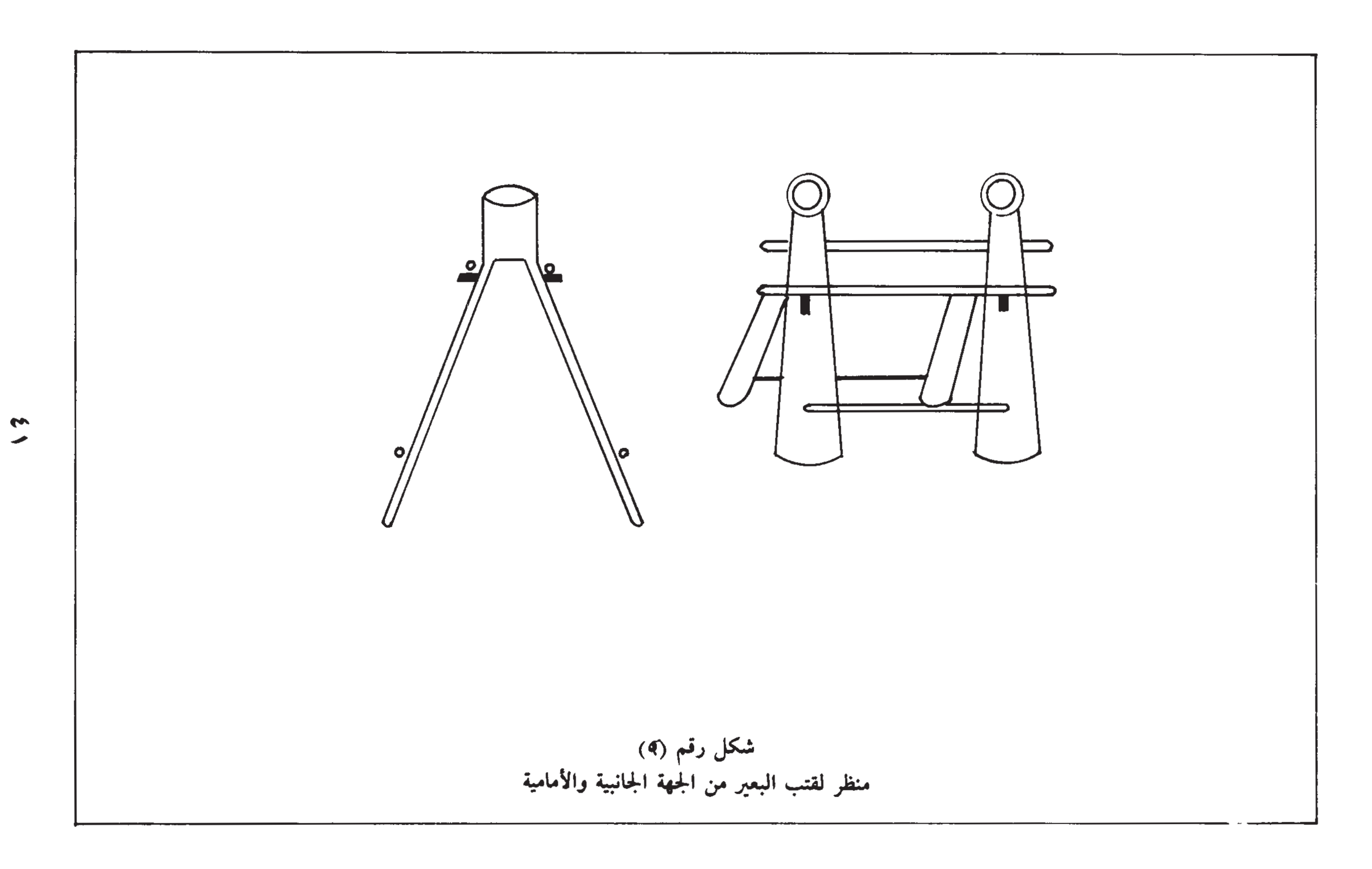
وعرض ٢ سم، ويتم قدّ هذا الجلد المراد استخدامه لهذا الغرض بعد سلخه مباشرة ويُستخدم السريح غالباً في موسم الشتاء.

١٠ ـ **الدلو أو الغـرب**: شكل رقم (٥) وهو عبارة عن جلدين من جلود الغنم المدبوغة والمدهونة بالودك، يكون أحد الجلدين قبـة الغرب ويعمل بطريقة دائرية على شكل القية، قاعدتها مفتوحة إلى أعلى وقمّتها إلى أسفل، والثاني يسمّى الكم ويثبّت طرفه بالقية مفتوحاً عليها والطرف الثاني يبقى مفتوحاً، ويثبّت على فم الكم وصلة من الليف يسمّى «الشرعة» التي يثبّت بها طرف «اَلمقَاط» أو «السِّريح»، ويعلو الدلو من فتحتها العليا «العرقاة» وهي عبارة عن خشبتين سماكة الواحدة منهما بمقدار قبضة اليد مشبوكتين ببعضهما بطريقة الفرض ويثبّتان على فم الدلو مع طرفيهما المقروضين بواسطة حبل ليف دقيق يسمّى الـوَذَمَـة ويثبّت على «العرقاة» مما يلي الرشاء وصلة غليظة من الليف تسمىّ «الكرب» يشدّها بطرفيها على العرقاة عصا قصيرة تسمّى «الرز» وتسمح العرقاة بدخول الماء إلى داخل الدلو بطريقة سريعة، ويثبّت فوق العرقاة قطعة صغيرة من الحجر تسمّى الثقل وتساعد على سرعة غطس الدلو بالماء، وتصب الدلو بطريقة تلقائية عندما يخرجها البعير من فم البئر ويوصلها من فوق الدراجة لتصب في «المقام» ثم تعود أدراجها مرة ثانية وهكذا دواليك، وتحمّل الدلو من الماء ما بين ٣٠ ـ ٤٠ لتراً في كل مرة وذلك حسب حجمها، وتركّب جلد الدلو مقلوباً، بحيث تكون لحمة الجلد إلى الخارج حتى تكون قابلة للدهن كلما نشفت.

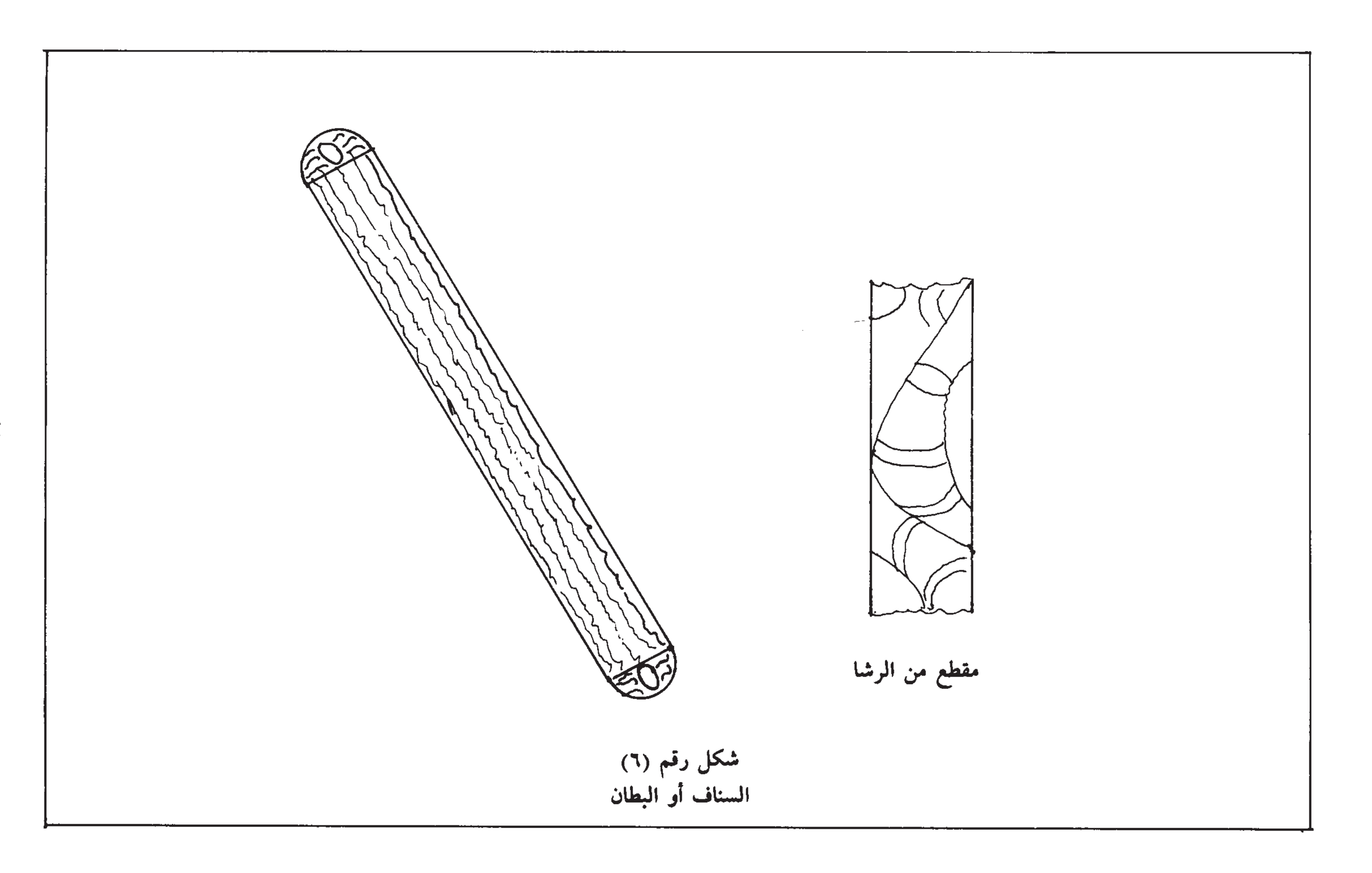
١١ ـ **القتب**: شكل رقم (٥) وهو ما يشدّ على البعير المعدّ «للسني» وهو مكوّن من أربع ضُلَف مثّبت كل اثنين مع بعضهما بخشبة تسمّى «الدخاشة» وتؤسر هذه الضلف على بعضها بسيور من القد مع عصاءين في كل جانب واحد يمسك القتب من أعلى والثاني يمسكه من أسفل ويعلّق بالقتب ما يلي:



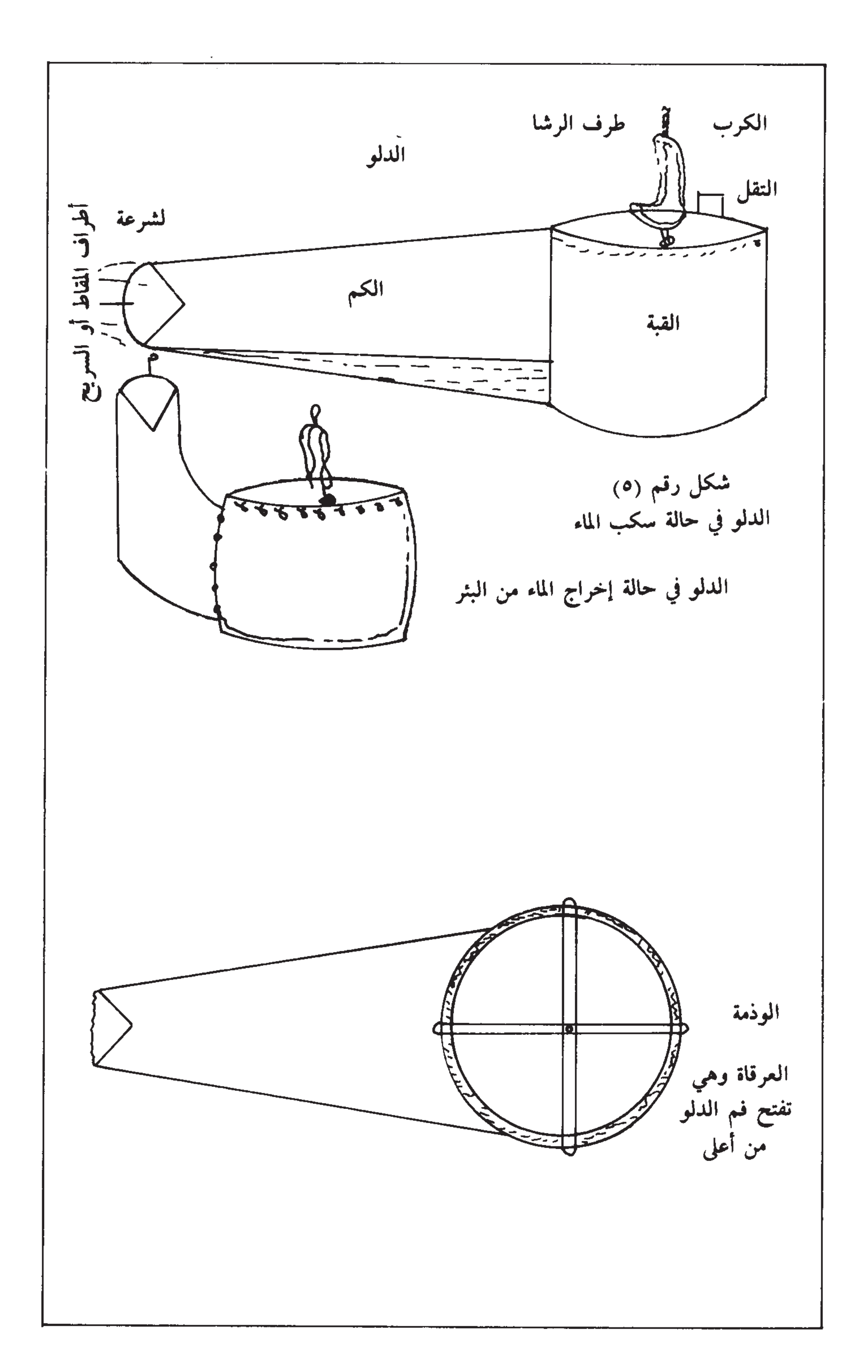
كشل رقم (٤)
الدراجة قطرها ٣٠ سم وطولها ٥٠ سم



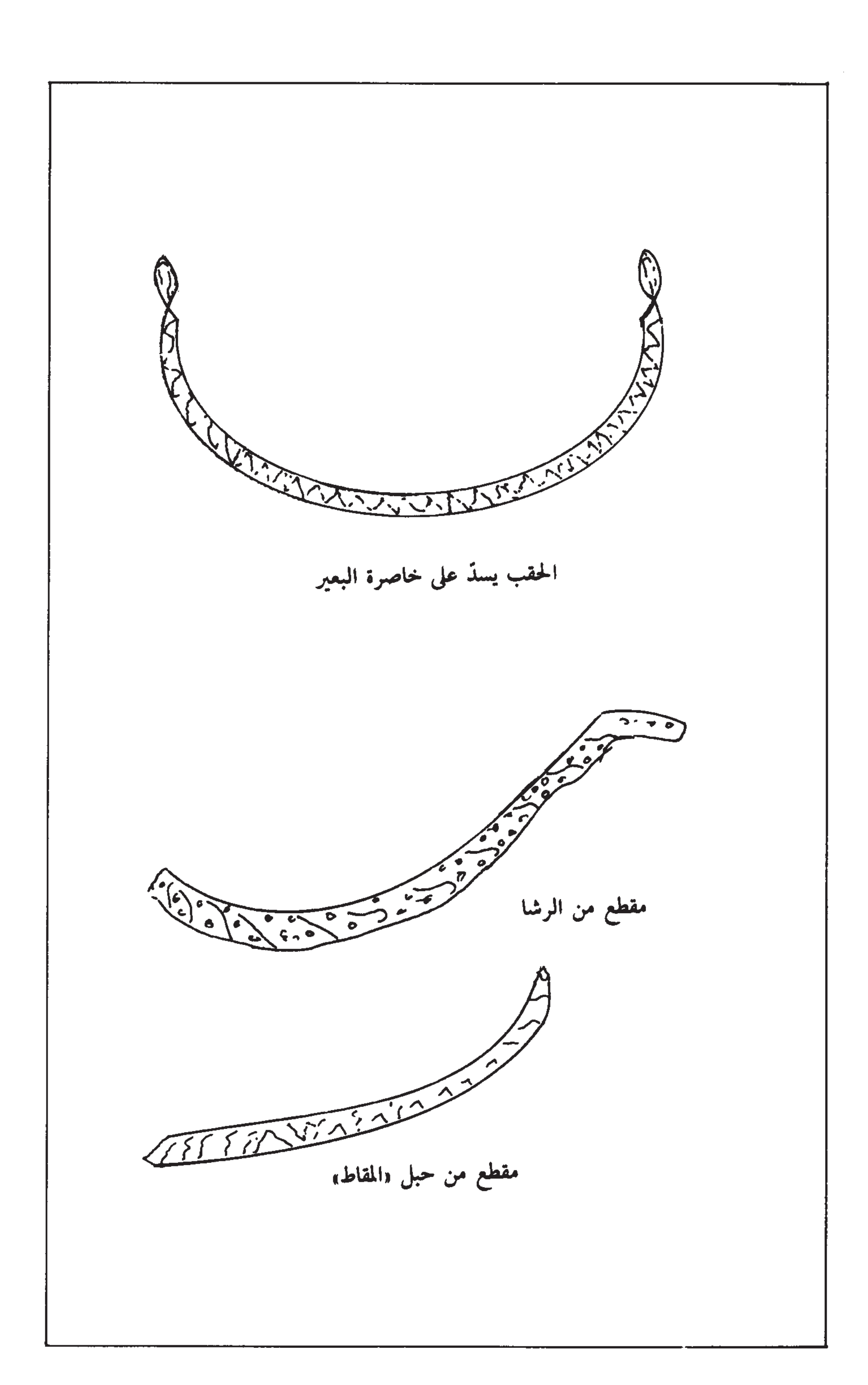
شكل رقم (٩)
منظر لقتب البعير من الجهة الجانبية والأمامية



شكل رقم (٦)
السناف أو البطان



الكرب
طرف الرشا
الدلو
التقل
لشرعة
أطراف القاط أو السريح
الكم
القبة
شكل رقم (٥)
الدلو في حالة سكب الماء
الدلو في حالة إخراج الماء من البئر
الوذمة
العرقاة وهي
تفتح فم الدلو
من أعلى


الحقب يسدّ على خاصرة البعير
مقطع من الرشا
مقطع من حبل «المقاط»

(أ) **السِّناف** (شكل رقم ٦): وهو مجموعة من حبال الليف ملفوف عليها قماش ومنسوجة بجانب بعضها بطول مترين تقريباً وعرض حوالي ١٠ سم وبنهايته عروتان لشبكه بالقتب ويثبّت على نحر البعير.

(ب) **البطان**: وهو يشبه السناف تماماً، شكل رقم (٦)، إلا أنه يثبّت على أعلى بطن البعير مما يلي الصدر خلف الزور، ووظيفة البطان والسناف هي مساعدة البعير على إخراج حمله من الماء. ؟

(ج) **الحَقَب**: وهو حبل من ثلاثة «بتوت» فروع ملفوف عليه قماش ومثبّت على أسفل بطن البعير من فوق خاصرته مما يلي وركيه، وفائدته أنه يمسك القتب على ظهر البعير عند عودته بعد تفريغ الماء.

(د) «**الكِدان**»: وهو وصلة قصيرة من الحبل، ملفوف على شرائح من القد ومجدول على ثلاثة «بتوت» فروع، وبطرفه عصاء قصير بطول ٢٥ سم تسمّى «الزر» و«بالكدان» تثبّت كامل عدة الدلو، إذاً فهو محـور العملية كلها.

(هـ) «**المِرشحة**»: وهي من نسيج الصوف من ثلاث أو أربع طبقات بحجم القتب وأحياناً تكون من طبقتين محشو ما بينهما بالليف، وتوضع على ظهر الجمل تحت القتب لتمنع احتكاك القتب بظهر البعير ولتمتصّ العرق منه.

١٢ ـ «**المَقام**»: وهو المكان الذي تصبّ فيه الدلاء الغـروب وعلى حافته مما يلي المنحاة خشبة دقيقة يجري عليها المقاط تسمّى «الكافة» وهو حوض ثلثه على فم البئر والباقي خارجه، ومن هذا الحوض يتسرّب الماء بعد أن تصبّه الدلاء خلال فتحة الساقي إلى «الجابية» وهي حوض كبير جداً يمتد أحياناً بين مجموعة من النخيل والأشجار وأحياناً أخرى يكون غير ذلك

ويخلط بطين جيّد ليمنع من تسرّب الماء من خلاله إلى أسفل، ويجمع الماء بهذا الحوض الجابية حتى يكون على ارتفاع معينّ، وعادة يكون ملء الجابية في الثلث الأخير من الليل، وعند امتلائها عند الصباح يتم فجر الماء في نفس الوقت الذي تستمر فيه السواني في نزف الماء من البئر لتعويض الجابية عن نقصها، ويكون هناك تناسب فيما يخرج من الجابية وما يدخل إليها بما يقارب ٥ ــ ٤ من كمية الماء، ويفجر ماء الجابية مع فتحة تسمّى «المفجر» وتسدّ بقطعة صخر رقيقة تسمّى «القراعة» أو «السدّة» ويوضع عليها كمية من الطين اللزج.

١٣ ــ **«المجر أو المنحاة»**: وهو الطريق الذي تتردّد فيه السواني وسائقها ويكون طوله بطول البئر، ويكون «المُستوى» وهو الطرف الموالي للبئر أرفع قليلاً من «المَرْفع» وهو نهاية المنحاة التي تنحرف السواني فيه بعد أن تصبّ الدلاء. ويجري في المنحاة هذه نوع من الغناء على أنغام غزف المحّال، سنتعرّض له في حينه، وعادة تكون المنحاة مسوّرة بسور قصير وأحياناً يكون عليها مداميك مرتفعة تظلّلها عريشة مرتفعة من الخشب وسعف النخيل، ويمتد فوق هذا العريش «بعشة» أشجار العنب في الغالب، بحيث تكون المنحاة مكاناً ظليلاً، وتسمّى المنحاة «قبر الدنيا» لأن السائق يتردّد مع إبله أو بقره أو حميره بهذه المسافة القصيرة من ٦ ــ ١٦ ساعة في اليوم والليلة، وربما أكثر.

□ أعمال الرجل والمرأة في بيئة الفلاحة:

يعمل الرجل والمرأة جنباً إلى جنب في أعمال الفلاحة، إلا أن لكل واحد منهما مجال عمله، فحينما نجد الرجل يتولىّ الأعمال الشاقة مثل حفر الآبار وحرث الأراضي وزرعها وسقيها وحصاد الزرع وتصفيته، وفتل الحبال، وصعد الطويل من النخل، في موسم الوبر التلقيح، موسم تعديل عذوق النخل وتركيبها على جذوع الجريد عندما يكبر بسرها قبيل تغيرّ لونه، كذلك في موسم

جذاذ النخل صرامه، فهو الذي يقوم به، كذلك يتولىّ الرجل سياق السواني وتفجير الماء بالزرع والنخيل «الرياسة» وجلب الحشائش والأعشاب من البر «الفلاة» وكل الأعمال التي تتّصف بالصعوبة في حقل الفلاحة وغيرها.

أما المرأة فإنها تساهم معه بطريقة فعّالة، فهي التي تقوم بالأعمال البيتية، من تنظيف المنزل، والطبخ وطحن الطعام على الرحى، وهرس بعض الحبوب لتجهيزها للطبخ وخياطة وتنظيف ملابسها وملابس زوجها وأولادها، والعناية بأولادها وزوجها، وجلب الماء إلى البيت على رأسها، وتجهيز علف الإبل وذلك بجمعه من المزرعة إن كان أخضراً، أو دقّه وتقطيعه إن كان يابساً بأداة تشبه السكين الكبيرة تسمّى «الحيف» ثم خلطه ببعض المغذّيات للإبل مثل «الخبط» ورقّ الطلح وما شابهها، ثم إحضاره في إناء كبير «الجذعة» وتعليف الإبل وذلك بوضع العلف في أشداقها لقمة بعد لقمة حتى ينفد هذا الماعون «الجذعة» التي معها، وأوقات إطعام الإبل مع طلوع الشمس أو قبله قليلاً، وعند أذان الظهر، وبعد المغرب، وكيفية إطعام الإبل تتم كالآتي: تأخذ المرأة اللقمة ملء يدها اليمنى وتفتح فم البعير بيدها اليسرى ماسكة شفته العليا ثم تدفع اللقمة في فمه ليمضغها ثم يزدردها، وهكذا دواليك إلى آخر ما معها، ويستمر هذا العمل على مدار السنة، وفي موسم الحرث تخرج المرأة في علف الإبل إلى مكان تواجدها في حقل الزرع، وهي بالإضافة إلى ذلك تشارك في الفلاة وهي جمع وإحضار الأعشاب والحشائش من البر، وإذا كان بالبيت أكثر من امرأة، جرى توزيع العمل بينهن، وإن كانت وحيدة جرى استئجار امرأة أخرى تساعدها. وزوجة الفلاح لها كمكافأة على مساعدتها له في موسم زرع الشتاء «السقاط» وهي السنابل التي تسقط في الحصيدة إثر عملية الحصاد اليدوي، فهي تلتقطها وتصفّيها حباً تتصرّف به بالإضافة إلى حب كدس كامل يعطيها إيّاه زوجها. وفي موسم الصيف، فلها كذلك «سقاط» التمر الذي يسقط من النخل أثناء عملية الجذاذ بالإضافة إلى نخلة كاملة تتصرّف بتمرها، زيادة على ذلك فإن زوجها يعطيها ما تحتاج إليه، والبعض يهديها قطعة من المصاغ والحلي بين فترة وأخرى،

بالإضافة إلى مؤنتها ومتطلّباتها الضرورية فإن الزوج يقوم بها وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية.

كذلك تقوم المرأة بالمساعدة في عملية الحصاد في موسمه، و«ذري» الزرع بعد درسه وتصفيته وتطييبه. من هذا نرى أن المرأة تقوم بالعمل مع الرجل جنباً إلى جنب كلّ فيما يناسبه، بحيث يقدّمان معاً عملاً متكاملاً يقوم على التعاون والتكاتف تحقيقاً للمصلحة المشتركة بينهما.

□ غرس النخيل:

عندما يتم تجهيز البئر على الطريقة التي مرّت بنا، يبدأ الفلاح في جمع «الغريس» فسائل النخل بطريقة تعاونية أيضاً، يجمعه من الجيران والأقارب والمعارف، فيحفر «المخامر» وهي الحفر التي توضع بها فسائل النخل، فتعمّق الحفر حسب صلابة الأرض وليونتها، وتكون الحفرة بقطر متر تقريباً، ويجري تصفيتها من الحجر والزلط والشوائب الأخرى، ويتم حفرها بصفوف معتدلة ومنتظمة، جاعلاً بين كل نخلة وأخرى من ٦ ــ٨ أمتار، بحيث إذا كبرت النخلة وارتفعت لا يتلامس رؤوس جريدها مع الأخرى، وكلما ابتعدت النخلة عن الأخرى بمسافة معقولة أصبح إنتاجها أكثر، ويقولون على لسان النخلة «أبعد أختي عنيّ وخذ طلعها مني» ويختارون لغرس النخل دخول فصل الربيع «السماك» مع سريان الماء في أغصان الشجر وذلك حتى يعرف الفلاح ما إذا كانت النخلة حيّة أو ميتة في وقت قصير، ولكي تجري جذورها مع بداية فصل الربيع فلا يأتيها الصيف إلا وقد رسخت جذورها، وعادة تجتث فسائل النخل من أمهاتها حيث تخرج من جذوع أمهاتها، ولا تكاد الفسيلة تلامس الأرض حتى تتمدّد منها جذور صغيرة تمتد إلى الأرض، وعندها يجري فصلها عن أمها بطريقة فنّية، تبقى سليمة مع جذورها، وأحياناً تكون الفسيلة مرتفعة عن الأرض، وفي هذه الحالة يقوم الفلاح بتعليق زنبيل صغير ملاصقاً لجذعها ويضع فيه تراباً ويسقيه حتى تتمدّد جذورها فيه ثم يفصلها عن أمها، وبعد أن تكبر

الفسيلة يوضع لها حوض دائري يكبر مع كبرها ويبدأ سقيها، والبعض يغرس شجر الإثل ما بين النخل وذلك لأن جذور الإثل قوية وتغوص في أعماق الأرض، فإذا كبر الإثل أجتثه وبقيت جذوره في الأرض ومتى تآكلت نزلت مع طريقها جذور النخل.

وتتراوح فترة إثمار النخلة، حمله من ٣ ـ ٧ سنوات وربما أقل أو أكثر من ذلك، حسب خصوبة الأرض من عدمها، ويحتاج النخل إلى عناية خاصة من تنظيف حياضة وإضافة السماد البلدي إليها عن طريق الماء والمواظبة على سقيه وخاصة في وقت التلقيح من آخر فصل الخريف حتى دخول الشتاء لمدة حوالي شهرين، كذلك يحتاج إلى تنظيف خوافي الجريد من بقايا التمر حتى لا يحدث فيه تسويس في الموسم القادم، ويحتاج إلى «تشييف» وهي تجريد الجريد من الشوك.

والنخلة شجرة كريمة محبّبة إلى النفوس، لا تجحد الجميل، فبقدر ما يعطيها صاحبها تردّه إليه مضاعفاً، وعندما يرتفع النخل فإن الفلاح أوعامله يصعده بأداة تسمّى «الكَر» وهي مكوّنة من جزءين الجزء الذي يكون على ظهر الرجل يستند عليه عند الوصول إلى فرع النخلة هو نسيج من نوع «السناف» الذي سبق ذكره، أما الجزء الذي يحيط بالنخلة فهو من القِدّ ملفوف على بعضه وبطرفه «زر» يشبك بعروة الجزء الذي يحيط بظهر الرجل، والكر يمسكه الرجل عند صعود النخلة بيديه ثم يبدأ يصعدها خطوة فخطوة حتى إذا استوى في أعلاها وضع الكر على أسفل ظهره ثم يستند برجليه على شطّيب النخلة ويبدأ يعمل بيديه، العمل الذي يريد من لقط الرطب «خراف» أو جذاذ صرام أو تقطيع جريد وغيره، وإذا كانت البساتين بقرب واد فإن لكل صاحب بستان الحق في سق مجرى ساقية يدخل منها جزء من سيل هذا الوادي إلى بستانه أو أرضه ومزارعه وذلك للاستفادة مما يحمله السيل من الطمى «ربو» الذي يزيد من خصوبة الأرض ويوفّر كمية كبيرة من المياه للنخل والأشجار، وعندما يجري سيل هذا الوادي ترى المزارعين وأبناءهم وأقاربهم قد انتشروا حول هذه

الساقية، يلاحظونها عن أي انكسار يحدث بها ويراقبون البساتين بكل دقة حتى إذا امتلأت فإنهم يسدّون الساقية وقطعون الجِبس «العقم» مما يلي الوادي، وعملية السقي من السيل يعتبرها الفلاحون كسباً ممتازاً لا يتأخّرون عن تحصيله مهما كانت التضحية، وربما حدثت بعض المشاكل من جرّاء ذلك خاصة إذا كان السيل قليلاً وكلّ يريده لمزرعته وبساتينه.

□ موسم حرث الزرع:

وما إن يأتي موسم الحرث حتى يهبّ الفلاحون إلى البقع التي خصّصوها للزراعة في هذا الموسم وخاصة إذا نزلت الأمطار في وقت مبكّر مع دخول الموسم ورغب الفلاحون بذر زرعهم على «العَفِير» وهو بذر الحب على رطوبة المطر. وينقسم الزرع إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول وهو ما يُزرع على المطر، وهو ما يسمّى «البَعْل» ويزرع الناس الشعير في الغالب «بالقيعان» مفردها قاع وهو الصلب المستوي من الأرض الذي يتكوّن فيه الطمي من السيول ولذلك يبقى فيه المطر مدة طويلة ويتقاسم أهل كل بلد القاع الذي يقع بقربهم، حيث يزرعونه وذلك بحرثه فقط بعد البَذْر طبعاً، وخاصة إذا توخّى الناس أن تكون تلك السنة «ربيع» أي كثيرة الأمطار والخيرات، وفي موسم الحصاد كلّ يحصد نصيبه ويتصرّف بغلّته.

النوع الثاني وهو المهم، وهو ما يُزرع على السقي من الآبار الجوفية وغالباً ما تكون المساحات محدودة كلّ حسب قدرته وطاقته وإمكانيته المائية مع أن الأمطار تشجّع على تكبير هذه المساحة ويزرع في كل جزء من هذا المساحة نوع من الحبوب منها القمح الهشّ بأنواعه والقمح الصلب «اللقيمي» والشعير بأنواعه. وعادة يُفصل بين كل نوع وآخر منعاً للاختلاط وذلك للمحافظة على نقاوة أي نوع من الحبوب، وتتم عملية الزرع بتسميد الأرض بالسماد البلدي ثم بَذْر الحَبّ وحرث الأرض بالمحراث «الشرخ» وهو عبارة عن خشبة يبلغ طولها ٣½ ثلاثة أمتار ونصف تقريباً، مشقوقة من طرفها الأمامي ثقب

يدخل منه الحبل «الرشا» الذي تجرّه الإبل أو الثيران وفي مؤخّرة الخشبة قبل نهايتها بحوالي ٨٠ سم ثقب واسع مثبّتة به خشبة مائلة إلى الأمام بطرفها لسان من الحديد، وهو الذي يتولىّ شق الأرض، وفي نهاية الشرخ ثقب رأسي مثبّت به عصا يمسك بها الرجل ويوجّه المحراث في خطوط معتدلة متراصّة حتى لا يبقى جزء من الأرض لم يحُرث، وبعد حرث الأرض بالمحراث يتمّ تقطيعها إلى حياض صغيرة وقنوات «سريان» لسقي هذه الحياض، وذلك بسواعد الرجال باستعمال «المنساف» أو «المسحاة» وتكون هذه الحياض بصفوف متساوية منتظمة تكبر وتصغر حسب درجة استواء الأرض، يفصل بين الواحد والآخر وبينها وبين القنوات عقوم صغيرة تسمّى «مروز» وبعد أن تتم تسوية هذه الحياض من قِبَل مجموعة من رجال الحراث، يتبعهم المفجر «الرايس» وهو الذي يفجر الماء من خلال هذه القنوات الصغيرة ويسقي بها الأرض هذا إذا كانت يابسة، أما إذا كانت الأرض بعد المطر «عفير» فإن المفجر لا يأتي هذه الحياض إلا بعد مدة طويلة قد تمتد إلى أسابيع وربما بعد أن ينبت الزرع ويترعرع، وفي سنين البركات وكثرة الأمطار ربما لا يحتاج الزرع إلى السقي إلا في نهاية عمره.

ويشترك في عملية الحرث الرجل والمرأة، فالمرأة تقود الإبل أو تسوق الثيران وذلك في حالة عدم وجود الأجير «الصبي» وتُطعم الإبل، وتجهّز أكل وشرب الحُرّاث وتحضّره لهم، ويلاقي الفلاحون في موسم الحَرْث التعب والنصب لأنهم يعملون طوال يومهم من طلوع الشمس حتى وقت الأصيل وربما غروب الشمس، ويجري في المزرعة بين الرجال والشباب الكثير من استعراض العضلات والمراهنات في درجة إنجاز العمل، حيث تجرى المباريات في أيهّما يصل طرف المزرعة الأول، وذلك بأن يمسك كل واحد بصف من الحياض تسمّى الجنب ويبدؤون من نقطة واحدة من أحد أطراف المزرعة إلى طرفها الثاني، ومَن وصل الأول مع اتّقان العمل فقد كسب الرهان، ويجري في هذه العملية أهازيج يردّدها الرجال تبعث في النفوس النشاط والحيوية، وعملية الحرث عمل جماعي تعاوني يتم من قِبَل المزارعين بدون أجر إلا مَن يستعان بهم من غير المزارعين وأقاربهم فيُدفع لهم أجرهم وعادة يكون رمزياً، ريالاً في اليوم

وربما وصل إلى ريالين أو مقدار من الحبوب وبعض الأحيان تكون الأجرة من الحبوب المؤجّلة إلى ما بعد حصاد هذا الزرع الذي يتمّ حرثه الآن. ويُزرع في موسم الشتاء إلى جانب الحبوب السابق ذكرها البصل والثوم والكراث وعادة تقوم بزراعتها النساء ولها نصيب كبير منها، وتقوم المرأة بزراعة بعض التوابل لحسابها الخاص مثل، الحلبة، والرشاد، والحبة الحلوة، والحبة السمراء، والكمّون، والعصفر، وتُستخدم هذه الأفاوية في تجهيز الطعام وأدوية لبعض الأمراض ماعدا العصفر وهو نبات رأسي زهري يرتفع إلى حوالي ٨٠ سم وزهره كثيف وزهرته صفراء برتقالية مرّ المذاق، وتلتقط المرأة زهوره وتجفّفها وتستخدمه في بعض الأغراض منها خلطه ببعض المساحيق والعطور، وتستخدمه في الزينة لمشط شعرها فيه، ويُكسب الشعر لوناً أشقراً وطراوة، ومرارته تساهم في قتل الجراثيم التي تعيش في فروة الرأس أحياناً. ونجد من يتغنىّ بهذا الشعر الممشوط بالعصفر، إذ يقول:

٣ ـ أصفر معصفر ليت محسن يشوفه
تـوّه على حد الغرض مابعد لمس

(الماشطة)

بهذه الصبورة يكون الزرع قد تمّ حرثه في موسم دخول الوسم في آخر فصل الخريف وقبل دخول أربعانية الشتاء، وربما تأخّر إلى نصف الأربعانية ولكن زرعها يكون أقل جودة من زرع الوسم.

□ موسم سقي الزرع:

بعد أن ينتهي الفلاحون من موسم الحرث ويلتقطوا أنفاسهم تبدأ عملية السقي التي تستمر خمسة أشهر ونيّف هذا مع عدم هطول الأمطار، أما إذا هطلت الأمطار فإنه يحصل فيها فترة راحة بين الحين والآخر تسمّى «إناخة» أي إناخة الإبل عن السَّني. ويُعتبر سائق السواني ومفجّر الماء «الرائس» هما

العمود الفقري لفترة سقي الزرع، حيث يبدأ سائق السواني العمل في الهزيع الأخير من الليل:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت
منه اللحاق تمد الصلب والعنقا[1]
(زهير بن أبي سلمى)

ولما كانت الساعة لم تنتشر آنذاك فإنه يتم التوقيت بطلوع أو أفول بعض النجوم المشهورة مثل الثريا، والجوزاء، والشعراء، والرقيب، والتويبع، وغيرها. ونجد الشاعر يسوق مثلاً على ذلك:

٤ ــ أو وجد من صدر على أربع محاحيل
لها ليا غاب الرقيب إمعلومي[2]

٥ ــ صدر على أربعماية كلها كيل
حب حمر تسقي نواحيه كومي

٦ ــ أربع عقايبها أربع كنس حيد
يشيلن ألما في وساع الكمومي

ثم يشدّ سوانيه ويبدأ في نزف الماء من البئر ويملأ الجابية خزّان الماء، قبل أذان الفجر ثم يستريح مع سوانيه قليلاً حتى إذا أدّى صلاة الفجر استأنف العمل، وعندها يبدأ مفجّر الماء عمله بفجر الماء من فتحة صغيرة تسدّ عادة بقطعة صغيرة من الحجر أو القماش تسمّى السدّة «القراعة» ويوضع فوقها شيء من طين الجابية اللزج ويستمر العمل إلى صلاة الظهر عندها يستمتع براحة ساعة واحدة ثم يستأنف العمل مرة أخرى إلى الليل وأحياناً يستمر عمل سائق

(١) ديوان زهير.
(٢) ديوان سويلم السهلي.

السواني ومفجر الماء من صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء الأخير، خاصة إذا كان الزرع في مراحله الأخيرة «الشربة» وتستمر عملية السقي خمسة أشهر كما أسلفنا، منها ثلاثة أشهر منذ البداية بدرجة متوانية وذلك بسبب صغر حجم شجيرات الزرع من ناحية ولبرودة الجو من ناحية أخرى، ثم يأتي الشهران الأخيران وهما وقت الشدّة في سقي الزرع ويسمّيها الفلاحون «الشّرُبَة» وقد عبّر عن فترة سقي الزرع أحد أبناء هذه البيئة أصدق تعبير، حيث يقول:

٧ ـ سقي على ماهان تسعين ليلة
وشهر وعشر ما لماه افتور

٨ ـ ومن عقب عشرين تدانا أوايله
تلقى العشا من مير كل بكور

وآخر يقول:

٩ ـ ومن لا يسقى كنه الصيف زرعة
فهو مفلس منها نهار الحصايد[1]

(راشد الخلاوي)

ويتحمّل الفلاح ومعاونوه طيلة فصل الشتاء البرد القارس والزمهرير اللاذع وخاصة السائق والمفجر، لأنهما أشد عرضة للبرد من وقت اشتداده من الصباح الباكر وحتى الأصيل المتأخّر مع ملامسة الماء وشحّ بالملابس التي تجلب الدفء، وأحياناً قلّة في الأكل الذي يولّد الطاقة الحرارية الكافية، ورغم هذا فهم من القوة والنشاط والحيوية بدرجة عالية. وعادة يستأجر الفلاح سائق السواني والمفجر لفترة الزرع كلّه من موسم الحرث وحتى موسم الحصاد بمبلغ زهيد نسبياً، ويتراوح المبلغ من ٥ ــ ١٥ ريالاً للفرد لكل هذه المدة، وربما زاد أو نقص عن هذا المقدار قليلاً، إنما في هذا البحر، بالإضافة إلى الأكل والشرب

(١) راشد الخلاوي، ص ٣٠٦.

لدى صاحب العمل وقد يكافئهما الفلاح بشيء من الملابس أو بكمية بسيطة من الحَب، وأحياناً يتولىّ عملية السياق والتفجير اثنان أو أكثر بالشراكة والتضامن فيما بينهما بما يساوي عشر الثمرة لكل منهما نصف العشر أي أن حصتهما تساوي ١٠ ٪ من غلّة الزرع، ويتحمّل صاحب العمل كافة الالتزامات الأخرى عدا طعامهما وأحياناً يتحمّله وتسمّى هذه العملية «العُمَالَة».

□ موسم الفلاة:

تعدّ «الفلاة» وهي جمع الأعشاب والحشائش من البر وإحضارها لإطعام الإبل والمواشي الأخرى، الركيزة الثانية للفلاح إذ بدون تغذية السواني لا يمكن أن تستمرّ بالعمل المضني وبالتالي يتأثّر الزرع، والفلاة يقوم بها الرجل والمرأة جنباً إلى جنب حيث يذهبون في مجموعات، الرجال على حدة والنساء على حدة، يمتطون ظهور الحمير وأحياناً الإبل، وذلك قبيل أذان الفجر الأول، وربما حصل اختلاط في طريق الذهاب أو العودة، أو في البر لكنه اختلاط عمل نزيه لا شائبة فيه، يحكمه الخوف على النساء من عناصر خارجية، فتراهن بقرب الرجال، وربما حصل شيء من الإعجاب بين طرف وآخر لكنه لا يتعدّى الإعجاب فقط، تحت احترام للتعاليم الدينية ومراعاة للعادات والأعراف السائدة، وتذهب هذه المجموعات من «الفلالي» إلى البر يتقفّرون رياضه، وينتجعون مسائله ويقطفون زهوره، يملؤ ون جوانحهم من أريج الرياض العبقة بمختلف شذا الزهور وأفانين الأعشاب العطرة، يجوبون تلك الرياض تطير من أمامهم مجموعات من الطيور البرّية المغردة التي تصدح بأنغامها العذبة فرحة مستبشرة من الصباح وحتى المساء، يستفزّون الأرانب البرّية واليرابيع، فتفزّ أمامهم تذرع الأرض بقفزاتها الرائعة، وينفرون جول الظباء والغزلان من بعض المواقع فتحتدم نافرة تسابق الريح هاربة من جَلَبَتهم، وعندما يصلون إلى المكان المختار ينزلون عن ظهور الدواب ويخرجون ما في خروجهم من «مطبقيات» التمر والمراصيع ومختلف أنواع الأكل مع قِرَب صغيرة من الماء وصملان صغيرة من اللبن، وبعد أن يأكلوا ما يشتهون، يبدأون تحدوهم الرغبة في سرعة إنجازه،

وتستحذّهم نشوة وجود الجنسين في مكان واحد وعمل واحد، وكلّ يريد إظهار قوّته وحذقه ومهارته في سرعة تجميع العشب وتحصيل أكبر كمية منه على مرأى من الجنس الآخر.

وتعبّر إحداهن عن الفلاة بقولها:

١٠ ـ أمس فلينا من الريعان
من ريع سرهيد بالغالي

١١ ـ متخالط به زهر حوذان
واعنوق رقم وقحوان
(ثريا المطرية)

ويحصل أثناء الفلاة نوع من الدعابة والغناء أثناء العودة، يتميّز بأبيات خفيفة الإيقاع التي تبعث النشوة والنشاط في النفوس، وتساعد على قطع المسافات الطويلة التي يقطعونها مشياً على الأقدام بعد تحميل الحمير بالعشب، وتتراوح المسافة التي يقطعونها في طريق العودة ما بين ٥ ـ ٣٥ كيلاً، وربما تزيد المسافة أو تنقص حسب تواجد العشب، ويستخدمون في التقاط العشب المخلب في اليد اليمنى مع اليد اليسرى و«اَلمكَرّة» عندما يكون العشب كثيفاً وفي مكان صلب، ويتمّ تجميعه بالعباءة، وهي تشبه العباءة العادية إلا أنها من القماش، فإن كان الوقت في بداية موسم الفلاة فيوضع العشب على ظهور الدواب بالعباءة أو «الشنيف» وهو نسيج من الصوف من طبقتين بطول مترين إلى ثلاثة أمتار وعرض متر تقريباً، وإن كان العشب كثيراً فيُعبّأ بالشبكة، يُنضّد عليها على شكل مستطيل مكعّب طوله من ٢ ـ ٣ متر وعرضه متر واحد وارتفاعه من متر إلى متر ونصف، يعني ٣، ٣ × ١ × ١,٥ م ثم يحمّل على ظهر الدابة فوق الخرج و«الوثارة» البردعة التي تثبّتها على ظهر الدابة ويمسك بالشبكة الملآنة صاحبها بعض المسافة حتى تعتدل ثم يتركها ويراقبها باستمرار، ومتى رآها قد مالت، قام بتعديلها حتى يصل إلى بيته،

فيأخذ جزءاً من العشب الطري علفاً للسـواني والباقي ينشره في مساحة بقرب البيت حتى يجفّ ثم يخزنه في غرف خاصة بالعلف لموسم الصيف، وهناك ممن لا فلاحة لهم فإنهم ينشرون كامل ما أحضروه من العشب ويخزنونه ليتمّ بيعه على الفلاحين في فصل الصيف إما بمبلغ من المال، أو بكميات من التمر في موسم الجذاذ يكتنزونها كجزء من مئونة المنزل السنوية. وكما أن البر يعبق بريح مختلف الأعشاب والحشائش والأزاهير كذلك الحال بقرب البيوت عند مناشر العشب تتضوّع أصناف الروائح الزكية المنبعثة من العشب المنشور يضاهي شذاها رائحة دكان أكبر العطّارين. وأنواع العشب التي يتم إحضارها في أوقات مختلفة من السنة، وهي تكوّن الغطاء النباتي لتلك البقعة مع أنواع الحشائش التي ترعاها المواشي في مكانها. كالآتي:

الرَّبْلَة: وهي شجيرة صغيرة لها أوراق عريضة، ترتفع عادة عن الأرض من ٥ ــ ١٠ سم وربما أكثر، خضراء ضاربة إلى الزرقة، لها سنابل بارزة مفيدة جداً للإبل والغنم ومختلف المواشي ومدرّة للّبن، طيّبة الرائحة تنبت في الأراضي الليّنة.

النَّفَلْ: وهو شجيرة تسبح غصونها على الأرض بامتداد قد يصل إلى المتر، لها رائحة فوّاحة وزهورها صفراء صغيرة، وتحبّها الابل والغنم وجميع المواشي، مدرّة للّبن تنبت في الأراضي اللينة.

الْحَوْذَان: شجيرة بارزة ترتفع عن سطح الأرض بمقدار ١٠ سم وربما أكثر، ولها أوراق عريضة ولها أزهار صفراء كثيفة ذات رائحة طيبة، مدرّة للّبن، تحبها جميع المواشي، تنبت في الأراضي الليّنة.

الأقْحَوَان: شجيرة لها أوراق خضراء ضاربة إلى الزرقة أوراقها صغيرة، ولها زهور بيضاء جميلة بوسطها نقطة صفراء، ويشبّه الشعراء قديماً وحديثاً أسنان

النساء بزهرة الأقحوان لما لها من تناسق وشدّة بياض، وهي طيّبة الرائحة تأكلها جميع المواشي، مدرّة للّبن، تنبت في الأراضي اللينة.

الخُزامَى: وهي شجيرة صغيرة ترتفع عن الأرض قليلاً بمقدار ١٠ سم وربما أكثر، ولها زهور وردية صغيرة وكثيفة، عطرية الرائحة وأوراقها صغيرة، وتحبها الإبل وجميع المواشي، تنبت في الأراضي اللينة.

الخَطْمِي: هي شجيرة تشبه أوراق النفل، غير أنها ترتفع إلى أعلى ويبلغ ارتفاعها من ٥ ــ ١٠ سم، ولها رائحة عبِقة طيّبة، وتستخدمها النساء في مشط شعورهن لطيب رائحته، تحبها المواشي كلها، تنبت في الأراضي الصلبة «القاع».

القَفْعَاء: شجيرة ذات أوراق صغيرة خضراء تميل إلى الرمادية تسبح على الأرض، وثمرها قرون تشبه الخواتم، تأكلها الإبل وكل المواشي، وتنبت في الأراضي الليّنة والصلبة.

الحُمَّاض: شجيرة كبيرة نسبياً ترتفع من ١٥ ــ ١٠٠ سم، وتبقى في مسائل الجبال ولها أوراق كبيرة مكتنزة بالماء ولها غصون ريانة بالماء، طعمها حامض لذيذ يأكلها الناس وتأكلها المواشي، وهي مدرّة للبن ولها زهر أحمر جميل، طيّبة الرائحة.

الجَهَقْ: شجيرة كبيرة نسبياً ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٥٠ سم ولها ورق متوسّط ولها أغصان طويلة، لها زهر بنفسجي كثيف، طيّبة الرائحة، يأكلها الناس شبيه طعمها بطعم الجرجير لكنها أقوى نكهة وأكثر لذعة للّسان، تأكلها المواشي كلها، وتنبت في مسائل الجبال وفي لوح الجبل وتغطّي كامل الجبل أحياناً بزهورها البنفسجية.

الصَّمْعَاء: شجيرة ترتفع إلى أعلى، لها ورق شبه شوكي ولها حَبّ برأسه

شوكة حادّة تسمّى «سملول» أو «سفا» والصمعاء تحبّها ذات الحافر، الخيل والحمير، لا تملّ أكلها رغم شوكها، وتأكلها بقية المواشي، وشوكها شديد الوخز، ويصف الشاعر بعد النوم عن عينيه وكأن بها شوك الصمعاء «السماليل» حيث يقول:

١٢ ـ البارحة يا شعيل يا حيل أبا الحيل
والعين عن نوم المخاليق فرّة

١٣ ـ ما كن به يا شعيل شوك السماليل
وإلا النويفج لافها عقب ذرّة

(خضيري الصعيليك)

وتنبت الصمعاء في الأرض اللينة والصلبة على حدّ سواء، وتكون كثيفة النبت ورائحتها مقبولة.

القُرَّيْص: شجيرة ترتفع عن الأرض، ورقها صغير ذو رائحة طيّبة، يأكله الناس له نكهة طيّبة ولذعة قارصة للّسان، وله زهر أصفر كثيف تأكله الغنم وجميع المواشي،، مدرّة للألبان وتنبت في مسائل الجبال والشعاب الصغيرة.

السُّمَيْسِمَان: شجيرة صغيرة ذات أوراق شبه شوكية، تنبت في الأرض الليّنة، تحبها ذوات الحافر، رائحتها مقبولة.

الحُمّصِيص: شجيرة ترتفع عن الأرض بمعدّل ٥ ـ ١٠ سم ولها أوراق أنبوبية، طعمها حامض ونكهتها طيّبة، لها زهور حمراء وصفراء، يأكلها الناس وتأكلها جميع المواشي وتنبت في الأرض الليّنة الرملية كعروق النفود ودعوص الرمل.

المكَرْ: شجيرة صغيرة ذات أوراق صغيرة شهباء وغصون تسبح على الأرض على امتداد ٣٠ سم وهي من بنت آخر الربيع «الصيف» وتنبت في الأرض الصلبة والليّنة، وتكثر في مسائل الأودية وتحبها الإبل وكافة المواشي.

الحِلَّبْ: شجرة تمتد على الأرض وتلتصق بها، ذات وريقات صغيرة تحمل على غصونها لبناً أبيض تحبها الظباء والغزلان والماعز، وليس لها رائحة بيّنة، وهي مدرّة للألبان وتأكلها جميع المواشي.

الخُبَّيزْ: وهي شجيرة ترتفع عن الأرض من ٥ ــ ٤٠ سم لها أوراق مستديرة ولها أغصان تسبح على الأرض، رائحتها مقبولة وطعمها مقبول، لزجة يأكلها بعض الناس وتأكلها جميع الحيوانات، تنبت في المزارع وقرب موارد الماء ومراح الغنم.

الحَنْوَة: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٥ سم ولها أزهار صفراء، طيّبة الرائحة تأكلها الأغنام، وتنبت في المزارع بشكل كثيف وهي تضايق الزرع.

المِرَارْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٣٠ سم وهي شوكية سواء في أوراقها أو في زهرتها، لها زهرة صفراء محاطة بصفّ من الأشواك العاسلة، لا يستطيع أكلها إلا الإبل، تنبت في الجبال وفي مسائلها، رائحتها طيّبة.

الْكَحَلْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٣٠ سم مغطّاة غصونها وأوراقها بدبابيس شوكية دقيقة ولها زهر أحمر وأرجواني، تنبت في الجبال، وتأكلها الإبل، رائحتها طيّبة.

الذَّعْلوق: شجيرة ذات أوراق شبه شوكية ترتفع عن الأرض، يأكلها الناس وتأكلها المواشي، ولا رائحة لها، وتنبت في الأرض الصلبة في المسائل والشغايا.

حُوّاء البُقَّير: شجيرة ذات أوراق طويلة تنفرش على الأرض وتلتصق بها، ولها زهور صفراء، ويحبها الناس ويأكلونها، أوراقها لبنّية لذيذة الطعم نكهتها طيّبة، وتنبت في الأرض الليّنة وقرب دعوص الرمل، تأكلها المواشي وهي مدرّة للألبان.

حُوّاء البَوْ: شجرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٣٠ ــ ٤٠ سم ولها أوراق عريضة تشبه ورق الخس، لها زهر أصفر، يأكلها الناس، لذيذة الطعم طيّبة النكهة، تنبت في الجبال.

الدَّرْبيَا: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٣٠ ــ ٤٠ سم، لها أوراق وأغصان مكسوّة بدبابيس شوكية دقيقة، ولها زهر أزرق صغير، رائحتها طيّبة، تنبت في الجبال وفي مسائل الشفايا، وتأكلها الإبل.

الفُنُوْن: شبيهة بشجرة الدربيا إلا أنها أصغر شجرة، وزهرها أصفر، وتحبها الإبل، وتنبت في الأراضي الليّنة.

السَّعْدان: شجيرة ذات أوراق صغيرة وأغصان تتمدّد على الأرض وبها شوك دائري وأغصانها ما دامت طريّة، طيّبة الطعم لزجة، تأكلها المواشي وهي من نبات آخر الربيع وتنبت في الأراضي الصلبة. ولا رائحة لها.

الْغُرّ: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ١٠ ــ ٢٠ سم ولها أوراق شهباء يكسوها الحماط، وهي من نبت آخر السنة وتبقى حيّة إلى آخر الصيف، تنبت في المسائل والشفايا، ويأكلها ذات الحافر، الخيل والحمير.

الشَّرشِيرْ: شجيرة تسبح غصونها على الأرض وقد تبلغ المترين أو أكثر وتنثر شوكاً كثيفاً حادّاً، وتنبت بقرب المزارع وحول تدفّق المياه، وتأكلها بعض المواشي عند الحاجة.

الجَنْبَةُ: شجيرة ترتفع عن الأرض قليلاً شوكية تنبت في الأرض الصلبة، وتأكلها المواشي عند الحاجة، ولها فائدة طيّبة لتسليك المجاري البولية، ولا رائحة لها.

الغَرَزْ: شجرة لها جذور ثابتة، أغصانها ترتفع بما يقارب ٥٠ سم وفي

رأسها سنابل صغيرة، وهي من الحشائش المفضّلة للإبل والخيل وجميع المواشي، رائحتها طيّبة، وتنبت بالشغايا ومسائل الجبال، وهي من نبت آخر الربيع وتبقى حيّة حتى آخر الصيف.

النّصِي: هي شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ـ ٣٠ سم ولها غصون وسنابل مرتفعة يعلوها زغب أبيض كالحليب، رائحتها طيّبة، تفضّلها الخيل والإبل وجميع المواشي، وتنبت على الأرض الليّنة وعلى الوهاد والرياض والأكمات والجبيلات الصغيرة، وهي كثيفة النبت وتغطّي كامل الحزون وترى لتموج النسيم فوق شجيرات النصّي الأبيض منظراً غاية في الروعة والجمال، وهي من نبت آخر الربيع وتستمر إلى منتصف الصيف.

الْقُبَـة: وهي شبيهة بالنّصي إلا أنها أطول أغصاناً وأخضر لوناً وأقل زغباً على سنابلها ولها تقريباً نفس الميّزات التي للنّصي إلا أن النّصي أحَبّ إلى المواشي منها، وتنبت في الجبال والنفود والشغايا. ورائحتها تختلف عن النّصي بأنها أقل طيبة.

الصَّحَـا: شجيرة ذات جذور ثابتة لها أعواد وأوراق ترتفع من ١٠ ـ ٣٠ سم، برأسها سنابل مكسوّة بزغب، تحبّها الإبل والخيل وكافة المواشي، طيّبة الرائحة، وتنبت في الجبال والمسائل وهي من نبات آخر الربيع وتبقى حيّة إلى منتصف الصيف.

الضِّعَةْ: تشبه الصّحا إلا أنها أكثر خضرة ولا يعلو سنابلها زغب، بل هناك سفا بدلاً منه، وتنبت في النفود وهي من نبات الصيف، وتحبها جميع المواشي وخاصة الإبل والخيل.

الأذْخِرْ: السخبر شجيرة لها جذور ثابتة تتحمّل العطش، وتنبت بكثافة في الشغايا والمسائل، ولها رائحة عطرة، وترتفع أعوادها وأوراقها من ٥٠ ـ ١٠٠ سم وتأكلها المواشي عند الحاجة.

الْجَعَدْ: شجيرة عطرية لها جذور ثابتة ولها أغصان مثبّت عليها أوراقها الخضراء المائلة للبياض بسبب زغب قصير عليها، رائحتها عَبِقة وترتفع من ٣٠ ــ ٥٠ سم، وتنبت في الجبال والشغايا والمسائل، وتأكلها المواشي كلّها، تتحمّل العطش، وتبقى على مدار السنة حيّة.

الجُرَيْبا: شجيرة ذات حماط عالق بها ومتى لمستها انتقل إليك شوكها، لها زهور زرقاء صغيرة ولها أغصان وأوراق ترتفع من ٣٠ ــ ٤٠ سم، وتنبت في الجبال ولا تأكلها المواشي إلا عند الحاجة، وهي دائمة حيّة على مدار السنة.

النّتَش: شجيرة شوكية تنبت في المسائل، لها زهور زرقاء غير أن ورقها شوكي وأغصانها شوكية، ولا تأكلها المواشي إلا عند الحاجة.

الخِضْر: شبيهة بشجيرة الجَعَد إلا أن لونها أخضر وأقل رائحة منه، وتنبت بنفس منابته.

الجرًيد: شجيرة ترتفع عن الأرض قليلاً بمقدار ١٠ سم ولها رائحة طيّبة، وتنبت في الرياض الصلبة نوعاً ما ، وهي دليل على وجود مواطن الكمأة، حيث تنبت بالرياض التي تنبت فيه الكمأة، وتأكلها جميع المواشي وهي من نبات أول الربيع.

الْجَفِنْ: شجيرة ذات غصون بيضاء ووريقات خضراء أنبوبية، وترتفع بمقدار ٣٠ سم، وتنبت في الجبال، وتأكلها المواشي عند الحاجة وتحبّها ذوات الحافر.

الصُّبَطْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ٣٠ ــ ٥٠ سم لها أوراق وأعواد برأسها سنابل مكسوّة بنوع من الزغب، ولها رائحة طيّبة، ومنابتها في الأرض الليّنة والنفود، وتأكلها جميع المواشي.

العَاذِرْ: شبيه بالصّبط إلا أن شجيراته أصغر حجمًا وأخضر لوناً وأسرع نباتاً وتنبت في أماكن صلبة نوعاً ما.

الْعَرْفَج: شجيرة متوسّطة ذات عيدان بيضاء تكسوها وريقات خضراء، يتوّجها زهور كثيفة صفراء عطرية الرائحة، تنبت في الرياض والوديان والشغايا، وتحبها الإبل والخيل وجميع المواشي وتبقى حيّة على مدار السنة.

الشّيحْ: شجيرة متوسّطة عطرية عَبِقَة الرائحة ترتفع عن الأرض ما بين ٢٠ ــ ٤٠ سم وهي من الشجيرات الثابتة، تبقى حيّة على مدار السنة، أوراقها خضراء شهباء، تأكلها الإبل والخيل، مرّة المذاق، تنبت في الرياض و«السحق» وهو المستوى الصلب من الأرض، وإذا يبست أغصانها فهي سريعة الاشتعال، حيث يقول المثل «شبّ بالشيح وقبله الريح» ولها فائدة طبّية لعسر الهضم وغيرها.

الْبُعَيْثِران: شجيرة عطرية طيّبة الرائحة لها أغصان تكسوها وريقات خضراء تميل إلى البياض، ولها زهور صغيرة ترتفع عن الأرض من ٣٠ ــ ٥٠ سم، وتأكلها بعض المواشي عند الحاجة، وتنبت في الوديان والشغايا والمسائل، وتبقى حيّة على طول السنة ولها فوائد طبّية لبعض الأمراض الباطنية.

القَيْصُوم: شجيرة عطرية طيّبة الرائحة لها أغصان تكسوها فروة رقيقة وعليها وريقات خضراء، وتختلف رائحتها عن رائحة البعيثران، وتنبت بالمسائل والوديان والشغايا، ولها زهر أصفر بقدر حبّة الحمص وهي مرّة المذاق وتأكلها الإبل عند الحاجة، ولها فوائد طبّية للجهاز الهضمي.

العُهَّيْل: شجرة شبيهة بالقيصوم في كافة مميّزاتها، غير أنها تختلف في اللون فلونها أخضر ضارباً إلى الزرقة وزهورها زرقاء ورائحتها تختلف عن رائحة القيصوم.

السَليخْ: شجيرة لها غصون تنفرش على الأرض لمسافات طويلة قد تصل المترين، لها وريقات متناثرة على الغصون الطويلة، تأكلها الإبل والمواشي، وليس لها طعم معينّ، ورائحتها مقبولة.

الدّيْدَحَانَة: عروس المسائل، شجيرة ذات أوراق عريضة وأزهار كبيرة حمراء، قد يصل قطر الزهرة ٢٠ سم وبنهاية أوراقها وأزهارها شوك وترتفع عن الأرض من ١٠ ـ ٥٠ سم، وتراها من بعيد بارزة بأزهارها الحمراء الغامقة، رائحتها مقبولة ولا تأكلها المواشي، غير أن منظرها من بين هذه الأعشاب رائع جداً، وتنبت في المسائل والشعاب والشفايا، وقد شبّه الشاعر مطيته بها، حيث يقول:

١٤ ـ يـا راكب حمـراء بـراسة صعـالـة
هي منـوة الطارش ليـا صنقر الـلال

١٥ ـ حمـراء ولا لمس الحـويـر مشـالـه
ولا قـلطه لمقـطب الحـمـل جمـال

١٦ ـ كـالـدَيـدَحـانـة يـوم تنـظر دلالـه
ليـاشاف وصفـه مولـع الهجن يهتـال

(عبد الله القضاعي)

السِّلَّا: شجيرة كبيرة من الأشجار الشوكية تنبت في الجبال والشغايا والمسائل ولها زهر أزرق صغير، وترتفع عن الأرض من ٣٠ ـ ١٢٠ سم، وتأكلها الإبل وقت الحاجة.

الصِّلْ: شجرة شوكية شبيهة بالسّلا من جميع الميّزات مع اختلاف في الأوراق والأغصان والرائحة.

القُرْضا: شجرة لها غصون طويلة وأوراق صغيرة، ترتفع عن الأرض بمقدار متر فأكثر، وتنبت في مراكد المياه وبقرب النفود ولها رائحة طيّبة، وطعمها له لذعة باللسان، وتأكل الإبل من غضّ أغصانها عند الحاجة، ولها زهور صغيرة صفراء.

الثُمَام: شجيرة عودية طويلة الغصون صغيرة الأوراق لها سنابل صغيرة ترتفع من ٥٠ ـ ١٥٠ سم، رائحتها طيّبة، وتنبت في المسائل والشعاب والرقيق من الأرض، وتأكل الإبل من غضّ أغصانها.

التَّرْبَة: شجيرة صغيرة تتمدّد أغصانها على الأرض وتكاد تنطمر بها وتمدّد أغصانها من ١٠ ـ ٣٠ سم، وتنبت بالأرض الليّنة وقرب البراخيص الرملية، وتأكلها المواشي إذا لم تجد غيرها.

حِنْبَازْ: شجيرة صغيرة لها جذر غليظ مثل جذر الفجل سكّري المذاق، لها أوراق كبيرة وغصون تتمدّد على الأرض، وتنبت في الأرض الليّنة، ويأكل الناس فصوصها في سنوات الشدّة، وتأكلها المواشي.

بَرْوَقد: شجيرة ترتفع عن الأرض، لها أوراق طويلة تشبه ورق البصل، ولا طعم لها ولا رائحة، ولها زماليق طويلة، وتنبت في الأرض الليّنة ولا تأكلها أي من المواشي، وبعض البادية يضعون أوراقها بعد تقطيعها وطبخها مع الأقط، فتكسبه مذاقاً معيّناً، وارتفاعها عن الأرض من ١٠ ـ ٥٠ سم.

الصِّفَارْ: شجيرة طيّبة الرائحة كثيفة الأزهار لها أوراق عريضة وغصون مرتفعة بمقدار ١٠ ـ ٤٠ سم، ورائحتها طيّبة، أزهارها صفراء كثيفة تنبت في الأرض الليّنة وتأكلها الإبل وجميع المواشي.

الدَّعَاعْ: شجيرة تمتد أغصانها على الأرض وتكاد تلتصق بها، كثيفة النبت، لها وريقات دائرية صغيرة مملوءة بالماء ولها زهر أصفر تنتج حباً أسمراً

صغيراً أصغر من حَبّ السمسم، يتّخذ منه بعض الناس غذاء في سنوات الشدّة، وتنبت في الأراضي المستوية الليّنة وبالقيعان، وحَبّ الدعاع يُعمل منه أرغفة سمراء وعصيدة سمراء لكنها لذيذة ومغذّية، يعيش عليها طبقة من الناس في أوقات الشدّة بعد تصفيته من أشجاره.

السَّمِحْ: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٥ ــ ١٥٠ سم، لها أوراق أنبوبية مملوءة بالماء، تنبت في مواطن شجرة الدعاع أو بالقرب منها، وتنتج حَبّاً بنّيّاً يصفّى من أشجاره ويطحن وتُعمل منه الأرغفة والعصيدة السمراء وهي لذيذة أيضاً ومغذّية، ويلجأ إليها الناس وقت الحاجة. ويستفاد من أوراقها في التنظيف قبل انتشار الصابون.

الفُوَيغِرَة: شجيرة قريبة الشبه من السّمح إلا أنها ملفوفة على بعضها، وتنتج حَبّاً أسمراً يُستفاد منه كسابقيه، وهي تنكمش على حَبّها حتى يأتيها الماء ثم تنثره بدون أي مجهود، وتنبت في الأراضي الصلبة في القيعان ومسائل الشغايا.

الرِّمْث: شجرة تغطّي مساحات كبيرة وهي من الشجر الدائم، وترتفع عن الأرض من ٥٠ ــ ٢٠٠ سم، وهي من الغطاء النباتي في الجزيرة العربية، ويُستفاد منها كحطب، حيث أن حطبها طيّب الرائحة عندما يكون على النار، وتأكل منها الإبل في الصيف كنوع من الحمض وجذوع الرمث «الحفائر».

الرُّوثَة: تشبه شجرة الرّمث إلا أنها أصغر منها حجمًا وأقل انتشاراً، لا تنبت إلا في أماكن معيّنة في شمال نجد وتحبّها الإبل في الصيف وتأكلها بعض المواشي.

قتاد: وهو شجيرة شوكية لها ورق صغير ولها شوك طويل عاسل، وتنبت في الأودية، ويُضرب بها المثل في كثرة الشوك وحدّته، ولها زهر على شكل فقّاعات زهري اللون يميل إلى البياض، ويستفاد منها في سني الجدب بتقطيعه ثم يعرّض للنار، بحيث تأكل شوكه وتبقى الأغصان المحتوية على مادة لزجة، تأكله الإبل والخيل والحمير عند الحاجة.

□ ـ موسم الحصاد:

وكما أن لكل جهد ثمرة يجنيها مَن قام بهذا الجهد فإن الحصاد يُعتبر ثمرة جهد الفلاح لمدة خمسة أشهر متواصلة من العمل الشاقّ الدؤوب، ويستبشر الفلاحون بقدوم هذا الموسم، فإذا اصفرّ الزرع واكتسب اللون الذهبي فمعنى هذا امتلاء سنابل القمح بفصوص الذهب الأحمر، واكتنزت سنابل الشعير بالحبوب المتراصّة ومالت سنابل القمح الصلب «اللقيحي» بما أثقلها من الفصوص الذهبية الصفراء، عند هذه البوادر يظهر على الفلاح علامات الاستبشار، فيبدأ بحصاد الشعير أولاً، ثم القمح الطري بعده ثم اللقيحي وهو الأخير وذلك باشتراك الرجل والمرأة في هذا العمل الجماعي التعاوني، الذي يقوم به الفلاحون وذووهم وجيرانهم بعملية الحصاد في صفوف متراصّة، بحيث يحصد كل منهم جنباً من الزرع، صف من الحياض ابتداء من طرف المزرعة إلى طرفها وذلك باستخدام المخلب، المنجل، حيث يخلّفون وراءهم أكواماً متراصّة من الزرع تسمّى «غموراً» وأثناء عملية الحصاد يردّدون بعض الأهازيج المعبّرة عن الفرحة والسرور التي تملأ النفوس، مثل:

١٧ ـ يـا فـرحَـتي بـالـغـالي
مَـن سَـهّـرَن لـيـالي

١٨ ـ نَـبْـدا بـحـصـد الحَـبّـي
بَـارِك لـنـا يـا ربيّ

وتجرى مسابقات في الحصاد تشبه مسابقات الحرث بين فريق وآخر، ومن يستطيع الوصول إلى آخر الزرع أو القطعة قبل الأول يكسب الرهان، وتستمر عملية الحصاد من الصباح الباكر مع طلوع الشمس حتى أذان الظهر، وبعد صلاة العصر حتى غروب الشمس وفي نهاية كل فترة يجمع الحصّادون ما تركوه من «غمور» في كدوس واقفة رأسياً على جذوع القصب والسنابل تكون إلى أعلى، بحيث يصبح كل كدس «تكس» على دائرة قطرها يتراوح بين ٢ ـ ٣ متر

وتجُمع الكدوس في أماكن متقاربة من بعضها أو تكون بجانب «المِـدْرَس» وهو ما يُدرس فيه الحَبّ، هذا بالنسبة للشعير. أما القمح فأحياناً يضعونها بيادر وهي أن يطرح القصب في دائرة أفقية تكون السنابل إلى الداخل وجذوع القصب إلى الخارج، على دائرة قطرها من ٢ ـ ٣ متر وذلك للمحافظة عليه من أكل البهائم، غير أن عيب هذه الطريقة في حالة هطول أمطار عليها أن يلحقها ضرر بما يعلّق بالحَبّ من «الجفر» وفي موسم الحصاد يستفيد مَن ليس له زرع بأن يساعد الفلاح مقابل أن يعطيه عن كل يوم «غمر» حضن، وهو ملء ما بين يديه مما على الأرض من الزرع للرجال والنساء على السواء، وحتى الصبية والصبايا الصغار يذهبون إلى مكان الحصيدة ليحصلوا على «الغمر» من الفلاح مجاناً، الذي يوزّع عليهم بكل سرور قبضات متوسّطة من الزرع في جو يغمره الفرح والدعابة مع الصغار، فينصرفون فرحين مسرورين بما حصلوا عليه. ويخصّص الفلاح لمن يريد مبرّتهم، أو من يتعاونون معه كراعي الغنم وراعي الإبل والنجّار والحداد وخادم الأمير وسائق السواني ومفجر الماء وغيرهم «غمر» لكل واحد منهم في وقت الحصـاد، يستفيدون منهـا ويحتوي «الغمـر» من ٢ ـ ٣ أصواع حَبّ، وفي السنوات الصعبة نجد موسم الحصاد موعداً لانفراج الأزمة الغذائية، فنجد بعض الناس يبدأ بفرط السنابل الرطبة ويجفّفها ثم تُطحن وتُطبخ ليأكل منها بعد ذلك، وفي موسم حصاد الشعير يتم فرط سنابل الشعير الرطبة ثم تحميصها وطحنها ثم خلطها بمريسة التمر مع شيء من السمن البرّي لتصبح «بسيسة» وهي ذات مذاق لذيذ ونكهة فاخرة وغذاء مفيد، أما عند حصاد الحنطة فإنهم يأخذون قبضة من خيار السنابل «شلواطة» ليتمّ شويها على نار خفيفة حتى تنضج السنابل ثم يفركها المرء بيديه وينفخ قشورها بفمه حتى يبقى الحب براحته صافياً، ثم يلتهمه ويمضغه مشويّاً طريّاً لذيذاً، وأحياناً يأخذ السنابل فينقّب حبَها واحدة بعد الأخرى بشوكة وذلك كنوع من التسلية، خاصة سنابل «اللقيحي».

وهكذا نجد الفلاح يخدم قطاعاً كبيراً من مواطنيه بالمنفعة المشتركة.

□ درس الزرع وتصفيته:

يُعتبر درس الزرع بالِمدْرَس هي المرحلة النهائية إذ يقوم الفلاح باختيار بقعة صلبة من الأرض وينقل إليها نوعاً من الطين الجيّد يكفي مساحة الـمِدْرَس المقرّرة بحدود ٣٠ × ٣٠ متراً تقريباً، ويتم خلطها جيّداً ومساواتها بحيث تصبح صلبة يبقى الحَبّ فيها صافياً نقيّاً ويركّز بوسط المِدْرَس خشبة غليظة وطويلة تكون بمثابة مركز الدائرة، ويتعاون الفلاحون على خلط المِدْرس كغيره من الأعمال الجماعية، وبعد أن يجفّ جيّداً تنقل إليه الكدوس على كميات مختلفة ١٠، ٢٠، ٣٠، ٤٠ كدساً، يتم درس كل كمية مرة واحدة وذلك بأخفاف الإبل أو حوافز الحمير بعد قرنها مع رقابها بحبل طويل وقوي وربط طرف هذا الحبل بـالخـشـبـة المـركـوزة في وسط المِدْرَس بحيث تبدأ دورانها حول الخشبة وتدوس في أخفافها وحوافرها الزرع الجاف حتى يصير تبناً وحبّاً، ثم بعد ذلك يطلقونها، ويزيحون الزرع الذي تمّ درسه جانباً على شكل مكعّبات على جوانب المِدْرَس بواسطة المحراث، كل نوع من الزرع على حدة، ويسمّى هذا المكعّب «دريخة» وهكذا حتى ينتهي الزرع كاملاً ويقوم بعملية الدرس الفلاح ومعاونوه، ثم يأتي دور الذري وهو تصفية الحَبّ عندما تهبّ الرياح متوسّطة السرعة فإن الرجال والنساء يشتركون بهذه العملية وذلك بالوقوف على جانب «الدريخة» وأخذ كل واحد منهم غرزة ملء يديه ورفعها إلى محاذاة رأسه ثم إفلاتها شيئاً فشيئاً، بحيث يسقط الحَبّ إلى أسفل ويطير التبن مع الريح على مسافة مترين أو ثلاثة، وليس للذري وقت معينّ، فهو يتوقّف على هبوب الرياح المناسبة، فمتى هبّت بدأ الفلاحون الذري حتى تتوقّف، ويقول المثل «لياهبّت هبوب أذر فيها لا بدا لهبوب من السكون» وهكذا حتى تنتهي هذه المكعّبات من الزرع المدروس وتصفّى كميات الحبوب ويتمّ إيفاء صاحب الدين حقّه، ويبيع الفلاح ما يزيد عن مئونة بيته لمدة عام كامل، أما ما يخصّ البيت فيخزنه في بيته، وتسمّى فترة درس الحَبّ وتصفيته «الصَّايِرَة» وفي هذا الموسم تكثر المراصيع وهي أرغفة من طحين القمح الخالص مدهونة بالسمن البرّي مخلوطة بالبصل المقطّع، أو السمن والدبس. وعملية الذري من الأوقات الممتعة خاصة إذا كان

الهواء عليلاً بالليالي المقمرة، وبعد تخزين الحبوب وتصريفها، وتخزين التبن كعلف للبهائم تنتهي عملية الزرع بعد أن جنى الفلاح ثمرة عمل استمرّ ما يزيد على نصف السنة، ليستريح قليلاً، وأنىّ له ذلك!!!، فما إن ينتهي من عمل حتى يبدأ بعمل آخر على مدار السنة وذلك ديدنه.

□ زراعة الخضروات والفواكه:

وما إن يقطع الفلاح الماء عن الزرع حتى يصرفه إلى مجالات أخرى منها سقي النخل وزراعة الخضروات التي تكون زراعتها على نطاق ضيق لأن الفلاح لا يبيع انتاجها وإنما يتم استهلاكه للبيت والجيران يعطون من هذه الخضار مجاناً ويهدي الفلاح من هذه الخضروات لغير جيرانه ومن لهم حق عليه أو ارتباط به، وتنقسم الخضار المزروعة إلى نوعين منها الخضار المطبوخة كالباذنجان والطماطم والكوسة والخيار والقرع بنوعيه الأبيض الكروي والمستطيل الأصغر «مصرية» واللوبيا والفلفل الحار «حبجر».

النوع الثاني الخضار التي تؤكل نيئة مثل الجبحب «جح» بأنواعه المختلفة والشمام «البطيخ» بأنواعه المختلفة، فهذه الأنواع بالاضافة إلى ما يهديه الفلاح ويوزعه على جيرانه كما أسلفنا فإنه يقدمه في موسمه مع صينية الرطب للضيوف والزوار الذين يقصدونه في مزرعته أو في قهوته في مجموعات متتابعة.

وبحكم العادة فإن الزوار «المسايير» يكثر ترددهم على الفلاح في بداية موسم الرطب وعند نضج أي نوع من أنواع الفواكه كالعنب، والتين، والخوخ، والرمان، والبرتقال، والأترج فهذه الأصناف الرئيسية التي يزرعها الفلاح ولا يبيعها وإنما هي للاستهلاك المجاني يقدمها لزواره وقاصديه مسروراً بجانب صينية الرطب في موسم كل نوع بالاضافة إلى القهوة العربية إذا كان ذلك في المقهى.

لذلك فالخضروات والفواكه لا يتوسع الفلاح كثيراً في زراعتها بل يزرع

ما يكفي حاجته آنفة الذكر، وتزرع الخضار المومي إليها إما في حياض مربعة كالباذنجان والفلفل الحار، أو في مشاعب مستطيلة كالحجب والشمام والقرع اللوبيا وذلك بعد أن يتم تسميد الأرض وتقليبها جيداً واختيار الأرض المشمسة وتتم زراعة الخضروات على فترات مختلفة كالقرع تبدأ زراعته في أول فصل الربيع دخول «السماك» والحجب والشمام في منتصف فصل الربيع قبيل طلوع نجم الثريا ويزرع الطماطم والباذنجان في نفس الوقت في حياض صغيرة حتى يكون شتلات بطول ١٠ سم ثم توزع هذه الشتلات في حياض كبيرة على مسافات متباعدة نسبياً، أما الفواكه فإن زراعتها تتم على حياض النخيل وعلى السواقي أو على الجابية غير أنها رغم ذلك تحمل بشكل كثيف وأثمار ممتازة جداً.

من هذا يتضح لنا أن الخضار والفواكه موسمية، وليس لها سوق مستمر على مدار السنة كما هي عليه الآن، وإنما تتوفر في وقتها وتوزع بالمجان ينالها الفقير والغني في نفس الوقت بدون حرج ولامنه، وعلى هذا الأساس تعتبر زراعة ثانوية.

□ زراعة الصيف:

الذرة ـ الدخن بأنواعه:

يستمر هذا العامل المعطاء في الجهد المتواصل الخير، فما إن ينتهي من زرع موسم الشتاء حتى يبدأ في زراعة موسم الصيف التي تتمثل في الذرة والدخن بأنواعه الثلاث «التكسة» و«المليسا» «الحصنية»، والدخن العادي وتبدأ زراعة هذه الأنواع عند طلوع نجم الثريا، ويزرع كل نوع في جزء منفصل من الأرض بعد تسميد الأرض جيداً وتقطيعها إلى حياض كما هو الحال في زراعة القمح والشعير، غير أن المساحة المزروعة بهذه الأنواع تكون أقل مساحة من تلك ومدة سقي الذرة أربعة أشهر، أما الدخن بأنواعه فمدة

سقيه ثلاثة أشهر يتم بعدها قطاف سنابل هذه الأنواع وهي واقفة يبقى بعد ذلك قصبها علفاً للمواشي، وتجمع السنابل في مكان صلب مدرس ثم تدق بعصي غليظة وتصفي حبوبها ويتم تخزينها. وبعض الفلاحين يخزن هذه الأنواع من الحبوب بسنابلها بغرف خاصة وذلك لتبقى مدة طويلة قد تصل إلى بضع سنوات دون أن يصيبها عطب وذلك تحسباً لسنوات الشدة. والدخن بأنواعه كلما حال عليه الحول زاد جودة في عيشة، وعادة يتم طحن حبوب الذرة، وجرشها، وكذلك يتم طحن أحد أنواع الدخن «التكسة» الشامية. أما النوعين الباقيين، الدخن العادي و«المليسا» «الحصنية» فيتم هرسها بـالمهراس ويتم طبخها وتسمى «هبيشة» ويزرع أحد أنواع الدخن «التكسة» كعلف للمواشي على حياض النخل وعلى السواقي، وفي حياض مستقلة، كما يتم زرع البرسيم على مساحات متوسطة لاستخدامه كعلف للمواشي أيضاً وخاصة في السنوات التي يتأخر فيها المطر، وهكذا نجد الفلاح يكمل كل جزء من عمله الجزء الآخر.

□ الجذاذ:

الثمرة الرئيسية الثانية التي يجنيها الفلاح خلال العام هي جذاذ النخل أي صرامه ويسبق عملية الجذاذ خطوتان، على فترات متباعدة الأولى هي «تشييف» النخل وتلقيحه، فالتشييف هي تجريد جريد النخل من الشوك الذي يكون عادة في أسفل السعف وذلك اتقاء وخزه عند العمل بفرع النخلة ثم تلقيح النخل بلقاح «البار» فحل النخل بحيث يأخذ الفلاح أو عامله شمراخاً من عرق الفحل ثم يصنعه في وسط عذق النخلة الجديد بعد أن تنشق عنه الكافورة ثم يربطه بشريحة من الخوص ومتى كبر البسر انقطعت، ويأخذ هذه العذوق الواحد تلو الآخر إلى نهايتها، لأن البسر إذا لم يلقح في وقته يتساقط من عذوقه، ولعذق النخلة عندما تنشق عنه الكافورة رائحة عطرية فواحة، وله بياض نـاصع جذاب، يشبهون خدود الفتيات بشقائق كافور النخل كما قال الشاعر:

١٩ ــ خـده شقـاق مهــزعـات الــرطيبي
قبــل الفـوات وقبــل يـرقــاه وبــار
(عبد الله القضاعي)

وعندما تكون النخلة حاملة أكثر مما تطيق فإن الفلاح يقتلع بعض العذوق منها، باجتذابها من أساسها حيث يكون في نهايتها، جمار العذق وهنا تكمن لذة المذاق، وطراوة الملمس، وبياض اللون، وطيب الرائحة، وحلاوة الطعم، ويشبه الشاعر ساق محبوبته بجمار النخل حيث يقول:

٢٠ ــ العـين عين الـوحش يـا ظبي رمـان
والساق جمــار غــرس لاح بقـنيــه
(علي السلامة)

هذه الخطوة الأولى. أما الخطوة الثانية فهي تعديل النخل، وهي وضع عذوقة على الجريـد حسب مقاس العـذوق وإلصاقـه في فرع النخلة حتى لا يضيمها ولا ينكسر عندما يكبر البلح، ووقت التعديل عندما يكون البسر بحجم حبة الزيتون ثم يتغير لون البلح بعد ذلك «مصي» إلى أصفر ذهبي، واحمـر أرجواني عند طلوع الجوزاء ثم يتلوه موسم الرطب، ولقط الرطب «الخراف» ويكون لبعض النخل في البداية وهي الأنواع التي تنضج مبكره وذلك عند طلوع الشعراء المرزم، وعندها يتوفر الرطب في كل نخلة، حيث يقول الشاعـر:

٢١ ــ ليـا ظهر المرزم شبـع كـل كـالف
من الغيــد وانحن الليـال الشــدايـد[١]
(راشد الخلاوي)

---

(١) راشد الخلاوي، ص: ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

وعندها يتمتع الناس بجني ألذ وأطرى أنواع الرطب، وتقديمه للضيوف والزوار «المسايير» مع شيء من الخضار، أو الناضج من الفواكه إضافة إلى القهوة العربية وبشاشة الجبين، ولا يفوتني الاشارة إلى «القريم» وهي الرطبة التي يأكل منها العصفور وهي في أمها ثم تذبل مركزة فيما بقي منها أكبر كمية من السكريات، مع أخف نكهة فيها، فإذا سقطت على الأرض أو التقطت مع الرطب تسابقت الأيدي إليها، وذلك لما لها من طعم حلو، ونكهة مميزة، كما قال الشاعر:

٢٢ ــ أحلى من اللي ينقد الطير رأسه

ليا ناشها بين الجريد نواش

(راشد الخلاوي)

وفي هذه الفترة يمنح الفلاح أقاربه أو جيرانه المستحقين أو من لهم علاقة فيه لكل واحد منهم نخلة تسمى منيحة يلقط رطبها في كل يوم وقد يشتري البعض الآخر نخلة لنفس الغرض وبعد طلوع سهيل يتوفر الرطب في كل نخلة، ويقول المثل الشعبي: «إذا طلع سهيل تلمس التمر بالليل» وبعد ذلك يبدأ موسم الجذاذ وهو صرام النخل بعد غياب نجمي «النسرين» كما أشار إليه الشاعر:

٢٣ ــ ليا غابت النسرين بالفجر علقوا

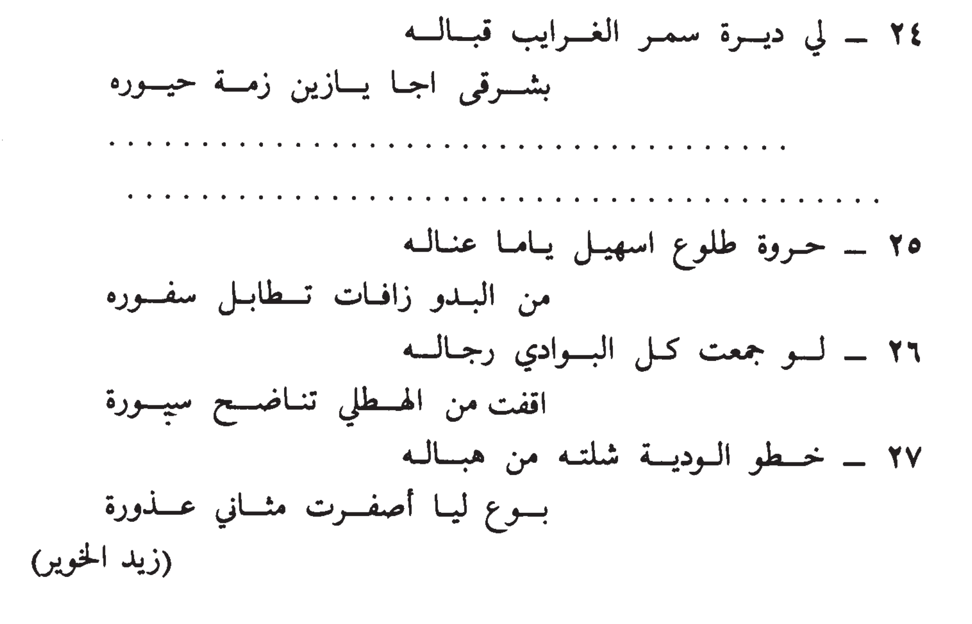
مخارف في لينات الجرايد[1]

ويبدأ الاستعداد لموسم الجذاذ، بتجهيز زنبيل كبير، له أربع عراوٍ ورشاء من الليف الجيد المجدول من ثلاثة فروع، وقطع كبيرة من سفيف الخوص بمساحات تتراوح بين ٦ × ١٠ متر وأكبر من ذلك وأصغر لفرشها ووضع أكوام التمر عليها، بعد تنزيله من النخل، تمهيداً لبيعه في موقعه، سواء على تجار

---

(١) راشد الخلاوي، ص: ٣٠٥.

التمور، أو على الممتارين من البادية الذين يأتون في مجموعات، وترى الناس غادين رائحين في تلك البساتين «الحيور» بين تلك الأصواب من التمور، إما معاوناً لأهل «الحير» أو ممتاراً منهم، أو متفرجاً آكلاً بالمجان، وتكثر الحركة التجارية في هذا الموسم، وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:



٢٤ ـ لي ديـرة سمـر الغـرايب قبـالـه
بشـرقى اجـا يـازين زمـة حيـوره

. . . .

. . . .

٢٥ ـ حـروة طلوع اسهيـل يـامـا عنـالـه
من البـدو زافـات تـطـابـل سفـوره

٢٦ ـ لـو جمعت كـل البـوادي رجـالـه
اقفت من الهـطلي تنـاضـح سيـورة

٢٧ ـ خـطو الـوديـة شلتـه من هبـالـه
بـوع ليـا أصفـرت مثـاني عـذورة

(زيد الخوير)

وعملية الجذاذ يتعاون فيها الرجال والنساء، فالرجال يصعدون النخل، فاثنان منهم يصعدان النخلة فيتفرعها واحد يتولى قطع العذوق والثاني يتعلق «بالكر» ويمسك المجذاذ ومتى امتلأ صله إلى الأرض حيث تتلقفه النساء، ويقمن بتفريغه بزنابيل أصفر ليتم نقلها إلى فراش التمر المعد لذلك، ليجد التمر هناك من ينظفه من عذوقه وعزل البسر منه وتنقيته من الشوائب الأخرى، ليبقى التمر نقياً، ومن هذا الفراش يسدد الفلاح دينه، ويقبض بيديه النضار الأصفر والأحمر والفضة البيضاء، ورنين النقدين في هذا المكان ينسيه متاعب يومه، ويدفن آلام عامة، كما أنه يوفي بالتزاماته، نحو من له علاقة فيه، فيعطي هذا ويبر ذاك

---

(١) الأزهار النادية، ج ٣ ص ٩٩.

ويرسل لتلك العجوز أو ذاك المقعد، أو أولئك اليتامى ما تجود به أريحته، من هذه الثمرة، ويكتنز لبيته ما يكفيه كمئونة لمدة عام من أطايب التمر، وعادة يكال التمر بوعاء متوسط الحجم يسمى «طاسة» كل كيلة فيها تساوي خمسة أصواع ومتوسط انتاج النخلة من ٦٠ ـ ١٠٠ صاع من التمر ويصل في بعض الأحيان إلى ٢٥٠ صاعاً حسب موقع النخلة وطيب صنوها وغزارة الماء لها ولا يفوتني أن أشير إلى أن النخلة تمر بثلاث مراحل في تسميتها فهي تبدأ «بغرسية» حتى ترتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف ثم تسمى ودية حتى تكون على ارتفاع ثلاثة أمتار ثم تسمى نخلة ومتى طالت تدعى عيدانه.

□ جمع الحطب:

يعتبر الحطب جزءاً من الغلاة ويقوم بهذا العمل الرجل في الغالب إلا أن المرأة تشارك فيه ولكن بنطاق ضيق عند الحاجة إلا في بيئة العرب الرحل فهي التي تقوم بهذه المهمة ويجمع الحطب من أماكن قريبة من المدينة أو القرية أو أماكن تواجد بيوت الشعر، وجلب الحطب للاستعمال الضروري كل شخص يؤمن ما يكفي بيته والبعض منهم يكون جمع الحطب وبيعه مصدر رزق لهم حيث يحضره من البر ويبيعه يومياً بما يكفيه قوت يومه والناس مضطرون للحطب لعملية الطبخ والتدفئة في فصل الشتاء خاصة ويعتبر من السلع الضرورية، وحول مضارب البادية وقرب القرى تقوم المرأة يتقليع وجمع شجر الحطب ثم تحزمه في حبل معها وبعد ذلك تحمله على رأسها وتحضر الحزمة إلى بيتها، وإذا كان مكان الحطب بعيداً فإن الذي يقوم باحضار الحطب هم الرجال على ظهور الحمير أو الابل ويتم تقليع الحطب بالفأس أو «الفاروع» إذا كان الحطب أرطى أو (طلح) أو (سلم) أو (طرفا) أو (أثل)، أما إذا كان من شجر الرمث أو الشنان فيتم «بالمنساف» أو عمود الحديد ثم ينضد بعد تجميعه على الشبكة التي مر ذكرها على مكعب يختلف حجمه باختلاف ثقل الحطب من عدمه ويكون مكعب الرمث أو الشنان بطول ٣ × ١ × ١,٥ متر٣ ويربط ويمس بالحبال الليفية المخصصة لذلك ثم يحمل على ظهر الحمار ويحضر

للبيوت، أما إذا كان الحطب ثقيلاً فإن حجم المكعب المذكور يقل ارتفاعاً ويزيد طولاً إذا كان من الأغصان الطويلة، وإن كان احضار الحطب على ظهور الابل فيوضع على شكل فردتين تسهيلاً لحمله وينضد على شبكتين أصغر من السابقة تسمى «الشبقان» وتوضع كل واحدة على جنب من جنبي البعير لتكون الفردتان حملاً متعادلاً وفي العادة تقرن الفردتان على ظهر البعير وهو بارك، ثم ينوض بحمله متجهاً به إلى حيث يريد صاحبه ويكون الحطب من الغطاء الشجري المتوفر بالبقعة موضع البحث، مثل الرمث وهو ذو رائحة طيبة عند وضعه على النار وبالذات جذوعه المنغمسة في الأرض «الجروم» وعلى الأخص الهشيم البالي منها «الحفاير» فإن رائحتها طيبة فواحة. كذلك الغضا له رائحة زكية وناره شديدة الحرارة ويصف الشاعر حرارة نار الغضا إذ يقول:

واقلبي الـلي بـين الأضـلاع جـاش
كنه على جمر الفضا يوحش أو حاش
(. . . . . .)

والأرطى لا يقل طيبه في الرائحة عن سابقيه فلها بنة منعشة عند وضعها على النار فإن رائحتها كذلك مقبولة ما عدا الطرفا والأثل فإن رائحتها لا بأس بها.

□ □ □

الفصل الرابع:

المنتجات الزراعية

□ حبوب موسم الشتاء:

رأينا أثناء مرورنا بأعمال الفلاحة أن المنتجات الزراعية من الحبوب السنوية هي كما يلي:

١ ـ **القمح الطري الحنظة:** وهي القمح الأحمر بأنواعه «الهلبا» وهي ذات القصب المتوسط من ١٠٠ ـ ١٥٠ سم والسنابل الطويلة ١٠ ـ ١٥ سم و«السفى» الأسود سهلة التفتت من جيوبها، حبوبها مستطيلة، و«الجربيا» وهي ذات سنابل متوسطة الطول من ٥ ـ ١٠ سم وبدون «سفى» متوسطة الصلابة في التفتت من جيوبها وحبوبها قصيرة والنوع الثالث هي ذات السنابل القصيرة ٥ ـ ١٠ سم الغليظة و«السفى» الأشقر وهي سهلة التفتت من جيوبها والنوع الرابع هي «المعية» وهي ذات سنابل متوسطة ٥ ـ ١٢ سم «وسفى» رمادي وهي صعبة التفتت من جيوبها صلبة الب أيضاً وجميع ألوان حبوب سالفة الذكر حمراء.

٢ ـ **القمح الصلب «اللقيمي»:** وهي ذات قصب متوسط ٧٠ ـ ١٠٠ سم وسنابل مصفحة مجدولة من ٥ ـ ٧ سم و«سفى» أشقر حبوبها مستطيلة صفراء، صعبة الاخراج من جيوبها ويشبهونها «بظروس الخيل» والنوع الثاني هو «المتليقمة» تشبه سابقتها في بعض المظاهر وتختلف عنها في شكل

السنبلة وجودة الحب وتعتبر درجة ثانية بالنسبة للأولى النـوع الثالث «الطيارة» وهي تشبه سنابل «اللقيمي» غير أن «سفاها» أسود وهي أسرع استواء من سابقتها وأسهل في اخراج الحب من جيوبه ويميل لون حبها إلى الحمرة قليلاً.

٣ ـ الشعير: وهو أنواع أشهرها «الجهيلي» وهو ذو قصب متوسط الطول وسنبلة قصيرة ٥ سم مكتنزة بالحبوب البيضاء والكثيفة سريعة الاستواء، أما النوع الثاني فهو «أبو دوسة» وهو ذو قصب طويل وسنابل طويلة قد تصل إلى ١٥ سم إلا أن حبوبه أقل تـراصـاً من سابقه ويعوض عن ذلك بطول السنبلة وهو بطيء الاستواء.

□ الحبوب الصيفية:

١ ـ الذرة البيضاء والحمراء: ويرتفع قصبها إلى ما يغطي قامة الرجل من ١٥٠ ـ ١٨٠ سم وعندما تمتلىء جيوبها بالحب تركع السنبلة حانية رأس القصبة، وتكبر السنابل وتصغـر حسب خصوبة التربة ووفرة المياه من عدمها مكونة كرة مستطيلة يتراوح قطرها من ٧ ـ ٢٠ كم، أما الذرة الصفراء فإنها شبيهة بالنوعين السابقين غير أنها ذات حب أكبر وأجود يصطبغ لون قشور الجيوب باللون الأصفر أما الذرة الشامية ذات السنابل المستطيلة الملفوفة بوشاح من أوراقها ذات الحبوب الكبيرة فإنها لم تدخل إلا على نطاق ضيق وفي الزمن المتأخر.

٢ ـ «التكسة»: وهي النوع الجيد من الدخن لها قصب طويل يصل إلى ٢٠٠ سم ولها سنابل مستطيلة تتراوح بين ١٠ ـ ٣٠ سم وتخرج من الشجرة الواحدة مجموعة من السنابل في القصبة الرئيسية وفروعها، ويمكن أن تقطف السنابل في عدة أجيال على فترات متتالية مما يخرج من الأصل أو الفروع وعلى هذا فانتاجها كثيف إذا ما قيس بالأنواع الأخرى النوع

الثاني هو «المليسا» «الحصنية» وهو نوع من الدهن له قصب قصير ٥٠ ــ ٨٠ سم وسنبلة مستطيلة من ١٠ ــ ١٥ سم معتكلة يتراكم الحب فيها بشكل متراص ويخرج من الشجرة سنابل محدودة لفترة واحدة فقط، أما النوع الثالث فهو الدخن العادي وله قصب قصير من ٤٠ ــ ٦٠ سم وسنابل قصيرة من ٥ ــ ١٠ سم ذات خصل متراصة مملوءة بالحب ويخرج من الشجرة عدد من السنابل لفترة واحدة فقط.

٣ ــ **التمور**: وتنقسم التمور إلى عدة أنواع منها الجيد ومنها ما هو أقل جودة، كذلك يختلف لونها عند زهوها بين أصفر ذهبي وبرتقالي وأحمر وردي ومتوسط أرجواني وتبعاً لذلك فإن التمر يتلون بالأشقر، والأصفر، والبني، والأسمر، ومن أنواع التمور الجيدة الحلوة ــ السكرية ــ نبوت سيف ــ السلجة ــ الخلاص ــ المجهولة ــ الرخيمي ــ البرحى ــ المقفزي ــ السري ــ الحديري ــ المكتومي ــ دقلة المفتاح ــ أم الخشب ــ الغساني ــ الزامل ــ القسبة شقراء ــ روثان ــ أم حمام ــ قطارة ــ ونان ــ دقلة خلف.

والنوع الثاني الحمراء ــ الخضري ــ الصويري ــ الحدقي ــ الصادرة ــ التقبلي ــ القناية ــ الأصباع ــ الدبية ــ الطريق ــ الخشرم ــ الرزيزي.

ويتراوح إنتاج النخلة الواحدة من ٢٠ ــ ٢٥٠ صاعاً الصاع ٣ كجم تقريباً حسب خصوبة أرضها وطيب مجثها ووفرة مائها.

ويكنز التمر في حياض مخصصة له داخل الغرف مبنية ومعدة إعداداً جيداً بارتفاع يتراوح ما بين ١ ــ ٢ × ٣ × ٢ م^{٣} أو أصغر أو أكبر كما يكنز في إناء دائري كروي مبني من الجص فتحته العليا ضيقة يسمى «الجصة» وعادة يوضع بأسفل الحوض أو «الجصة» مجرى صغير يخرج منه دبس التمر ليصب في حوض صغير، يغرف منه كلما امتلأ وكذلك يعبأ التمر في أوانٍ

أخرى كالقدور وما شابهها، أما عندما يراد نقله من مكان لآخر عند تجار التمور أو البادية فإنه يعبأ بالخصف وهو نسيج من خوص النخل أو بالعيبة وهي وعاء جلدي كبير من جلود الابل المدبوغة ومخروز بسير من نفس الجلد بحيث يسد السير مداخله وتصبح العيبة جيدة الامساك للتمر ودبسه.

٤ ـ **الفواكه**: وتتركز الفواكه في الأنواع التالية: المشمس وهو أسرع أنواع الفواكه نضوجاً، يليه التفاح الصغير الحالي. ثم العنب بنوعيه الأبيض والأحمر يأتي بعدهما التين بنوعيه الأصفر والأخضر الضارب إلى الرزقة، ثم الخوخ بنوعيه الأخضر والأصفر الوردي «العرامي» فالرمان الحالي والرمان الحامض والرمان «الشهربان» الذي يجمع بين الحلاوة والحموضة ثم البرتقال الحالي، والبرتقال العادي، والليمون «أبو زهيره» وآخرها الأترنج، وهذه الأنواع تزرع كما أسلفنا بكميات ثانوية تفي بالاستهلاك المحلي المجاني.

٥ ـ **الخضروات**: وتتمثل في الحجب «الحج» بأنواعه المختلفة كالسيدلان المستطيل والكروي بأنواعه، والشمام «البطيخ» بأنواعه أيضاً السكري والحامض، والطويل والخيار والباذنجان بأنواعه الأسود والأبيض المستطيل والكروي، والقرع بنوعيه الكروي الأبيض والأصفر «الدُّبَّا» والمستطيل الأصفر «المصرية» والكوسة، والطماطم.

وهذه الأنواع من الخضروات تزرع كما هي عليه الحال بالنسبة للفواكه على نطاق ضيق على قدر الاستهلاك المحلي المجاني.

٦ ـ **البقول والأفاوية**: وتتكون من البصل ـ والثوم ـ والكراث ـ واللوبيا ـ والحلبة ـ والرشاد ـ والحبة السمراء ـ والحبة الحلوة ـ والكمون ـ والكزبرة ـ والعصفر.

هذه الأنواع هي من نصيب المرأة على الغالب تعتني بزراعتها ورعايتها وتصفية حبوبها والتصرف بها ومعظمها تزرع في فصل الشتاء ما عدا البصل والثوم واللوبيا فتشذ عن هذه القاعدة.

□ □ □

الفصل الخامس:

الـــرعي

◻ استلاع أماكن نزول المطر:

ما إن تزل جمرة القيظ ويظهر نجم سهيل ويبرد الجوّ، حتى يشتهي العرب الرحّل الضاربون حول أماكن المياه النزوح عنها قليلاً، استعداداً لمغادرة المكان إلى مساقط المطر، وتمضي عليهم هذه الفترة التي تقارب الشهرين وهم في ترقّب مستمر لظهور الغيوم على صحن السماء، وتوجّس لأخبار البرق، متعطّشين لنزول المطر، في تلك الفترة لم تكن المخترعات الحديثة تنشر الأخبار بالصوت والصورة، وإنما يعتمد على الرؤيا المجرّدة للبرق وأخبار الركبان الذين يغدون من أماكن بعيدة أو قريبة، وبما أن الغيوم في هذا الفصل من السنة تكون مرتفعة، فإن البرق يلوّح من مسافات بعيدة نسبياً في مقياس تلك الفترة، وتظلّ العيون متلهّفة للاكتحال بوميض البرق وتبقى الآذان متفتّحة لاستقبال نغمات الرعد التي تضاهي بأزيزها أرفع معزوفات «بتهوفن» في سمع من يرتجيها.

وتكاد تطغي على الأخبار ومداولات المجالس وندوات السمر أنباء المطر ورؤية البرق، وما إذا كان قد تأخّر عن العام الفائت، فتلهج الشفاه بالرجاء الحار والتضرّع إلى الله لإغاثة عباده، وكلّ يراجع نفسه إن كان قد عمل عملاً يستحقّ التوبة، فعليه أن يتوب إلى الله، وما أن يرى أو يسمع الفرد أو المجموعة هذه الظواهر الطبيعية الحبيبة إلى النفوس حتى تتهلّل الوجوه وتمتلىء الجوانح بالفرحة والاستبشار، وتغصّ الحناجر بمختلف المشاعر والكلمات

الفيّاضة الشاكرة للّه تعالى على مَنّه وفضله بإنزال الغيث، ويردّد الجميع قول الشاعر:

٢٨ ـ البـرق لاح وتـويـا حمـود شفنـاه
جعله عـلى اللي يشتهي من وطنـا

٢٩ ـ يسقي طـويق ومـا بقي من شفـايـاه
وليـا ارتؤى حدّر عـلى ضلع بنـا

(دعسان بن حطاب)[1]

أو كما قال الشاعر الآخر:

٣٠ ـ كـريـم يـا بـارق سـرى
تـسـمـع نـزيـز الـرعـد فـيـه

٣١ ـ مـا حـلا روضـه لـيـا أخضـرا
والـطرش تـرعـى مـفـالـيـه

أو كما قال الشاعر الثالث بصورة جمالية أخرى وتصوير بديع:

٣٢ ـ كـريم يـا بـرق سـرى لـه تلضي
بخشـوم مـزن كـل مـا نـاض يـاضي

ويجسّد أحد أبناء هذه البيئة في أعزّ أمانيه وكثيراً من أحلامه وآرائه بالقصيدة التي نختار منها ما يلائم الموضوع:

٣٣ ـ يـا مـزنـة غـرا من الـوسم مبـدار
الـلي جـذبنـا من بـعيـد رفيفـه

٣٤ ـ تـومـر عـلى كـل المغـالي بـالأمـطار
وتصبـح بهـا خـدان قـومي مـريفـه

---

(١) من آدابنا الشعبية، ١١٨.

٣٥ ـ غب الحيا فاحت بهاريح الأزهار
تخالف النوار مثل القطيفة
(مقحم الصقري)

وعندما يتحقّق الناس من نزول المطر يرسلون من يستطلع مكان نزوله ومدى غزارته وذلك بريادة مساقطه ليرى مدى إمكانية الانتقال إليه من عدمها ويختار الرائد ممن يمتازون برجاحة العقل وبعد النظر ومعرفة الأرض، وللعرب خبرة ممتازة في توقّع مكان سقوط الأمطار من رؤ ية البرق فقط، وذلك بحكم التجربة ومعرفة الأرض شبراً شبراً، بحيث يستطيع البعض منهم أن يحدّد مرور السحابة بكل دقّة ويشتهر بعض الأفراد بهذه الناحية، كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٦ ـ قم خايل البرق يامهنا
والبرق صوب الغضى لاح

وما أن يتباشر الناس في أخبار الأمطار حتى يبادروا للاستعداد للرحيل، تحدوهم الرغبة لانتجاع ذلك المكان قبل غيرهم، وتغمرهم الفرحة والسرور بهذا الحدث السارّ، فيطفق الرجال في تحضير الإبل وتسرع النساء إلى تقويض بيوت الشَعر ولفّها جيّداً تمهيداً لحملها على ظهور الإبل، ويتمّ تزيين الهوادج وترتيبها، وعند ذلك ترتفع جلبة رغاء الإبل التي لم تتعوّد نقل الأحمال، يخلطها أصوات المناداة بين شخص وآخر، وتوجيهات الرجال للنساء والأطفال فيما يفعلون، والحرص على عدم نسيان شيء من لوازمهم. يجلّل هذه الجلبة ثغاء الغنم. كما قال الشاعر

٣٧ ـ تسعين ليلة جانب العد ماهيف
ولا للشديد بطاري يذكرونه

٣٨ ـ وهبت ذعاذيع الوسوم المهاريف
واسهيل يبدي مابدا الصبح دونه

٣٩ ـ العصر بالمجلس مضاليل توقيف
وأمسو وتالي شعرهم يقطعونه

٤٠ ـ وراحوا مع الربدا وساع الأطاريف
يذكر لهم مرعى ربيع يبونه

(عبد الله بن سبّيل) [١]

وحنين الإبل يتخلّلها في بعض الأحيان صهيل الخيل في هذا الإطار الصاخب، الكل مشغول جداً، وقد صوّر هذه اللحظة الشاعر بقوله[٢]:

٤١ ـ البدو شالو نوهو للمراحيل
وكل ركض للزمل شلاه تومى

٤٢ ـ أحد يخم العلق يخطيه ويشيل
وأحد تقلل مابقى له لزومى

٤٣ ـ وشالو وقفن الضعاين زعاجيل
وشفوا وهفوا واتّقوا بالحزومى

(سويلم السهلي)

ونجد الصورة الثانية تعطينا بعض الملامح التي لم نجدها في سابقتها، حيث يقول:

٤٤ ـ لا والله إلا شدو البدو نجاع
وراع المحبة فرق البعد شمله

---

(١) المجموعة البهية، ص ٥٦.

(٢) ديوان سويلم السهيلي ص ٢٥.

٤٥ ــ طــوّو وروّو وانتــوو عقــد مــربــاع
كـــل هــدم مبنــاه واشتــدّ زمله

٤٦ ــ غــدا لهم عنــد الــرفيعـة تــزلــواع
والـلي بغى يضـرب طـريق قسم لـه

٤٧ ــ أقفــو كـما حــزن نشرمــاه وانــزاع
بـرقـه يـرفـرف والسداير تــدم لـه

(فهيد المجماج)

أما رعاة قطعان الغنم وأذواد الإبل، الزائد عن نقل البيوت فقد تسرح إلى نفس الوجهة التي سوف يتّجه إليها الظعن، وتتحرّك الإبل حاملة على ظهورها بيوت الشَعر ومستلزماتها ومئونة البيت، تتوّج ظهور بعضها الهوادج الجميلة المنصوبة بارتفاع ما يقارب المتر والنصف، المغطّاة بالمختار من المنسوجات الصوفية والقطنية، والحريرية أحياناً حسب مستوى صاحبة الهودج، تزيّن هذه الأغطية النقوش والزركشات المختلفة، ويُعتبر الهودج المركب الرئيسي في حالة الظعن لبنات الشيوخ والمترفات من النساء وكبار السن والأطفال، تتهادى تلك الهوادج بركّابها على ظهور الإبل متحدّية أفخم مراكب العصر الحاضر، وهذه الهوادج هي كذلك الشرفة المفضّلة التي تطلّ منها بعض الفتيات ليسرِّحن طرفهن يمنة ويسرة بين أفراد الظعن، يرقبن أفراد الظعن ورجاله، وترى البعض الآخر من النساء يمتطين ظهور الإبل بدون هوادج بل على الأحمال مباشرة، تومي أجسامهن إيماء لطيفاً إلى الأمام والخلف مع إيقاع خطوات الراحلة، بينما تجد الرجال كلّ قد تمنطق بحزامه وتقلّد سلاحه وامتطى ظهر جواده أو هبّ مسرعاً على قدميه، يباري الأظعان كالأسد الهصور، وقد أُعجبت إحدى الفتيات المطلّة من على الهودج بالرجال المتمنطقين بالمحازم فانطلق لسان حالها يقول:

٤٨ ــ الـغــوش مــا أحــلا محــازمــهــم
الـغــوش عــوش الــرمــالات

(.......)

ويستمر الظعن متّجهاً إلى المكان المقصود، فإن كان قريباً يكفيه مسيرة يوم كان به، وإن كان أبعد من ذلك فإن الظعن إذا جن الليل أناخوا الإبل ووضعوا عنها الأحمال واستراحوا حتى صباح الغد تحوطهم مواشيهم، فإذا طلع الفجر استأنفوا المسير مرة أخرى وهكذا حتى يصلوا إلى المكان المقصود.

□ وصول موضع الكلأ:

وبعد أن يصل الظعن إلى المكان المختار تضرب بيوت الشَعر وما أسرع ارتفاع أعمدتها بسواعد الفتيات والسيدات في سباق مع الوقت في أيهّن تنصب بيتها وتركّب أروقته أولاً، بينما تنطلق الأخريات إلى الغدران لملء القِرَب بالماء الزلال وإحضاره للبيوت لاستعماله للشرب والطهو والنظافة والوضوء، والقِربَة إناء من جلد الغنم المدبوغ والمدهون وهو وعاء للماء يملأ فيه ويُحمل على الظهر معلّقاً بحبل غليظ على الرأس، وترى حاملة القِربَة وقد انحنت قليلاً لتسهيل حمل القِربَة، وتكثر الغدران في هذه البقاع الطيّبة بعد سقوط الأمطار، وتعبق الروائح المنبعثة من الشجيرات العطرية التي توشي حواف الرياض غب سقوط الأمطار كما يصوّرها الشاعر بقوله:

يــا أرض نجـد سقــاك الله منعبقــاً
من الغمــام غــزيــر المــاء مــلآنــا[1]

إذا تضــاحـك منــه البــرق ملتمعــاً
في حــافتيـه أرق الــرعـد أرنــانــا

أرض تــرى وحشهــا الآرام مـتطفلة
وفي منــابتهــا القيصــوم والبــانــا

---

(١) بحوث المؤتمر حـ ص ١٨٣٨.

وإن تجـل في ثـراهـا طـرف مختبـر
لا تـلق إلا حـديقـات وغـدرانـا
(الشريف المرتضى)

وينصرف بعض الرجال الشبان إلى توجيه إبل الأحمال بعد وضع أحمالها وإلحاقها بالأذواد السارحة، وما إن يعودوا حتى يجدوا الشيوخ بعد أن نصبت لهم البيوت قد تجمّعوا في «رُفّة» البيت وهو الجزء الخاص بالرجال، وقد دقّ «نجر» القهوة الهاون بعد أن فاحت رائحة الحمسة الأولى من القهوة العربية التي ينوح ريحها مع روائح الرياض الزكية، مكوّناً رائحة جذّابة، تنافح الأنوف «بخنّتها» المميّزة، ويجلس الرجال في المكان المعدّ لهم يفترش البعض منهم وخاصة كبار السن الفرش الصوفية المزركشة، متّكئين على أشدّة الإبل المغطّاة ببعض الأرائك الليّنة، والبعض الآخر، الشباب يفترش الجرعاء الناعمة، ويحتسي الجميع القهوة العربية مع ما تيسّر من تمر أو غيره، متجاذبين أطراف الحديث، كلّ يقصّ ما صادف بطريقه وعن رأيه في هذا المكان وما إذا كان هناك مكان أفضل منه، والرأي الأخير دائمًا لذوي الرأي وكبار السن فيهم، ويستمر بقاؤهم بهذا المكان فترة من الزمن. وتجمع النساء حطب الرمث وتبني منه العِنّة وهي شبه غرفة نصف دائرية بلا سقف ويكون في بعض البيوت عنينة واحدة تابعة للنساء والأخرى تكون امتداداً «للرفّة» تابعة للرجال، والغرض من هذا البناء الشجري هو الاستفادة من يابس حطب العنّة في الوقود وفي نفس الوقت يلوذ بها أهل البيت إلى جانب موقد النار فيها عن لفحات الهواء البارد، الذي يهبّ في فصل الشتاء وخاصة في الصباح الباكر والأصيل المتأخّر، غير أن الصبا إذا صافحت تلك الرياض المعشبة الغضّة وتسلّلت خلال الشجيرات العطرة غطّت بعرفها كل لسعات البرد القارس وأبدلتها دفءاً مريحاً كما يصوّرها الشاعر بقوله:

رق حـتى خـلتـه مـن رقـة
أرج الـشيـح وأنـفـاس الخـزامى[1]

---

(١) المؤتمر جـ٥، ص١٨٦٣.

أو كـما هـبّت صـبـا في روضـة
تنبت الـرنـد صبـاهـا والثمـامـا
(عبد الغفار الأخرس)

□ عمل الرجل والمرأة في بيئة المراعي:

كما مرّ بنا في بيئة الفلاحين فإن الرجل والمرأة يقومان بالعمل بالمشاطرة بينهما، فالرجل يقوم بالأعمال الآتية:

١ ــ يتولىّ الشباب رعي الغنم والإبل وسقيها في فصل الصيف.

٢ ــ يقوم الرجال بارتياد الأماكن القفر لتوجيه الرعاة إليها.

٣ ــ يضطلع الرجال بجميع الأعمال اليومية العنيفة التي لا تستطيع المرأة القيام بها.

٤ ــ الحراسة الدائمة للنزل والمواشي من أي حائف.

٥ ــ الذود عن إبل وأغنام العشيرة والجيران ضد أي معتد عليها.

٦ ــ الصيد بواسطة الطير الصقر وكلب الصيد «السلوقي».

٧ ــ الدفاع عن بيوت وممتلكات النزل من أي طارىء.

٨ ــ تداول الرأي في أي عمل من شأنه أن يكون مفيداً للنزل.

٩ ــ التخطيط للغزو والإعداد له في حالة تزعزع الأوضاع.

وتقوم المرأة بالأعمال الآتية:

١ ــ حلب الأغنام.

٢ ــ إرضاع البهم وهو الصغار من الغنم والماعز.

٣ ـ مخض اللبن الرائب، وفي الغالب تكون قد أعدّت الصبـوح وهو اللبن الطبيعي الطازج وهو بمثابة طعام الإفطار، حيث يشرب كل فرد من هذا اللبن الذي لم يمزج بالماء، ويُعتبر وجبة متكاملة يرتوي منه حتى ترتفع أضلاعه مع شيء من التمر أو ما تيسّر، والكثير منهم لا يحب أن يتناول مع اللبن شيئاً بل يفضّله وحده.

٤ ـ تنظيف وخياطة ملابس الرجال بيدها بالخيط والإبرة.

٥ ـ تنظيف الأوعية المخصّصة لترويب اللبن ومخضه واستخراج زبده.

٦ ـ العناية بالقشدة، وهي إذابة الزبد متى توفّرت الكمية اللازمة منه، قد تكون أسبوعياً أو يومياً أو بعد ثلاثة أيـام حسب توفّـر كميات اللبن المستخرج منه الزبد، وتقوم المرأة بجمع الزبد في قدر مناسب وتضعه على نار هادئة ومتى بدأ بالغليان أضافت إليه كمية من الطحين أو دقة الجريش ليتمّ ترسيب العالق بالزبدة من شَعر أو غيره، ويرتفع السمن صافياً، أصفر ضارباً إلى الخضرة، وبعد أن تصبّه في النُحْو وهو وعاء السمن المصنوع من جلد الماعز والمدبوغ والمشبّع من الـداخل بـالدبس حتى لا ينضح السمن الذي بداخله، بعد ذلك يبقى عيش القشدة يضاف إليها أرغفة البر، أو التمر، وتصبح وجبة جاهزة للوقت الذي تعمل فيه غداء كان أم عشاء.

٧ ـ طبخ الأكل اليومي والولائم المقدّمة للضيوف التي تذبح فيها الذبائح، وتنحر الإبل وما أكثر هذه الولائم بتلك البيئة كلّ بحسب قدرته ومركزه، وبحسب الضيف القادم ومركزه.

٨ ـ جلب الحطب من قرب البيوت وإضافته إلى عِنـيّة البيت متى نقصت.

٩ ـ تربية أطفالها والعناية بهم وتنظيف وخياطة ملابسهم ومداواتهم إذا مرضوا.

١٠ ـ عمل الأقط «البقل» حيث تجمع المرأة من الفائض اليومي من اللبن

الزائد عن الاستهلاك في قدر كبير، وتقوم بطبخه حتى يتبخّر الماء الذي يحويه اللبن، بحيث يبقى سائلاً غليظاً، وبعد أن يبرد ويكاد يتجمّد تقوم المرأة بتنظيف يديها وتأخذ منه، قبضة قبضة وتضغطه بكفّها لتكوّن كتلة بحجم اللقمة ترى بصمات أصابعها عليها، ثم تنشره على نسيج من الخوص أو على ظهر البيت، حتى يجفّ، وإنك لترى بيوت الشَعر السمراء مغطّاة بطبقة من حبات الأقط الأبيض الناصع، وأحياناً إذا كان اللبن قليلاً فيضاف للأقط أثناء الطبخ بعض الأعشاب والنباتات المفرومة، كالبورق، والطرثوث والحمصيص ليزيد من كمية الأقط وليكسبه نكهة خاصة، وأثناء عملية طبخ الأقط أحياناً يطبخ معه بعض قطع اللحم أو الأرانب البريّة، بحيث تنضج لذيذة جداً وتتراوح الطبخة الواحدة من الأقط من ٥٠ ــ ٣٠٠ لتر من اللبن وربما أقل أو أكثر من ذلك.

١١ ــ غزل الصوف من شعر الماعز أو صوف الغنم أو وبر الإبل وتغزل كل لون على حدة وتحرص على اللون الأبيض لأنه قابل للصبغ بمختلف الألوان، وتجد المرأة تغزل في أي مكان كنوع من التسلية المنتجة لا تجلس ويدها خالية من المغزل في المرعى مع الغنم، وقرب الماء، وفي ظل البيت، ومع صويحباتها.

١٢ ــ تقوم المرأة بأعمال النسيج حيث تنسج من الصوف والوبر الملوّن عدة منسوجات منها:

(أ) خُرج المطية وتولّيه النساء عناية خاصة، وتختار له الألوان الزاهية من مختلف الألوان وزركشته بمختلف النقوش، والإبداع في نسج «سفائقه» الطويلة وعثاكله «دلاله» الكثة.

(ب) «المزودة» وهي كيس صغير من نسيج الصوف المزركش والمنقوش بمختلف الألوان، ولها في أعلاها حافة جلدية بها عرى صغيرة

تتداخل مع بعضها وتنتهي بقفل، وهي بمثابة حقية السفر في الوقت الحاضر ينقلها الرجل معه في أسفاره، وتتفنّن المرأة باختيار ألوانها والإبداع في نسيجها.

(ج) تعتني عناية خاصة بنسيج غطاء هودجها وما يعلّق به من الستائر المنمّقة والحبال المزخرفة حتى يصبح كتلة متناسقة جذّابة زاهية لا تملّ العين النظر إليها.

(د) نسيج بيت الشَعر وتحرص أن يكون نصف البيت من شَعر الماعز لقوّته ومتانته، أما القواطع والعوارض فتنسجها من صوف الغنم وتجعل فواصل في هذا النسيج الأسمر من الصوف أو الوبر الأبيض والملوّن أحياناً لتزيّن بها قواطع البيت بمنظر جذّاب مريح، كنوع من «الديكور» الداخلي لبيت الشَعر.

(هـ) «السياح» وهي البسط الصوفية الرائعة التي تضاهي بدقّة نقوشها ومتانتها ما تنتجه المصانع الحالية، فقد تعمّر مثل هذه البسط إلى خمسين عاماً، وهذه البسط يزيّن بها المجالس وأروقة البيت الداخلية الخاصة بالنساء.

(و) نسج «العدول» وهي البسط السمراء التي تفي بالاستعمالات البيتية العادية من فرش داخل البيت وأغطية وخروج عادية وما في مستواها.

١٣ ــ تعتني بدباغة الجلود للاستعمالات البيتية كالقِربَة ــ الشكوة ــ والصميل ــ والمروب ــ والمكرش ــ والنحو والعكة ــ والعيبة والجلود المفرودة «كالنطع» المعمول من الجلد المدبوغ الناعم بدون شَعر، و«الجاعد» وهو الجلد المدبوغ الناعم وعليه شعره، ويستعمل كفراش فردي أو على ظهر المطية أو الخيل ودائماً يفضّل اللون الأبيض أو الأشقر أو الأبرق.

١٤ ـ جزّ الصوف من الماعز والغنم.

١٥ ـ رعي الغنم والإبل الذي تقوم به الفتيات أحياناً عند الحاجة.

هذه الأعمال تمثّل الغالبية العظمى من النساء أي ٩٠٪ إذا استثنينا مَن يوجد لهن من يخدمهن في هذه الأعمال الآنف ذكرها.

□ توليد الأغنام والابل وتربيتها:

ما إن يحين موعد توليد الأغنام في بداية فصل الشتاء بعد مرور خمسة أشهر على تلقيحها حتى يفرح أصحاب هذه الأغنام خاصة إذا كانت قد هطلت الأمطار واكتست الأرض بثوبها السندسي وشبعت الغنم من العشب بدأت بالتوالد بسهولة وفي أوقات متقاربة، قد يلد في اليوم والليلة أعداد كثيرة، وعندها يحين وقت أكل طبخة «اللبي» وهو اللبن الموجود في ضرع الشاة أو العنز عند ولادتها، فيتم حلبه منها ثم طبخه حتى يتخبر الماء لذي يحويه ويبقى اللبن على هيئة الجبن الأبيض الصافي ومتى أضيف إليه شيء من الفلفل الأسود والملح وبعض البهارات أصبح طعمه لذيذاً ونكهته طيبة، وتتكاثر الأغنام فتلد النعجة الفرد والتوأم خروفاً ورخلة أو يكون الفرد أو التوأم من جنس واحد، كما تلد العنز الفرد والتوأم التيس والعناق أو يكون الفرد أو التوأم من جنس واحد أيضاً وان المرء الساكن حوالي هذه البيوت ليسمع مع الصباح الباكر الصخب الناتج عن ثغاء البهم ومأمأة السخال خاصة عندما تقوم المرأة بارضاعها من أمهاتها وكل شاة أو عنز تعرف ولدها ومنها الرءوم التي تتلقف ولدها وتداعبه أثناء الرضاع ومنها غير الرءوم «القحوص» وهذه تحتاج من يمسكها حتى يرضعها ولدها ومتى رضع البهم كله وارتوى من ضروع أمهاته أعيد إلى حضيرته مرة أخرى ويستعمل للبهم رباط من حبل يثبت من طرفيه فيه عرى كثيرة يسمى «الربق» ويدخل رأس كل واحدة منها في عروة من هذه العرى في صفوف تفصل بينها مسافة متناسبة، حتى إذا سرحت الغنم ثم اطلاق البهم من «اربقته» يسرح به حوالي البيوت أحد الصبية أو أحد كبار السن ممن لهم خبرة طويلة في الرعي

ومتى كبر البهم وبدأ يتذوق العشب. فطموه عن رضع أمهاته وبعد فترة يلحقونه بالغنم الكبيرة، وأحياناً تكون الأم رؤوماً على ابنها أكثر من اللازم فعند ذلك يوضع لها «شمالة» على ضرعها وهي كيس من القماش يربط على الضرع ليمنع ولدها من رضعها.

وفي هذه الأثناء تلد الابل كذلك وهي التي لقحت منذ عام ومدتها سنة كاملة وتلد الناقة «الحوار» إما بكرة أو قعوداً والناقة من الحيوانات الرءوم جداً لدرجة تفوق بعض بني البشر وترضع «حوارها» وتغدق عليه اللبن وتداعبه أثناء الرضع بشم رائحة جسمه وتجد متعة في ذلك، وهي حريصة عليه جداً لا تريده أن يغرب عن عينها، وما أن يغرب عنها حتى تبدأ بالحنين والبحث عنه حتى تجده، وإذا أصابه مكروه أو فقدته، فإنها تفقد اتزانها ويصيبها الهلع والجنون، ولربما ماتت جزعاً لفقده وخير تصوير لحالة الناقة عند فقد ولدها ما رسمه الشاعر بهذه الأبيات:

٤٩ ــ كني خلوج يــوم صفق الرعــايــا
تحــف بــالمــفــلي لمــا رو حــنى

٥٠ ــ عــلى ولـدهــا كيف ســوت ســوايا
طــبــايــع مــاظــنــتي يــعــلمــني

٥١ ــ ســاجت وراجت مالقت لـه حــلايا
وخـــرشت ونشـت والقـــوايم جثــني

٥٢ ــ تصن مثـل الـلي يــوصي وصــايــا
تـبى لـعــل اسمــوعــهــا يـسـمـعنى

٥٣ ــ لاجت وشـافت بـالنـواظـر هفــايا
حـــوايــم عـــلى مـــداســة هــفــني

٥٤ ــ جتهن وشــافت بس نـثر الحــوايــا
وجـلده ومــدراج الحمــر يــوم ثـني

٥٥ ـ وعـرقت وشافت من لحـومه شوايـا
تـاتقت بـطيحـة والضلوع العـولني

٥٦ ـ والـدود مـا بـين الضلوع الحنايـا
قـطع عـلايـق قـلبـهـا وأصـرمـني

(سويلم العلي)[١]

وقال الآخر:

٥٧ ـ خلوج تجر الصـوت بـاتـلا عـوالهـا
وان طـوحت صوت تـزايد اهجـالهـا

٥٨ ـ تهيض مفجـوع الضـمـير بحسهـا
تكسر بـعـبـرات يحـطم سـلالهـا[٢]

(محمد العوني)

وكما أسلفنا هي شديدة الولع بولدها ومتى كبر وبدأ يرعى العشب يفطم عن لبنها وذلك «بصرها» وهو ربط عود على شطر ضرعها يمنع ابنها من الرضاع ويفك عندما يراد حلبها ثم يربط مرة ثانية حتى يسلو عنها ابنها وينسى رضاعها، ولحليب النوق خاصة ميزة لا تتوفر في ألبان الحيوانات الأخرى وبالذات إذا كانت الناقة بكراً فهو مادة غذائية متكاملة لا يحتاج الانسان لطعام غيره وعلى الأخص إذا كانت ترعى من زماليق الرياض الفواحة، ولحليب الناقة البكر الساخن الذي حلب لتوه من ضرعها ميزة صحية ممتازة إلى جانب مادته الغذائية فهو منظف للجهاز الهضمي ويقضي على كثير من العوالق والجراثيم والديدان التي قد توجد في البطن. ومن تعود على شرب حليب النوق لا يصبر عنه والكثير يفضلونه حليباً على أي نوع من الألبان أما إذا مخض فتقل قيمته ويفضل عليه

---

(١) ديوان سويلم العلي ص: ٢١.
(٢) شعراء النبط، ص ٢٣٥.

لبن الضأن وينتج منه زبدة غليظة، سمنها متخثراً قريب الشبه بالودك، ويصف الشاعر ريق محبوبته بحليب الناقة البكر:

٥٩ ـ حب الحبيب حليب النوق
من مِشّة الزور لاجاني

(.......)

وآخر يقول:

٦٠ ـ له حبة أحلى من الما على الظما
وألذ من الدنيا وكل معاش[١]

٦١ ـ وألذ من در المباكير بالشتا
لياجت من بعض الرياض تحاش

(راشد الخلاوي)

أما الخيل فليس هناك وقت معين لتوالدها، وكذلك الحمير، ويبقى العرب الرحل في فصلي الشتاء والربيع في بحبوحة من العيش قوامه الألبان ومشتقاتها، والتمور، والحبوب بأنواعها، وقد تكاثرت لديهم الأغنام أضعاف ما كانت عليه واختزنت من الشحوم ما تعجز عن حمله وتكاثرت الابل وانبنى على ظهورها من الشحوم ما يسر ناظرها عندما تتهادى الناقة أو الجمل يتمايل سنامها يميناً وشمالاً وكأنه شرفة القصر المنيف.

□ جمع المنتجات الحيوانية وبيع الأغنام:

من الطبيعي أن لكل جهد ثمرته، وكما مر بنا فإن الحيوانات وما ينتج عنها يعتبر العمود الفقري لبيئة الرعي، ويتركز الانتاج الحيواني من الألبان ومشتقاتها،

---

(١) راشد الخلاوي ص٣٠٨.

فالألبان تستعمل كغذاء رئيسي يومي بالاضافة إلى ما يصاحبها من أطعمة أخرى والفائض من هذه الألبان يعمل منه الأقط كما مر بنا، والأقط هي الألبان المجففة التي يتم الاحتفاظ بها على مدار السنة وتؤكل مباشرة وأحياناً يتم مرسها بالماء وخلطها بالتمر أو الملح أو السكر، فتصبح سائلاً لذيذاً يسمى مريسة يشرب مع التمر وهو ذو مادة غذائية جيدة.

والأقط على درجات متفاوتة فمنه الأبيض الناصع الهش وهو ما يعمل في أول الربيع ويعتبر الدرجة الأولى ويعد للأكل مباشرة والنوع الثاني هو الأبيض الضارب إلى الصفرة وهو أصلب من الأول وأكثر حموضة وهو انتاج منتصف الربيع ويعد للأكل عند الضرورة وللمرس، أما النوع الثالث وهو انتاج آخر الربيع فيكون أصفر اللون داكناً صلباً حامضاً يصلح للمريس فقط والنوع الرابع وهو المخلوط بالأعشاب والنباتات البرية مثل المخلوط (بالبورق» وهو أبيض يميل إلى الخضرة طعمه طيب ونكهته مقبولة والمخلوط، بالحمصيص وهو كذلك أبيض ضارب إلى الخضرة طعمه لذيذ حامض ونكهته طيبة والمخلوط «بالطرثوث» وهو أبيض ضارب إلى الحمرة وردي طيب المذاق ونكهته مقبولة ويجمع كل نوع من هذه الأنواع على حدة في أكياس كبيرة من نسيج الصوف تستوعب الواحدة ما يزيد حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتسمى فردة والاثنين يكونان حملاً للبعير، وتكثر أو تقل كمية ما يجمع من الأقط لكل أسرة حسب كثرة أغنامها وعناية ربة البيت وتدبيرها لكنها لا تقل عن حمل بعير أي مئتي كيلوجرام في أغلب الأحيان أثناء فصل الربيع، وربما تصل إلى ٣٠ حملاً أي ٧٠٠٠ كيلوجرام وتجهز هذه الكميات من الأقط تمهيداً لنقلها على ظهور الابل إلى أماكن تسويقها. الانتاج الثاني في فصل الربيع هو السمن، ويعبأ السمن كما مر بنا في أوعية كبيرة من جلود الغنم تسمى «النحو» ويستوعب النحو من ٢٠ ــ ٥٠ لتراً من السمن وربما زاد عن ذلك وتجمع الأسرة من السمن حسب كثرة أغنامها وعناية ربة البيت وتدبيرها، إنما يتراوح ما تجمعه الأسرة من السمن خلال فصل الربيع بين ٢٠ ــ ٥٠ صاعاً أي من ٦٠ ــ ١٥٠ كيلوجراماً وربما أقل من ذلك أو أكثر، ويجمع السمن في هذه الأوعية «النحية» تمهيداً لنقله على

ظهور الابل إلى مراكز التسويق في نهاية فصل الربيع، وتفتخر النسوة بما جمعته من هذين النوعين، الأقط والسمن خلال هذا الوقت ويعتبر مقياساً لاقتصادية ربة البيت وميزة تفخر بها وتنال عليها الهدية التشجيعية من زوجها كقطعة من المصاغ أوغيرها، العنصر الثالث الذي يدعم سابقيه هو الغنم، فكثير من أصحاب المواشي ممن لهم نظرة اقتصادية بعيدة وتدبير جيد يتخذ الاجراء الآتي: إذا سمنت الغنم في نهاية فصل الربيع عزل كبارها ذكوراً وإناثاً مع الخراف ثم باعها ولا يبقى لديه إلا الثنية وهو ماله سنة، والرباعية وهو ماله سنتان وفحل الغنم فقط وبذا يكسب مبالغ من المال إلى جانب سلامته من الكبار ومشاكلها خاصة إذا تأخر نزول المطر. أما البعض الآخر ممن تكون نظرتهم قريبة ويحبون كثرة الأغنام ويطربون لمنظرها ويفتخرون بسلالاتها فإنهم يحتفظون بكبيرها وصغيرها لا يبيعون منها شيئاً ولا يستفيدون مالاً. وعند تأخر نزول الأمطار في العام الجديد يقعون في مشاكلها وربما أكل سمينها ضعيفها.

وبالإضافة إلى ما سبقت الاشارة إليه هناك منتجات أخرى لكنها أقل أهمية من ذلك مثل المنسوجات الصوفية على مختلف أنواعها والجلود المدبوغة والصوف الخام وتعتبر سلعاً ثانوية.

□ تسويق المنتجات الحيوانية:

بعد تجهيز المنتجات الحيوانية في الثلث الأخير من فصل الربيع الذي يعتبر «دخول الصيف» حسب الاصطلاح السائد وذلك عندما يتلوى عشب الربيع ويبدأ بالجفاف كما صوره الشاعر بقوله:

٦١ ـ لا والله إلا حدر عماش
زل الشتا واصرم العود

(......)

عند ذلك يتجمع الرجال لتدارس الوجهة التي يبعون بها منتجاتهم بعد عمل مسح عام للأسواق المعتادة ومعرفة أسعار سلعهم في مختلف المدن والأمصار وبعد أن يستقر بهم الرأي يبدأون بتجهيز الحملة لكل فريق أو المجموعة التي تقطن في هذا المكان بعد أن تدخر كل أسرة حاجتها من هذه المنتجات على مدار السنة يبرزون ما يريدون بيعه كل بقدر الكمية التي جمعها، سواء كان حمل بعير أو أكثر من السمن والأقط والمنسوجات والجلود والصوف وغيرها وقد تصل الحملة إلى ٣٠٠ بعير أو أكثر ويصاحب هذه الحملة التي تسمى «الحدرة» أو «الهبيط» وتعني انحدروا أو هبطوا إلى مراكز التسويق مجموعتان من الرجال المجموعة الأولى تسمى «الزماميل» وهم الذين يتولون وضع الأحمال على ظهور الابل وإنزالها عنها عند الراحة ومساعدة الآخرين عند الحاجة والمجموعة الثانية وتسمى (الجنب) وهي الفئة المسلحة التي ترافق الحملة وتحميها من أي اعتداء عليها منذ انطلاقها وحتى عودتها، وعادة يتم تجزئة الحملة وارسالها لوجهات مختلفة، حتى لا يكون فيها اغراء لذوي المطامع، وعرضة لقطاع الطرق، وأحياناً تصاحب الحملة قطعان من الغنم المجلوبة للبيع وأحياناً أخرى، يذهب بها أصحابها منفردة لأقرب مدينة، وربما جاء تجار المواشي إلى مضارب البادية، لشراء الأغنام والابل، وتباع المنتجات الحيوانية وللأغنام والابل بالعملة المتداولة في أي وقت، والأسواق التي تتجه إليها هذه المنتجات إما أن تكون من المدن الرئيسية في نجد أو المناطق الواقعة على الخليج العربي أو البحر الأحمر والهلال الخصيب العراق، وعمان «الغربية» فلسطين وعادة يشترون بأثمانها ما يكفي لتموينهم لمدة عام كامل من المواد الغذائية الرئيسية كا «التمن» الرز العراقي والقمح بنوعية الهش والصلب وأنواع الحبوب الأخرى والتمور والملابس والمواد الاستهلاكية الضرورية كالقهوة والهيل إلى جانب شراء ما يحتاجونه من الأدوات كالأشدة والهوادج والأسلحة وأدوات الزينة والأواني المنزلية وغيرها، بمعنى أن هذه الحملة تهبط للمدينة بما جمعوه خلال فصل الربيع من المنتجات الحيوانية مع ما اختاروا بيعه من الأغنام ويحضرون بدلاً عنه بعض أو جميع مستلزماتهم التموينية والاستهلاكية لمدة عام أو أقل على قدر مبيعاتهم وأحياناً تحدث مقايضة بدون استعمال النقود كأن يشتري الرجل السلعة المعلومة

بشيء مما معه، مثل أن يعطي الرجل للتاجر مقداراً من السمن أو الأقط أو رأساً من الغنم مقابل مقدار من الحبوب أو التمور أو سلعة معينة يداً بيد وهذه العملية تتم برضى واتفاق الطرفين. وهنا لابد أن نشير إلى أن الانسان في ذلك الوقت طاهر القلب نظيف الطوية، إذا قال كلمة وفى بها مهما كانت التضحيات، بعيداً عن المراوغة واختلاف النية، ومن هذا المنطلق فإن المشاكل الناتجة عن هذه المبادلات التجارية تكاد تكون معدومة، وان وجدت على سبيل الافتراض وجدت من يحلها في كلمة واحدة دون اللجوء إلى لسلطة وغيرها.

□ المراعي في نجد:

دعنا ندرك هذه الرياض الفيح قبل أن تلوي بزهورها وأعشابها لفحات رياح الصيف، فنلقي نظرة تكتحل بها عيوننا ليبقى هذا الكحل منعكساً بحدقاتها حتى العام القادم ويعود الله على هذه الأرض بصائب الوبل، وتكتسي بثوبها الأخضر الرائع مرة أخرى، ذلك الثواب الذي لا يصدق به الامن رآه وعاش بين طياته ومثانية، ذلك الثوب الأخضر السندسي الموشى بأفانين الزهور الفواحة، وأفواف الأغصان العبقه، ومائس «الزماليق» المزهرة، والذي تمثل فيه الحزون والوهاد منعطفات رائعة الجمال، وتبين الجبال السامقة الشماء روعة وجلال تلك الأطراف المرتفعة من الثوب التي يتموج لونها بمنظر سحري خلاب، عند ارتفاع درجة الحرارة قبيل الظهر، ذلك الثوب الذي يفوح من مثانيه وإردانه خلاصة أريج تلك الزهور الذي لا يجاريه أي عطر جمعه وركبه الانسان، حيث أن هذا العطر من تركيب الخالق العظيم الذي نسج سدى ولحمة هذا الثوب من شذا تلك الأزهار بمقادير احتفظ بسرها لنفسه فجاءت ذات رائحة نفاذة، تحيي النفوس، وتبعث فيها الحيوية والنشاط وتذكر برائحة جنة الخلد كما ورد وصفها في القرآن الكريم والأحاديث والأقوال المأثورة. ويرفرف فوق هذا الثوب الأخاذ، الطيور المغردة التي تصدح بأعذب ألحانها منذ بزوغ الفجر وحتى يطل ذهب الأصيل هذه الأغاريد تعزف للحياة أرق الألحان إلى الأسماع وأقواها تأثيراً على العقول وأعمقها صدى في النفوس مترجمة لغة

تلك الطيور التي تسبح بحمد ربها، وتدعو الإنسان إلى مثل ما تفعل، وبين شقائق هذا الثوب وفي نتوآته وحزونه يجد طعاماً حلالاً طيباً، من خيرات هذه الأرض الطيبة ألا وهو الفقع الكمأة بنوعيها «الزبيدي «الجبى».

و«الجبى» وإلى جانبه الفطر الأبيض وغيرهما مما تنبت الأرض، الذي يتخذ منه الانسان طعاماً لذيذاً طرياً، إذا فهذا الثوب الأخضر الفضفاض يطعم الإنسان ويسقيه، وينعشه، ويسليه، ويربطه بخالقه، ويعلمه البساطة والجمال، ويكون مرتعاً لأنعامه.

ومتى نافحت هذا الثوب نسمات الرياح بهباتها اللطيفة تكونت منها صبا نجد الذي تغنى به الشعراء على مختلف العصور والأزمنة والذي يحن إليه كل من تضلع منه بملء رئتيه في يوم من الأيام والأمثلة على ذلك كثيرة تفوق الحصر ونورد منها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد

(مجنون ليلى)

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشى هواضبه[1]

وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام وجائبه

بأجرع ممراع كأن رياحه
سحاب من الكافور والمسك شائبه

(١) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٢٥.

وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة
وما أنجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعه
بذكراه حتى يترك الماء شاربه

(أم حسانة المرية)

أقول لصاحبي والعيس تهوى
بنابين المنيفة والضمار[1]
تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد
وريا روضه غب القطار

(الصمة بن عبد الله القشيري)

فمن «روضة الخفس» التي فاع عطرها
إلى «روضة التنهات» في الغور والوهد[2]
تطاول فيها العشب حتى كأنه
سنابل أكمام تفتحن عن ورد
بدا أصفراً في أبيض فكأنه
سماوة قرص الشمس قد لف في برد
وفاح شذاه بالأريج كأنه
عبير سرى رياه من جنة الخلد

---

(١) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٢٧ .
(٢) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٤٧ .

سقــاه ولي الغيث صيب مــائــه
كأن قد سقاه الورد في صـورة الورد

تنـــاوحــه ريــح الـصبــا فـتهــزه
فيختال إذ يهتز في الـروض من بعد

تصــافحــه شمس الأصيــل تحيــة
كما صافحته الشمس من قبل في رأد

(فؤاد شاكر)

ميثـاء جـاد عليهـا مسبــل هــطل
فــامــرعـت لاحتيـــال فــرط العــوام

إذ يجـف ثـراهــا بـلهــاديـم
عن كــوكب نــازل بــالمـاء سجــام

كــأن ريـح خـزامـاهــا وحنـوتهـا
بــالليـل ريــح «يلنجـوج» واهضــام

(النمر بن تولب العكلي)

ســألـتــك عن منــازلنــا بـنجـد
وهــاتـيــك الأجــارع والــبـطاح

وهــل نـبــت الـثمــام أو الخــزامى
فــعــطر فيــه أنــفــاس الــريــاح

(عبد الغفار الأخرس)

---

(١) المؤتمر الأول ١٨٣٦ .
(٢) المؤتمر الأول ١٨٥٣ .
(٣) المؤتمر الأول ١٨٦٠ .

وعن الأشجار الوارفة الظلال في هذه البقعة الطيبة يرسم لنا الشاعر هذه الصورة المجسمة الناطقة بالأسرار الكامنة التي أودعها الله فيها إذ يقول:

وسرحة بربى نجد مهدلة
أغصانها في غدير ظل يرويها

إذا الصبا نسبت والمزن يهضبها
مر النسيم على أين يناجيها

تقيل في ظلها بيضاء آنسة
يكاد ينشرها لينا ويطويها

سود ذوائبها بيض ترائبها
حمر مجاسدها صفر تراقيها
عارضتها فاتقت طرفي بجارتها
كالشمس عارضها غيم يواريها
والعين من حب اعرابية عرضت
تعوم في عبرات كنت أذريها
فليتها لي والأيام أكثرها
تعذب النفس بالدنيا وما فيها

(محمد الأبيوردي)

وغير ذلك ممن تعرض بالوصف لرياض نجد ورباها وطيب صباها.

□ البحث عن أماكن المياه:

من الطبيعي أن يخضع الإنسان لتقلّبات الجو على مدار السنة من شتاء وربيع وصيف وخريف، وعلى هذه المعطيات يجري حساباته ويرتّب أموره بما يتناسب وكل فصل وخاصة العرب الرحّل الذين يهجرون مواطن المياه في فصلي الشتاء والربيع ويكتنفونها في فصلي الصيف والخريف، فما إن يقترب فصل

الصيف ويرون بوادره بارتفاع درجة الحرارة وذبول الأعشاب التي تصبح رماماً حتى يذكّر كلّ منهم صاحبه من الحضر المقيمين في القرى والمدن الصغيرة، أو يتذكّروا الآبار الواقعة بقرب المراعي سواء أكان ماؤ هاغزيراً أم من الرسوس والثمائل والمشاش التي توجد في جوف الوديان الكبيرة أو مراكد المياه، هذه الأخيرة عادة لا يركنون إليها كما قال الشاعر:

٦٢ ــ الرَّسْ لو أنك تساودت جمته
على الطول تملأه الخشاش دمال

٦٣ ــ والعد لو أنك تعاسرت مجذبه
يزمي على الجذاب والميال
(سويلم العلي)[١]

فلذلك تراهم يقصدون الآبار الغزيرة التي تروي ظمأ مواشيهم حينما يحسّون بقرب حلول الصيف، كما رسمها الشاعر بريشته في القطعة التالية:

٦٤ ــ سقوى لياجا نقضت الجزّ بالصيف
وأبعد ثرى نقعه وكنت مزونه[٢]

٦٥ ــ والعشب صفر به شعوف من الهيف
والراعي أخلف شربته من سمونه

٦٦ ــ وجتنا جراريرهم تدق المشانيف
البيت يبنى والظعن يقهرونه

٦٧ ــ وتقاطروا مثل الحرار المقاييف
وراع الغنم عن مرحهم يفهقونه

(١) ديوان سويلم، ص ١٨٠.
(٢) المجموعة البهية، ص ٥٥.

٦٨ ـ وتـواردوا عـدّ شـرابـه قـراقيف
العـدّ لـو هـو بـالفضـا يشحنـونـه
(عبد الله بن سبيل)

وبهذا تبدأ تلك المضارب بالتحفّز والتجمّع استعداداً للنزوح إلى أماكن تواجد المياه، وتعقد الاجتماعات لتداول الرأي في أي الآبار القريبة من المراعي تفي باحتياجاتهم من الماء طيلة فصل الصيف، وأيهّا أعذب ماء، وفيما إذا كان على هذه الآبار فرق أخرى قد ينشأ من تواجدها مشاكل، أما من تعوّدوا على الشرب من القرى فلا تصادفهم أي مشكلة في الحصول على الماء ذلك أن لكل واحد منهم رفيقاً من الفلاحين في القرية التي يقصدونها يسقي إبله وأغنامه من بئر رفيقه، حيث يعدّ الفلاح مشرعاً بطرف الفلاحة يجري إليه الماء يومياً لتشرب منه الغنم والإبل، أما من المشرع مباشرة أو بحياض من الجلد المدبوغ والمدهون مشدودة على أغصان ثخينة من الشجر محنية ليكون للجلد قعر يصل إلى ٨٠ سم، وتباعد هذه الحياض عن بعضها ويسكب فيها الماء تشرب منه الغنم، وتوضع مثل هذه الحياض إذا خشي أن تتزاحم الغنم على البركة ولا تطلق قطعان الغنم مرة واحدة، بل يقهرها الرعاة ويرسلون منها أرتالاً تتوالى كلما شرب رتل وارتوى أزيح عن الماء وأطلق مثله، وهكذا حتى تشرب قطعان الغنم كلها، أما الإبل فهي ترد منفردة عن الغنم في يوم آخر، وتقهر الأذواد ويرسل منها مجموعة بعد أخرى، وكلما شربت مجموعة أزيحت عن الماء وتم إيراد مجموعة أخرى، ولأصوات الإبل وهي ترتشف الماء، إيقاع موسيقي يشبه صوت الأوتار الغليظة المكثّفة شبيه بأوتار الجاز على إيقاع ارتشافها لجرعات الماء، وكلما شربت دفعة من الماء رفعت رأسها ونفضت شفارها لتأخذ نفَساً عميقاً ثم تشرع بالشرب مرة أخرى حتى ترتوي ثم تنصرف عن المشرع، والفلاح وصاحب المواشي على علاقة جيّدة ببعضهما قوامها المعرفة والمصلحة المتبادلة بينهما، إذ يهدي صاحب المواشي للفلاح السمن والأقط والغنم وأحياناً الإبل ويمنحه «عرقة» البعير ليقوم «بسنيه» مدة الصيف بدون كراء ومتى انتهت المدة أعاده إلى صاحبه، والفلاح يمنح صاحبه النخلة والنخلتين أو يعطيه مقداراً من التمر عند صرام النخل

وتتصف هذه الهدايا من الجانبين بالجزالة والمروءة، كما أن وجود الأغنام والإبل في أرض الفلاح تزيد من خصوبتها لما تتركه في مواطنها من سماد.

وحول مشارع ويرك وحياض شرب المواشي تجري تبادل نظرات الإعجاب بين الشباب والشابات من رعيان وراعيات المواشي وشباب القرية مما يترك أثراً عميقاً في النفوس، وذكريات لا تنسى، لا سيما بعد تكرار اللقاءات وتبادل الأحاديث على حذر ومن بعيد كما قالت إحداهن:

٦٩ ـ لا تهرجن كود بعيونك
واهرج وهرجك على بالي

٧٠ ـ إن كان أهيلك يعذلونك
أنا ترى السيف يحنى لي

وتبقى ذكريات هذه اللقاءات تلهب عواطف الشعراء ولا سيما بعد أن يحين موعد نزوح العرب الرحّل عن مواطن المياه في بداية فصل الشتاء كما أشار إلى ذلك الشاعر:

٧١ ـ البدو هم واضعينهم عذبوبي
هنيت قلب لا عرفهم ولاجوه

٧٢ ـ شدّوا ومدّوا بالغزال العجوبي
ياليتهم من جملة الحضر خلوه

(عبد الله بن سبيل)

وتشرب الغنم يومياً من شدّة الحر وإذا برد الجو تشرب يوماً بعد يوم وتسمّى «مغبّة» أما الإبل فإنها في شدة الحرارة تشرب لليوم الثالث ويومين بدون ماء ويسمّى هذا النمط «الربع» وعندما يبرد الجو فإنها تشرب لليوم الرابع وتسمّى «خمس».

هذا بالنسبة لمن يرِدُون على القرى، أما من يردون على الآبار المنفردة الواقعة بقرب المراعي إذا كانت البئر طويلة فإنهم ينصبون عليها مركازين من الخشب تكون على فم البئر يضعون عند التقاء رأسيهما بكرة ــ محالة ــ والرشا «المحص» والدلو التي يجرّها البعير عند نزف الماء من البئر، ويسوق البعير شخص ويتلقّى الدلو شخص آخر ثم يسكبها في الحوض الجلدي الذي سبق ذكره وربما ساعده شخص آخر في هذه العملية، ويردّد أثناء عملية السقي أهازيج تطرد السأم وتبعث النشاط في النفوس، منها، كما صوّره الشاعر:

تمطو الرشاء فتجري في ثنايتها
من المحالة نقاً رائداً قلقاً[1]

لها متاع وأعوان غدون به
قتب وعزب إذا ما أفرغ انسحقا

وقابلاً يتغنّ كلما قدرت
على العراقي يداه دائماً دفقاً

(زهير بن أبي سلمى)

أما إذا كانت البئر قصيرة من ١٠ أمتار وأقل فإن سقي المواشي يتم بجذب «متح» الماء من البئر على الأيدي بدلو صغير «قلص» يتناهبها اثنان من الشبان يقفان بجانب بعضهما كل يتلقّف «المحص» مرة نهباً سريعاً بنشاط وحيوية حتى تخرج الدلو من البئر ثم يأخذها مَن تنتهي الدلو في يده ويسكبها في الحوض الجلدي لتشرب منه الإبل أو الغنم وهكذا دواليك حتى ترتوي رعيّته أو ذوده، ويكون شرب الغنم قبل الإبل أو يكون لكل منهما شرب يوم معلوم، ويردّدون أثناء متح الماء من البئر أناشيد من الوزن القصير والإيقاع الحاد القابل للسرعة متمشّياً مع إيقاع أكفّهما على الحبل مثل:

---

(١) ديوان زهير، ص ٤١.

٧٣ ـ يـا دلـونـا   يـا دلـيـه
صـبّـي عـلى الـرعـيـة

٧٤ ـ الـبـل   مـا يـرويها
إلا زعـب راعـيـهـا

٧٥ ـ هـب الهـوا شـمـالي
جـانـا بـريـح الـغـالي

٧٦ ـ يـا محلى سـقـي الـذودي
واسـقـيـه أنـا بـعـضـودي

٧٧ ـ هـذي الـوضـيحـا تـردى
تـقـول هـذا وردي

٧٨ ـ جـانـا غـزال الجـردى
يـلبس ثـويـب وردي

يردّدون هذه الأبيات وأمثالها عدة مرات وهذه الأهازيج تبعث فيهم النشوة وتجنّبهم الإرهاق والتعب ولا سيما عندما يرون الجنس اللطيف من راعيات الغنم يسقين قطعانهن، أو يملأن قِرَبهن من هذا الماء الذي ينزفونه وتحدث قرب الماء لقاءات بين الشباب يتبادلون خلالها نظرات وكلمات الإعجاب على حذر كما مرّ سابقاً.

ويبدأ احتياج المواشي للماء في الشهر الأخير من فصل الربيع عندما يغيب نجم الثريا «على حسابهم» مع أذان المغرب وتقترن الثريا بالهلال في أول ليلة، والثريا تقترن بالقمر بعد كل شهرين أي يكونان بمحاذاة بعضهما على سمت واحد متّجهين إلى المغيب، ويقول العرب الرحّل «قران تاسع برده لاسع، وقران سابع مجيع وشابع، وقران خامس بالربيع غامس، وقران ثالث رحيل ولايث، وقران حادى على الجو اترادى».

□ حداء الإبل:

وما دمنا في مضارب البادية يحسن بنا أن نلمّ بجانب معينّ يتعلّق بالموضوع ألا وهو حداء الإبل، فكما رأينا سابقاً أن النياق ذات عاطفة فيّاضة على ولدها وهذه صفة نجدها تنطبق على الإبل بوجه عام، حيث أنها لها التصاق بالإنسان العربي لا يماثلها في ذلك إلا الخيل، ولا غرابة في ذلك فهي رفيقة حياته منذ القدم وهي سفينته عبر الصحراء، وقد طوى على ظهرها الفيافي والقفار وأدلج الأصقاع والأمصار، وهي شريان حياته النابض في مواصلاته وتنقّلاته.

وعلاقة مداها آلاف السنين لا بد أن تبقي من الجذور ما لا يسهل انتزاعه، فنجدها طوع بنانه يوجّهها بصوته كيف يشاء، ويطربها بغناه إن غنىّ، فترقل به بعد الوخد والذميل طرباً لغنائه فوق ظهورها ويجذبها بصوت حدائه، وتستجيب لندائه فرحة مسرورة، إذا صاح راعي الإبل بصوته تجمّعت عليه من أقاص مرعاها، وكأنه ينادي جنوداً طيّعين وتحيط به إحاطة الخاتم بالإصبع منتظرة أوامره وتوجيهاته، ومتى صاح الراعي بصوته، قطعت الشكائم والعقل والقيد إن كانت مربوطة أو معقولة أو مقيّدة، وإن كانت في «المنحاة» بدأت تتلفّت يكاد صوت الحداء يمزّق أفئدتها، ويخرجها عن طورها، وتكاد تخرج بكامل عدّتها من المنحاة فإن لم تستطع إلى ذلك سبيلاً ألّمت بها حالة «هستيرية» لبعض الوقت ثم تنزف عرقاً وتتدحرج الدموع من عينيها جزعاً على عدم المقدرة لتلبية هذا النداء الحبيب إلى نفسها، وهذا الحداء على نوعين: النوع الأول هو نوع من الغناء المجرور جداً والذي يفصل بين البيت والآخر صيحة طويلة حادّة مثل:

٧٩ ـ يـا فـاطـري يـا شـعـيـلة
حـنّـا سـريـنـا الـلـيـلة

«واه»

٨٠ ـ مـا نهتـني بمـراحـي
ولا نـشـرب الضـحـضـاحـي
«واه»

وهذا الحداء يتم في المرعى عندما يريد الراعي العودة بها إلى مضارب البيوت، ولكل راع صوته المميّز الذي تعرفه إبله. أما النوع الثاني فهو الحداء الذي يطلقه راعي الإبل عندما يريد أن يسرح بها، ويتكوّن من كلمات يفصل بينها صيحات طويلة حادّة مثل: دوها... العليا... واه، دوها... العليا... واه، يردّد الراعي هذا الحداء سواء في مضارب البادية أو في القرى، غير أنه في القرى يختلف بعض الشيء، حيث أن له صيحتين فقط للمرة الأولى، وتعني أن يبدأ سائق السواني في الانتهاء من السياق، يحطّ عنها عدّتها ويحضرها في مكان تجمّع الإبل، وبعدها يبدأ بحدائه للمرة الثانية لثلاث صيحات وهذا دليل على أن الإبل ستتحرّك سارحة إلى الفلاة، ويفصل بين الحداء الأول والثاني ما يقارب نصف ساعة، ولما كانت الساعة لم تنتشر فإن موعد سرحة الإبل يحدّد بارتفاع الشمس وتحديد الظل أي ما يقارب الآن الساعة التاسعة والنصف صباحاً، و«دوهات» الراعي مضرب للمواعيد بين الناس، قال الشاعر:

٨١ ـ وإن حل لي وقت الضحى والديش قاد
سـرحت لـلأجـواء طلق بـلا قيـد

٨٢ ـ تلقى القهاوي عندهم ضرب حداد
ومـا يسّـر الله من وجـود الأجـاويـد
(عبد الله القضاعي)

□ تلقيح الأغنام والخيل والإبل:

ويستمر العرب الرحّل، كما أسلفنا، على مواطن المياه وقرب الآبار وفي القرى طيلة فصل الصيف وأوائل الخريف «وهذه الفترة كلها يحسبونها قيظا» وفي

أثنائها عند طلوع الجوزاء إذا بقي ستة أشهر على دخول «الوسم» في الثلث الأخير من الخريف الذي يتوقع فيه هطول الأمطار، ولأن مدة ضريع الغنم ستة أشهر، عند ذلك يبـدأون بهد الفحل، وهو اطلاق العنان له ليبدأ بقرع الغنم لمدة شهر ونصف تقريباً ويكون الفحل قبل ذلك «مكموماً» وهو أن يعلق قطعة من الجلد أو من القماش الغليظ بظهره تتدلى على بطنه وتمنعه من الوصول إلى أنثاه، وعندما يرغبون في تلقيح الغنم يزيلون هذا الحاجز، وخذا الفحل للرعية كلها من جنسه وعادة يتم اختيار الفحل من السلالات الممتازة ذات مواصفات معينة، منها طول الأعضاء وطول الرقبة وارتفاع عـرنون الأنف، وتنـاسق الأعضاء، ويولون عناية فائقة في اختياره سواء من الضأن أو الماعز، وبقية الذكور من النوعين يتم خصيها بعد مرور خمسة أشهر على ولادتها، وذلك بفرض صفن الخصية وانتزاعها منه، وتمتاز الخراف والتيوس الخصيان باقتناء الشحم بسرعة ولذة لحمها، كذلك يبذلون جهوداً كبيرة، في اختيار فحل الابل والخيل وربما أدى في بعض الأحيان إلى غزو معين بسبب اقتناء هذه السلالات الممتازة من الخيل مثل: كحيلان ـ الصقلاوي ـ الحمداني ـ وغيرها. وهذا الحصان الذي يتم اختياره «لتشبيه» المهار الأصيلة لينتج من هذه السلالة الصفوة الصافية من الخيول العربية الأصيلة التي تنفع عند الحاجة وقد افتخر الشعراء والفرسان بهذه السلالات مثل أدهم عنترة بن شداد، وكروش ابن رشيد.

٨٣ ـ يا بيه أنا «بكروش» لا أعطي ولا أبيع
قبلك طلبهـا فيصـل وابـن هـادي

(عبيد بن رشيد)

وقـال آخـر:

٨٤ ـ لا وأجـوادي تـلحـق الـلي مقافي
ليـا حـركـو حبـل الشبيـلي ربـوعي[1]

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٩٩.

٨٥ ـ تهذل كما السرحان لا صار حــافــي
ليــاحــل بــأطــراف الســبــايــا فــزوعي

(قاسي بن حشر)

وكما هي الحال بالخيل فكذلك في الابل يتم اختيار الأصائل من نجائب الابل، كالحرار العمانية، وحرار عِلْوى من مطير، وحرار الرمالات من شمر والدرعية العمانية: وحرار الشرارات، وغيرها من القبائل التي تعتني بالسلالات الممتازة وقد تغنى بها الشعراء كذلك قال الشاعر:

٨٦ ـ يــا راكب من فــوق حــرمــشــذر
مــادنق الــرقــاع يــرقــع رمــوقــه(١)

٨٧ ـ يــشــدا ظــليــم مــع حمــاد تحــدر
والا النــداوي يــوم تــطلق سبــوقــه

٨٨ ـ أمــه لغتــنــا من عــمــان تــذكــر
وأبــوه من قعــدان عِلْوَى عمــوقــه

(كنعان الطيار)

وشاعر آخر يصف جمله بقول:

٨٩ ـ يــا راكب من عنــدنــا فــوق عنسى
سحــوان قــطاع الــفــيــافي عــمــاني(٢)

٩٠ ـ عنسى سبــرس بالســواد الوغســطي
قــطاع دو هــوذلي ســوســحــاني

---

(١) من شيم العرب، ص .
(٢) أبطال من الصحراء، ٢١٢.

٩١ ــ هـزتـه بعــود اللوز من غـير لمسى
ويـامـا قـطع من نـازح السمهــداني

(مجدي الهبداني)

وثالث يقول:

٩٢ ــ يـا راكب اللي مـايداني الصفيـري
هميلع مـن نقــوة الهجن ســرحــاح[1]

٩٣ ــ أمـه نعـامـة واضـربــوهـا بعيــري
جــا مشبهــاني عــلى خف وأجنــاح

(تركي بن حميد)

ورابع يقول:

٩٤ ــ يـا راكب من عندنـا فوق مـذعـور
أمخـمــر مــاطـق عـقـب الـعـســافي[2]

٩٥ ــ مـا فوقـه إلا الخـرج والـزل منشـور
وأد ويـرع من فـوق الأمتــان وافي

(ساجر الرفدي)

وكما تغنى الشعراء بالحر الأصيل كذلك تغنوا بالذلول النجيبة، قال الشاعر:

٩٦ ــ يـــا راكب حمـرا بــراسـة صعــالــه
هي منـوة الطارش ليـا صنقر الـلال

---

(١) آدابنا الشعبية ٤١.
(٢) آدابنا الشعبية ١٠٦.

٩٧ ـ حمرا ولا رضع الحوير مشاله
ولا قلطه لمقطب الحمل جمال

٩٨ ـ ليا هبطه حيد وحيد نباله
ليا كنا الرابدا اليا شافت ازوال

(عبد الله القضاعي)

وثاني يقول:

٩٣ ـ يا فاطري ذبي خرايم طمية
إلى اشمخرت مثل خشم الحصاني[1]

١٠٠ ـ ذبي طمية والرياض العذية
تنحري يرزان زين المباني

(راكان بن حقلين)

وثالث يقول:

١٠١ ـ يا راكب حمرا تذب الطواريق
جدعيه قطع الفيافي مناها[2]

(ساجر الرفدي)

ورابع يقول:

١٠٢ ـ ليا صار لك من عوص الأنضار زماله
حمرا تورد بك ليا صنقر اللال[3]

١٠٣ ـ خله مع الديان تمشى لحاله
ليا صار ما أنت اللمسة الخشم حمال

(أبو زويد)

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٦٣.
(٢) أبطال من الصحراء، ص ١٣٤.
(٣) الشوارد ١٥١.

وكما هي الحال بالنسبة لذكور الغنم الغير مرغوب فيها يتم خصيها كذلك بالنسبة للابل وأحياناً الحمير، من هذا المنطلق نجدهم يحرصون على السلالات الممتازة، كفحول لمواشيهم ينتج عنها أنواع جيدة من المواشي وربما اشتهرت قبائل وأسر بالسلالات الموجودة لديهم من الخيل والإبل والأغنام، أما الذين يغفلون السلالات الممتازة فتجد مواشيهم من النوع الرديء.

وكما رأينا موعد تلقيح الغنم هو فصل الصيف فإن الابل تختلف عن ذلك حيث يطلق الفحل في أول الشتاء «الأربعانية» وذلك حتى تلد الناقة بعد عام كامل لأن مدة لقاحها سنة كاملة في وسط «الربيع»، والجمل الفحل الهائج لا يثنيه عن الناقة أحد، هذا الحيوان الأليف الوديع إذا هاج تغير وضعه ومزاجه، وبدأ بالهدير يقف منتصباً ويحني رقبته شامخاً برأسه ويبدأ بالزفير الشديد والهدير، ويخرج من فمه «الهدارة» وهي غشاء رقيق وردي اللون يشبه «البالون» الذي يلعب به الأطفال يكبر حجمها مع شدة الزفير والهدير حتى تصبح بحجم ثمرة الأترنج وأكبر، ثم تبدأ بالضمور حتى تتلاشى ثم تدخل في فمه مرة ثانية وهي غده ملتصقة بلهاته العليا، ثم يطفو الزبد الكثيف على شدقيه وتصطك أسنانه ويتضرس بأضراسه فتسمع لها قضيضاً شديداً في هذه الحالة «الهستيرية» ومتى بركت أو بَرَّكَ أنثاه «المجسر» جثم عليها، وعلامة الناقة «المجسر» أن ترفع ذيلها إذا أحست بقرب الجمل منها، ومن الخطر التحرش بالجمل الهائج لأنه يسحق من يتحرش به بزوره بعد أن يبرك عليه ويقضمه بأسنانه، وضحاياه في هذه الحالة كثيرون ويأنف الجمل الحر من «تضريب» أمه ويقال انه ربما عميت عيناه وقت «التضريب» فإذا اكتشف أنها أمه مات جزعاً.

أما الخيل فليس هناك وقت معين لتلقيحها إلا أنه يفضل أن يكون التلقيح إذا أعطت المهرة أو الفرس وتوفر الحصان الأصيل في فصل الربيع حتى تلد في الربيع القادم لأن مدة لقاحها سنة كاملة، ويأبى الحصان الأصيل أن «يشبى» ينزي على أمه مهما كانت الأسباب، وفيما لو عمي عنها واكتشف فيما بعد أنها أمه مات جزعاً وقهراً في الحال ويروي المجربون قصصاً واقعية في هذا

الشأن. أما الحمير فالبعض يحتفظ بالسلالات الطيبة منها والبعض الآخر يتركها للصدف وتلد الحمارة بعد سنة وعشرة أيام كما قال «الصليبي» «ما عقب عشر للحمار مزيد» أي عشرة أيام بعد السنة والحضر ينتفعون من هذا الحيوان أكثر من البدو لأنه سبيل مواصلاتهم اليومية لذلك فعنايتهم به أكثر.

وهكذا يستمر البدو الرحل قرب أماكن المياه طيلة فصل الصيف وأوائل فصل الخريف ومتى تحسن الجو مائلاً إلى البرودة تراهم ينزحون قليلاً عن أماكنهم السابقة حتى يروا بوادر نزول الغيث ثم تبدأ دورتهم الجديدة بالرحيل إليه كما حدث منذ عام.

□ □ □

الفصل السادس:

التجارة

□ تجارة المواشي:

لم تكن التجارة آنذاك كما هي عليه في الوقت الحاضر منظمة حسب لوائح وقوانين وأنظمة تجارية دولية، وإنما كانت تعتمد على الجهد الفردي والجماعي المبسط، وتخضع لقواعد العرض والطلب على السلع الموجودة المحلية وبما أن المجتمع يعيش في معظمه على قطاعي الزراعة والرعي فلذلك نجد التجارة في هذين النوعين من السلع التي ينتجها هذان القطاعان، والتجارة في ذلك الوقت محفوفة بالمخاطر، إذ إن الأعداد الهائلة من المواشي والمبالغ الطائلة من الأموال وضروب التجارة الأخرى، تغري الكثيرين ممن ستمر بأراضيهم للاستيلاء عليها، ولا سيما أن السلطة المشرفة ليست بالدرجة التي تمكنها من السيطرة على الأوضاع الداخلية تماماً إذا والحالة هكذا، فلابد من أن يتخذ التاجر احتياطاته وترتيباته مع ممثلي هذه السلطة أو ممثلي شيوخ القبائل الذين سيمر بأراضيهم وذلك بدفع أتاروة معينة تعد كضريبة مرور أما مبلغاً مقطوعاً من المال على الحملة كلها أو مبلغاً معيناً على كل رأس من الماشية لمندوب كل إمارة أو قبيلة في طريقه وذلك من أجل حمايته وممتلكاته أثناء مروره، ولما كانت المكاتبات لم تنتشر آنذاك فإن التاجر يصطحب معه أحد الأفراد الذين يمثلون السلطة أو شيخ القبيلة وعند تعرض القافلة لأي خطر من فرد أو أفراد في حق هذه القبيلة من الأرض يخبرهم هذا المندوب أن هذه الحملة «بوجه» فلان أي بحمايته ومنها يفهم المقصود ولا أحد يتعرض لهم بسوء، وهكذا على طول الطريق حتى يصل

إلى منتهاه، ولا شك أن التاجر يضيف هذه الأتاواة إلى تكاليف البضاعة عند احتساب الأرباح، وإذا أمعنا النظر نجد التجارة تتشعب إلى أبعد من ذلك وهي كما يلي:

تجارة المواشي من الابل والأغنام وهذه تكون على محتويات متعددة، المستوى الأول وهم من يسمون «عُقَيْل» وهؤلاء يشترون الابل بأعداد كبيرة من نجد ويصدرونها إلى الشام وفلسطين ومصر ويسمون تلك النواحي «الغربية» وتبلغ اعداد الابل التي يشترونها إما من مضارب البادية أو من الأسواق القريبة منها بالمئات، وتبلغ المسافة التي يقطعونها بما يقارب عشرين يوماً وليلة ويتخذون استعدادهم بالحماية المسلحة للحملة بالاضافة إلى ما يدفعونه لمن يمرون بأرضهم من أتاوات، ويستأجرون من الشباب الأقوياء من يساعدونهم أثناء مسيرة الحملة ويتبعون الطرق التي يتوفر بها الماء للابل لكل ثلاثة أيام على الأقل، ووقت شرائهم للإبل في نهاية فصل الربيع عندما تكون الإبل قد اقتنت الشحم وهذا الوقت مناسب للأسفار، فنهاره معتدل وليله بارد نسبياً، ولا تحتاج الإبل فيه إلى الماء كثيراً مما يساعدهم على قطع مسافات طويلة دون الحاجة إلى الماء وحتى وصلوا إلى مراكز التسويق باعوها وعادوا بأثمانها وربما أبقوا على البعض منها مما تحمل الاثقال واشتروا بأثمان ما باعوا بضائع أخرى من نفس البلد مما لا يوجد ببلدهم وعادوا فيها ليجدوا فيها صفقة مربحة. ويحرصون على البضائع الثمينة مما خف حمله وغلا ثمنه، ولابد لبائع الأغنام أو الابل من الاستعداد لفئة تسمى «الشريطية» وهي التي تشتري الأغنام والابل بأعداد كبيرة وهي فئة محترفة لهذا النوع من التجارة فلابد أن يكون البائع رحب الصدر، صلب العود، مرنا، رزيناً لا تزحزحه الكلمة، ذكياً يعرف كيف يتصرف مع هذه الفئة، التي تذيق البائع أنواعاً شتى من اللعب بـالأعصاب في تخفيض الأسعـار والتجاذب، بالمساومة، والإلحاح الشديد بطلب البيع، والمغالطة فيما بينهم، أحدهم يزيد في السعر والآخر يثنيه عن ذلك وترى «ترمومتر» الأسعار يرتفع فجأة من أحدهم ويهبط هبوطاً حاداً من الآخر، وأحياناً يعزفون عن المساومة جميعاً وينصرفون عنه وبعد فترة يأتيه واحد منهم يدعي الحذق والعقل والصدق، ذلك لجس النبض،

ويسوم بسعر منخفض قليلاً عما سبقه فإن باعه كان ذلك ما يريد وإن أصر البائع على سعر معين انصرف عنه وربما عادوا إليه واشتروا ما معه، وأحياناً إذا عجزوا عنه ورأوه مغادراً المكان بابله أو أغنامه لحقوا به واشتروا ما معه، خاصة إذا كان معه ما يغريهم حسب معرفتهم وخبرتهم بهذه المواشي وهذه الطرق يعتبرونها فناً من فنون التجارة والمضاربة التجارية وهو شبيه بما يحصل الآن في أسواق البورصة في الدول المتقدمة وأسعار الابل في ذلك الوقت حسب العملة الدارجة في بعض الأحيان من ٧٠ ـ ٣٠٠ ريال وربما أكثر من ذلك أو أقل.

المستوى الثاني هي مؤلفي الأغنام ويتم شراؤها عادة من مضارب البادية حول المياه سواء على الآبار أو بقرب القرى وذلك بعد انقضاء فصل الربيع وامتلائها بالشحم ويشترون منها أعداداً كبيرة قد تصل إلى الآلاف من رؤوس الغنم ثم يتجهون بها إلى مراكز التسويق القريبة متمشين حسب مسير الأغنام يتتبعون بها الأماكن التي توجد بها المياه والكلأ حتى لا تتأثر الأغنام وينقص شحمها ويصدرون هذه الأغنام إلى مراكز تسويقها على ساحل الخليج العربي والبحر الأحمر بالاضافة إلى المدن الرئيسية في ذلك الوقت، وإذا علمنا أن استهلاك الناس من اللحوم في ذلك الوقت أقل مما هو عليه في الوقت الحاضر، مع توفر اللحوم لدى كل فرد في بيته أو مزرعته فإننا ندرك انخفاض أسعار الأغنام نسبياً لكن كما أسلفنا حسب العرض والطلب، وبعد بيعها يستبدلون اقيامها بعروض التجارة المتوفرة في ذلك البلد مما يمكن تصريفه ببلدهم ويفرض التاجر السعر الذي يريده حسب الطلب على سلعته ولعدم وجود المنافسة، وأحياناً انعدام هذه السلعة في السوق إلا ما عنده مما يدخله في نطاق الاحتكار، والتجارة مغامرة منذ أقدم العصور ومتى نجح المغامر فإنه يفرض نفسه على من حوله سواء في ميدان التجارة أو غيرها.

ولابد لبائع الأغنام من المرور على «شريطية» الغنم الذين مر ذكرهم، وأسعار الأغنام في ذلك الحين تتراوح ما بين ٣٠ ـ ٥٠ ريالاً وتزيد أو تنقص وقد وصلت في بعض الأحيان إلى أن الخروف بريالين وثلاثة والتيس بريال واحد، وتحكى قصة بها شيء من الطرافة وهي أن أحد بائعي الغنم جلب تيوساً إلى

السوق وعندما مساومته للتيوس. بريال ونصف ريال وربع وريال وثلث قال أنا ما أعرف هذه «الحراوين» الذي يريد التيس بأخيه يأخذه أي بريال واحد؟!! وعند ذلك أخذوا جميع ما معه في زمن قصير.

□ تجارة المنتجات الحيوانية:

تتمثل المنتجات الحيوانية بشكل رئيسي من السمن والأقط «البقل» وأشياء ثانوية كالمنسوجات الصوفية والجلود المدبوغة والصوف وعادة يقصد التجار مضارب البادية لغرض التبادل التجاري إما أن يكون شراء هذه المنتجات نقداً بالعملة المتداولة بسعر الصاع من السمن والأقط والقطعة من المنسوجات والجلود وأحياناً يحضر التجار معهم بضائع وسلع مما يحتاج إليه الناس من السلع الضرورية كالأقمشة والملابس والقهوة والهيل والسكر والشاي والأواني واللوازم المنزلية والمصوغات وأحياناً بعض التوابل والأفاوية والأدوية ويتم استبدالها بالمقايضة في المنتجات الحيوانية الآنف ذكرها. والتاجر يأخذ حقه كاملاً لاسيما بالمقايضة وخاصة إذا كان الزبون امرأة ولديه سلعة دخلت نظرها فإنها تشتريها بالسعر الذي يفرضه بلسانه طالما أن الثمن مما أنجزته يدها وفي متناولها، (وهذه طبيعة المرأة في كل زمان ومكان إذا دخل مزاجها سلعة معينة وخاصة ما يتعلق بمظهرها فإنها لا تبالي بأي ثمن كانت،) وهكذا يجمعون من هذه المنتجات كميات كبيرة يعودون بها إلى مراكز تجارتهم. وهذه التجارة موسمية تتم مرة في العام بعد فصل الربيع مباشرة وبعض البادية لا ينتظرون قدوم هؤلاء التجار بل إنهم يجلبون منتجاتهم إلى مراكز التسويق في المدن والقرى القريبة منهم، أو التي عرفوا أن أسعار سلعهم مرتفع فيها، وتتم المقايضة أو البيع بالنقد.

وتختلف صورة العرض والطلب في هذه الحالة عن سابقتها فحينما نرى التجار إذا حضروا إلى مضارب البادية يفرضون السعر الذي يريدونه لخلو الجوله وعدم وجود المنافس، نجدهم إذا نزلت السلع المجلوبة لديهم في السوق يتنافسون أشد المنافسة عليها سواء بالمزايدة في أسعار هذه السلع المجلوبة

أو بتخفيض أثمان السلع الموجودة لديهم، أو بالتسهيلات الخاصة بالمقايضة وربما بالاغراءات الأخرى كأن يدعو البائعين إلى تناول القهوة أو طعام الغذاء والعشاء، وربما حصلت مشاحنة بين تاجر وآخر في صالح البائع، وأحياناً يحصل العكس تماماً إذا تضامن هؤلاء التجار فيما بينهم واتفقوا على سعر معين لا يزيدون عليه ربما أقل من قيمة البضاعة الحقيقية مما يحطم نفسية البائع ويجعله إما ان يخضع لهذا العرض ويبيع أو يغادر المكان، وغالباً ما يبيع بسعر أرفع مما عرضوه عليه خاصة إذا كانت البضاعة المجلوبة لديه كميات منها أو غير قابلة للنقل مرة أخرى، ويمتار بأثمانها لاحتياجاته الضرورية من الأطعمة والكساوي، وأحياناً يجلب هذه السلع ويقايض فيها باحتياجاته من مواد غذائية وأقمشة وملابس جاهزة وأدوات منزلية ولوازم ومعدات بيتية سواء أكانت هذه الأخيرة من التجار أنفسهم أو من أصحاب المهن الذين يقومون بصنع هذه الأدوات المنزلية واللوازم والمعدات الضرورية. وإذا أمعنا النظر في حجم هذه التجارة وجدناها ذات حجم متوسط لا تتعدى في أنواعها المواد والأدوات الضرورية وبعض الكماليات على نطاق ضيق، تجد التاجر الكبير في ذلك الوقت يملك من رأس المال ما يقابل في الوقت الحاضر من ٥٠ ـ ١٠٠ ألف ريال تقريباً أما التجار الصغار فإن رساميلهم لا تتعدى ما يوازي عشرة آلاف ريال في الوقت الحاضر.

□ تجارة المنتجات الزراعية:

القطاع الثاني الذي تقوم عليه التجارة هو القطاع الزراعي، وهي تجارة موسمية أيضاً إذ يقوم التجار في موسم تصفية غلة الزراعة الشتوية «الصايرة» بشراء الحبوب بمختلف أنواعها القمح بنوعيه الطري والصلب «اللقيمي» والشعير بنوعيه وذلك بسعر الصاع = ٣ كيلوجرام بالعملة المتداولة، ويجمع التجار كميات كبيرة من الحبوب يتم تخزين كل نوع على حدة تمهيداً للبيع والمبادلات التجارية مع رواد السوق من البادية والذين يمتازون من المدن والقرى المجاورة لهم سواء بالنقد أو المقايضة بمنتجاتهم الحيوانية التي سبقت الاشارة

إليها، ويجري شراء الحبوب من الفلاحين، كل واحد حسب الكمية التي يعرضها للبيع وذلك بعد أن يختزن الفلاح ما يكفي قوت عامه كاملاً مع الوفاء بالديون التي علقت ذمته، خلال موسم الزرع، والباقي يعرضه للبيع، ويتم تسويق هذه الحبوب في المدن الرئيسية، مثل مكة المكرمة، والمدينة المنورة وفي بلدان الخليج العربي والبحر الأحمر، وبعض التجار المحترفين يخزنون هذه الحبوب بمستودعات خاصة، ارتقاباً للفرص التي قد تسنح لبيع ما لديهم بأرباح جيدة وقد تصادف بعض السنين وقت جفاف وتقل الموارد الغذائية، وهنا يجد البعض من هؤلاء التجار فرصتهم فيبيعون ما لديهم بأثمان غالية، وربما قاست بعض الأسر من الطبقة الفقيرة من شظف العيش في مثل تلك الأوقات العصيبة بحيث يبعون الغالي رخيصاً في سبيل الحصول على الغذاء ولا تلبث هذه الظروف أن يحلها الله بفرج من عنده وقد يحضر هؤلاء التجار الرز العراقي «التمن» بأنواعه ضمن صفقاتهم التجارية.

النوع الثاني من المنتجات الزراعية هي التمور بأنواعها والتي يشتريها التجار من الفلاحين في موسم الجذاذ، الصرام، ويتم شراؤها إما بالصاع أو الوزنة أو الزنبيل أو بالنخلة وربما مجموعة النخل والصاع حوالي ثلاثة كيلوجرامات وتساوي الوزنة ١,٣٥ كيلوجرام تقريباً والزنبيل خمسة عشر صاعاً، ويكتنز الفلاحون من أنواع التمور الفاخرة ما يكفي مؤنة بيوتهم، أما التمور العادية فيكتنزونها لغرض البيع إما بحياض كبيرة أو بأوعية من «خصف» سفيف خوص النخل أو بأوعية جلدية «عيبة» ويحتفظون بها إلى وقت الشتاء حينما يحتاج الناس إلى التمر لمساعدتهم بمادته الغذائية وطاقته الحرارية للتدفئة وعندها يتم بيعه بأرباح ممتازة، وقد يشتريه التجار منهم ويعملو له نفس الترتيب إلا أنهم يعبئونه «بالخصف» تسهيلاً لنقله من مكان إلى اخر على ظهور الابل، وتجارة المنتجات الزراعية كذلك تجارة موسمية وتعتبر من تجارة الضروريات.

□ تجارة الكماليات:

تجارة الكماليات يومئذ ليست بمستواها في الوقت الحاضر، وإنما تعتبر كماليات قريبة من الضروريات، منها:

١ ــ تجارة الأقمشة التي تباع بالذراع «يساوي ٥٤سم» من مختلف الألوان بأنواعها القطن والكتان، والحرير السادة، والحرير المطرز بخيوط من الذهب وهو خاص بثياب العرائس، والملابس الجاهزة كالعبي «والبشـوت» و«الغـتر» و«الشماغ» ولوازم الخياطة كالابر والخيوط الحريرية «بريسم» والخيوط المذهبة «زرى» الذي يوشي بها حواف وأكمام وجيوب الملابس النسائية، أما الملابس القطنية فتتم خياطتها من خيوطها.

٢ ــ أدوات الزينة للمرأة كالكحل، والحناء، واللبان، و«المشاط» «البلالة» وهو مخلوط من عدة عناصر عطرية تضعه المرأة بشكل عجينة رخوة على شعرها وتمشطه فيه، و«الذرير» «القدود» وهو مسحوق عطري مركب أصفر ضارباً إلى الحمرة تذر المرأة على مفرق رأسها.

٣ ــ العطورات بمختلف أنواعها ومستوياتها منها المجهز خارجياً ومنها الذي يتم تركيبه في الخارج وأشهرهـا، دهن الورد، ودهن الـعـود، والمسك، والعنبر، والزباد، والكادي. . الخ وعود «القماري» البخور العودي الذي يرد من الهند وجنوب آسيا، بمختلف مستوياته كالجاوي والهندي، وكذا البخور المخلوط «المعمول» «الجاوني» وهذا يتم تركيبه محلياً من عدة عناصر عطرية بنسب معينة وهو أرخص من سابقه، ورائحته طيبة عند وضعه على النـار إنما لا يضـاهي «عود القمـاري» ويستعمل عنـد الحاجـة وأكثر ما تستخدمه النساء.

٤ ــ المسوغات الذهبية والفضية المصنوعة بدرجة رئيسية للمرأة منها ما يعلق بالعنق كالمورقة، والقلادة، ومنها ما يثبت في جيب الثوب وهي أزرار ذهبية

مرصعة بفصوص من الفيروز والأحجار الكريمة، وهذا الزر دائري مستطيل بحجم البلحة وأكبر أو أصغر، وتثبت المرأة بجيب توبها من ٣ ـ ٧ أزرار، ومنها ما يعلق بالأذن كالأقراط «الخزاري» بمختلف أنواعها وأحجامها، ومنها ما يثبت على مقدمة الرأس وتسمى «الجبهة» «الهامة» وهي أشكال مختلفة من ورق الذهب لها قاعدة تتدلى منها بسلاسل أو حلقات ذهبية تغطي على الجبين، ومنها على شكل مربع ذهبي مرصع بفصوص من الفيروز أو الأحجار الكريمة ويوضع في وسط القلادة المرجانية على الحلق تسمى «الشميسة» ومنها ما يثبت بالمعصم قبل خروج الساعة وهي أسوارة عريضة مرصعة بفصوص الفيروز والأحجار الكريمة تسمى «السعيفة» ومنها الأساور العادية «مجاول» بالاضافة إلى الخواتم ذات الفصوص الفيروزية أو الأحجار الكريمة الأخرى والخواتم بدون فصوص «محابس» بالاضافة إلى عقود اللؤلؤ على مختلف مستوياته وأشكاله وألوانه، وعقود المرجان الأحمر والوردي، والعقيق والخرز بمختلف أنواعه وأحجامه والذي يستخدم عقوداً في الأعناق «مخناقة» ومع الأساور في المعصم «خصر» بالاضافة إلى المطاوي وهي من اللدائن الشمعية المقواة مطوية بشكل حلزوني تدخل بالمعصم وهي ذات لونين أسود وبني.

والمسوغات الفضية كالأساور الفضية «منافيخ» و«بناجر» وقلادة ذات المربعات والسلاسل الفضية «الصدرية» والخواتم الفضية، والحجول الفضية وهو ما تلبسه المرأة في أسفل ساقها فوق القدم مباشرة وفي بعض الأحيان تكون الحجول من الذهب.

العطارة وهي تشمل مختلف أنواع التوابل والأفاوية والأبازير التي تبلغ بأصنافها المئات نذكر منها، الحلبة، الرشاد، الحبة السمراء، والحبة الحلوة، الكمون العصفر، الكزبرة، حب البصل، حب الكراث، .. الخ. والأدوية المركبة من الأعشاب كالصبر، والحلتيت، والمر، وصمغ الريح، الخ. والصمغ العربي، واللبان بنوعيه الطري للمضغ والصلب

«مستكا» ويستعمل كدواء.. الخ والأصباغ ومركباتها والأعشاب البرية التي تستعمل كأدوية. والأبازير التي تستعمل مع الأكل كالكركم والفلفل الأحمر والأسمر.. الخ.

٦ ـ الأحذية المصنوعة محلياً والأسلحة الخفيفة كالخناجر، والسكاكين والأواني المنزلية المصنوعة من النحاس كالقدور بمختلف المقاسات والصواني النحاسية المطلية «بالرصاص» الخارصين، وأواني الشرب «الطاسة» بمختلف المقاسات وآنية جلب الماء «الجذعة» والأواني المصنوعة من الخشب، كالأقداح الخشبية «والموقعة» و«المغارف»... الخ.

وهذه الأنواع من الكماليات قد تجدها لدى الكثير من الناس ماعدا المسوغات فهي من اختصاص الصائغ وكذلك التوابل والأفاوية والأبازير فهي من اختصاص العطار والمصنوعات غالباً ما تجد كل سلعة عند صانعها، وتجد لها تجاراً يشترونها ويبيعونها، والتجارة في هذه الأصناف تباع بالنقد والمقايضة بالمنتجات الزراعية والحيوانية وحجم تجارة الكماليات لا تمثل سوى نسبة صغيرة من حجم التجارة في ذلك الوقت بما يوازي حوالي ١٥٪ تقريباً.

□ تجارة المتفرقات:

بالاضافة إلى ما ذكرنا يوجد نوع من التجارة يقوم بها فئات معينة كتجارة ملح الطعام وهو ما يجمع من الأراضي السبخة والقيعان المالحة بعد هطول لأمطار عليها، يطفو على سطح المياه الراكدة طبقة من الملح الأبيض الناصع تختلف نقاوته ودرجة ملوحته من مكان لآخر، وحسب كمية الأمطار الساقطة لى تلك البقعة المالحة، كما أن هناك مواضع أخرى هي مناجم الملح تتكون من بقات صخرية ملحية مغمورة بطبقة من الرمال يتم إزاحة الرمال عنها وتقطيعها ، كتل وأحجام يسهل نقلها على ظهور الجمال وسواء أكان الملح من الفتاة لقطع الصغيرة أو من القطع الكبيرة نسبياً فإن بيعه بأثمان رخيصة سواء بالنقد

أو المقايضة ويكون بيعه بالصاع أو بالفردة (٨٠) كجم من نوع «الكراشيف» أو الكتل الصخرية.

السلعة الثانية وهي الفحم النباتي المتخذ من أخشاب الطلح والسمر والغضى والسلم والأرطي وغيرها من الأشجار ذات الفحم الجيد ويستخدم الفحم كوقود مساعد وللتدفئة وأكثر ما يستخدم بالمدن ويباع أيضاً بفردة البعير (٨٠ كجم) وهو رخيص الثمن نسبياً، ويباع بالنقد والمقايضة.

والسلعة الثالثة هي «العرن» وهو جذوع وأغصان أشجار العرن الذي ينمو بالجبال وله أغصان وجذوع حمراء غليظة شديد مرارة الطعم وتكسر هذه الجذوع والأغصان إلى قطع صغيرة ويستخدم لدباغة الجلود، لتصبح بنية اللون طرية الملمس، ويباع بحمل البعير حوالي ١٢٠ كجم من هذه الجذوع المربوطة «بالشبقان» وهو شبكة صغيرة من الحبال والعرن رخيص الثمن نسبياً ويباع كذلك بالنقد والمقايضة ويصل حمل البعير من ريالين إلى خمسة ريالات وربما يزيد أو ينقص عن هذا المبلغ حسب العرض والطلب.

السلعة الرابعة هي الأرطى وهو ورق الأرطى وغصونها الدقيقة تجمع من شجر الأرطى وتوضع في فردة كبيرة لأن وزنها خفيف وتباع بحمل البعير الذي يساوي ١٥٠ كجم تقريبا وهي رخيصة الثمن من ٣ ـ ٥ ريالات للحمل تزيد أو تنقص وتباع بالنقد والمقايضة وتستعمل الأرطى بعد دقها لدباغة الجلود لتكسب اللن الأصفر والنعومة المميزة.

السلعة الخامسة هي: «الخبط» وهو ورق الطلح تقطع أغصان الطلح وتجمع حتى تجف وتسقط أوراقها فتجمع في «رزمة» وهي أكياس كبيرة من النسيج الصوفي وتزن الرزمة حوالي ٢٠٠ كجم أما فردتا البعير فتزنان حوالي ١٦٠ كجم ويستخدم «الخبط» علفاً «للابل» حيث يخلط مع العلف العادي ويعلف الابل وخاصة السواني وهو مادة نافعة بدرجة ممتازة وأسعاره رخيصة أيضاً من ٢ ـ ٤ ريالات لحمل البعير أو الرزمة تزيد عن ذلك أو تنصص حسب

العرض والطلب وهذه السلع تكاد تكون ضرورية وقد لا يخلو بيت منها وخاصة أصحاب العلاقة بهذه السلع كالفلاح والذي يعمل بدباغة الجلود وهذه السلع بحد ذاتها ليست سلعاً دائمة وإنما هي موسمية أيضاً.

□ المداينات:

هناك نوع آخر من ضروب التجارة وهي المداينات بالأنواع الآتية:

١ ــ النوع الأول المداينة «الوعدة» وهي بيع سلعة حاضرة إلى أجل معين بزيادة في السعر عند ذلك الأجل، وتتم هذه الطريقة عند التجار المستقرين بالمدن، يأتيهم صاحب الحاجة فيبيعونه هذه السلعة التي قيمتها مثلاً مائة ريال إلى أجل قدره عام بثمن قدره من ١٠٥ ــ ١٢٠ ريالاً أي بنسبة زيادة ٥٪ ــ ٢٠٪ وان زادت المدة زادت النسبة ويقبض الزبون هذه السلعة حيث يبعها على حسابه الخاص تزيد أو تنقص حسب سعر السوق الحالي وعادة يطلب التاجر من الزبون كفيلاً ضامناً لحقه يكلفه عند حلول الأجل المعلوم، ويلجأ لهذه الطريقة الأشخاص الذين لديهم مشاريع معينة كزواج وشراء بيت أو مزرعة.. الخ والبيع في هذه الحالة سلعة بنقد.

٢ ــ النوع الثاني هو إعطاء مبلغ حاضر بسلعة غائبة إلى موسم تواجد هذه السلعة وتسمى «ثمنه» كأن يعطيه مبلغاً من المال على موسم الحب أو التمر بسعر يتفق عليه ويأتي بحدود المألوف مع نقص معقول يقابل المدة الزمنية ولا يوجد الغبن لدى الزبون وأكثر من يتعامل بهذه الطريقة الفلاحون، وذلك عند بدء موسم حرث الزرع خاصة للطبقة الفقيرة من الفلاحين وأكثرها في سنوات الجدب ومن الشروط المتعارف عليها أن يكون الوفاء بالدين من النوع الجيد من الحبوب والتمور لا هو بالممتاز ولا بالرديء من الثمرة.

٣ ــ النوع الثالث هو إعطاء مبلغ حاضر بنوع معين من الماشية الغنم أو الإبل وتسمى هذه الطريقة «طلاع» وهي أن يعطيه مبلغاً من المال مقابل عدد

من رؤوس الغنم لكل رأس سعر معين إلى أجل توالد الأغنام وفطامها عن أمهاتها أو إذا كانت لها سنة وأن تكون هذه الأغنام من الأنواع الطيبة لا من خيار الغنم ولا من أدناها، وتكون أقيامها بالأسعار المألوفة مع نقص معقول يقابل المدة الزمنية ولا يوجد الغبن لدى الزبون ويتعامل بهذه الطريقة العرب الرحل. وتجري هذه المعاملات «الثمنة» و«الطلاع» أحياناً بالمكاتبات وأحياناً أخرى بدونها، يحكمها طيب النية ونقاء الطوية اللذان يطبعان ذلك المجتمع، وفيها لو حصلت كارثة طبيعية لثمرة الزبون أو ماشيته وليس له يد فيها فإن هذا الدين يبقى للعام الثاني.

٤ ـ النوع الرابع هو إعطاء مبلغ من المال أو سلعة من السلع أو ماشية من المواشي لشخص يوثق به إلى أجل غير مسمى ينمي هذه السلعة لديه وتسمى «عدولة» ومتى تمت تنميتها بحجم طيب ردها من هي عنده إلى صاحبها، والمتعارف عليه أن يعيدها مع كامل نموها إلى صاحبها وله عرقتها وألبانها وأصوافها مقابل عنايته بها أما رأس المال والنمو فهو لصاحبه.

وان تنازل صاحب المال عن جزء منها لمن قام بينهما فهي عن طيب نفسه وقوام هذه الطريقة الأمانة والصدق وهذان العنصران متوافران في هذا المجتمع، وهذه الطريقة ليست لفئة من الناس دون أخرى.

٥ ـ النوع الخامس: وإن كانت ليست من ضروب التجارة بقدر ما هي نوع من الاستفادة المشتركة وشائعة الاستعمال وخاصة في قطاع الزراعي وهي «الصبرة» كأن يعطي الفلاح أرضاً يزرعها على مقدار معين من غلتها أو يعطيه أرضاً يغرسها على مقدار معين من ثمرة نخيلها أو عدد من نخيلها، أو يعطيه مبلغاً من المال يتاجر به على نسبة معينة من الربح أو يعيره أرضاً يقيم عليها بيتاً ومتى انتهى من البيت تركه لصاحب الأرض، ويحكم هذه الطريقة حسن الجوار وطيب السريرة وحب المنفعة المتبادلة ويتعامل بهذه الطريقة كثير من الناس وخاصة الطبقة الفقيرة من المجتمع.

□ □ □

الفصل السابع:

المهن

□ الجمالة:

«الجمالة» مشتقة من اسم الجمل و«الجمال» هو الرجل الذي لديه مجموعة من الجمال ينقل عليها البضائع من مكان إلى آخر، وهي في الواقع ليست مهنة لها أسرارها أو فنياتها التي لا يعرفها إلا أصحابها، وإنما هي نوع من الخدمة ذات مصلحة مشتركة و«الجمالة» هي تهيئة بعير أو مجموعة من الإبل لنقل البضائع والسلع من مكان آلى آخر وبين مدينة وأخرى وهي بمثابة شركات النقل في الوقت الحاضر، والواقع أنها تعتبر في ذلك الوقت جزءاً من عصب الحياة الضرورية ويتطلب أن يكون الجمّال قوي البنية نشيطاً مفتول العضلات حتى يستطيع مع رفاقه وضع الأحمال على الابل وتنزيلها عنها عند وقت الراحة وتختلف مستويات حجم الجمالة على النحو الآتي:

١ ـ **الحجم الكبير من «الجمالة»**: وهي تتطلب أعداداً كبيرة من الابل لنقل البضائع الكثيرة من مسافات طويلة من المدن البعيدة ومراكز التجارة الواقعة على البحر الأحمر والخليج العربي والعراق والشام وفلسطين وهذه تحتاج إلى عدد كبير من الأفراد وإلى حماية مسلحة من صاحب البضاعة، ودفع ما يترتب على هذه البضاعة من الأتاواة التي مر ذكرها وما على الجمال إلا تأمين نقل هذه البضائع من مركز وجودها إلى مركز تسويقها، مقابل أجر معين على حمل البعير أو على البضاعة كلها وبالطبع يكون

الجمال لديه الاستعداد الكافي من الابل وما تتطلبه من مستلزمات كالأشدة وأدوات الري والحبال وغيرها، مع تأمين أماكن لوجودها في أحواش محصنة بالمحطات الرئيسية أو في المدينة التي يقيم فيها.

٢ ـ **الحجم الوسط**: وهو أقل من حيث عدد الابل والأفراد وعادة لا تتعدى إبله من ١٠ ـ ٢٠ بعيراً تزيد أو تنقص قليلاً عن ذلك وهو يتولى نقل السلع ذات الكمية المتوسطة بين المدن المتقاربة بأجور تتناسب والمسافة التي يقطعها ويحتاج إلى حماية مسلحة عن قطاع الطرق وتعتمد على هذا النوع من «الجمالة» تموين المدن بمختلف السلع المتوفرة بالمدن الأخرى.

٣ ـ **الحجم الصغير**: وهو من يملك من ١ ـ ٣ من الابل وهذا النوع أكثر احتكاكاً بالجمهور ويقوم بالعمل بين المدينة والقرى المجاورة لها وهو في الواقع يقوم بمهمة رئيسية في تموين القرية بكامل احتياجاتها من كل شيء فهو إلى جانب نقله للسلع الرئيسية التموينية وغيرها ذات الحجم الكبير، يقوم بقضاء لوازم أهل القرية الصغير منها والكبير، وإذا علمنا أن الحوانيت والدكاكين لم تنشر في ذلك الوقت فإن كل أسرة في القرية تحتاج إلى خدمة «الجمال» فتجدهم حواليه صباح مسيره إلى المدينة وكل منهم قد أحضر نقوده ومعها قائمة باحتياجاته من المدينة وبعضهم يحضر النقود ويبدأ بعد الأشياء التي يطلب من الجمال أن يحضرها له من المدينة وتسمى هذه العملية «سَفَرْ» وقد تكون متطلبات هذه الأسرة من ابرة الخياطة حتى الأشياء الكبيرة، وهذه الخدمة التي يقوم بها الجمال لا يأخذ عليها أجراً وإنما تدخل في إطار المروءة والتعاون وحب قضاء الحاجة، وكمبادلة للمعروف، إذا كان لدى رب الأسرة سلع تحتاج إلى نقل من وإلى المدينة فإنه يوعز لهذا الجمال بنقلها للاستفادة من كرائها وربما وجدها فرصة فأعطاه أكثر من حقه مكافأة لمعروفه السابق على هذه الأسرة.

وإذا أمعنا النظر في حجم التبادل التجاري البسيط ودخل الأسرة السنوي المحدود بالاضافة إلى رخص السلع في ذلك الوقت، أدركنا مدى

احتياج هذه الأسرة من الأشياء الضرورية، من هذا المنطلق فلا غرابة إذا أحضر رب الأسرة مبلغ ريالين يطلب من الجمال أن يحضر له فيها ثمانية أو عشرة أشياء بهذا المبلغ الزهيد ويخصص لكل حاجة ربع ريال وربما أقل أو أكثر، وأحياناً «تكثر الظباء على خراش» فتجر البعض من الجمالون يحاولون التخلص من بعض الناس ذوي الحاجات المتعددة كثيري اللغظ والالحاح، فتجد الجمال يتهرب من أسفارهم مما حدا ببعضهم أن يقول «واعد من الجماميل عشرة» وقد ذهب هذا القول مثلاً سائراً بين الناس حتى الوقت الحاضر. وهنا لابد من الاشارة إلى أن قوام هذه الخدمة هو الأمانة والصدق في القول والعمل وهما متوفران بشكل جيد.

□ النجارة:

تشغل مهنة النجارة موقعاً مهمًا في ذلك الوقت إذ يترتب عليها كثير من الضروريات التي لا غنى عنها فالفلاح لا يمكنه الاستغناء عن النجار وصاحب البيت في أمس الحاجة إليه، والعرب الرحل يحتاجون إليه وكذلك التاجر وغيره، من هذا نرى أهمية موقعه والخدمة التي يؤديها لكل فرد حسب حاجته ويتقاضى على هذه الخدمة أجراً مناسباً، ومعظم الأعمال التي يقوم بها هي من الضروريات، فالفلاح يحتاج إلى تركيب المعدات الخاصة بالبئر بشكل جيد وسليم ومريح من محالة ودراجة وأعمدة واقتاب وغيرها وصاحب البيت يحتاج إلى صنع وتركيب الأبواب ومتطلباتها والشبابيك والسواقف وغيرها والبدوي يحتاج إلى الأقتاب والأشدة والهوادج وبكرات الماء.. الخ هذا فيما يتعلق بالأشياء الضرورية، أما إذا ألقينا نظرة على السلع الكمالية فاننا نجد بصماته واضحة على الأبواب الداخلية ذات النقوش والزخارف الفنية الرائعة كما نجده يتفنن في صنع الصناديق الخاصة بالنساء والصناديق الخاصة بالرجال «الفاتية» وأبواب «الصوالين» الرئيسية وأبواب «الكمار» وهو الجزء المزخرف الذي توضع فيه الدلال والأباريق وكذلك صنع المبخرة ذات الأشكال والزخارف الجذابة وغيرها من القطع والتحف الفنية الرائعة. وإذا ألقينا نظرة أخرى على الأدوات التي يستعملها وجدناها تتكون من المناشير بمختلف أحجامها وأشكالها والتي تستعمل

لتقطيع الخشب والقدوم وهو الأداة التي يصنع بها الخشب ويصيره إلى الأشكال التي يريدها والفأس وهو ما يقطع به الخشب الرطب، والمطارق بمختلف أحجامها وهي ما يدق بها و«المشاعب» بمختلف أحجامها والمستخدمة لتخريق الخشب و«المناقير وهي ما يستخدم لنقر الخشب والمبارد بمختلف أحجامها وأشكالها وهي ما يملس بها الخشب بالاضافة إلى الخيوط التي تستعمل للقياس والتخطيط مع مجموعة من الأصباغ المختلفة التي يقوم بتركيبها بنفسه لاستعمالها عند الزخرفة وينتج النجار مجموعة من المصنوعات هي كما يلي:

أولاً ـ ما يخص الفلاح:

١ ـ **المحالة**: وهي بكرة كبيرة سبقت الاشارة إليها في فصل تجهيز البئر.

٢ ـ **الدراجة**: وهي بكره اسطوانية سبقت الاشارة إليها في فصل تجهيز البئر.

٣ ـ تركيب عدة البئر من «توضيب» للأعمدة والحوامل و«الجنابيع».

٤ ـ عمل الشرخ المحراث وتجهيزاته والأقتاب ولوازمها سبقت الاشارة إليها.

٥ ـ المحاور والعراقى وعصى «المساحي» و«المناسيف» و«الفواريع» والمخالب وغيرها.

ثانياً ـ ما يخص البيت للفلاح وغيره:

١ ـ **الأبواب الخارجية** المصنوعة من ألواح خشب الأثل وشرائح «شطيب» النخل وتكون عادة من الحجم الكبير ذات الألواح الثخينة والعصى الغليظة والحلقات السميكة و«الضباب» القوية، وعادة يشرح النجار الأخشاب بطريقة رأسية بعد وضع المقاسات بخطوط طولية وبنفس السمالة ويخرج من الخشبة الواحدة مجموعة من الألواح حسب سماكة تلك الخشبة ويلاقي جهداً كبير في هذه العملية الشاقة.

٢ ـ **الأبواب الداخلية**: وتكون أيضاً من ألواح الخشب الأثل ولكن أدق ألواحاً وأدق صنعاً وأجمل منظراً وهي على مستويات منها المزخرف بالنقوش

والألوان الفنية الجذابة، ومنها العادي المخطط والمنقط باللون الأسود فقط.

٣ ـ **«الضبة» مصراع الباب**: وهي الأقفال المصنوعة من الخشب من جزأين رأس «الضبة» وسلتها فالرأس هو ما يثبت على الباب بمسامير غليظة ويكون فيه «البكرة» و«الغلق» أما السلة فهي الجزء الطويل المثبت من خلال الرأس ويتحرك بداخله وبه ثقب المفتاح وثقوب «الغلق» ويدخل في سارية الباب حوالي ٣٠ ـ ٤٠ سم وعندما تريد فتح هذا القفل تدخل المفتاح ذا الأسنان الطويل ثم ترفعه باصبعك ليرفع «الغلق» من ثقوبها وبذلك تستطيع فتح الباب ويتفنن النجار في صنع «الضبة» وصنع مفتاح الخشب لها وكذلك مفتاح الحديد الذي يعمله الحداد حتى لا يستطيع أحد أن يفتحها خاصة إذا أوجد لها بعض الضوابط والحواجز داخل سلة «الضبة» والنوع الثاني من «الضبة» هو «المجلاز» أو «المدقار» وهو رتاج الباب من الداخل ويعمل بدون مفتاح ما عدا إصبعاً طويلة لها فرض من سيف «المجلاز» تسقط فيه فلا يستطيع فتحها إلا من هو داخل البيت إلا إذا عمل لها خيط من الخارج.

٤ ـ **الشبابيك**: وهو ما يوضع للطبقة الثانية من البيت «المصباح» أو داخل الدهاليز والقاعات الرئيسية في البيت.

ويعتني بهذه الشبابيك بالزخرفة والنقوش الجميلة والحلق الحديدية والنحاسية والقضبان الحديدية وهي في الواقع روعة في الجمال والتلوين أما الشبابيك في المقاهي «القهاوي» فهي عادة تكون من جريد النخل المعمول على شكل أقفاص لأن تلك الشبابيك عادة تكون مرتفعة بقرب السقف ولذلك يصعب فتحها أو إغلاقها.

٥ ـ **صناديق النساء المزخرفة والمنقوشة بالألوان الجذابة والمنمقة بالمسامير النحاسية والقطع النحاسية** من مختلف الأشكال والألوان تتوسطها قطع من المرايا من مختلف الأحجام ومقمسة بطريقة هندسية متناسقة وصناديق من

نفس النوع إلا أنها أصغر حجمًا مخصصة للأشياء الثمينة من مصاغ ونقود وغيرها وهي غاية في الدقة والجمال.

٦ ـ **المباخر** الخشبية المصنوعة من قطعة واحدة وتزيين جوانبها بالمرايا من دائرية ومربعة وتطعم المساحات الفاصلة بينها بالخارصين المثبت على شكل حبيبات وتوشي أطرافها بمسامير نحاسية صفراء وحمراء وتبدو روعة في الجمال وتستعمل الحرق البخور «عود القماري» وتعتبر من ضمن تحف البيت وهي على عدة مستويات منها المتقن الصنع ومنها ما هو دون ذلك.

٨ ـ **الأقداح الخشبية الكبيرة والصغيرة** و«المواقع» الخشبية الكبيرة والملاعق الخشبية.

ثالثاً ـ ما يخص العرب الرحل:

١ ـ **الأشدة المخصصة لمطية الركوب**: وتكون جميلة ورشيقة وطويلة ذات نقوش وعصى عريضة مزخرفة.

٢ ـ **الأشدة العادية** «المسامة» وهي معدة لشد الأحمال عليها ولها من العصي القوية ما يجعلها تتحمل ذلك وهي أقل عناية وأناقة من سابقتها وأرخص ثمناً.

٣ ـ **الأقتاب**: وتشبه سابقتها إلا أنها أصغر حجمًا.

٤ ـ **الهوادج**: وهي من الأشدة ذات السواري الطويلة مثبت عليها عدد من الأغصان المحنية بما يشبه القبة والمثبتة بشرائح من القد الرطب ومتى يبس عليها مسكها بشكل جيد وتتحمل ما يوضع عليها من الستائر والبسط وغيرها.

٥ ـ **بكرة الماء**: وهي بكرة تستعمل عند إخراج المياه من الآبار لسقي المواشي بالاضافة إلى لوازم أخرى صغيرة مثل مركاب الطير ومبرادة القهوة وغيرها.

والنجارة كما رأينا تشغل حيزاً مهمًا لجميع فئات المجتمع ويتقاضى النجار أجرته عن أحد منتجاته الصناعية سالفة الذكر إما نقداً أو بالمقايضة إلا ما يختص بالفلاح فإنه يقوم بصيانة معداته طيلة فصل الشتاء أو الصيف مقابل كمية من الحب أو التمر ما عدا «المحالة» فإن صيانتها خارجة عن ذلك.

□ الحدادة:

تشغل الحدادة في ذلك الوقت حيزاً مهمًا في ذلك الوقت أيضاً حيث يقوم الحداد بعمل المستلزمات الضرورية والكمالية لكافة طبقات المجتمع يستوي في ذلك طبقة الفلاحين والعرب الرحل والتجار وغيرهم ولا يستغني بيت واحد عن الحداد على مدار السنة سواء في صنع السلع الجديدة أو صيانة السلع الموجودة أو صنع تحفة من التحف الفنية النحاسية؛ وذلك قبل أن يجرفنا هذا السيل الغزير من المصنوعات الخارجية من مختلف أنحاء العالم، فالفلاح نجده بحاجة إليه على الدوام لصنع أو تهذيب معدات الزراعة والأمير يحتاج إليه لصنع السيوف والأسلحة الأخرى وحذاء الخيل وأغنتها ولجمها والتاجر لا يستغني عنه لعمل السلاسل والمفاتيح الحديدية وغيرها وربة البيت بأمس الحاجة إليه لتأمين الأواني المنزلية على مختلف أحجامها وأشكالها، وكلما توفر لديها مبلغ من المال اشترت به قطعة مما يصنع، والعروس تنثر دراهمها في حجره لتختار من منتجاته ما يفي باحتياجها لهذا نرى أنه عنصر فعال في المجتمع آنذاك وإذا تفقدنا الأدوات التي يستعملها وجدناها تتكون من المطارق بمختلف أشكالها وأحجامها وأوزانها، والمقصات بمختلف أشكالها وأحجامها وقوتها، والسنديانات بمختلف أحجامها وأطوالها ودرجة تحملها، وهي مثبت على قطع من الخشب، والمقابض «الكلاب» بمختلف أحجامها وأطوالها والكير وهو مقر النار التي يحمى عليها الحداد الحديد والنحاس ويتكون من المنافيخ الجلدية والجدار الحاجز بين نافخ الكير وعين النار التي تنتهي إليها قناة النفخ وبها الفحم والنار و«الرصاص» الخارصين و«الشناذر» كلوريد الأمونيوم والفرجار «المخط» على

مختلف أحجامه والقواطع «المفاريص» على مختلف أحجامها بالاضافة إلى مسامير النقش وأخرى للحفر وأدوات اللحام الأخرى.

وينتج الحداد الكثير من المنتجات الضرورية وهي:

١ ـ السيوف بأشكالها المختلفة والخناجر وغيرها من الأسلحة.

٢ ـ القدور النحاسية على اختلاف أحجامها وأشكالها وهي مفصلة في باب الأواني المنزلية.

٣ ـ الصواني النحاسية على مختلف أحجامها.

٤ ـ أواني الشرب «الطاسة» وكؤوس الماء النحاسية.

٥ ـ أواني جلب الماء «الجذعة».

٦ ـ الدلال والأباريق النحاسية بمختلف أحجامها وأشكالها.

٧ ـ محماس القهوة على اختلاف أحجامها.

٨ ـ حذاء الخيل والسلاسل الخاصة بالأعنة واللجم.

٩ ـ المعدات التي يستخدمها الفلاح مثل «المساحي» و«المناسيف» و «الفواريع» وأعمدة الحديد وغيرها.

١٠ ـ التحف النحاسية التي يصنعها على شكل مزهريات يبدع في زخرفتها ووضعها.

١١ ـ الأواني الخاصة بتسخين الماء «السمور» والمفاتيح الحديدية ذات الأسنان المتناسقة.

١٢ ـ صيانة الأواني المنزلية من جليها وسوفها وتبييضها «ربها» «بالرصاص» الخارصين مع «الشناذر» كلوريد الأمونيوم.

والحداد، كما رأينا، له مهنة مهمة في ذلك المجتمع الذي لا يستغنى عنه

أحد وبالأخص السيدات ويتقاضى أجره عن منتجاته نقداً أو مقايضة عن كل سلعة، ما عدا صيانة معدات الفلاح فإنه يأخذ مقابلها كمية من الحب والتمر ويعمل بهذه المهنة بالاضافة إلى الحضر المقيمين في المدن والقرى فئات رحل يتنقلون من مضارب البادية وتسمع قرب مكان الحداد ضرب المطارق بالحديد والنحاس مما يصم الآذان أحياناً ويشبه الشاعر دق القهوة في مقاهي الكرماء بضرب الحداد الذي لا انقطاع له:

تلقى القهـاوي عندهم ضـرب حداد
ومـا يسـر الله من وجـود الأجـاويـد

(عبد الله القضاعي)

□ البناء:

ولا تقتصر مهمة البناء عن غيره من ذوي المهن المنتشرة في ذلك الوقت فعلى عاتقه تقوم مهمة تخطيط المنازل وتصميمها وتنفيذها بالتعاون مع صاحبها من حيث التصميم، ولما كانت المباني السائدة في ذلك الوقت مكونة من مادة الطين والحجر والجص، فإن البناء يقوم في الغالب بتنفيذ البيت في أساساته من الحجر والجص يرفعه عن خطر السيل والرطوبة ويكون بمقدار متر أو يزيد وربما ينقص وأحياناً يكون الأساس فقط من الحجر والباقي من الطين فقط ويكون بناء الطين أما على شكل قوالب معينة لبن أو على شكل مداميك عروق ويتفنن البناء في اختيار التصميم المناسب مع مراعاة رأي وذوق صاحب البيت ويبدي براعة في استقامة الجدار واعتدال زواياه وتناسق المداميك العرق لتمثل قمة جمال التنسيق وما بصمات أصابع البناء التي تبقى على جانب المدماك إلا نوع من الزخرفة الطبيعية التي تبقى منظراً جميلاً.

وللبناء دور مهم في بناء البيوت والقصور لذوي الجاه والأثرياء وهم بدورهم يسبغون عليه الأموال والهدايا كمكافأة للاتقان والاخلاص الذي بذله

في العمل لديهم، ولا يستخدم البناء من أدوات البناء إلا مطرقة صغيرة لتكسير الحجر فيها، أما في مباني الطين فإنه لا يستخدم أي شيء وإنما يقوم بالبناء بيديه، ويحرص البناء «الأستاد» على الطينة الممتازة ومن واقع خبرته فإنه مجرد لمس الطينة يحكم عليها بمدى جودتها أو عدمها، وعادة يخلط مع الطين كمية من التبن وتسقى بالماء لمدة يومين أو أكثر حتى تتخمر ثم يجري قطعها ووطيها بأقدام الخلاطين وقطعها «بالمساحي» و«المناسيف» مع إضافة شيء من الماء عليها، وأحياناً يجري دوسها باخفاف الإبل حتى تصبح الطينة لزجة قوية مع التبن المخلوط بها ويعمر الجدار الذي يبني بهذه الطينة مئات السنين وحسب معرفتي فهناك مبان من هذا النوع عمرها أكثر من ثلاثمائة سنة لا تزال قائمة متماسكة ويتبع البناء مجموعة من العمال منهم الخلاطون ويقلون أو يكثرون حسب حجم المبنى ويتولى الخلاط خلط الطين وتقطيعه ودعسه واخلاصه حتى يصبح جاهزاً للاستعمال وهناك العامل الخاص بقطع الطينة وهو يجلس بجانبها ويأخذ منها كتلاً صغيرة بحجم ملء اليدين معاً ثم يعطيها للعامل الذي يحملها «المعدى» إلى رفيقه وهذا يعطيها لثالث ورابع حتى تصل إلى السلم ثم تنتقل فوق أكف العمال الذين على ظهر السلم حتى تصل هذه القطعة «اللباقة» بطريقة سريعة إلى يد البناء الذي يتولى وضعها مع مثيلاتها في الجدار الذي يتولى بناءه وزخرفته وربما كان البناء قريباً والجدار سميكاً وعندها يستخدم زنابيل صغيرة «محافر» لنقل الطين من مكان الخلط إلى الجدار، ويدور البناء على البيت كاملاً إذا كان مدماكاً في اليوم الواحد أما إذا كان لبناً فإنه يبني جانباً منه ويتراوح ارتفاع المدماك من ٢٠ ـ ٣٠ سم وعرض ٤٠ ـ ٥٠ سم وربما أكثر ويتفنن البناء في وضع الزخارف داخل البيت وخارجه والشرفات التي تتوج البيت أو القصر «زرانيق» والتي تعطى طابعاً جذاباً وتتراوح أجرة البناء بين ١٠ ـ ٥٠ ريالاً في اليوم وربما أقل من ذلك أو أكثر حسب الوقت وربما يبني هذا البيت مقابل مبلغ مقطوع وربما بناه لأحد دون مقابل إذا كان من أقاربه أو جيرانه أما العمال فإن أجورهم تختلف عن ذلك فالذين يتولون خلط الطين وقطعه أكثر أجوراً وتصل من ٥ ـ ٨ ريالات في اليوم مع تأمين الأكل والشرب وربما أقل من ذلك أو أكثر بالطبع مع تأمين الأكل والشرب لهم وأحياناً يكون بعض العمال دون مقابل خاصة إذا

كان صاحب البيت قريباً لهم أو جاراً، ويرد عمال البناء أغاني وأناشيد تدفع عنهم السأم والملل سنتعرض لها في حينها إن شاء الله.

□ الصياغة:

الصياغة من المهن الفنية الدقيقة وهي من المهن الكمالية التي تزدهر في زمن الرخاء واليسر وهي مهنة لها أهميتها في ذلك الوقت وأكثر زبائن الصائغ هن النساء وبالأخص العرائس ونساء دوي الثراء والجاه واللائي يستطعن شراء المسوغات منه، وكذلك نساء سائر طبقات المجتمع كل منهن على قدر طاقتها لاسيما إذا علمنا أن مصوغاته لا تقتصر على الذهب، وإنما تشمل الذهب والفضة معاً وربما النحاس أحياناً، إذا والحالة كذلك فإن مسوغاته في متناول الجميع كل حسب قدرته ورغم أن عمله يدوي إلا أن إنتاجه يبلغ درجة جيدة من الدقة والاتقان، إذا علمنا أن عمله يحتاج إلى نقوش وزخارف غاية في الدقة وآية في الابداع، وإذا نظرنا إلى المعدات التي يستعملها فنجدها تتكون من المطارق الصغيرة والمتوسطة، والسنديانات الرشيقة، والمقصات الدقيقة الحادة، والقوالب مختلفة الأحجام والأشكال والنقوش، والقضبان الحديدية على مختلف الأحجام، ومساحيق اللحام التي يضيفها على المادة المصنوعة فتزيد من حرارة النار، علماً بأن لدى الصائغ خبرة في معرفة قوة حرارة كل نوع من الوقود، وكذلك مجموعة من مسامير الحفر والنقش بأحجام ودرجات متفاوتة، والمواد الكيماوية الخاصة بصقل الذهب وتلميع الفضة، وغير ذلك وعادة يكون الصائغ إما في بيته أو بجزء منه يطل على الشارع وأحياناً يكون للصاغة مجموعة من المحلات في المدن الكبيرة وعليها أقفال ضخمة وحراسة ليلية، ويعمل الصائغ المنتجات الآتية:

١ ــ تلبيس أغمدة السيوف ومقابضها بالرقائق الذهبية المزخرفة بالنقوش البديعة والمرصعة بالأحجار الكريمة كما يلبس الخناجر الذهبية أيضاً.

٢ ــ **المورقة**: وهي أوراق ذهبية مزخرفة بنقوش رائعة مثبتة ومعلقة بسلاسل ذهبية «شبيهة بالرشرش» في الوقت الحاضر.

٣ ـ **الأقراط**، بمختلف أحجامها وأشكالها.

٤ ـ **«الشميسة»**: وهي مربع ذهبي ذو نقوش وزخارف رقيقه، مرصعة بفصوص الفيروز والأحجار الكريمة وتوضع في وسط القلادة المرجانية بالرقبة.

٥ ـ **أزرار الأنف «الزمام»**: وهو زر ذهبي موشى بحبيبات ذهبية يتوسطه فص من الفيروز أو الأحجار الكريمة يثبت في أرنبه الأنف بعد خرقها وتضعه بعض النساء.

٦ ـ **الأساور العريضة «السعيفة»**: ذات النقوش الجذابة والفصوص الفيروزية وتلبس في المعصم.

٧ ـ **الأساور العادية «المجول»**: وهي سميكة مضلعة وتلبس في المعصم.

٨ ـ **الخواتم ذات الفصوص الفيروزية والأحجار الكريمة الأخرى**.

٩ ـ **الخواتم بدون فصوص «محبس»** ذات النتوءت المنسقة.

١٠ ـ **الأزرار الذهبية الأسطوانية** المستطيلة بحجم البلحة وهي منفوخة وموشات بخيوط ذهبية ونقوش دقيقة ومرصعة بالفيروز أو الأحجار الكريمة الأخرى وتثبت في جيب ثوب المرأة.

١١ ـ **«الهامة»**: وهي جنيهات ذهبية أو رقائق ذهبية مزخرفة مثبتة في سلاسل ذهبية وتوضع على ناحية الرأس لتتدلى أوراقها فوق الجبين. بالاضافة إلى السلاسل الذهبية لمختلف الأغراض.

١٢ ـ **المسوغات الفضية**: كالحجول الفضية أو الذهبية وهو مثل الأسورة الغليظة المفتوحة تلبسه المرأة في أسفل ساقها فوق القدم مباشرة كما قال الشاعر:

الحجل للرجل والتاج الرفيع لما
فوق الجبين ونظم الدر للعنق[1]

(أبو العلاء المعري)

١٣ ـ **الأساور الفضية** الموشاة بسلاسل فضية مطرزة بنقوش جميلة منها النتوءات والانتفاخات ذات الأحجام المختلفة وتسمى «منافيخ».

١٤ ـ «**الصدرية**»: وهي عبارة عن أشكال من الرقائق الفضية المختلفة مثبتة في سلاسل فضية تعلق بالرقبة وتتدلى على النحر إلى أسفل الصدر.

١٥ ـ **الخواتم الفضية للرجال** ذات فصوص من الأحجار الكريمة ويلبسها بعض الرجال ذوي الشهرة والجاه في خنصر أو بنصر اليد بالاضافة إلى الخواتم الفضية النسائية.

١٦ ـ **صيانة المصوغات** السابق ذكرها ولحامها وتعديلها وصقلها وتلحيمها.

من هذه الحصيلة نرى أن الصائغ يحتل مكانة مرموقة على مستوى رفيع في المجتمع يبيع سلعه بالنقد فقط إلا ما ندر بالمقايضة وخاصة من السلع الفضية الرخيصة ويعمل بهذه المهنة بالاضافة إلى الحضر المقيمين بالمدن والقرى فئة متنقلة تتبع مضارب البادية وعادة يقتصر عملهم على المصوغات الفضية.

□ الأسكافي «الخراز»:

يحتل الاسكافي الخراز مكانته أيضاً في ذلك المجتمع حيث يحتاج إليه كافة طبقات الناس يمتطون من انتاجه ما يقيهم حرارة الرمضاء ولسع برد الشتاء ومعسول الأشواك التي تنتشر على الطرقات ولاسيما إذا علمنا أن كافة أفراد المجتمع صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم مجتمع عامل كل حسب طاقته وتحمله في حقل اختصاصه فلذلك لابد لهم من الانتقال مما ينتجه صاحب هذه المهنة

(١) سقط الزند ص ( ).

المهمة، والمواد التي يستخدمها كما هو معروف هي الجلود المدبوغة والمدهونة سواء أكان ذلك من جلود الغنم أو البقر أو الإبل، وكذلك الجلود النيئة التي يقدها شرائح رفيعة ويستخدمها كسيور يخصف بها الأحذية، والخراز من أقل المهنيين عدة حيث تتكون عدة الخراز من السكاكين مختلفة الأشكال والأحجام والمقصات على اختلاف أحجامها والمخاريز على أنواعها وسندان صغير ومطرقة صغيرة والأخرى كبيرة ومسامير للتخزيق والنقش وغيرها وينتج الاسكافي السلع الآتية:

١ ـ الحذاء الممتاز المعروف بنجد وهو عبارة عن دعسة مخروزة بسيور رقيقة بخطوط جميلة منها «المسوبع» و «المتوسع» و «المخمس» ولها أوراق من طبقات ملونة من جلد الغنم الرقيق الناعم مزركشة بنقوش من سيور ملونة رقيقة موشاة بأسلاك معدنية لامعة على مختلف الأشكال الفنية الجذابة. وهذا النوع من الحذاء يتناسب والمناخ السائد في هذا الاقليم على مدار السنة.

٢ ـ الحذاء العادي وهو مكون من نفس العناصر للنوع الأول غير أنه لا يوجد به النقوش والزخرفة السابقة، وربما استعمل جلوداً أغلظ من الأولى وسيوراً أثمن منها وبذلك يكون أمتن من سابقة وأرخص ثمناً.

٣ ـ حذاء النساء وهو من نفس المواد السابقة غير أنه يختلف عنها من حيث عدد السيور والأوراق المثبتة بأعلاه إذ يقتصر على سيرين فقط الأول صغير يدخل به إبهام القدم والثانية كبير على ظهر القدم، ويولي الخراز حذاء النساء عناية فائقة في النقوش والزخارف لينال رضاء زبائنه.

٤ ـ «الدسوس» وهي جوارب منسوجة من خيوط وبر الابل ولها دعسة حذاء عادية مثبتة عليها وفي مقدمتها غطاء جلدي مزخرف وتلبسه المرأة شتاء ليقيها لسع البرد.

٥ ـ بالإضافة إلى الأحذية يعمل الخراز الدلو على مختلف أنواعها سواء ما كان للحضر «غرب» أو للبدو «قلص» كذلك «العيبية» وهي وعاء من جلد

البعير المدبوغ والمدهون وتستعمل أناء للتمر بالإضافة إلى القرب و «السقي».

من هذا نجد له أهمية ملحة، ويبيع الخراز منتجاته بالنقد والمقايضة ويتقاضى عن عمله أجراً مناسباً وأكثر ما يوجد بالمدن والقرى.

□ الحياكة:

تقوم مهنة الحياكة بدور لا يستهان به من واقع الخدمات التي يقدمها أرباب هذه المهنة، والواقع أنها مهنة نسائية أكثر منها رجالية إلا بنسبة ضئيلة، وتقوم بسد احتياج الناس في ذلك الوقت من البسط والمفارش على اختلاف ألوانها وأشكالها، والخروج من الأوعية المختلفة هذا بالنسبة للحضر، أما البادية فإن الحياكة تؤدي دوراً رئيسياً في صنع بيوت الشعر التي تعتبر المساكن الأساسية لهذه الفئة بالاضافة إلى الفرش والأوعية اللازمة لتعبئة تموينهم والمادة الرئيسية التي تقوم عليها مهنة الحياكة هي صوف الغنم وشعر الماعز ووبر الابل وأحياناً القطن وتستخدم في الحياكة أدوات بسيطة جداً تتكون من القضبان الخشبية والأوتاد والأنوال الخشبية و«المنشاز» و«الشاصين» إنما تعتمد بدرجة رئيسية على الفن اليدوي الدقيق في طريقة صف الخيوط للسدى واللحمة في النسيج ووضع الزخارف والنقوش الزاهية البديعة ذات الألوان الزاهية، وإذا رأيت بساطة الأدوات المستعملة في هذا النسيج فإنك تتعجب من روعة الانتاج وأحكام الصنعة ودقة الزخارف، ويحتاج الحايك إلى مساعد له ولاسيما إذا علمنا أنه يمد خيوط النسيج على الأرض فوق فراش يقيها الغبار ثم يبدأ بحياكة «الشقة» التي يبلغ عرضها حوالي المتر وربما أقل من ذلك وتقوم المرأة بهذه المهمة ويحتاج إلى من تناولها درعة الخيوط أو من تناولها شيئاً من لوازمها كما أشار إلى ذلك الشاعر:

١٠٤ ــ هذي تهل النطو من فوق الأوتاد
وهذي تلحم له وهذي تسديه

١٠٥ ـ وهـذات نجـار وهـذات حـداد
وكـل بشغله والِ الأقـدار مشقيـه

(عبيد الرشيد)

ومنتجات الحياكةِ هي:

١ ـ **السِّيَاحْ**: وهي بسط منسوجة من وبر الابل الأشقر ومنقشة بخيوط من الوبر الملون بمختلف الألوان ومزخرفة ومنقوشة بأشكال بديعة وهي تتخذ مفارش في مجالس الرجال وغرف النساء وتعلق على الحائط للزينة.

٢ ـ **البسط الصوفية** المنقوشة بخطوط وزخارف بديعة بمختلف الألوان وتقاسيم دقيقة وهي روعة في الجمال وتتخذ كذلك مفارش لمجالس الرجال.

٣ ـ **خرج المطية** ذو الألوان الزاهية والنقوش الجميلة وهو الذي يوضع على ظهر المطية وتتدلى منه «سفائف» من نفس النسيج والألوان تنتهي بعثاكيل «دلال» إلى ما يقارب المتر تحت بطن المطية ومن نفس الألوان والنسيج رسن المطية وخاصة العذار وهو ما تحت أذنيها خلف الـرأس والمزين بالعثاكيل المتدلية في أسفل رأسها وتبدو المطية وعليها هذا الخرج بألوانه الجذابة «وسفائفه» وعثاكيله المتموجة الراقصة كما وصفها الشاعر.

١٠٦ ـ كالديداحانـة يوم تنـظر دلاله
ليـا شاف وصفه مـولـع الهجن.. يهتال

١٠٧ ـ تشدي هنوف صار خله قباله
دلـة تـزين بمشيتـه تقـل تختـال

(عبد الله القضاعي)

٤ ـ **الخروج الصغيرة** «المزودة»: وهي من نفس النقوش والألوان الزاهية

وتنهي فتحها باطار جلدي به حلقات تدخل ببعضها وتنتهي يقفل، وهي بمثابة حقيبة السفر أو الخزانة بالنسبة للمرأة وخاصة بالبادية وكذلك الخروج الصغيرة الخاصة بالفرس والقطع الصغيرة التي توضع على سرج الفرس لتضفي عليها جمالاً إلى جمالها.

٥ ـ **بيوت الشعر السمراء** الموشاة بنقوش من الخيوط البيضاء المتناسقة الجذابة خاصة ما يستعمل بقواطع البيت وبالذات ما يكون «بالرفة» القسم الرجالي.

٦ ـ **البسط السمراء «العدول»**: وهي ما يستعمل للفرش الداخلي والدفء وما يصنع منه أوعية الحبوب «الرزمة» و«العدلة» وهي فردة البعير وخرج الحمار وغيرها من الأوعية الأخرى.

٧ ـ **العبي**: وهذه غالباً ما يقوم بها الرجال وتحتاج إلى غزل دقيق من وبر الابل أو صوف الغنم الناعم للحصول على خيوط دقيقة وتنسج العباءة من شقين يجمع ما بينهما وتكوّن عادة من اللون الأسمر أو البني وتوشى حوافها بخيوط بيضاء وتطرز أطرافها وجيبها بخيوط من الحرير «البريسم» أو الخيوط المذهبة.

٨ ـ **الجوارب**: ويتم نسجها بحجم القدم من وبر الابل الناعم ويوضع لها حذاء ليتم استخدامها في الشتاء وهي دافئة جداً لا يضاهيها أي حذاء في الوقت الحاضر.

هذه المنتجات كما أسلفنا تقوم بها المرأة بصفة رئيسية ولا يعمل الرجل سوى في نطاق ضيق منها وإذا علمنا أن القوام الرئيسي لهذه المنتجات هي الاحتياج الفعلي من ناحية وإذا ما أدركنا متانة هذه المنسوجات التي تبقى مدة طويلة من ناحية أخرى فلا نستغرب إذا رأينا قلة في الانتاج، وتعمل المرأة لسد احتياجها الفعلي وتبيع الزائد منه بالنقد أو المقايضة وأسعار هذه المنسوجات مناسبة في ذلك الوقت.

□ صناعة منتجات الخوص:

وكما رأينا في البادية أن المرأة تقوم بدور رئيسي في عمل الغزل والنسيج، فكذلك نجد المرأة في الحضر تبرز بصناعة منتجات الخوص النخل «السَّفِيفْ» وهي مادة رئيسية تهم الفلاح وربة البيت وصاحب الحانوت وصاحب المبنى، حيث تقوم المرأة بصنع تشكيلة كبيرة من الزنابيل والقفف والأطباق من منتجات خوص النخيل إلى جانب الأوعية المعدة لتعبئة التمور ونقل المواد والأتربة وغيرها ولا تستخدم المرأة في ذلك من الأدوات سوى المخيط والمخراز أما بقية عملها ففي أناملها وأظافرها، والمادة الرئيسية المستعملة هي الخوص وعراجين النخل وليف النخل الذي تفتل منه العراوي للزنابيل وتوشى به حوافها وكما هي حال المرأة في البادية التي تجعل من الغزل نوعاً من التسلية المنتجة كذلك المرأة في الحضر تجعل من «السفيف» تسلية منتجة أيضاً ويبلغ عرض السفيقة من ٥ ـ ١٠ سم وتختار النوع الجيد من الخوص وهو ما يلي قلب النخلة خوص جريد الخوافي الأبيض الضارب للحضرة، أما إذا كان من قلب النخلة وهو الخوص الأبيض الناصع فإنه يخصص للسُّفَر والأطباق الممتازة ويصبغ منه ألوان مختلفة يوشى بها حواف السفر والأطباق والزنابيل الصغيرة ولو ألقينا نظرة على منتجات صناعة الخوص لوجدناها كما يلي:

١ ـ **السُّفَرة الدائرية**: وهي التي توضع تحت صواني الأكل بمختلف أحجامها وتكون عادة من الخوص الأبيض الناصع الموشى بالنقوش أو الخيوط الصوفية أو القطنية.

٢ ـ **الأطباق**: على اختلاف أحجامها وهي ما ينقي بها الحب من الشوائب ذات حواف قائمة وهي تخرز بلف الخوص الأبيض على شرائح من عراجين النخل المبلل بطريقة دائرية وتزين بنقوش من الخوص الملون.

٣ ـ **الزنابيل الصغيرة «مطاحين»**: ذات عراوي رقيقة موشات بحبل من الليف أو القماش أو الصوف وهي من الخوص الأبيض الناعم وتستعمل لنقل الحب والدقيق والتمر وغيره.

٤ ـ **القفف الصغيرة**: من نفس الخوص غير أن استعمالها للأشياء الصغيرة وتشبه استعمال السلال في الوقت الحاضر.

٥ ـ **الزنابيل الكبيرة** من الخوص الأخضر المتين ذات عراوي غليظة موشاة بحبال من الليف بمختلف الأحجام وهي ما يستعمل لنقل الحبوب والتمور بشكل أكبر من سابقتها وكذلك لمختلف الأغراض ومنها الكبير جداً وهو «مجداد» التمر.

٦ ـ **الزنابيل الصغيرة «محافر»**: وهي من الخوص الخشن الأخضر ذات عراوي غليظة موشاة بحبال من ليف وتلبس من الخلف بطبقات من الليف لزيادة متانتها وهي ما يحفر بها الآبار وتستخدم لنقل الأتربة وغيرها.

٧ ـ **فرش «السفيف»** على مختلف مقاساتها ودرجة جودة خوصها وصنعها وهي ما يعد للفرش وتكون على شقائق تخاط فيما بينها وهي رخيصة الثمن وتوضع لوقاية الفرش الثمينة من الغبار وهي بطبيعة الحال فراش الطبقة الفقيرة.

٨ ـ **المنقلة**: وهي وعاء من «سفيف» الخوص الأبيض الناصع مستطيلة من طبقتين موشاة أطرافها وحوافها بالليف وتعد للنقل حيث تفرد على ظهر الحمار وتوضع بها التمور المراد نقلها من مكان إلى آخر وكذلك ينقل بها طين المباني والأتربة الأخرى وغيرها من المواد المستعملة.

٩ ـ **الأواني المعدة لتعبئة التمور «الخصف»**: وهي من الخوص أيضاً من النوع المتوسط وتخاط على شكل أكياس مربعة تعبأ بالتمر وتستوعب حوالي ٥٠ كم ويستخدمها الفلاح لنقل تموره إلى مكان آخر كما يستخدمها تجار التمور.

١٠ ـ **المروحة**: وهي من نسيج الخوص الأبيض الناعم تزدهي بنقوش من الخوص الملون مربعة الشكل ذات عصا رشيقة وهي رفيقة الانسان في

أيام الصيف ولا يخلو بيت أو مجلس منها وذلك قبل انتشار الكهرباء ومكيفات الهواء.

هذه المنتجات التي تقوم بها المرأة في الحضر بدور رئيسي تفي بالتزاماتها والزائد عن حاجتها إما تبيعه أو تقايض به أو تهديه وعلى ذكر المقايضة هناك مثل سائر يقول «سَفُّ ثُـرَيَّا الحَامِدْ» وهي سيدة كانت تبدل منتوجاتها المصنوعة من الخوص بخوص خام ثم تبدأ في سفه وخياطته وتجهيزه ثم تبدله مرة أخرى بخوص خام وهكذا دواليك دون أي فائدة لها من وراء ذلك سوى التعب وارضاء الذات ويضرب هذا المثل لمن لا يستفيد من الجهد الذي يبذله.

□ دباغة الجلود:

تقوم دباغة الجلود على العناية بسلعة ضرورية للإنسان في ذلك الوقت حيث يترتب على هذه السلعة كثير من متـطلباتـه اليومية والسنوية فالفلاح يعتبرها من ضرورياته الملحة لاستعمالها لإخراج الماء من الآبار، وكذلك سائر الناس الذين لا يستغنون عن قربة لحفظ الماء وتبريده وهي من الجلد بطبيعة الحال، ناهيك عن المستزمات الأخرى الخاصة بالألبـان ومشتقاتهـا وغير ذلـك من الأغراض التي تتطلب الأوعية الجلديـة بالإضافة إلى الأحذية، ويشترك بهذه المهنة الرجل والمرأة، فإن كانت الجلود من متطلبات الأسرة، فإن المرأة تقوم بها حيث أنه في الغالب كل ربة بيت تقوم بتجهيز ما يلزم بيتها من الجلود لمختلف الأغراض وهذا في قطاعي الزراعة والرعي، أما القطاعات الأخرى فإنها أقل اعتناء بهذه السلع من سابقتها، أما إذا كان الانتاج على درجة أكبر من حيث الكمية فيقوم بها الرجل ويخصص لها معامل مستقلة وهذا عادة في المدن التي يتوفر بها كمية من الجلود يومياً، ويقـوم أرباب هذه المهنة بجمع كمية الجلود وغمسها في أحواض ملآنة «بالتمار» أولاً وتبقى بها مدة قد تزيد على الأسبوع حتى تتخمر وتتشبع من المواد المتخمرة في التمار. والتمار هو من حبوب الذرة أو الشعير المجروشة أو التمر المطبوخة طبخاً خفيفاً ثم تبرد وتغمس بها الجلود

للفترة المشار إليها ثم يتم إخراجها بعد أن تنزع صوفها وتنظف وتجفف ثم تغمس بأحواض أخرى ملآنة بالدباغ لتبقي بها من ٣ ــ ٤ أيام يتم تقليبها بين الحين والآخر حتى تتشرب الدباغ في كافة طبقات الجلد ثم تخرج منه وتنشف وتدهن بالودك لتصبح ناعمة قابلة للاستعمال، والبعض منها يجري دعكه بعد الدبغ وذلك باضافة مواد أخرى تكسبه ليونة ونعومة أكثر وتختلف المواد التي يدبغ بها الجلود عن بعض حيث يعطي كل نوع للجلد لون معيناً ورائحة مميزة وطراوة ملموسة وهي كما يلي:

١ ــ **اَلْعِرْنِ**: وهو أشجار تنمو بالجبال ذات وريقات خضراء صغيرة وله أغصان وجذوع غليظة ولونه أحمر تجتث هذه الأشجار وتبقى حتى تجف ثم تكسر إلى قطع صغيرة ثم يتم طبخها في قدر كبير حتى يكون الماء أحمر قانياً مر المذاق جداً ثم يزل هذا الماء في إناء آخر وتغمس فيه الجلود للفترة المشار إليه ويخرج الجلد المدبوغ بالعرن أحمر قانياً، ويفضل الجلد المدبوغ بالعرن لعمل القرية منه نظراً لنكهته المميزة.

٢ ــ **الأرْطَى**: وهي غصون وأوراق شجر الأرطي لمعروف تجفف وتدق بعصى غليظة أو مدقاة خاصة ثم ينقع هذا المسحوق بالماء حتى يتخثر بدرجة كافية ثم تغمس فيه الجلود لتبقي فترة ٣ ــ ٤ أيام تقلب من حين لآخر حتى ترتوي طبقات الجلد من الدباغ ثم يخرج منه ولون الجلد المدبوغ بالأرطي أحمر فاتح.

٣ ــ **اَلْكِـرْمِعْ**: وهو ثمر شجر الاثل ويتم جنيه من الأثل في موسمه ويجمع بكميات كبيرة ويتم سحقه بمدقات خاصة، وينقع بالماء حتى يتخثر جيداً ثم يغمس فيه الجلد حتى يتسرب الدباغ إلى مختلف طبقات الجلد ويقلب فيه بين الحين والآخر ويخرج منه ويجفف ثم يخرج منه ذا لون أصفر برتقالي ويمتاز الجلد المدبوغ بالكرمع باللين ويفضل استخدامه في الغالب كصميل لمخض اللبن نظراً لنكهته المميزة التي تبقى من آثار طعم الكرمع هذه النكهة التي يحبها البعض.

٤ ـ **العاقول**: وهي شجيرة صغيرة ذات أشواك معكوفة مر المذاق كسابقيه تقطع هذه الأغصان وتدق ثم تنقع بالماء كسابقتها حتى تتخثر ثم يغمس بها الجلد لمدة ٣ ـ ٤ أيام يقلب لفترة معينة ثم يخرج الجلد بعد ذلك أحمر فاتحا كما أن هناك أنواعاً أخرى من الأعشاب والحشائش والشجيرات التي تستخدم في الدباغة. والدباغة كما أسلفنا تقوم على سد احتياج المتطلبات الضرورية وما زاد عن ذلك تقوم المرأة ببيعه أو المقايضة فيه أو إهدائه. أما الكميات الكبيرة التي يقوم بتجهيزها الرجل فيتم بيعها بالنقد وأقيامها على كل الأحوال رخيصة.

□ الجزارة:

ليست مهنة الجزارة كما هي عليه في الوقت الحاضر من الاتساع وإنما تشغل حيزاً ضيقاً وخاصة في المدن أما في القرى والأرياف والبادية فلا تكاد توجد لأن بيع اللحم قليل وذلك لرخص ثمنه فإذا أراد أحد لحمًا فإنه يأخذ من مزرعته أو رعيت شاة ويذبحها بنفسه وإن جاءه ضيف ذبح له شاة أو أكثر وربما جزوراً مما يجعل الناس يشبعون من اللحم ما يجزيهم اسبوعاً وربما جيىء ببعير منسكر أو مصاب وفي هذه الحالة يتم شراء اللحم بالمشاركة ويوزع حصصاً على المشترين ويسمى «شرك» وهذا النوع من أسباب وجود اللحم.

وكما أسلفنا فإن استهلاك الناس من هذه السلعة أقل مما هو عليه في الوقت الحاضر أي لا يكون الاستهلاك يومياً مع وجبة كل طعام بل اسبوعياً أو نصف اسبوعي بكميات أكبر. من هذا المنطلق فنجد السواد الأعظم من هذا المجتمع لا يحتاج إلى الجزار وان وجد فهو شبه النادر، وإذاً فهذه المهنة تتركز في المدن ويقوم أفراد هذه الفئة بشراء الإبل والأبقار والأغنام وذبحها وسلخها في أماكن خاصة وعرض لحومها في دكاكين معينة لهذا الغرض والجزار مهنته لها أهميتها، خاصة عند من لا يجيدون الذبح والسلخ حيث يجدون الجزار يكفيهم تعب هذه المهنة كما يهم ذوي الدخل البسيط الذين لا يستطيعون شراء ذبيحة

بكاملها حيث يشترون على قدر احتياجهم من اللحم ومع أنها مهنة متعبة إلا أنها ذات أرباح طيبة تجعل أربابها يتمسكون بها ويتحملون تعبها، ويستخدم الجزار الفؤوس على اختلاف أحجامها، والسكاكين على اختلاف أطوالها وأحجامها والمبارد الحديدية والسلاسل «والكلاليب» لتعليق اللحوم. ويعمل الجزار منذ وقت مبكر قبيل الفجر ومع طلوع الشمس ومعروضاته من اللحوم جاهزة معلقة بمعرضة ليشتري منها الزبائن، وبحكم الخبرة وممارسة العمل فإن له براعة فائقة في سرعة ذبح الذبيحة وسلخها وتقطيعها حيث لا يستغرق منه إلا زمناً يسيراً قياساً على الزمن الذي يستغرقه الإنسان العادي كما أن لبعضهم طرقاً بارعة في تعمية الزبون وإعطائه اللحم الرديء والعظام ضمن اللحم الذي يظنه الزبون لحمًا طيباً حتى إذا وصل إلى بيته وجده خلاف ذلك، كما أن بعضهم الآخر معاملته مع الزبائن طيبة ويثقون به لدرجة إحضاره ما يريدون من اللحم إلى بيوتهم أو إرساله مع صبيانه إليهم، ويستعين بالجزار من لا يستطيع ذبح الذبيحة أو يكون لديه ولائم كبيرة كالأعراس وغيرها وبيع الجزار اللحم «بالوزنة» حوالي ١,٣٠ كجم وبالعضو من الذبيحة، و«بالمشرك» وهو قطيعات من اللحم من مختلف الأعضاء منظومة في خيط تساوي حوالي ربع وزنة وبيع اللحم بالنقد فقط.

لهذا ترى الجزار يشغل حيزاً في هذا المجتمع لا يستهان به يؤدي من خلاله خدمات لمن يطرقون بابه.

□ عمل المرأة في بيئة ذوي المهن:

تعمل المرأة في قطاع ذوي المهن بالاضافة إلى الأعمال البيتية العادية كتنظيف المنزل، وطحن الحبوب، وطبخ الطعام، وهرس الحبوب، وتجهيزها، وتنظيف ملابسها وملابس زوجها وأولادها، والعناية بأولادها وزوجها، وجلب الماء للبيت على رأسها، وجلب الحطب أحياناً وتقوم إلى جانب ذلك بمساعدة زوجها بالأعمال التي تلائمها من أعمال مهنة زوجها سواء أكان ذلك في عمل

التجهيزات الضرورية للجمّال، وتقطيع الخشب مع النجار، أو صقل الأواني مع الحداد، أو نفخ الكير مع الصائغ والحداد، أو تهيئة الجلود للخراز بالإضافة إلى المهن التي تقوم بها بنفسها مثل الحياكة وصناعة منتجات الخوص والخياطة والتطريز وغيرها وهي عضو عامل فعال في ذلك المجتمع منذ بزوغ الفجر وحتى بعد صلات العشاء الأخير وهي تعمل كالنحلة.

□ □ □

الفصل الثامن:

خدمات السلطة

□ الاشتراك في الغزوات وتجهيزها:

لما كانت السلطة المشرفة آنذاك هي عبارة عن واحدة من الكيانات الصغيرة التي يشرف كل كيان منها على جزء معين من هذه الرقعة قابلة للزيادة أو النقصان حيث لا يوجد حدود دولية ثابتة كما هي عليه الآن بل أن هذه الرقعة تتمدد وتنكمش حسب قوة الأمير أو ضعفه بالنسبة للامارات المجاورة الأخرى وربما للقبائل الذين تحت كنفه وفي حدود إمارته خاصة إذا كانت هذه القبائل على درجة من القوة أو التكتل والتماسك، وطالما أنه لا يوجد جيش نظامي مدرب تحت راية الأمير يمكن أن يوجهه إلى النقاط التي يحدث فيها قلاقل أو تمرد أو اعتداء بين قبيلة وأخرى أو اعتدا ء على جـزء من اراضيه من الامارات والقبائل المجاورة، إذاً والحالة كذلك فلا بد من أن يستعين بمواطنيه مقابل ما يسمى في الوقت الحاضر «بقوة الاحتياط» غير أنه أقل تنظيمًا، وربما كان استدعاؤ ه ارتجالاً ذلك بتعميد ممثله على الوحدات الادارية الصغيرة سواء أكانت مدينة أو قرية أو قبيلة بتجهيز عدد من الجنود غير النظاميين يسمون «الغزو» ويقوم الأمير بتجهيز أسلحة وخيل وركاب الغزو من عنده مع كامل مؤ ونتهم وأحياناً على كل شخص مكلف بالغزو أن يجهز نفسه بكل شيء من سلاح وراحلة أو فرس وغير ذلك مما يلزمه، وأحياناً يفرض على كل وحدة إدارية عدداً من الغزو بخيلهم وركابهم وسلاحهم ومئونتهم وعلى أهل هذه الوحدة أن يتدبروا أمرهم فيكلفوا من يرونه لهذه المهمة ولما كانت المهام المماثلة تتكر عدة

مرات في السنة فإنه يتم التناوب في هذه المهام بين أبنائهم ولا خيار لهم في ذلك، من هنا تراهم يحددون السن النظامية آنذاك ما بين الخمس عشرة سنة إلى خمسين سنة وربما أكثر من ذلك حسب مقتضيات الحاجة وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

١٠٦ ـ ما بين شمطان اللحي والأواليد
نضة أقروم فوق مثل السيالي[١]

(عدوان الهربيد)

ويمكن أن يشار إلى فتى معين بأنه يحمل السلاح وذلك دليل على بلوغه السن القانونية للغزو، وربما صار هناك أغراض شخصية بين المسؤول في هذه الوحدة الادارية وبين فرد أو أفراد معينين فنجده يكلفهم بالغزو دائمًا وما عليهم سوى امتثال أوامره بدون أي اعتراض، وفي حالة مقتل الفرد أو اختفائه فإن السلطة لا تقدم لأسرته أي ميزة ولا تصرف لهم أي معاش يساعد أبناءه على أود الحياة ومتاعبها لاسيما إذا كانوا قُصَّراً، وفي حالة انتصار الغزاة وعودتهم، فإن السلطات المسؤولة تكافئهم على ما بذلوا من جهد وما أدوا من أدوار التضحية أحياناً باعطائهم شيئاً من الغنائم وأحياناً أخرى بمكافأة من خزينتها وربما لا ينالون أي مكافأة وإنما يكفيهم الفخر وسمعة الانتصار التي تملأ الآفاق وهذه الخدمة لا يعفى منها أحد كائن من كان سوى كبيري السن والأحداث، وتطول مدة الغزو أو تقصر فأحياناً تمتد من ثلاثة إلى أربعة أشهر وربما إلى ما يقارب السنة، وذلك في كون المكان المراد غزوه بعيداً أو أن يكون العدو قوياً شديد المراس أو أن يكون هناك أكثر من جهة يجب اخضاعها، ويكون على رأس هذا الغزو الأمير أو شيخ القبيلة نفسه وذلك عندما يكون عدوه قوياً أو يرى لقمة سائغة يريد صدى سمعة التهامها بنفسه، وفي بعض الأحيان يكلف أحد رجاله بقيادة غزوة ما أو القضاء على فتنة معينة إذا كان أمرها سهلاً أو كان مشغولاً عنها بما

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ١٥٩.

هو أهم منها وربما كلف أحد أبنائه بمهمات محدودة وذلك لتدريبه على مهمات أكبر شيئاً فشيئاً حتى يستطيع أن يوكل إليه المهام الكبيرة.

مما سبق نرى أن الغزو في تلك البيئة ينفذ ما يسمى الآن «بخدمة العلم» وربما أكثر منها لأن خدمة العلم مدة محدودة يكون الغزو بعدها طليقاً إلا في أوقات معينة، أما ما يؤديه الفرد آنذاك فهي خدمة مستمرة يذهب حصادها عشرات بل مئات من الأفراد دون أي مبرر، سوى المناوشات الحدودية أو حب فرض السلطة أو المطامع المادية والانتقام وغير ذلك من الدوافع الأخرى.

□ تجهيز الغزوات بالمواد التموينية:

وكما هي الحال في تجهيز الرجال بخيلهم ورواحلهم للغزو، فإن سكان هذه الكيان يمدون السلطة بالأموال اللازمة والمؤن الضرورية التي تقوم بأود الغزو، مما تحت أيديهم حيث يكلف الأمير ممثليه في الوحدات الادارية بجباية هذه الأموال والمؤن على اختلاف أصنافها وأغلب الأحيان تكون هذه المؤن على اختلاف أصنافها جاهزة للاستهلاك أو شبه جاهزة كأن تكون من التمور أو تكون من دقيق البر، أو هريس وجريش «اللقيمي» أو جريش الذرة والشعير وغيرها من الحبوب الأخرى، هذه بالنسبة للحضر المقيمين بالقرى والمدن، أما العرب الرحل فيطلب منهم تجهيز شيء من منتجاتهم، كالسمن والأقط أو رؤوس الأغنام أو ركائب من الابل، وتفرض هذه التجهيزات مع المستزمات الأخرى كالقرب والدلاء والحبال على المواطنين أما بنسبة معينة لكل فرد أو أن يكون على أهل القرية أو جزء من المدينة أو القبيلة مقدار معين من هذه الأنواع من الأطعمة والمؤن، وهم بدورهم يتدبرون أمرهم في تجهيزها وحيث أن هذه التجهيزات تحدث تبعاً للطوارىء وما أكثرها، فإنه يتم تنسيق فيما بينهم في صرف هذه الأصناف، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مؤناً تجبى في مواسم معينة كالزكاة التي فرضها الإسلام وتجبى على موسمين زكاة الحبوب وموسمها بعد تصفية حبوب زرع الشتاء بالكمية التي

يقررها الخـراص وهم الذين يقدرون كمية حبـوب من الزرع قبل حصاده وهـم بالطبع من أهل الخبرة يمرون على الزرع قبل حصاده وعلى النخيل قبل صرامها ويقدرون كمية الحبوب والتمور ويدفع عليها ربع العشر.

كما أن هناك إيراداً ثالثاً وهو «الغروبية» وهو دفع كمية معينة على كل «غرب» أي على البئر غربيـن أو ثلاثـة وخاصـة إذا كانت الأرض تتصف بالاقطاعات الأميرية.

ونعود إلى تموين الغزو فإن مندوب الأمير أو شيخ القبيلة عندما يجمع هذه المؤ ن أما أن يرسلها إلى بيت المال في الامارة وهي تتولى صرفها على الجهات التي تطلبها كما تقتضيه الحال وأحياناً تكون بصفة مستعجلة فيتم إرسال هذه المؤ ن رأساً إلى الميدان، وأحياناً تدعو الحاجة إلى تأمين حتى العلف للخيل والركاب، فيأتي طلب لعلف ضمن المواد التموينية المخصصة للغزو، وقد تدعو الظروف من أهل الوحدة ادارية إلى إيصال ما جمعوه من مؤ ن إلى الجهة التي تطلبه خاصة إذا قلت مواصلات السلطة، ولما كان هؤلاء المندوبون أو الممثلون من العائلات المعروفة أو من الناس العاديين، فقد يركب بعضهم رأسه في تصرف لا يخلو من الحيف على فرد أو أفراد ويجشمهم من المشاق والمتاعب والطلبات فوق طاقتهم باسم الأمير وكما يقول المثل الشعبي: «عنز الشيوخ نَطَّاحة»، وذلك دون علم من الأمير وفيما لو وصله الخبر فإن الممثل يبرر موقفه بما يقنع الأمير، وربما عزله الأمير عقاباً له.

ومن هذا نرى أن المواطن يدفع للسلطة الضريبة التي تحتاجها، غير أن ما يرهقه كون هذا الدفع بطريقة غير منتظمة، مما يجعله في حرج أحياناً، ولاسيما إذا علمنا أن دخل الفرد في ذلك الوقت غير منتظم وخاضع لظروف الرخاء والعسر، ومع ذلك فإنه يدفع هذه الضريبة بنفس طيبة.

□ موارد السلطة:

لما كانت هذه الكيانات الصغيرة المقامة على مساحة من الأرض ذات موارد محدودة تعتمد بشكل رئيسي على قطاعي الزراعة والرعي والتجارة فإن

موارد السلطة تتكون بطبيعة الحال من محتويات هذه الأرض ومن نفس المصادر وهي :

١ ـ زكاة الحبوب والتمور المفروضة على السكـان بحكم كونهم كلهم من المسلمين وتمثل ٢,٥٪ ربع العشر وتجبي زكاة الحبوب في موسمها والتمور في موسمها وتدخل خزينة الامارة «بيت المال» إما حبوباً أو تموراً أو تباع وتدخل نقداً.

٢ ـ زكاة الماشية من إبل وأغنام فتجمع في وقتها في نهاية فصل الربيع ويباع جزء منها ويدخل ثمنها خزينة الامارة نقداً وتبقى منها أذواد من الابل وقطعان من الغنم.

٣ ـ الضرائب المفروضة على البضائع والتجارة الداخلة والخارجية المارة في البلد والتي تجبيها دائرة الجمارك في كل إمارة.

٤ ـ المؤن التي تجمع من المواطنين لتجهيز الغزوات، كلما رأت السلطة أنها بحاجة إلى المزيد منها.

٥ ـ الزكاة التي تحصل من الأراضي والنخيل التي تسقى بدون مئونة كزراعة «البعل» على المطر، ونخيل العيون.

٦ ـ جزء من الغنائم التي يتم الحصول عليها أثناء الغزوات سواء أكانت عينية أو نقدية أو مواشي.

٧ ـ الضريبة التي تؤخذ على الحجاج أثناء مرورهم في أراضي هذه الامارة لقاء تأمينهم من الحوادث أو ما يكدر صفوهم، وكيان هذه وارداته لابد أن تكون قوته الاقتصادية على مستوى هذه الواردات إذا نظرناها من الناحية المادية البحتة إنما هي معنوياً أكبر من ذلك بكثير وكثير جداً.

□ السلطة الإدارية:

ويمثل الأمير أو شيخ القبيلة على قطاع معين كمدينة أو قبيلة أو قـرية شخص يتم اختياره بترشيح من مواطنيه يسمى «منصوباً» وللأمير الرأي الفاصل

في تأييد هذا الترشيح أو رفضه وذلك بناء على ما يعرفه عن الشخص المرشح من معلومات أو ما يراه من صفات وعادة يتم الاختيار إما من الأسر التي تتصف بصفات معينة كالكرم والشجاعة وسداد الرأي والغنى وهي صفات لا مندوحة عنها إذا علمنا أن منصوب الأمير يأتيه ضيوف من كل حدب وصوب فلا بد أن يظهر أمامهم بالمظهر اللائق وكذلك له احتكاك بمختلف الطبقات والمفاهيم ولابد أن يكون ذا بصيرة ثاقبة بتدبير الأمور دون اللجوء إلى الأمير إلا فيما كبر منها، وإذا علمنا أن السلطة لا تزود هذا المنصوب بأي مصاريف شهرية وإنما يحصل على عليها بشكل غير منتظم على مدار السنة.

ويكتفي بما حصل عليه من جاه في تأييد الأمير لترشيحه «كمنصوب» له ويحصل منافسة على هذا المنصب ربما بين سكان الوحدة الإدارية الواحدة ولا سيما إذا وجد عدة أشخاص يتضفون بنفس الصفات المطلوبة، أو هكذا يرى مؤيدوهم، وربما وصل الأمر إلى شقاق بينهم حتى يحسمه الأمير، ولمنصوب الأمير سلطات مطلقة في نطاق وحدته الادارية الا ما يتعلق بالأمور الشرعية فإنه يحيلها إلى القاضي للبث فيها أما الأمور الادارية فإنه يبث فيها بنفسه إلا ما كان منها كبيراً كما أسلفنا فإنه يرفعه إلى الأمير.

وإما أن يختار «المنصوب» من خدمه أو معارفه الذين يعرفهم تماماً ويرسله لتلك الوحدة إذا كان يتصف بصفة تحتاج إليها كالحزم وغيرها، ويتم تعيين المنصوب بموجب كتاب من الأمير موجه إلى سكان هذه الوحدة يقرأ على مسمع من الجميع بعد صلاة الجمعة أو بلاغ شفهي يتلوه مندوب الأمير بعد صلاة الجمعة يختم دائمًا بجملة «الحاضر يُعلِّمُ الغائب» وما على المواطنين سوى السمع والطاعة، إلا إذا وجد في هذا المرشح عيب شرعي فعلى الجهة المعارضة إثبات ذلك حتى ينظر في استبداله.

أما الأمور الأخرى فلا يلتفت إليها إلا إذا ثبت بعد التجربة لهذا المرشح أن لديه صفة معينة جرته نشوة السلطة إلى انتحالها كالظلم والبطش فإن على مواطني هذه الوحدة اللجوء إلى الأمير فتبين له تلك الصفة وعندها يتم استبدال

«المنصوب» ويعتبر المصوب جهة تنفيذية للأمير وللمنصوب مضيف بارز وله مكان للسجن في غرفة داخلها خشبتان غليظتان مفروض فيما بينهما فتحات تتسع الواحدة لساق الرجل وعندما يريد المنصوب أن يوقف إنساناً ارتكب خطأ فإنه يجلسه في تلك الغرفة وإحدى رجليه بين فكي هاتين الخشبتين الموصودتين بقفل مفتاحه مع مأمور السجن لدى المنصوب وتسمى هذه الطريقة «الربط» ويكون لهذا المنصوب خادم أو أكثر لمثل هذه الأمور.

وهكذا نرى.. منصوب الأمير على هذه الوحدة يتم اختياره بطريقة الترشيح والتأييد من الأمير وإذا اقتضت الظروف في بعض الأحوال فإنه يتم تعيينه من قبل الأمير بدون أخذ رأي سكان هذه الوحدة.

□ القضاء:

يمثل القضاء الناحية الشرعية في القضايا التي تحدث في هذا المجتمع تنفيذاً لتشريعات الدين الإسلامي الحنيف في أدق التفاصيل وبأبسط صورة وبأقل قدر ممكن من الجلسات بعيداً عن التعقيدات المكتبية التي تحدث اليوم، فنرى القاضي على أبسط صورة وأكثر ديمقراطية حسب تعاليم الإسلام يجلس للناس في المسجد على فراش صغير بسيط وربما يفترش الحصباء بدون فراش وذلك بعد طلوع الشمس بحوالي ساعة حتى قبيل أذان الظهر أي من حوالي الساعة الثامنة وحتى الحادية عشرة صباحاً، وبعد صلاة العصر مباشرة وحتى قبيل غروب الشمس أي من حوالي الساعة الرابعة حتى الخامسة والنصف مساء.

ويتم في هذه الجلسات البت في معظم القضايا في وقتها دون تدوين لها في سجلات أو صكوك، وربما جاء الخصمان إلى القاضي في غير هذه الأوقات وحكم بينهما بالحكم الشرعي الذي يراه وعادة يتقابل الخصمان ويدلي كل منهما بحجته ويطلب القاضي البنية على المدعي سواء أكان ذلك بالوثائق أو الشهود ويطلب من المدعى عليه ما يثبت ضد قول المدعى سواء أكان ذلك بالوثائق أو الشهود أو اليمين ويتم البت بالموضوع في حينه وان كان هناك وثائق مع أحد

الطرفين كتب القاضي في أسفل الوثيقة جُملاً مختصرة تثبت أحقية صاحب الحق ويختمها بخاتمه الذي يصطحبه معه دائمًا ويعطي صاحب الحق وثيقته، ويفترق الطرفان والكل مقتنع بهذا الحكم وإن لم يكن معهما وثائق ومعهما الشهود فقط فإن الحكم يصدر لهما شفهياً باثبات الحق لصاحبه، ولا تستغرق القضايا العادية لأكثر من جلسة أو جلستين على الأكثر أما ما يتعلق بالقضايا العقارية والقتل والسرقة وما في مستواها فإنها تحتاج أكثر من ذلك ليتسنى للقاضي استقصاء الأمور وسبر الأغوار للتأكد من الحق قبل إصدار حكم شرعي بشأنه.

إنما على كل حال فالقضايا أخف كثيراً جداً، مما هي عليه الآن وقد شاهدت عدة جلسات تم البث فيها بعدد كبير من القضايا بَتّاً لا رجعة فيه وافترق الخصمان مقتنعين بهذا الحكم، وإن كان يؤخذ على هذه الطريقة التساهل في تسجيل القضايا للرجوع إليها عند الحاجة، إلا أن القضايا الحساسة ذات الجذور العميقة التي يمكن أن تستأنف، أو تبعث من جديد أو يحصل لها مضاعفات تمتد جذورها إليها، هذا النوع من القضايا يتم تسجيله بصكوك لها مقابل لدى القاضي وهذه الصكوك تسلم لأصحابها بعد علم الخصم بمضمونها، وربما علم بمضمونها الجميع ولاسيما وأن القضايا التي من هذا النوع قليلة.

والقضايا ليست بالكثرة التي هي عليه الآن ويمكن مرد ذلك إلى أسباب عدة نوجزها فيما يلي:

١ ــ رسوخ الايمان الذي لا يتزعزع بقلوب الناس مما يشعرهم بالخوف من الله في أن يأخذ الفرد شيئاً من مال الغير بدون حق ما يخشى معه العقاب من الله.

٢ ــ حسن النية ونقاء الطوية التي تحول دون الادعاء على الغير بدون حق، وتجنب الأمور التي تفسد عليه صفاء طويته.

٣ ــ الشيمة والمروءة العربية التي تمنع الفرد من الادعاء على الآخرين في أمور تافهة تأباها المروءة والشيمة لاسيما إذا كانوا جيراناً أو أقارباً.

٤ ــ الاقتناع بالحق الذي حصل عليه الفرد بأي وجه من وجوه الشرع.

٥ ــ نبذ الطمع وحب الدنيا وماديتها والعزوف عن التناحر في سبيلها.

٦ ــ الصدق في القول والعمل الذي يقطع دابر المراوغة واستنباط الحجج والأقاويل بدون حق بين وجعل نتائج القضية بذمة القاضي من خير وشر.

٧ ــ الحزم في تنفيذ الأحكام الشرعية التي تصدر من القاضي بدون هوادة.

٨ ــ حل بعض الأمور والاشكالات الصغيرة بواسطة هيئة النظر في القطاعات الصغيرة دون الرجوع للقاضي.

كما أن العادات والتقاليد تساهم في حل بعض المسائل الثانوية وانطلاقاً من هذه النقاط نرى القضاة يتركزون في المدن الرئيسية لعدم حاجة القرى إليهم كما نرى الفرد يخرج من عند القاضي مقتنعاً راضياً بالحكم يحمد الله على بيان الحق سواء كان الحكم له أو عليه باعتباره حكمًا شرعياً صادراً عن قاضي شرعي، وربما لزم الأمر بأن يقف القاضي على موضوع معين أو قضية معينة بنفسه فإنه يقف عليها بكل بساطة وسرور، والقاضي على بساطته، له هيبة عظيمة واحترام جم عند الناس وله مكانته في المجتمع، وكلمته الفاصلة في الحكم الشرعي الذي يتردد صداه في جميع الأندية والتجمعات، ذلك أنه يقال على مسمع من جميع الذين يحضرون الجلسة المفتوحة في المسجد، وبالطبع هناك أناس يقومون مقام الصحفيين في الوقت الحاضر، يحضرون هذه الجلسات طواعية وينقلون مما يدور بها أو يصدر عنها من أحكام إلى المنتديات والتجمعات لينشر صداها في كل مكان، والقاضي له من النفقة ما يقوم بمستلزماته واحتياجاته الضرورية تدفعه له السلطة مخصصاً شهرياً وسنوياً.

☐ هيئة النظر «النظراء»:

هناك هيئة مساعدة للقاضي ومنصوب الامارة معاً تسمى هيئة النظر «النُّظَرَاءْ» وهي تشكل بمعرفة القاضي والأمير في كل مدينة أو قرية أو مجموعة قرى، ويكون أعضاؤها ممن لهم إلمام بالأمور الشرعية من ذوي الرأي والحنكة

والذكاء والجاه من كبار السن الذين عركتهم التجارب مرشحين من مواطنيهم ومهمة هذه الهيئة أن تتولى حل الاشكالات التي تكون صبغتها إدارية وجوهرها شرعياً، كتحديد الحدود بين الأفراد، والنظر في منازعات على حقوق معينة بين المزارعين، وتحديد المراعي والفلوات، وموارد المياه، وقسمة المواريث من عقارات وغيرها، وتقدير الأضرار والخسائر التي تصيب زرع أحد لأفراد نتيجة الكوارث الطبيعية أو من جراء أكل مواشي طرف آخر أو الأضرار والخسائر التي أصابت مواشي شخص ما نتيجة اعتداء طرف آخر عليه، وإصلاح ذات البين بالجاه وغيره بين أطراف متنازعة، ورسم سواقي المياه من الوديان المجاورة، ومرافقة الخراص الذين يقدرون الثمار للتشاور معهم في تقدير تلك الثمار، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بمواطني هذه الوحدة، وترتبط الهيئة «بالمنصوب» مباشرة وتساعد في حل كثير من الأمور والمشاكل التي تقع في نطاق وحدته كما أنها ترتبط في القاضي فيما يتعلق بالأمور الشرعية، وبعض المسائل تبت فيها بنفسها وتنتهي في حينها والبعض الآخر ترفع توصية بشأنها إلى المنصوب أو القاضي تتضمن رأيها في هذه القضية أو تلك من واقع الوقوف على ميدان المشكلة، والهيئة جاهزة دائمًا للطوارىء تنتقل من مكان إلى آخر ومن قرية إلى أخرى حسب الطلب وهذه الهيئة كغيرها من الأجهزة الادارية ليست لها مخصصات شهرية وإنما يخصص لكل فرد شيء من الزكاة وبعض الهدايا السنوية وكلمة هذه الهيئة مسموعة ومطاعة من الجميع وإن حصل اعتراض من أحد فإن المنصوب أو القاضي يحسم ذلك بعد التأكد من رأي الهيئة، ومن واقع التجربة وغالباً ما تجد أفراد هذه الهيئة لديهم إلمام واسع في معرفة أحوال الناس وما يدور في نطاق عملهم من شؤون، ولديهم معرفة باتجاهات الناس وطباعهم، ومن هذا المنطلق يعرفون كيفية معاملة كل فرد أو مجموعة، مع أنهم لا يدونون حوادث كل شخص بسجل خاص لديهم إلا أنهم يعرفون عنه وعن أسرته الكثير مجرد ذكر اسمه، وربما تجد لديهم ذخيرة كبيرة في علم أنساب أهل هذه الوحدة بفضل احتكاكهم الدائم في الناس وبحكم صغر حجم هذا المجتمع الذي يعيشون فيه.

□ □ □

الفصل التاسع:

الواجبات الدينية

□ الصلوات الخمس:

قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾(1)
(صدق الله العظيم)

يقوم الناس باداء الصلوات المفروضة عليهم خمس مرات في اليوم والليلة دون رقيب أو حسيب من البشر وإنما رقيبهم هو من فرض هذه الصلوات عليهم يتوجهون إلى خالقهم العظيم بقلوب يعمرها الايمان وأفئدة خاضعة لأوامر ربها راجية مغفرته ورضوانه، يتسابقون إلى المساجد قبيل الأذان، وعندما يسمعون النداء يدركون تماماً معنى كلمة الله أكبر، أي الله أكبر من كل شيء في هذا الوجود، مما في أيديهم من العمل، مما هم فيه من انسجام، من المهمات المكلفين بها، من النوم، من الملذات ومن.. ومن.. الخ، لذلك لا يكاد يقول المؤذن لا إله إلا الله الأخيرة ألا وكل قد ترك ما بيده وتوضأ واتجه للمسجد، استجابة لهذا النداء وامتثالاً لطاعة خالقه العظيم، تحدوه الرغبة في مغفرته ومرضاته، وتقام الصلوات في المساجد بالمدن والقرى وفي مضارب البادية وتقام كذلك جماعات في المزارع والمراعي بل وتقام أفراداً في البراري والقفار، تجد الإنسان يجوب القفار على ظهر دابته لغرض فإذا حان وقت الصلاة نزل عن ظهر

---

(1) سورة النساء: آية ١٠٣.

دابته وتوضأ أو تيمم وصلى يرشده ضميره الحي في الاتجاه إلى القبلة وأداء الصلاة المفروضة، وما أعظم أجر إنسان كهذا في هذا المكان القفر يتجه إلى ربه راجياً ثوابه ورضوانه، ولما كانت الساعة لم تنتشر كما هي عليه الآن فإنهم يتبعون المواقيت المحددة بالشرع حيث تتم صلاة الفجر عند طلوع الفجر الثاني، وصلاة الظهر عند زوال الشمس عن الرأس، وصلاة العصر عندما يكون ظل كل شيء مثليه، وصلاة المغرب بعد غروب الشمس وغشيان الظلام للكون، وهذه المواعيد دقيقة عندما تكون الشمس بارزة وعند اختفاء الشمس في أوقات الغيوم والأمطار فانهم يعرفون بالحدس وقت الصلاة بالتمام وإذا استثنينا من هذا المجتمع فئة قليلة من الشباب الذين يحتاجون إلى من يرشدهم ويأمرهم باداء الصلاة في وقتها مع الجماعة فإن ذلك من البديهيات التي تحصل في كل شأن من شؤون الحياة ألا وهي الشواذ التي لا حكم لها، والمحافظة على الصلاة يعتبر واجباً دينياً يجب على الجميع التقيد به، لذلك تتزاحم مناكب الشباب والشيوخ في صفوف متراصة خلف الامام في كل صلاة وفي كل مكان، وفي الفترة الممتدة بين نهاية الأذان وإقامة الصلاة حوالي نصف ساعة تتهدج الأصوات الخاشعة بتلاوة القرآن الكريم وخاصة في أوقات الظهر والعصر حيث يتوفر الضوء الكافي بالمساجد أما في الأوقات المسائية فتتم التلاوة على ضوء الشموع والقناديل أو من يحفظه عن ظهر قلب وتؤدي الصلاة بكل خشوع وطمأنينة وبعد اداء الصلاة يتوجهون كل إلى مجال عمله ليسعوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

□ الصيام:

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾[1] الآية ـ وقال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فاليصمه﴾.. الآية.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣، ١٨٥.

يستقبل الناس شهر رمضان بروحانية غامرة ويستعدون له أكبر استعداد ويتسابقون إلى فعل الخيرات فيه، يقضون نهاره بالصيام ويحيون ليله بالقيام تغمرهم الروحانية، وتفشاهم نفحات ربهم يحتسبون إلى الله في كل عمل يقومون به، تكثر الصدقات، فيتبارى الناس في فعل لخير، وبحكم اتباع التقويم الهجري القمري فإن شهر رمضان يدور على فصول السنة، فأحياناً يأتي في فصل الشتاء أو الربيع وأحياناً في فصل الصيف أو الخريف يدور دورته هذه على مدى ثلاثين عاماً وعندما يكون رمضان في فصل الشتاء أو الربيع فإنه يمر على الناس خفيفاً، أما إن كان في فصل الصيف أو أوائل الخريف فإن الناس يقاسون فيه تعباً ومشقة بسبب العطش، وهذا ما يضاعف أجرهم عند ربهم إن شاء الله ولنا أن نتصور الناس في ذلك الوقت ورمضان في فصل الصيف، وهم في جهادهم الشاق في سبيل لقمة العيش، ولا يجدون مكاناً بارداً يلجأون إليه كما هو متوفر في الوقت الحاضر، ولا يجدون ماء بارد وقت الافطار سوى ما يبردونه بالقرب، وقد يلجأ من أخذ منه العطش مأخذه، إلى سكب الماء على نفسه وثيابه والتظلل تحت الأشجار وفي البيوت، عَلَّ نسمات الهواء تلامس جلده وثوبه المبلل فتمنحه الطراوة والبرودة التي تنعشه وترفع عنه غائلة العطش، وقد يتلوى الفرد في منتصف النهار تحت تأثير العطش، وربما قد يغمى عليه، لكنه وبقوة عزيمته، وصلابة إيمانه يأبى أن يفطر ذلك اليوم، وقد تجد المرأة المرضع نفس المصير بحيث تتوقف حياة ابنها أو موته على لبنها المتلاشي مع الصيام لكنها تصبر وتصوم لتعود ابنها على الصبر وقوة التحمل منذ الصغر وتغرس فيه هذه الخصلة الحميدة، ومتى جاء وقت الافطار رأيت الناس قد أتوا بأطباق التمر ودلال القهوة، وأواني اللبن أو مريس الأقـط إما إلى المساجد أو أماكن تجمعاتهم، وبهذه الطريقة يهيئون لكل مسلم أن يدنف إليها بدون حرج ليأكل حتى يشبع من تلك الأطباق ويتضلع من تلك القرب الباردة من نسائم الأصيل، أو تلك الأواني المملوءة باللبن أو المريس البارد أيضاً وأحياناً يتناول الناس طعام الأفطار في منازلهم كل اثنين أو ثلاثة وربما أهل المنزل وحدهم في الحاضرة والبادية وفي كل حالة تجد الرجال على حدة والنساء لوحدهن تلافياً للاحراج، وأثناء النهار يعمرون المساجد بالصلوات

وتلاوة القرآن الكريم، فإذا جنَّ الليل وتناولوا طعام الافطار، أحيوا ليلهم بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح والقيام جزاهم الله خير جزاء.

□ تفقد أحوال الناس:

عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا لي حزماً من الحطب ثم آتي قوماً يصلون في بيوتهم.. الخ[1].

وانطلاقاً من مبدأ الحرص على أداء الصلاة جماعة في جميع الأوقات ولاسيما في الوقتين اللذين يكونان في الليل، أي صلاة العشاء الأخير وصلاة الفجر حيث يكون في الأولى قد استراحوا لتوهم من نهاية عمل يوم شاق وجهد مضنٍ، مما يدعو بعض الشباب أن يتكاسل عن اداء الصلاة مع الجماعة في المسجد فيؤديها في بيته، أما الثانية فقد يكون الإنسان مستسلمًا لنوم عميق بعد تعب اليوم السابق ولا يجد من ينبهه فيغلب عليه سلطان القوم وتفوته صلاة الفجر مع الجماعة في المسجد وفي هذه الحالة، وانطلاقاً من مبادىء الإسلام التي تحث على أداء الصلاة جماعة بالمسجد تحت كل الظروف. يقوم الإمام بتفقد الجماعة الذين يؤدون الصلاة معه في صلاتي الفجر وربما العشاء الأخير، يناديهم واحداً واحداً بأسمائهم سواء كان يكتبها بورقة معه أو قد حفظها غيباً وكلما نادى إنساناً أجابه بكلمة حاضر وهذه الظاهرة لم توجد إلا في الآونة الأخيرة، ولكن لوجودها فعلاً لم أرد إغفالها، وأحياناً يقوم بعدِّ المصلين عضو من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحسبة وأحياناً يأمر هذا العضو إمام المسجد بالعد أثناء وجوده، وعندما لا يجيب أحد الناس للمرة الأولى فإنه يغض النظر عنه، وفي المرة الثانية يوجهه إمام المسجد في اليوم التالي وإذا زاد عن مرتين أو ثلاث فإنه يقوم بتوجيهه عضو من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يبدأ بالمحافظة على أداء الصلاة مع الجماعة وتكثر هذه الظاهرة بين الشباب في فصل الشتاء وبالذات

---

(١) الترغيب والترهيب، ص ٢٢٢.

الليالي الباردة، وفي الحقيقة لا تخلو تصرفات بعض أئمة لمساجد أو أعضاء هيئة الأمر بالمعروف من هنَّات قد يكون لها أثر عكسي على الشباب، وخاصة إذا كان وراءها دوافع خارجة عن الموضوع، بحيث يتصرفون نحو بعض الأشخاص الذين تفوتهم صلاة الفجر ببعض الكلام غير اللائق أو التصرفات غير المناسبة كأخذ «غترة أو شماغ» ذلك الفرد من فوق رأسه على مرأى من الناس كعقاب مادي له لكن هذه الحالة ليست قاعدة، وإنما لها صفة الشواذ، أما السواد الأعظم من الناس أي ما يقارب ٩٨٪ من هذ المجتمع فإنه يؤدي الصلاة ويحافظ عليها دون الحاجة إلى توجيه من أحد.

◻ صلاة التهجد:

صلاة التهجد هي ما يتنفل به العبد من صلاة يناجي بها ربه عز وجل في الثلث الأخير من الليل، ويقوم بهذه الصلاة من بسط الله على قلوبهم السكنية شيباً كانوا أم شباناً، وهي من ركعتين يسلم بعدها ولا حصر لعدد التسليمات التي يصليها الفرد حسب مقدرته الجسمية، يناجي ربه ويتوسل إليه في الثلث الأخير من الليل، عندما تكون عيون الناس غارقة في نوم عميق فإن هذا الفرد ذكراً كان أم أنثى صغيراً كان أو كبيراً قد هجر الرقاد، وبدأ يصلي رافعاً كفيه إلى السماء متضرعاً إلى الله العلي القدير طالباً من فضله الواسع في الدنيا الحاضرة والآخرة الباقية وتكون هذه الصلاة منفردة كل في بيته وعادة تكون قبل الفجر بساعة أو ساعتين، وربما أكثر من ذلك حسب نشاط الشخص واحتسابه لهذا العمل الصالح، وإن المرء ليجد فيما لو طاف بقرب هذه البيوت عن كثب فإنه يسمع هذا الشيخ يتهدج صوته وتحشرج كلماته مناجياً مولاه بطلب المغفرة والعفو، ولو نظرت إلى وجهه على ضوء القنديل الخافت أو الذبالة الباهته أو ضوء النار لوجدت حبات الدموع تتدحرج على خديه وتبلل لحيته من خشية الله وابتغاء مرضاته، وقد تسمع نشيج عجوز داخل البيت تدعو بصوتها البح مولاها بطلب المغفرة والرضوان وقد تسمع شابا يغص بالكلمات التي لا تكاد تغادر حنجرته متضرعاً إلى الله تعالى أن يهبه من فضله الواسع في الدارين، هذه

الأصوات التي تسمعها بداخل البيوت بصفة فردية في هذا الوقت من الليل، مبعثها الايمان الصادق بالله عز وجل، وتنفيذ شريعة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، من قلب عامر بالايمان وروح مشربة بالنور أو السكينة، وعادة عندما يقوم الفرد من هؤلاء وخاصة الشيوخ فإنه يوقد النار من الحطب الجزل في «القهوة» فإن كل الوقت شتاء سخن شيئاً من الماء ليتوضأ به ثم توضأ وعاد يتدفأ على صلو النار، ثم حمس القهوة ودقها ووضعها بالدلة وتركها على نار هادئة وبدأ يصلي ما شاء، ثم جلس وصفى القهوة، وأضاف إليها البهار من هيل أو قرنفل ثم ارتشف فنجانين أو ثلاثة مع حبات من التمر «القدوع» وذلك لتطرد النعاس عن عينه، ثم استأنف الصلاة، حتى إذا أحس بالتعب من الصلاة استراح بقرب النار يتناول القهوة والتمر ثم يعود إلى الصلاة وهكذا حتى يصلي الشفع والوتر في نهاية صلاته قبيل أذان الفجر وإن كان الوقت صيفاً يقوم بنفس العمل إلا أنه لا يحتاج لقرب النار كثيراً، لذلك تراهم يحضرون لهذا العمل ما يحتاجون إليه من حطب جزل «كالحفائر» وهي جذوع شجر الرمث اليابسة، والأرطى، والغضا، وغيرها، ويكتزون من التمور الطيبة لهذه الفترة بالذات، ونسبة هؤلاء بالمجتمع كثيرة جداً، وهم الذين يحيون الهزيع الأخير من الليل في طاعة الله جزاهم الله أفضل الجزاء وأكثر من أمثالهم في كل زمان ومكان.

□ صلاة التراويح:

تعمر المساجد في شهر رمضان بصفة مستمرة ليلها كنهارها بالصلوات والعبادة، فتراها تغص بالركع السجود من مختلف الأعمار وكلا الجنسين يرتفع منها ضوء المصابيح طوال الليل، وترتفع منها جلبة أصوات القراء في أوقات صلاة الظهر والعصر وما بينهما وبعد صلاة المغرب حتى أذان العشاء ثم يبدأ امام المسجد يقرأ على المصلين، من كتب الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي وكتب الأحاديث التي تحتوي على النصح والارشاد وتبين فضائل شهر رمضان وتهيب بالمسلمين أن يستفيدوا من استغلال هذه الفرصة الثمينة بالتقرب إلى ربهم للفوز بجنته ورضوانه ثم بعد أداء صلاة العشاء يبدأ الإمام بصلاة التراويح وهي

ركعتان يسلم بعدها يتلو خلالها الكتاب العزيز بمعدل ربع حزب في الركعتين بادئاً من أوله وبعضهم يختمه في ليلة سبع وعشرين، التي يرجح أنها ليلة القدر ذات الفضائل العظيمة والبركة والنور والغفران، وبعضهم يكون ختمه للقرآن الكريم في نهاية الشهر ليلة ٢٩ أو ٣٠، ويصلي بالناس التراويح وبعض الأئمة يتريث بقراءته فيصلي ست تسليمات وبعدها الشفع والوتر، وبعضهم يسرع في القراءة والركوع والسجود فيصلي اثنتي عشرة تسليمه وبعدها الشفع والوتر، والشفع ركعتان يقرأ فيهما بسورتين من قصار السور، والوتر ركعة واحدة يقرأ فيها بسورة الاخلاص وبعد ركوعها يدعو ببعض الأدعية المأثورة ثم يسجد ويسلم وتنتهي صلاة التراويح وترى الناس في صلاة التراويح «ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا» كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم ويكون للنساء قسم معزول عن الرجال في آخر المسجد وله مدخل مستقل يفصله عن قسم الرجال رواق من قماش أو أي نسيج آخر، ذلك ليترك للنساء حرية العبادة بعيداً عن الرجال، وفي موسم رمضان تلقى المساجد عناية خاصة من حيث تطييبها بأنواع فاخرة من البخور والعطور الفواحة التي ترش على المصلين في أوقات الراحة بين الصلوات وعندما يكون الامام يحدث، كما تدار فناجين القهوة العربية في هذه الفترة إلى جانب كؤوس الشاي، كذلك تعتبر المساجد مكاناً لتناول الفطور في رمضان مع آذان المغرب في كل يوم، بحيث يؤمن للمسجد قربٌ من الماء البارد ويحضر إليه أطباق من التمر، والأواني المملوءة باللبن أو مريس الأقـط إذا كان الوقت صيفاً، وتحضر إليها دلال القهوة العربية تفوح برائحة الهيل المنعشة، وهذه المواد التي تحضر إليها في شهر رمضان هي من تبرع فاعلي الخير وذوي الإحسان الراغبين بالأجر الذين يؤمنون بالحـديث الشريف القائل «من فطر صائمًا بفلق تمرة أو شـربـة ماء أو مذقة من لبن فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر لصائم شيء.

وفي رواية «من فطر صائمًا فله مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»[1] سواء أكانوا من الأحياء أو من الأمـوات الذين أوقفـوا شيئاً من

---

(١) الترغيب والترهيب، ج ٢ ص ٢٦٦.

ممتلكاتهم على تأمين الفطور للمساجد في شهر رمضان أو إضاءة المساجد في هذا الشهر الفضيل لأنهم يؤمنون أن المسجد مكان للغادي والرائح لا يجد أحد حرجاً أو مِنَّة من تناول الأفطار فيه فيريدون اكتساب أجر أكبر عدد ممكن من الصائمين، والواقع أن لشهر رمضان روحانية عظيمة تلف الإنسان المؤمن عن كل ما حوله وتعزله عن كل ارتباطاته المادية لتطفح به وترفعه وتشده برباطها الشفاف بخالقه العظيم، فلذلك تراه في هذا الشهر المبارك مشدوداً إلى الأعمال الخيرية، مواصلاً أيامه بلياليه يسبح في اطار هذا الاتصال الروحي بينه وبين خالقه، منتشياً بعطر هذه الفترة الروحية الخلابة، وتكثر الصدقات وتَفَقُّدِ أحوال الفقراء من الناس، وتنزل بركة السماء على الأرض، والكل يطلب مرضاة ربه في أعماله هذه.

□ صلاة القيام:

في العشر الأواخر من شهر رمضان يبدأ الناس بأداء الصلاة القيام واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جاء في الحديث «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1] حسب تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ووقت صلاة القيام في الهزيع الأخير من الليل وتستمر من ساعتين إلى ثلاث ساعات وهي أربع تسليمات عدا الشفع والوتر، يطيل الامام القراءة بكل ركعة فيصل إلى جزء من القرآن في كل تسليمة وبالطبع والقرآن يساوي ٣٠ جزءاً كما يطيل فترة الركوع والسجود أيضاً ويختلف الأئمة في صلاتهم بالناس فمنهم سريع القراءة ينهب الآيات نهباً مع إعطاء كل حرف مخرجه، وبذلك يشد المصلين إلى قراءته ويبعث فيهم النشاط والحيوية فلا يشعرون بالملل من طول الوقوف وبعضهم خلاف ذلك فيدب الملل إلى نفوس المصلين وربما تسلل النعاس إلى جفون بعضهم، وبعد كل تسليمة تدار فناجين القهوة العربية وكؤوس الشاي التي تطرد النعاس وتبعث النشاط بالمصلين، كما تدار مباخر الطيب «العود القماري» وكذلك رشاشات العطر التي يتطاير رذاذها على المصلين

(١) رياض الصالحين، ص ٤٠١.

مجددة فيهم النشوة والتحفز لمواصلة الصلاة إلى آخرها وبين التسليمة الأولى والثانية يقرأ الامام شيئاً من الأحاديث المحتوية على التذكير وفضائل ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان والحث على تحري ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، والتي يتوقع أن تكون في الوتر من العشر الأواخر وترجيح كونها ليلة سبع وعشرين وبعد التسليمة الثانية يبدأ الناس بتلاوة القرآن الكريم ثم بعد التسليمة الثالثة والرابعة يقرأ الإمام شيئاً من الأحاديث كما سبق وبعد التسليمة الرابعة يصلي الشفع والوتر وتنتهي صلاة القيام، قبيل الفجر بحوالي نصف ساعة ويولي الناس عناية فائقة في تلاوة القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك وتعقد حلقات التلاوة بالمساجد والمنازل فيجتمعون في مجموعات قد تصل المجموعة إلى عشرة أشخاص في العشرين ليلة الأولى منه تجتمع هذه المجموعة بعد صلاة التراويح مباشرة بمنزل أحدهم بالدور كل ليلة عند واحد منهم لفترة من ٢ ـ ٣ ساعات يتدارسون فيها القرآن الكريم وذلك بأن يقرأ أحدهم والباقون يتابعونه بمصاحفهم ويصححون أخطاءه إن وجدت ثم ينقل الدور للثاني والثالث وهكذا، ويمكن أن يختموا القرآن الكريم من ٣ ـ ٥ ليال ويجدون روحانية لا مثيل لها في تلاوته، يقدم لهم مضيفهم ما تيسر له من طعام أو فاكهة مع القهوة والشاي، والفرد في شهر رمضان يختم القرآن العزيز بمعدل من ٥ ـ ١٠ مرات وربما أقل من ذلك أو أكثر، والواقع أن شهر رمضان يطبع الناس بطابعه الروحي الذي يألفونه ويلتصقون به ولا يكاد يغادرهم إلا وتذرف الدموع على فراقه الذي قد لا يعود على بعضهم في العام القادم، فيود لو استمر رمضان شهوراً تمتد فيها هذه الفترة الروحية، وبعد شهر رمضان يصوم البعض ستا من شوال استجابة للأحاديث الصحيحة «أن من صام رمضان واتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر كله»[١].

وفي ليلة سبع وعشرين من رمضان وهي ليلة القدر حسب ترجيح معظم الأحاديث ترى الناس مشدودين إلى خالقهم الكل رافع يديه إلى السماء متضرعاً

---

(١) الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٢٣٥.

إلى ربه يغفر ذنوبه ويقبل توبته ولا يحرمه لقاء وجهه الكريم في فسيح جناته، فالناس مشغولون عن الدنيا وملذاتها، يتصدقون بشيء من أموالهم على الفقراء والمساكين في هذا المجتمع الذي يعيش تحت ظل تكافؤ الاسلام وفي ليلة القدر بقرب المساجد تسمع نشيج الشيوخ ونحيز العجائز وتهدج أصوات الشباب من خشية الله طالبين مغفرته ورضوانه بالنجاة من النار والفوز بالجنة خاصة عند دعاء ختم القرآن في نهاية صلاة القيام قبيل أذان الفجر أي حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً، ويختم الناس أعمالهم الخيرية لشهر رمضان باداء زكاة الفطر وهي صاع من طعام على كل فرد صغير أكان أو كبيراً ذكراً أو أنثى تعطي للفقراء قبيل الذهاب إلى صلاة العيد أو قبله بيوم.

□ الاعتكاف في المساجد:

عن عمر رضي الله عنهما: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان»[1].

في شهر رمضان نجد فئة من الشيوخ ينقطعون عن الدنيا ومادياتها ويعتكفون بالمساجد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون لهم بجانب المسجد غرف ينامون بها وقت النوم ويرتاحون بها بعض الوقت، ويؤتى لهم بطعامهم وشرابهم وفرشهم في هذه الغرف، فنجدهم معظم وقتهم وقوفاً يصلون أوجلوساً يتلون القرآن الكريم أويتذاكرون الحديث ويستنبطون من معانيه ويعتبرون بأحكامه مما يشدهم بخالقهم، تربطهم المحبة لبعضهم وتظللهم السكينة وتغشاهم الرحمة، يلبسون ملابس تدل على تقشفهم، هذا الانقطاع لا يرجون منه إلا رحمة ربهم ورضوانه وجنة عرضها السموات والأرض، يصلون مع الناس وقت صلواتهم وعندما يخرج الناس من المسجد يعودون إلى مكان اعتكافهم في الجزء المخصص لهم من المسجد.

---

(١) رياض الصالحين، ص ٤٢١.

وتكثر هذه الجماعات أو تقل حسب توافر عدد الراغبين في الاعتكاف أو اتساع المكان المخصص لهذه الفئة، وقد يكون من بين هؤلاء من غير الشيوخ أي من متوسطي السن وربما الشباب ممن هداهم الله لهذا العمل ووجدوا من يكفيهم مئونة بيوتهم خلال فترة غيابهم طيلة شهر رمضان.

◻ صلاة عيد الفطر:

يتوج الناس أعمالهم خلال شهر رمضان المبارك باداء صلاة العيد كما سنها الإسلام بمكان بارز بعد طلوع الشمس بقليل يؤديها الرجال والنساء غير أن النساء بصفوف متحدة خلف الرجال بمسافة معقولة وهي ركعتان وخطبة بعدها تحتوي على الموعظة والارشاد وطلب الاستمرار بالأعمال الصالحة في الأشهر المتبقية من العام وبعد اداء الصلاة وتبادل المعايدة حيث يقول الأول: عيدك مبارك فيرد عليه الثاني: عساك من عُوَادُهُ أو من العائدين الفائزين وكل عام وأنتم بخير مع الأدعية بالفوز والقبول للصيام والقيام وغيرها من الأعية المأثورة بعد ذلك يعود الناس من مصلاهم إلى البيوت ليجدوا الفرش قد مدت بالشوارع وصفت فوقها الصواني التي تحتوي على كل ما لذ وطاب من الأكل لعدة أصناف من الأطعمة المحلية كالهريس، والجريش، والقرص، والأزر، وغيرها، تتوجها الخراف الناضجة أو قطع اللحم المستوية، يوشي أطراف تلك الصواني البيض المسلوقة أو فصوص البصل المطبوخ، أو شرائح الباذنجان والقرع، مع حبوب اللوبيا وقطع البصل النيء المتناثرة بين طيات القرصان، وما تم ذره على الأكل من أصناف البهارات والتوابل التي تعطيه نكهة وجاذبية ممتازة، وبعد تبادل المعايدة من الجميع، والتي تمثل قمة التسامح والتآلف والتآخي بين كافة الأفراد صغيرهم وكبيرهم، وتعطي مجالاً للتسامح بين الذين قد يكون في نفوسهم شيء لبعضهم على بعض فإن العيد كفيل بأن يمحو هذه الادران، وذلك عندما يتبادلون التحية المباركة والقبلات على مرأى من الحضور ومن هذا يزول ما في نفوسهم من المكدرات، وبعد ذلك يشرع الناس في الأكل من هذه النعمة الموضوعة للجميع، للغادي والرائح وعادة يكون لأهل كل حي

أو نزل أو شارع مجمع بارز بالشارع يجتمعون فيه لتناول طعام العيد يتوارثه الخلف عن السلف، وطعام العيد يساهم فيه جميع المواطنين، كل يأتي بطعام العيد الذي أعدته زوجته ليلة العيد، وتهتم النساء اهتماماً بالغاً في طبخه طعام العيد وتبدي من التفنن والتجديد باضافة أشياء جديدة من الاصباغ والتوابل وأنواع الخضار ما يجعل طعام عيدها هو الأفضل، وربما قضت ليلة العيد كاملة في إعداد هذه الطبخة وبعد أن يفرغ الرجال من الأكل ويغتسلوا تنقل الصواني إلى داخل البيوت، ويمارس الشباب بعض الألعاب سنتعرض لها في موضوع المناسبات، أما الشيوخ فإنهم يتنقلون إلى المقاهي لتناول القهوة وتبادل الأحاديث التي تدور حول هذه المناسبة، أما النساء فإنهن كذلك يجتمعن لتبادل تحيات المعايدة ويحتفلن بالعيد سنتعرض لها في مناسبة أخرى. وأكثر من يهتم بالعيد بالدرجة الأولى النساء والأطفال، يليهم الشباب ثم الرجال فالشيوخ، وتفرح النساء والأطفال بالعيد فرحاً لا يماثله فرح حيث تعد النساء له العدة من الملابس الفاخرة والحلي الثمينة اللامعة، وتزيين الأكف بالحناء، واستخدام المشاط والرياحين والورود لشعورهن واستخدام أنواع العطور الزكية في جيوبهن وشعورهن وغير ذلك مما يظهر كل واحدة منهن مثلما وصفها الشاعر:

١٠٨ ـ باكر ضحي العيد ليا طقوا الزير
وما عندهم من غالي يلبسونه

١٠٩ ـ يطلع جيبي كالخلاصة من الكير
عيذه برب الناس لا ينحتونه

(ضاري الرشيد)

كما يفرح به الأطفال حيث تجدهم يرتدون الملابس الزاهية الألوان يتراكضون في الأحياء والشوارع وعلى كثبان الرمال تغمرهم الفرحة والسرور، ينقزون من مكان إلى آخر كأنهم الفراشات المتهافتة كما تمتد في هذا اليوم يد الخير إلى الأطفال الفقراء لتأمين الملابس لهم ليكملوا الفرحة مع أترابهم، أما الشباب

فيرتدون الملابس البيضاء الفضفاضة، ذات الأردان الطويلة منتظمين بأحزمة البنادق أو السيوف والخناجر المذهبة، أما الرجال والشيوخ فإن فرحتهم بالعيد معنوية أكثر منها مادية وينطبق ما يحصل في عيد الفطر على ما يحصل في عيد الأضحى، مع فارق بسيط وهو أن الناس بعد تناولهم لطعام العيد يتوجهون لذبح الأضاحي كل في بيته ويقضون جزءاً كبير من ذلك اليوم في ذبح الأضاحي وتجهيز لحومها وتوزيع جزء منه وطبخ جزء وتسيير الجزء الثالث ومزجه بالملح ثم تنشيفه ليصبح بعد ذلك قديداً لذيذاً، وهكذا نجد مناسبة الأعياد فيها من المعاني الروحية والمادية ما يفوق الوصف والحصر.

□ الصلوات الأخرى:

صلاة الاستسقاء وتؤدي عندما يتأخر نزول المطر عن وقته فيفزع الناس إلى خالقهم راجين ضارعين، ويبرزوا في مصلاهم ليؤدوا الصلاة كما سنها الاسلام في مصلى العيد وهي ركعتان بعدها خطبة تذكرهم بفعل الخير وتنهاهم عن الأعمال السيئات وتدعوهم إلى التوبة إلى الله والرجوع إليه وان يحاسب كل واحد نفسه فيها إذا كان قد اقترف ذنباً أن يتوب إلى الله ويستغفره عن هذا الذهب الذي جناه، ويدعو الامام والمصلون يرددون من بعده بانزال الغيث على عباده بالأقوال المأثورة التي تهز المشاعر وتؤثر في النفوس، وعند الانتهاء من الخطبة يقوم المصلون بقلب ما على ظهورهم من الأردية والعبي، دليلاً على تغيير النية والأوبة إلى الله بقلوب خالصة راجين من الله الرحمة والرضوان وإنزال المطر على عبادة وبلاده.

أما صلاة الكسوف أو الخسوف فيبدأ عند كسوف الشمس أو خسوف القمر ووقتها كما سنها الاسلام من وقت الكسوف أو الخسوف وحتى التجلي، يؤذن لها وينادي الصلاة جامعة ثم يجتمع الناس في المساجد ويصلي الامام أربع ركعات بتسليمة واحدة يقرأ بين كل ركعة وأخرى قراءة مطولة من القرآن الكريم عن السور التي تقرأ في هذه المناسبة ثم يسلم ويبدأ بقراءة الحديث

والموعظة بما يعود على الناس بالمصلحة في الدارين الدنيا والآخرة وفي هذه الأثناء يكون التجلى قد بدأ بالشمس أو القمر.

أما الصلاة على الميت فتتم جماعة بعد اداء فرض من الفروض أو تكون في وقت آخر حتى تجمع العدد الكافي وكان وقت الفرض بعيد وخشي على جثة الميت من التعفن في هذه الفترة وإن كان في البر فيصلى عليه الحاضرون معه وتتم الصلاة بأربع تكبيرات كما سنها الاسلام وقوفاً بدون ركوع ولا سجود يكبر الامام وإلى جانبه ولي أمر الميت التكبيرة الأولى يقرأ بعدها الفاتحة ويكبر الثانية ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن ثم يكبر الثالثة ويطيل ويدعو للميت بالعفو والمغفرة والرضوان ثم يكبر التكبيرة الرابعة يسلم بعدها تسليمة واحدة وتنتهي بذلك الصلاة وتحمل جثة الميت على نعش إلى المقبرة حيث يدفن مع مقابر المسلمين تحت رحمة ربه والقبور هنا حسب السنة الشريفة بدون قباب ولا حيطان وإنما تكون على وجه الأرض بارتفاع حوالي ٥٠ سم تراب القبر يكوم عليه ويوضع شاهدي القبر على سمت رأس الميت وقدميه ويكون الشاهدان أما من الحجر أو اللبن وهما بارزان فوق كومة التراب أما الميت فيدفن في لحد شق مائل في الجهة الأمامية من القبر يبنى عليه داخل الحفرة باللبن بحيث يبقى الفراغ بما يستوعب الجسد فقط وعلى عمق حوالي ١٢٠ ـ ١٥٠ سم تحت رحمة ربه عز وجل.

□ أداء فريضة الحج:

قال الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[1] صدق الله العظيم.

يؤدي الناس فريضة الحج مرة في العمر ويزيد على ذلك من يريد مبرة نفسه بأجر الحجة أو من يريد أن يحج عن أحد والديه أو أقاربه، ويبدأ التجهيز

---

(١) سورة الحج: آية ٢٧.

للحج بعد عيد الفطر المبارك، وذلك باعداد الراحلة التي يحج عليها واستكمال مستلزماتها من أَشِدَّةٍ وخرج، ودلو للماء ورشاء وقرب الماء وخيمة يتظللون فيها وغير ذلك من المستلزمات كما يقوم بتجهيز الزاد الخاص بالحاج من الجريش، والأرز، والتمر، والقرصان، والطحين، والسمن، والأقط، و«الكيليجا» و«الشعثا» والقهوة والشاي، يتم تجهيز هذه المستلزمات والمواد الغذائية حتى لا يأتي قبيل نهاية شهر شوال إلا وقد اكتمل كل شيء، وتبدأ رحلة الحج حسب بعد الأماكن أو قربها من مكة المكرمة ما بين ٢٠ عشرين من شهر شوال إلى الخامس من شهر ذي القعدة وتستغرق رحلة الذهاب إلى الحج من ١٥، ٢٠، ٣٠ يوماً، ولمغادرة الحجاج مناسبة قد تدخل في تاريخ المواليد ومواعيد المكاتيات التجارية وغيرها، ويحمل كل بعير بالاضافة إلى صاحبه، زاده الذي يساوي حمل البعير كاملاً من المواد الغذائية والمستلزمات السابق ذكرها وأحياناً يكون على البعير الواحد الحاج ورديفه وهي زوجته أو قريبته التي تريد أداء فريضة الحج معه، وأحياناً يمشي الشباب على أقدامهم بعض المسافة ليريحوا ركائبهم ثم يمتطونها مسافة مماثلة، وقد تطول مسافة المشـي على الأقدام خاصة إذا كانت الابل هزيلة ويكتفي بحملها المتاع، ويكون لمغادرة الحجاج في كل مدينة أو قرية أو مضرب بادية صدى كبير ويوم مشهود يذكره الكبار والصغار معاً، وترى الناس بقرب الحجاج فمن متلهف يود الذهاب معهم لاداء فريضته، ومن يستعيد ذكريات حج سابق ويحن لمعاودته، ومن يـزجى نصائحه للحجاج الجدد من واقع تجاربه في طرق الحج، ومن مودع لقريب لا يطيق فراقه، ومن متلهف على حبيب يخاف من عدم عودته، ومن معه الدراهم يريد أن يوصي أحد الحجاج لاحضار غرض من أغراضه من مكة، ومن يوصي أحد الحجاج على حاجة معينة دون أن يعطيه نقوداً فيرد عليه الحاج: «إذا توفر معي مبلغ فلا بأس من إحضاره، وفي هذا الموقف حدث المثل الشعبي المشهور «عز الله إن ولدك زَمَّر».

يقال إن مجموعة من المودعين يوصون أحد الحجاج بأن يحضر لصبي كل منهم «مزماراً» وعند عودته سيعطونه قيمة هذا المزمار ولما كان الحاج لا يملك

المبلغ الذي يغطي طلبات هؤلاء واستحى أن يصارحهم في ذلك كما أنه من غير الجائز أن يطالب أحد جماعته بعد العودة من الحج بقيمة المزمار الذي لا يتجاوز ثمنه ريال واحد لذلك أجابهم بكلمة طيب، وعندما تقدم منه أحدهم وأعطاه ريالاً وقال: من فضلك أحضر لولدي مزماراً، فرد عليه الحاج «عز الله إن ولدك زَمَّر»، فذهبت مثلاً بين الناس.

وبعد الوداع الطويل المؤثر بين الحجاج وذويهم، الرجال والنساء والأطفال تبدأ رحلة الحج الطويلة الممتعة، ويضرب الحجاج طرقاً تتوفر فيها المياه من قرى وآبار حتى يتسنى لهم أن يشربوا ويسقوا رواحلهم وتمشي الابل الهويني بحيث لا يتعدى سرعة مشيها الذميل ذلك لأنها محملة وتتخذ الرحلة الترتيب التالي: في الصباح الباكر يمشون ما شاء الله حتى يأتي وقت الضحى الكبير حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحاً ثم ينزلون عن الإبل ويقيدونها ويتركونها ترعى بقربهم ويسمون هذه المرحلة «مضحى» يتناولون فيه طعام الغداء حتى بعد صلاة الظهر بساعة ثم يحضرونها ويحملونها ويركبون عليها أو يمشون حتى قرب المغرب ثم ينزلون عنها ويقيدونها ويتركونها ترعى بقربهم حتى يظلم الليل ثم يجمعونها ويعقلونها ويضعون لها العلف وتسمى هذه المرحلة «معشى» ويحضرون عشاءهم وينامون في هذا المكان حتى يصلوا الفجر ثم يبدءون برحلتهم من جديد وربما مشوا في الليل فترة من الوقت وتسمى هذه الرحلة «مسرى» وهكذا حتى يصلوا إلى مكة وربما صادفهم بالطريق في «ريعان» الجبال الممرات الضيقة ناس من قطاع الطرق، يمنعونهم من المرور حتى يدفعوا لهم إتاوة معينة، وبعد أن يصلوا إلى مكة ويؤدوا مناسكهم يشترون احتياجاتهم من الهدايا التي سيقدمـونها لأقاربهم من مكة المشرفة ويهتمون بصفة خاصة بهدايا الأطفال كالحلويات والحمص، والمزامير، والصافرات، والخواتم، والقلائد الخرزية، وغيرها مما سيوزعونه على الأطفال عند عودتهم والتي ينتظرها الأطفال بفارغ الصبر، وفي رحلة العودة يكون السير فيها أسرع ذلك لأن الابل أخف أحمالاً فلذلك تمشي الوَخْدِ والذميل بحيث تختصر المدة الزمنية بيوم أو يومين عن رحلة الذهاب.

وأحياناً تكون الأرض محملة والابل هزيلة فتستغرق الرحلة وقتاً طويلاً عما

أشير إليه قد تبلغ أربعين يوماً، وما إن يتباشر الناس بقدوم الحجاج بوصول البشير في أول شهر محرم أو منتصفه حتى تعم الفرحة القلوب ويدخل السرور إلى النفوس، وما إن يصلوا إلى أهليهم حتى تنتشي قلوب الأطفال بالفرحة، ويبدؤوا بالطواف على الحجاج في بيوتهم للحصول على الهدايا «الحقاق» الحمص والحلوى الذي يكون له أثر كبير وقيمة عظيمة لدى الصغار وذكريات لا يمكن أن تنسى لديهم، ثم يتلوهم الكبار لتهنئتهم بسلامة الوصول والدعاء لهم بالقبول والتعرف أخبار رحلتهم وما صادفهم فيها، وينصت الناس عندما يبدأ الحاج بسرد قصة الرحلة الطويلة الشاقة الممتعة، ليستفيد الآخرون من أحداثها. وهكذا ينتهي، أداء فريضة الحج التي لها طابعها الروحي والمادي المميز الذي لا يماثله رديف آخر.

□ إخراج الزكاة:

قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة﴾ صدق الله العظيم[1]، تلبية لهذا النداء الالهي واداء للركن الثالث من أركان الاسلام يقوم الناس بزكاة أموالهم عند بلوغ النصاب ومرور الحول وبقية الشروط حيث تمتد يد الغني بجزء من زكاة ماله إلى كف الفقير المحتاج ليدفع عنه غائلة الحاجة والعوز، وليجعله يعيش عيشة كريمة في نفس الوقت يزداد مال هذا الغني نمواً مع إخراج زكاته في كل عام والزكاة هي احدى ركائز التكافل والتضامن الاجتماعي بين أفراد هذا المجتمع المتماسك الطيب ويختلف الناس في كيفية اخراج الزكاة فالبعض منهم يخرجها ويتولى توزيعها بنفسه يتحسس المحتاجين ويدفعها إليهم بحيث لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، والبعض الآخر يخرجها ويوزعها على مرأى ومسمع من الناس هذا فيما يتعلق بزكاة النقدين وعروض التجارة أما زكاة الثمار والأنعام، فإن زكاتها تجبى من قبل السلطة بالإضافة إلى ما يوزعه صاحب المال احتياطاً لابراء ذمته ويوزعها على أهل الزكاة الثمانية الذين وردت أسماؤهم بالآية

---

(١) سورة البقرة: آية ١١٠.

الكريمة ﴿إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل﴾[1].

وإذا نظرنا تأدية هذا الركن المفروض على أغنياء المسلمين لفقرائهم فاننا ندرك مدى اهتمام الاسلام بكافة طبقات هذا المجتمع، والأهم من ذلك هو أن الأفراد الذين ينفذون هذا الركن من الصدق والاخلاص وخشية الله ما يجعلهم يحصون جميع أموالهم سواء أكانت نقداً أو عروض تجارة أو ثماراً أو من بهيمة الأنعام ويخرجون زكاتها ويضربون الحيطة لأنفسهم بزيادة ما يدفعونه إذ ربما يكون هناك شيء قد غاب عن أذهانهم، بالاضافة إلى ما يقدمونه من الصدقات التي لا يعلمها إلا الله، زيادة على مساعدة المحتاج، وإطعام الطعام وغيرها من الخصال الحميدة، وهذا لا يعني أنه لا يوجد أحد ممن يتهاونون بتأدية هذا الركن الإسلامي الهام، أو من لا يحصون جميع أموالهم ولكن هؤلاء بحكم من شذ عن القاعدة العريضة التي يسير عليها السواد الأعظم من سكان هذه المنطقة.

□ الحِسْبة ـ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تكوّنت الحسبة، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في ضحى الإسلام لكنها لم تكن مرتّبة كما هي عليه في الوقت الحاضر، وإنما كان أعضاؤها حتى عهد قريب غير متفرّغين لهذا العمل، ويقومون به طواعية واحتساباً من عند أنفسهم بدون مقابل، هدفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من قلب مخلص صادق لا يبتغي سوى ثواب الله طامعاً بجنّته، وكل ما يشغل نفسه أن ينقّي هذا المجتمع الطيّب مما قد يعلّق به من أدران، ويرشد الأفراد الشواذ فيه إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، هدفه إلهي، ونهجه إنساني، وما دام هذا المجتمع البسيط النقي المطيع لأوامر الله، فبطبيعة الحال تكون حاجته من رجال الحسبة قليلة، وطالما أن الشخص القائم بهذا العمل

---

(١) سورة التوبة: آية ٦٠.

بدون أجر مادي إلا ما يعطى من الزكاة أو الصدقة كغيره من المسلمين إن كان في حالة عوز، فإن الذين يعملون بهذا الأمر قد يقلّ عددهم، وهم كما أسلفنا يعملون ابتغاء مرضاة الله من قلب صادق، ويتركّز عملهم الرئيسي في المدن، وهم مـن مـتـقدّمي السن ممّن يوثق بدينهم فتجدهم يجوبون الأسواق، يتّكىء كل واحد منهم على قضيب من الخيزران، في أوقات الصلوات يحثّون بعض الناس على المبادرة بالذهاب إلى المساجد لأداء الصلاة خاصة مَن يكون لديهم عمل تجاري أو مهني يمتد عملهم طيلة اليوم، وقد يحين وقت الصلاة وفي نفس أحدهم خصاصة للبيع أو الشراء أو محاسبة أحد زبائنه أو تكملة احتياجات الزبون، وقد يكون المسجد بعيداً عن السوق، بحيث لا يسمع الناس الأذان خاصة وأنه لا يوجد آنذاك مكبّرات الصوت، فمرور أعضاء الهيئة ونداؤهم في الشارع «الصلاة. . . الصلاة. . . يهديكم الله إلحقوا الصلاة» إيذاناً بإقفال الحوانيت والدكاكين، والتوقّف تماماً عن كل عمل والذهاب إلى المساجد وبعدها يستأنف العمل في الأسواق حتى موعد الصلاة الثانية، وبذلك نجد أن عمل هذه الهيئة متمّم للواجبات الدينية التي يتمتّع بها هذا المجتمع الطيّب. وعلى العموم فإن الواجبات الدينية بقيت كما هي عليه منذ فجر الإسلام حتى الآن لأن مصدرها واحد لم يتغيرّ، غير أنه طرأ عليها بعض التعديلات الطفيفة خاصة فيما يتعلّق بشعور الناس إزاء تأدية هذه الواجبات، وقد خفت القدسية التي يشعر بها أجدادنا الأوائل نحو أداء الواجبات الدينية وذلك بالاختصار من المظاهر التي تحدث آنذاك، إنما الجوهر باق كما هو عليه، وهناك انشغال الناس بالدنيا وماديّاتها شغل مجموعة من الناس عن أداء واجباتهم الدينية كما ينبغي، بسبب الأسفار والتنقّل من مكان إلى آخر، كما أن المخترعات الحديثة غيّرت كثيراً من ترتيبات بعض الواجبات الدينية كالحج مثلاً، ونسأل الله أن يحفظ دينه ويعلي كلمته وأن يهدي المسلمين لما فيه الخير والسداد، إنه سميع مجيب.

□ □ □

الفصل العاشر:

الأخلاق

□ الكـــرم:

الكرم هو إحدى الخصال الحميدة التي لازمت الإنسان العربي منذ فجر التاريخ، والكرم صفة من صفات الله جلّ وعلا التي خصّ بها الإنسان العربي من بين كل الشعوب، فهذه الخصـلة هي ظل الله المنعكس عليه، ومنذ أقدم العصور والعرب مشهورون بالكرم، شاهدنا ما تزخر به الكتب من قصصهم لدرجة لا يصدّقها من لم يعش في نفس بيئتهم، ويشاهد بأم عينه ما يحدث من ضروب الكرم عندهم، ولا سيما الكرم مع الحاجة والعوز التي تجعل جذور هذه السجية الراسخة، تمتد إلى أغلى ما يملكه الإنسان حتى ولو كان ذلك يترتّب عليه فقدان وجوده على هذا الكون، ومنهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولو استعرضنا كتب التاريخ لوجدناها تغصّ بأخبار الكرم والكرماء، وعلى قمة هذا الهرم الكريم المشهور حاتم بن عبد الله الطائي، في الشمال الغربي من هذه البقعة، وغيره كثير من بني شيبان، وذبيان، وتميم وقريش وغيرهم من الأرومات العربية، حيث قيل: «انتهى الكرم في الجاهلية إلى ثلاثة نفر حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن أمامة الأيادي»[١]، ولنصغي الى قمة هذا الهرم يتحدّث عما اشتهر به بعد أن اتّخذ قراراً أنه سيعتق كل واحد من مملوكيه عندما يتسبّب في استقدام ضيف ليطعم من قراه، حيث قال:

---

(١) مشاهير كرماء العرب ١٥٨.

أوَقــد فــان الــليــل لــيــل قــر
والــريــح يــا مــوقــد ريــح صــر

عــلّ يــرى نــارك مــن يمــر
إن جـلبـت ضـيـفـاً فـأنــت حـرّ

(حاتم بن عبد الله الطائي)

ولنستمع إليه أيضاً في الأبيات التالية التي تعكس روعة هذه الخصلة الحميدة، حيث يقول:

أمــاوي إن المــال غــاد ورائــح
ويبقى من المال الأحـاديث والـذكـر[1]

أمــاوي إني لا أقــول لــســائــل
إذا جــاء يومـاً حلّ في مـالي النـذر

أمــاوي إن المــال مــال بــذلــتــه
فــأوّلــه شــكــر وآخــره ذكــر

وقــد يعلم الأقــوام لــو أن حــاتمــاً
أراد شــراء المــال كــان لــه وفــر

(حاتم بن عبد الله الطائي)

والآخر يقول:

وإنّــا لنقـري الضيف قبــل نـزولــه
ونشبعـه بـالبشـر من وجـه ضـاحـك[2]

(عاصم بن وائل)

---

(١) مشاهير كرماء العرب ١٦٢.
(٢) كرماء العرب.

كما نجد هرم بن سنان تلك القمة السامقة بالكرم وهو ممدوح الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى وقد آلى على نفسه ألاّ يقول فيه شعراً يكلّمه زهير إلا وأناله من عطاياه السخيّة حتى ولو كان ذلك الكلام تحيّة الصباح، مما حدا بالشاعر إلى أن يستثنيه من تحية الصباح بأسلوب رائع جميل، وذلك حياء منه واتّقاء عطاياه، حيث يقول: «عمتم صباحاً عدا هرم وخيركم استثنيت» وهو الذي مدحه بمدائح كثيرة منها قوله:

قـد جعـل المبتغـون الخـير في هــرم
والســائلون إلى أبــوابــه طــرقــا

إن تلق يـومـاً عـلى عـلاّتـه هـرمـا
تلق السمـاحـة منـه والنـدى خلقـاً[1]

لــو نـال حي من الــدنيـا بمكـرمـة
وسط السـماء لنـالت كفّـه الأفـقـا

(زهير بن أبي سلمى)

وقال أيضاً:

فلو لم يكن في كفّــه غــير نـفســه
لجــادبهــا، فـليـتّـق الله سـائـلـه

(زهير بن أبي سلمى)

ودوحة هذا صنوها حرى بها أن تحمل فروعها نفس الصفة ولا غرو في ذلك، فقد قيل: «هذا العود من تلك الشجرة» وقد صار الكرم سجية مميّزة للعرب والحديث عن الكرم والكرماء يطول ويطول مما يملأ مجلّدات، غير أن ما يخصّ موضوعنا هو التعرّض لهذه الخلة في نطاق بحثنا بصورة موجزة تعطي انطباعاً صادقاً عن ظلّها وانعكاسها على هذه البيئة، ولو ألقينا نظرة فاحصة

---

(١) ديوان زهير ص٤٣، ٧٢.

لوجدنا تقاسيمها الواضحة على محيّا الغالبية العظمى من أفراد ذلك المجتمع، نجدها في الترحيب بالضيف البعيد والقريب، نجدها في البشاشة التي تعلو محيّا المضيف، نجدها في كلمات الترحيب الحلوة المؤثّرة الجيّاشة بالمعاني السامية التي تنطلق من لسان المضيف عندما تصل الركاب إلى مناخته، وعليها الضيوف قد لفح وجوههم البرد ليتلقّاهم هذا المضياف، ليبادئهم بالترحيب والبشاشة بما أشار إليه الشاعر:

١١٠ ـ أطمـر لهم وأبـدي سـلام المحبـة
ليـاجـو عـلى هجن يـديهم خـرابى[1]

١١١ ـ بنسـريـة يـاكليب صلف مهبّـة
مـتكـنفـين وسـوقـهم بـالـعـقـاب

(دغيّم الظلماوي)

نجدها في البذل السخي وتقديم القهوة للضيوف مع الدفء الذي يزيح عنهم لسعات البرد القاسية، ثم تقديم الزاد على تلك الصواني الضخمة المتوّجة بالخراف الناضجة وهي خير ما يتمنّاه ابن هذه البيئة، حيث يقول:

١١٢ ـ طـرابـة الـدنيـا معـاميـل وأفـراش
وصينيـة يـركض بهـا العبـد مسعـود

(مشعان بن هزال)

نجدها في العطاء السخي للعاني المحتاج بعد إكرامه بالطريقة السابقة لمدة ثلاثة أيام بلياهن، وهذا العطاء الذي يبذله العربي دون مواربة أو حساب أو سابق معرفة بالضيف، كما تحدّث عنها الشاعر بقوله:

١١٣ ـ كم خـيرّ عـان لنـا يشكي الجـوع
حـاديـة من لـوعـات الأيـام حـادي[2]

---

(١) الأزهار النادية ص ٩٦؛ شوارد ص ٦٩.
(٢) نبذة تاريخية عن نجد ص ٩٩.

١١٤ ـ لو ما نعرفه راح منا بمطموع
من راس مال نجمعه للنفادي
(عبد الله الرشيد)

نجدها في المضيف المفتوح على مدار السنين للغادي والرائح البعيد والقريب، الطوارق بالليل وقد أتعبهم السرى وحداهم البرد يلجأون إليه ليجدوه دائمًا مفتوحاً، حيث المأوى والدفء والطعام مدة إقامتهم، فبابه:

١١٥ ـ أمبرهج تسفي عليه السوافي
من خلقته ما طق في ركزة السيف[١]
(زيد الخوير)

نجدها في الإيثار على النفس وتقديم الطعام للضيوف مع الحاجة إليه في بعض الأحيان وخاصة في سنين الجدب:

١١٦ ـ إن جن مع الخل الشمالي دعاثير
عجلين باليمنى نخضب ركابه[٢]

١١٧ ـ إن وافقت حطّيت كبش على مير
وإن عاضبت يكفيه قولة هلابه

١١٨ ـ وسويت فنجال بعوج الدناقير
خطر على العذرا تمنى خضابه

١١٩ ـ إن شفه الطرقي بلج بلجة الطير
يزين وجهه عقب وسم الخلابه
(عيادة بن عبيكة/ أم القلبان)

---

(١) الأزهار النادية ص ٩٢.
(٢) الشوارد حـ ٣، ص ٢٥.

وآخر يقول:

١٢٠ ـ وعيبك ليامن قالوا الناس بك عيب
للسمن فوق مفطح الحيل صباب

١٢١ ـ وذبح الغنم والكوم حرش العراقيب
وأعطا المهار وبذل مال بلا حساب

١٢٢ ـ وغرا تجره للعدا والأجانيب
تفجا بها غرات ضدك بالأسباب

(خضير الصعليك)

نجدها في هذه الصورة المجسّمة الطافحة بالمعاني الكريمة:

١٢٣ ـ ولا يد تجود إلا عزيزة
ومن جاد ساد وكفّ يمناه غالبة[١]

(راشد الخلاوي)

هذه الانعكاسات التي شاهدناها هي قليل من كثير من ملامح الكرم المتأصّل بهذه البيئة للجار القريب وللضيف العاني من مكان بعيد أو قريب، وبالطبع تختلف درجات الضيوف حسب مقام كل منهم وذلك غير ما هو عادي، فالضيف العادي هو مَن يقدّم له الزاد وعليه ذبيحة واحدة وربما ما تيسّر في بعض السنين، أماالضيف غير العادي فهو ما يذبح له اثنتان أو ثلاث إلى عشر ذبائح له ولمرافقيه، وربما كان شيخاً فتُنحر له الإبل إلى جانب الخراف، مما قد لا يصدّق بهذا الوضع من لا يعرفه، حيث يقدّم الصواني الضخمة التي توضع الجزر عليها بكاملها باركة كما لو كانت على الأرض، غير أنها مطبوخة ناضجة تحيط بها الخراف الناضجة كأنها البيض المسلوق، وهذا النوع من الصواني مركّب على عجلات تدفع دفعاً لعدم المقدرة على حملها، وتوجد مثل هذه الصواني عند مشاهير الكرماء والشيوخ، أما الصواني التي يقدّم بها للضيوف فهي

---

(١) راشد الخلاوي ٢٥٩.

ما تحمل ذبيحة أو اثنتين أو ثلاثاً مع ما تحتها من الطعام الموجود، وبالإضافة إلى الطعام والشراب من الألبان بأنواعها، يقدّم للضيف الفراش والغطاء في ليالي الشتاء الباردة، ووقود النار التي يصطلي عليها الضيوف، كما تُقدّم القهوة العربية وهي أول ما يذوقه الضيف عند مضيفه، وتلقى القهوة مكانة خاصة عند العرب سنتعرّض لها في مكان آخر إن شاء الله، كما يُقدّم التمر وغيره من الأطعمة التي تتوفّر لدى المضيف أو ما تنالها حباله، كما أشار إليه الشاعر:

الضيف قدّم له هلاحين يلفيك
وبما تطوله يا فتى الجود يمناك[1]
(الشريف بركات)

لا يُسأل الضيف عن أخباره أو عن مدة إقامته لديهم حتى يدلي هذا الضيف بهذه المعلومات، ويُعتبر سؤال الضيف عن هذه الأمور نوعاً من التدخّل في شؤونه غير مستحبّ حيث يقول الشاعر:

١٢٤ ــ تر ضيفنا ما نتبعه بالتناشيد
ولا ننشده يا كود ينشد حدينا[2]

١٢٥ ــ شيمة عرب ما نردّد الحكى ترديد
حنّا نعرف الهرج لو ما حكينا
(فرج بن خربوش)

◻ الشجاعة:

الشجاعة هي التصميم والإصرار مع الإقدام بعقل في موقف حاسم مع العد ولا خيار فيه لأحد، وهي إحدى الصفات التي يتّصف بها العربي منذ أقدم

---

(١) الأزهار النادية ص ٨٢.

(٢) الشوارد ١٩١.

العصور، وهي الكامنة في جنانه تدفعه إلى خوض المعارك وتجشم الأحوال وزدراد المحن تحت أي ظرف من الظروف، ومنذ فجر التاريخ وهو يتّصف بهذه السجية لا يحيد عنها قيد أنملة، ولو أردنا التوسّع في هذا الموضوع لما استوعبه سفر كامل لاحتواء ما كتب عن هذه الصفقة في الزمن الماضي، لكن نكتفي بالقليل المفيد الذي يعكس لنا معالم تلك الخلّة في هذه البقعة منذ أقدم العصور، شاهدنا في ذلك قول أحد أبنائها:

إذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول[1]

وأيامنا مشهورة في عدونا
لها غرر معلومة وحجول

(السموءل بن عاديا)

كما تغنىّ الآخر في إحدى المعارك بقوله:

وفي يوم المصانع قد تركنا
لنا بفعالنا خبراً مشاعاً[2]

أقمنا بالذوابل سوق حرب
وصيّرنا النفوس لها متاعاً

حصاني كان دلّال المنايا
فخاض غمارها وشرى وباعاً

(عنترة بن شدّاد)

---

(١) جواهر الأدب ص ٢٧٣، ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) المجموعة العملية ص ٣٦.

أما الثالث فيدوي صوته بهذه النغمة الفاصلة إذ يقول:

فـنـحـن أنـاس لا تـوسط بـيـنـنـا
لنـا الصـدر دون العـالمين أو القبـر[1]

تهـون علينـا في المعـالي نفـوسنـا
ومَن يخـطب العليـاء لم يغله المهـر
(أبو فراس الحمداني)

من هذه الشعلة المتّقدة ينفذ الضوء والحرارة في شعاع خلّاب ليستقرّ بسويداء قلوب أبناء هذه البيئة المعنية بالبحث، فنجد صورها هنا وهناك تتسابق نحو المعالي لا تبالي بما يترتّب على ذلك من العواقب، تجد الفرد يعتّز بشجاعته لا يثنيه عن عزمه عاذل، ولا يمنعه عن تحقيق هدفه متطاول وكأن لسان حاله يقول:

١٢٦ ـ أكفـخ بجنحـان السعـد لا تـدرا
فـالعمـر مـا يـاقـاه كـثر المـداري[2]

١٢٧ ـ يـوم إن كـل مـن عميله تبـرا
حـطيب الأجـرب لي عميـل مبـاري

١٢٨ ـ رميت عـني بـرقـع الـذل بـرا
ولا خـير فيمن لا يـدوس المحـاري
(تركي بن عبد الله آل مسعود)

ويصف تحمّله للحرب وأوالها بقلب كالصخر، حيث يقول:

---

(١) جواهر الأدب، ص ٢٧٣.
(٢) المجموعة البلهية، ص ١٣٦.

١٢٩ ـ فإن كان هو ركب الرشا للمحالة
واستثقلت ما أنا من الحرب ملال[١]

١٣٠ ـ أصبر كما تصبر رواسي جباله
ما تنهزع من وطى حافر ونعال

(عبد الله العلي الرشيد)

كما وصف اندفاعه على خصمه بإصرار وتصميم إذ يقول:

١٣١ ـ كفّه بعدوانه شنيع المضاريب
ويسقي عدوّه بالوغى سمّ ساعة[٢]

١٣٢ ـ ويضحك ليا صكت عليه المغاليب
ويلكد على جمع العدو باندفاعة

(شالح بن هدلان)

كما يصف الكر والفر في المعارك إذ يقول:

١٣٣ ـ نركب على اللي كنهن الشنينا
خيل الصحابة ما اعترضهن حصانا[٣]

١٣٤ ـ والموت عند أقطيهن وإن حدينا
وبيسرع ردّ أو جيههن مع قفانا

(سعدون العواجي)

كما أشار الثالث إلى نفس المعنى بقوله:

---

(١) نبذة تاريخية عن نجد ص ١٠١.
(٢) أبطال من الصحراء ص ١٩٣.
(٣) أبطال من الصحراء ص ٦٣.

١٣٥ ــ وإن شفتهن يـقـفـن تـراهـن مقابيل
لهـن عـنـد المـلزمـات نـقـلابـه[٤]
(عبيد العلي الرشيد)

كما يصف الصمود في المعركة حامية الوطيس بقوله:

١٣٦ ــ من صلاة الضحى يا قابل التوبة
لـين غـابت وحنـا هـوش وإقتـال[١]

١٣٧ ــ يوم لحق الأمـير ولحقت الشـوبـة
لا قـرايـا ولا مـزبـن ولا جـالي

١٣٨ ــ يـا عمـار بسـوق المـوت مجلوبـة
مـا حسبنا عـلى الدنيـا لنا تـالي

١٣٩ ــ الكـرم سـاعـة لا حـل مـا جـوبـه
والمعـاسـر لهـا حـزات وارجـالي
(غنيم العارضي)

هذه الانعكاسات من الشجاعة الفعلية يصاحبها رونق من الشجاعة الأدبية أيضاً، ويتّصف بهذه الصفات معاً السواد الأعظم من أبناء هذه البيئة، كلّ حسب إدراكه لمعانيها العميقة وتحمّله لخوض غمارها الخطرة وما يواكب طموحاته، وقد أودت بحياة صفوة ممتازة من أولئك الأبطال الذين عشقوها وتركوا لنا الأذكار العطرة التي يفوح شذاها منذ تلك الحقب البعيدة وإلى ما شاء الله، وسوف يتمكّن أحفادهم من تحرير ثالث الحرمين الشريفين من براثن الصهيونية اللئيمة بحول الله وقوّته.

---

(٤) الأزهار النادية ص ٦٣.

(١) آدابنا الشعبية ص ١٥٥.

□ المـــروءة:

والمروءة هي إسداء المعروف وهي والكرم صنوان نبتا من أرومة واحدة، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وتوجد صعوبة في التمييز بينهما للتداخل الحاصل بين السجيتين، إلا أن المروءة بذل المعروف بدون طلب، والكرم هو تقديم الطعام بدون طلب أيضاً. وقد أشار الأحنف بن قيس إلى ذلك بقوله: «ما ادّخر الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الإحسان» كما لم يغفل الشاعر الحطيئة هذه الخصلة الحميدة من الإشادة بها إذ يقول: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه، لا يذهب العرف بين الله والناس، وقد امتدح سيد كرماء العرب هذه السجية بقوله:

ومـا تـشـتـكـيـني جـارتي غـير أنها
إذا غـاب عنهـا بعلهـا لا أزورهـا[1]

سيبلغهـا خيـري ويـرجـع بعلهـا
إليهـا ولم يقصـر عليهـا ستـورهـا

هؤلاء الآباء والأجداد تركوا خلفهم أحفـاداً ساروا عـلى نهجهم في الصفات الحميدة وحرصوا على التمسّك بهذه الخلال الممتازة، يرثها الخلف عن السلف، يوصي بها الشيخ أحفاده حتى وقتنا الحاضر لا يزعزعها مزعزع كما أشار إلى ذلك ابن هذه البيئة:

١٤٠ ـ ومـن جبـلات مـن الله حـظّهـا
تـزول الـرواسي والجبـلات نـاصبـة[2]
(راشد الخلاوي)

ولو أردنا الدخول في تفاصيل الموضوع لأصبح من الصعب حصره إلا

---

(١) كرماء العرب ص ١٦٢.

(٢) راشد الخلاوي.

بمجلّدات كبيرة، لكننا نقتصر على الموجز المفيد الذي يعطي فكرة مبسّطة عن هذه الخصلة المتأصّلة في الإنسان العربي على مدى قرون طويلة والذي نتكلّم عن جزء من موطنه الآن في فترة سابقة، دعنا نطلّ على هذه البيئة الوادعة لنرى صدى المروءة يرتسم على تلك الوجوه الطافحة بالبشر وحب بذل المعروف قولاً وعملاً لغير طالبيه، فضلاً عن مريديه، يتسابقون إلى ذلك نحو القريب والبعيد، ويتفاخرون باقتناص الفرص التي يتمكّنون من خلالها بذل المروءة لمن يستحقّها، كلّ بقدر استطاعته وما تسنح له من ظروف، وقد تسرّب حب إسداء المعروف في أعماقهم وجرى في دمائهم فهو إذاً جزء من كيانهم، وترى الناس وقد أثّرت فيهم هذه الصفة أثراً عميقاً، نحو جيرانهم الأقربين، وفقرائهم المحاذين وعلى أطفالهم ونسائهم الملتصقين بهم، ونحو أنفسهم بالذات، يرى الرجل عوراء جاره أو قريبه وربما البعيد عنه فتمنعه مروءته أن يجازيه بمثلها أو أشدّ منها مع مقدرته على ذلك إذ أنه يتمثّل بقول الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره
وأعرض عن ذات اللئيم تكرّما
(حاتم بن عبد الله الطائي)

يكبت أحاسيسه، ويحطّم كبرياء نفسه، تحت ضغط المروءة والمعروف، يجازي المسيء إحساناً تمشّياً مع خط المروءة العريض الذي يسير فيه، ولسان حاله يقول:

١٤١ ـ الإحسان يا بن عبيد يجزي بالإحسان
والشر تنطحه الوجيه الشريرة
(راكان بن حثلين)

هذه الصورة الموجزة البسيطة تعطينا انطباعاً واضحاً عن تعمّق هذه السجية في نفوس أبناء هذا المجتمع المترابط بمجموعة من الخلال الحميدة التي نحن بصددها.

◻ الشهامة:

وجد الإنسان العربي على تراب هذه الجزيرة منذ آلاف السنين شهمًا كريماً مرفوع الرأس شامخ الأنف عزيز النفس، يأبى الضيم من أي كان، لم يقف مهيض الجناح ازاء أي منازع وان سيم خسفا فإنه لا يبالي بالعواقب، فإما أن يحيا حياة عزيزة أو أن يموت ميتة كريمة لا يوجد لديه حل وسط هذا الخلق لازمه منذ تلك الحقب الغابرة وحتى الوقت الحاضر وإذا تجاوزنا تلك العصر الخوالي وسلطنا الضوء على مدار بحثنا في هذه البقعة المحدودة من بلادنا وجدنا هذه الخلة كما هي عليه، يتغلغل جوهرها في الأفراد العاديين ويبلغ عنفوانها في علية القوم، كل إنسان حسب استيعابه ودرجة اعتزازه بنفسه وقوة تنفيذه وهي مجال للفخر والمباهات، وكل ينظر إلى تلك القمم السامقة في هذا المجال ويصبو أن يحاذيها أو يقرب منها وكأن لسان حاله يقول:

وأيـام لـنـا غـر طـوال
عـصينـا الملك فيـهـا أن نـلينـا

(عمرو بن كلثوم)

تتضح هذه الشهامة في احترام الجار، والضعيف، والمستجير والضيف، فضلاً عن القريب والرفيق بكل ما تعنيه هذه الكلمة والذود عنه بكل الوسائل، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه تنعكس معالمها على وجه الفرد عندما يسمع كلمة تمس كرامته أو كرامة من يعنيه أمره كرفيق السفر الذي يقول فيه الشاعر:

١٤٢ ـ أحشم خـويك عن دروب الـرزالة
ترى الخوى عنـد الأجاويـد له حـال[1]

١٤٣ ـ والمـرجلة بـالـك تـرخى حبـالـه
حـذرا تعيـل ولا تـراخى لمن عـال

---

(١) الشوادر، ص ١٥١.

١٤٤ ـ رفيقـك الـداني ليـاشفت حـالـه
أحمـل عليك من المعـاليق مـا شـال

(أبو زويد الشمري)

تنعكس الشهامة في عينيه التي تقدح شرراً عندما يسمع تلك الكلمة الجارحة أو التصرف المشين نحوه أو نحو من يهمه أمره كقريبه أو صديقه أو رفيقه كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

١٤٥ ـ رفيقنـا مـا نجـدعـه للقصـاصيب
في رأس حيـد نـايف مـا يضـامي [١]

١٤٦ ـ رفيقنـا لو هـو من الجـد بـاصليب
مـتـعـلق مـنـا بـراس الـسـنـامـي

(عبيد الرشيد)

ترتسم الشهامة في تلك الرعشة العضلية والتحفز والانقضاض عندما يسمع تلك الكلمة العجفاء أو التصرف الأهوج شاهدنا أبيات الشاعر الذي يمثل الرجل بالصقر المنقص على فريسته حيث يقول:

١٤٧ ـ حر شلع من راس عال الطويلات
للصيـدة الـلي حط خمسـة وراهـا

١٤٨ ـ غـز المخـالب بـالتنادي السمينـات
وتـل القلوب وبـالضمـائر فـراهـا

(خلف الأذن)

---

(١) الشوادر، ص٣ ـ ٦٠.

(٢) أبطال من الصحراء ٢٦٢.

تتمثل الشهامة في غليان الدم بالعروق الذي يكاد يفجرها عندما تطرق أذنيه كلمة نابية أو التصرف الساذج فيكاد يخرج عن طوره ويثور كما صورها الشاعر:

١٤٩ ــ يا لاعن حطاب تلعن أبوك أنت
تلعن أبــوك وبــاقي العمــر فــاني

(خليف بن حطاب)

هذه الصفة التي حياها الإنسان العربي بقيت وحدة متماسكة فيه وستبقى فيه ليتم بمقتضاها طرد هذه الشرذمة الباغية التي عبثت بأرضنا المقدسة فساداً وتعود المقدسات إلى أصحابها.

◻ النخوة:

النخوة هي من السمات التي يتصف بها الانسان العربي من قديم الأزمنة ولا تكاد تفارقه، وأشد ما يستجيب لهذه النخوة ويلقي بثقله عندما يسمع نداء المستجير به، المتسغيث بطلب النجدة، فعند ذلك لا يفكر، أَمِنْ جنهم يعبر؟ أم إلى العدم يصير؟ تنزعه نشوة النخوة، فيفزع متجشمًا الأخطار والأهوال في سبيل انقاذ من يستجير به، ولو نقبنا في كتب التاريخ لوجدنا ما تزخر به المجلدات من أمثال «وامعتصماه» المشهورة لكن بعضها بقي رهن الكتمان، والبعض الآخر قد انطمر في ثنايا الأحداث، غير أنها تبقى في جوانح الصدور، تتوج بعض الأحداث العظام لمن طارت بهم النخوة لتخليص مضطهد مغلوب، أورد اعتبار مسلوب، كما حدث في «وامعتصماه» ولا يكاد المرء الطافح بنشوة النخوة أن يميز بين مصير وآخر، هدفه تحقيق ما تصبو إليه نفسه بأي ثمن.

وهذه السمة تضيىء جوانح كل فرد في ذلك المجتمع فلا يكاد يرتفع صوت الاستغاثة بكلمة «تكفي يا فلان» «اليوم ولا غيره» وما شابهها، أو إشارة تعني النخوة حتى تشرئب الأعناق وتطفح الأفئدة ويتسابق الرجال وألسنتهم

تلمهج بالكلمات المعبرة عن الاستجابة مثل «حاضر والشر غـايب» «أبشر بسعدك» «حييك. . حييك» «حاضر على الخير والشر» «ثبت يا صياح» وغيرها من الكلمات التي تدل على الاستجابة للنداء، كل بقدر استطاعته وحسب اضطلاعه بالمسؤولية، بمقدار الضيم أو الحيف الحاصل على المستغيث ولا يخلو من هذه الصفة إلا ما ندر، وتشمل النخوة كل مستغيث تحت أي ظرف حتى يتم التثبت من الحادث، بمقدار تأثير هذا الحادث على من حوله ليتم اتخاذ المواقف الحاسمة. وعلى كل فلا أحد يستجير إلا من ظيم لحق به أو حيف أصابه كما عبر أحد أبناء هذه البيئة بقوله:

١٥٠ ـ سلم عليـه وقـل يقـول العبـادي
ما صاح صيَّاح وينخاك من خير

(عبد الله القضاعي)

كما نجد الصورة الثانية أكبر من الأولى حجمًا حيث يقول صاحبها:

١٥١ ـ ليا صاح صيـاح ورا طارق النـوق
نـركب على حيـل جـذبها الصيـاحي[1]

١٥٢ ـ اليـا لحقنـا لأول الخيـل مفهـوق
يـاطن شخـانيب الـوعـر والسمـاحي

(راكان بن حثلين)

والصورة الثالثة أشمل من سابقتها حيث يقول الشاعر:

١٥٣ ـ أولاد عـلى اليـوم ذا وقت نفعكم
لا رحم أبـو نفس تتـاجـر بمـالهـا[2]

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٦٠.

(٢) شعر النبط، ص ٢٣٧.

١٥٤ ـ ذي قـالـة مـا ينـطحـه كـود نــادر
أولاد عـلى اليـوم من قـال أنـالهـا؟

(محمد العوني)

وهكذا نرى انعكاس هذه الصفة تلف أفراد هذا المجتمع لتجعل من الفرد شعلة متحفزة نحو تلبية أي نداء يستطيع أن يساهم في رفع الظلم فيه واسترداد الحق من مغتصبيه.

□ الوفاء:

الوفاء هي إحدى فرائد العقد الثمين، الذي يزين عاتق الإنسان العربي منذ القدم، وقد امتدح الله أصحاب هذه الخصلة بالآية الكرية: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، صدق الله العظيم[١]، والشواهد على ذلك كثيرة تفوق الحصر ولا يكاد يخلو سفر منها وعلى سبيل المثال قصة العربي الذي جاء إلى كسرى أنو شروان في يوم نحسه خير دليل على الوفاء بالوعد أو العهد والحفاظ على الكلمة مهما كانت النتائج، وأغصان الدوجة تتسم بنفس الصفات التي يحملها صنوها، ولا غرابة في ذلك فإن الوفاء أصبح ميزة تطبع برونقها أفراد ذلك المجتمع وأعني بذلك السواد الأعظم منه، مما يعني أن هنـاك شواذاً لا ينطبق عليهم الحكم إنما أغلب الناس إذا قال كلمة وفى بها، إذا عاهد عهداً فإن نكثه من رابع المستحيلات، يحافظ على تلك الكلمات الشفهية البسيطة، وكأنها الجبال الرواسي قد حملت على كاهله، إذا ائتمنه إنسان على شيء لا يمكن أن يغدر به إلا ما ندر، إذا اتفق مع أحد على نقطة معينة، فإن البوق بعيد عنها، ويعتبر المحافظة على العهد من الخلال التي يفتخر بها الفرد على أقرانه وينال بها منزلة رفيعة بين قومه، إذا قال لك كلمة اعتبرها أكثر من ميثاق كما هو في لغة الزمن الحاضر بل ربما ميثاق هذا العصر، ينسحب منه أحد الطرفين

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.

بأسهل طريقة، إنما كلمة ذلك الإنسان البسيط لا يمكن أن ينسحب منها مهما كلفه من ثمن، وكم بسبب كلمة أو موقف حصل للفرد ما جره إلى الأهوال والمتاعب لتمسكه بالوفاء بما تلفظ به أو اتخذه من مواقف وهذه الميزة ظلت فيه حسب اعتبارات غير مدونة وإنما معروفة لدى الجميع يتناقلها الخلف عن السلف ويعرف قواعدها وأبعادها الكبير والصغير، ومن هذا فإن انعكاس آثار هذه الخصلة قد قللت من مشاكل المجتمع وجعلت الفرد فيه يسير في طريق يعرف فيها موطىء قدمه قبل أن يضعها فإذا وصفها كانت على أرض صلبه أمينة لا يخاف منها، وما دام هذا الوفاء على مستوى الند للند أو الأضداد، فإن الوفاء للأقربين أكثر تماسكاً وأقوى أواصر، وتحت ظلال الوفاء يدخل الوفاء للوالدين وبرهما واعطاؤهما حقهما كاملاً، والوفاء لذوي القربى، والجار، والرفيق، مما أضفى على تلك البيئة جلباباً مهيباً قوام ثالوثه الصدق، والوفاء، والرحمة، فعاش الناس تحت ذلك الكنف المرفرف بالمحبة والوئام.

□ حق الجار:

أوصى القرآن الكريم بالجار خيراً فقال تعالي: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾ صدق الله العظيم[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه[2]»، وإذا تعمقنا بعيداً فإننا نجد هذه الخصلة لدى العربي قبل بزوغ فجر الاسلام بقرون، وهي من العادات الحميدة التي شدد الاسلام على اتباعها والتمسك بها، وقد زخرت كتب التاريخ والسير بالأذكار العطرة عن قصص الحفاظ العربي على حقوق الجار على مدى تلك الحقب الزمنية وتمتد هذه الخصلة باسطة ظلالها وهيبتها عبر تلك القرون حتى تصل إلى الفترة الزمنية التي نحن بصددها، يتسابق أفراد المجتمع على التمسك بأهدابها ويتنافسون في أيها حاز قصب السبق

---

(١) سورة النساء: آية ٣٦.

(٢) منهاج الصالحين، ص ٣٩٨.

في إكرام جاره أو رفع الضيم عنه أو الذود عن حياضه أو الدفاع عن محارمه، أو تحمل زلاته والتجاوز عن أخطائه، فترى هذا العربي الحكيم الصبور، المقدر لحرمة الجار يصبر عما يعتلج في نفسه عندما نالته جنفاء جاره دون أن يعلم ذلك الجار ما يحصل منه:

١٥٥ ـ ثمـان سنين وجـارنـا مجـرم بنـا
وهـو مثل واطي جمـرة مـا درى بهـا[١]

١٥٦ ـ نـر فى خمال الجـار لـو داس زلـه
نـرفـاه كـما تـرفى العـذارى ثيابهـا

(محمد المهادي)

كما يتغني الثاني ويفتخر بما يبذله للجار من اكرام ومعروف حيث يقول:

١٥٧ ـ ألا ومـع ذلك لـك الله لنـا كـار
عن جـارنـا مـاقط نخفي الـطريفـة[٢]

١٥٨ ـ نـر فى خمالـه رفوة العش بـالغـار
ونـودع لـه النفس القـويـة ضعيفـة

١٥٩ ـ ولا نبدي الخافي ليا صار مـا صار
يفلج قصـير البيت لـو بـان حيفـه

(مقحم الصفري)

أما الثالث فيترنم بهذه الأبيات التي تدل على أن حق الجار كلما طالت إقامته كلما زاد قدره عند جيرانه:

---

(١) المجموعة العربية، ص ١٥٤.
(٢) آدابنا الشعبية ١٧٧.

١٦٠ ـ تــر جارنا ما رفقته عنــدنــا يــوم
يــزيــد مــع زايــد اسنينــه وقــاره[٣]

١٦١ ـ البيا قزت عينة قـزينـا عن النـوم
والشيــخ مــا يكتب عليــه الخســاره

١٦٢ ـ دونـه نـروي كـل حـد ومسمـوم
ونـرخص عمـار دون كسـر اعتبـاره

(رميح الخمشي)

مما سبق يتضح لنا أن الجار له من القيمة والقدر ما للأخ والقريب وله من الحقوق والواجبات ما يلي حقوق الوالدين والأقارب مباشرة في هذا المجتمع المتماسك المتعاطف الذي تربطه المحبة بأمتن أواصرها وذلك في السواد الأعظم منه وقد يوجد شواذ تخالف القاعدة وتنفص على الأكثرية لكن ذلك نسبته ضئيلة.

□ البساطة:

البساطة إحدى مقومات هذا المجتمع وهي إلى جانب كونها صفة عامة في المجتمعات القديمة، إلا أنها في المجتمع العربي تزداد نقاوتها بريقاً، ووداعتها شمولاً، فترى الفرد ينظر إلى كل الأمور بغاية البساطة إلا ما يرمي إلى المحذورات الدينية والأخلاقية أو ما يمت إلى الاخلال بمجرى العادات والتقاليد والأعراف بصلة فإن تلك البساطة تنقلب إلى عنف وشراسة، أما ما عداها فالفرد بسيط في مظهره، في ملبسه، في مأكله، في مشربه، في بيته، في مجلسه، في معاملته مع الآخرين، تتجاذبه عدة عوامل دينية، وأخلاقية واجتماعية، مما يجعله يسير في أبسط صورة، تجد تعامله مع الآخرين حسب الثقة المتبادلة، إن

---

(٣) الشوادر، ص ٣ ـ ٨٧.

أعطى شيئاً لا يحتاج إلى صكوك أو وثائق، إن طُلِبَ جاء في الوقت المحدد بدون استدعائه من قبل السلطات المحلية، لا يقول إلا الصدق في معاملته مع الناس، لا يعمل إلا حسب المتفق عليه مع الآخرين، يجلس على الأرض وكأنه على نمارق من الحرير، يتكيء على كومة من الرمل وكأنه على وسادة من الريش، يحترم كبير السن، فضلاً عن والديه أو أحد أقاربه، ينهض من المجلس ليجلس فيه من هو أكبر منه سناً أو أحد ذويه، يستمع إلى محدثه باصغاء لا مقاطعة فيه حتى ينتهي من حديثه ثم يبدي رأيه في الموضوع ذاته، يتأخر قليلاً ويقدم كبير السن في المناسبات وغيرها وإذا كانوا في مجلس يتحدث واحد والباقون يستمعون لحديثه حتى ينتهي ثم تبدأ المناقشة واحداً بعد الآخر، يحترم رأي الكبير، ويؤخذ برأى الصغير إن كان صائباً، يجلس الكبير والصغير الرجل العادي ومن هو من علية القوم على بساط واحد يتجاذبون أطراف الحديث في شتى المواضيع، المناسبات بشكل بسيط لا يوجد بها من الترتيبات إلا ما هو ضروري، الأفراح تقتصر على الضروريات وبأبسط التكاليف، مع المحافظة على الطابع المميز لكل مناسبة، الملابس على أبسط هيئة لا تكلف ولا تعقيد، قد يجلس النساء مع الرجال يتجاذبون أطراف الحديث في ظلال الأشجار أو بمكان مشمس بالشتاء، الاحترام مبتادل بحكم الشيم وحسن الجوار، يجتمعون في مناسبات كالحصاد وجمع المحاصيل الزراعية، في جمع العشب، في صيد الجراد وجني الكمأة، وغير ذلك من المناسبات التي تستدعي العمل الجماعي تلفهم المحبة والاحترام المبتادل، لا يضير الرجل طرح السلام على من حوله رجالاً ونساء، والسؤال عن حاجته من الاستعلام عن شخص أو وجهة معينة وغير ذلك، لا يَصِمُ المرأة أن تسلم أو ترد التحية على النساء والرجال على حد سواء، وكذا السؤال عن حاجتها بكل بساطة ونقاوة ضمير، يعيش الفرد على أيسر الأطعمة إذا توفر لديه كمية من الحبوب تكفيه على مدار السنة، ومثلها من التمور يمونه إلى الحول فإنه حينئذ لا يغبط ملكاً في ملكه، لا يحتاج إلى أرصدة في البنوك، أو شركة التأمين على الحياة، يعيش متكلاً على الله في رزقه، يتعاون مع الآخرين بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

□ □ □

الفصل الحادي عشر:

الناحية الثقافية

□ الكتاتيب:

لم يكن التعليم قد انتشر آنذاك كما هو عليه في الوقت الحاضر في كل مدينة وقرية و«هجرة» وفي أصغر تجمع سكاني، بل كان التعليم يقتصر على مدارس الكتاتيب، وهي عبارة عن مدرسة غير منتظمة، قوامها الشيخ «المطوع، الخطيب» حسب التسميات المتعارف عليها فهو المدرس الوحيد وهو مدير المدرسة وهو بعبارة أخرى، الكل في الكل، ومكان المدرسة إما أن يكون بجزء من المسجد خاصة في الصيف أو تكون في بيت الشيخ ووقت الدارسة حوالي ثلاث ساعات يومياً على فترتين ساعتان صباحاً من حوالي الساعة التاسعة وحتى الحادية عشرة صباحاً والفترة الثانية ساعة واحدة بعد صلاة العصر مباشرة وحتى الساعاة الخامسة تقريباً بالتوقيت الزوالي، وهي مستمرة صيفاً وشتاء، وليس على «الخطيب رقيب غير الله، فإن كان لديه عمل ما سمح للطلاب بالانصراف، أما المنهج الذي يدرسه الطلبة فهو تعليم حروف الهجاء على القاعدة البغدادية التي تعتني بمعرفة حركات الحروف، من الفتحة، والكسرة، والضمة، والسكون، والتنوين والتشديد، مع الحركات المذكورة، ثم بعد ذلك يدرسون الأبجدية بحروف مجمعة كما يلي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ، وبعد ذلك يتم الانتقال إلى قراءة القرآن الكريم، وتعلم الكتابة، وذلك بنسخ الحروف المشار إليها من نسخ في القرآن الكريم ومتى تدرب على ذلك انتقل إلى نسخ السور القصيرة من القرآن ثم صفحات منه، ويتم النسخ

على ألواح من الخشب، ويفضل خشب الاثل يكون اللوح بطول حوالي ٤٠ سم وعرض ٢٠ سم وسماكة ٢ سم وله من أعلاه مقبض يمسك به ويتم تبييض اللوح بعد طمس ما عليه من الكتابة بمادة بيضاء من فصيلة الجبس أو الحجر الرملي الأبيض تسمى «بيضا لوح».

ويقوم الطالب بكتابة الجزء الذي عُين له وبعد عرضه على «الخطيب» يعطي توجيهاته وإرشاداته للطالب ثم يقوم الطالب بطمسه من جديد وإعادة الكتابة عليه، وهكذا حتى يتعلم الكتابة، أما الأقلام التي يكتب بها فلا تعدو كونها من أغصان الشجر الصلبة، وربما أحياناً بأعواد القصب، أما الحبر فيصنعه الطالب محلياً من عدد من الأشجار، كحب شجر «الرَّال» وقشور ثمرة الرمان وبعض الأصباغ أو سناج الصاج الأسود مضافاً عليه نسبة من الصمغ العربي ليتكون من ذلك جبرٌ صالحٌ للكتابة، وبهذه الطريقة يتم تمرين الطالب على القراءة والكتابة في نفس الوقت ويركز الطالب على تعلم القرآن الكريم وبعده يتعلم الأصول الثلاثة، ويبدأ بقراءة الكتب الفقهية والحديث وقواعد اللغة العربية، أما هذا الشيخ فليس له راتب معين من السلطة إلا ما يناله من الصدقة والزكاة، بالاضافة إلى ما يتقاضاه من هبات من آباء الطلاب، إما نقداً أو عيناً من المنتجات الزراعية حبوب أو تمور أو المنتجات الحيوانية، أو الحيوانية كالأغنام أو مشتقات الألبان، وربما جعل «الخطيب» على الطالب مقداراً من هذه المنتجات شهرياً قد لا يتعدى صاعاً من أي نوع، أو نقداً بحيث يكون ريال لفترة من الفترات على كل طالب ورغم ما يقرره على كل طالب إلا أن الآباء والأمهات يبرونه ببعض الهدايا بغية الحصول على عنايته الخاصة بأبنائهم، وينتظم لدى المعلم من ١٠ ــ ٥٠ طالباً وقد يصلوا ١٠٠ طالب، وفي الأماكن الباردة يحتاج الطلاب إلى الدراسة في غرفة من بيت المعلم توقد فيها النار للتدفئة، وفي فصل الشتاء لابد لأولياء أمور الطلاب من إحضار الكمية الكافية من الحطب ليضمنوا بقاء أبنائهم داخل الغرفة الدافئة. ويكفي عن الطالب حمل بعير من الحطب طيلة فصل الشتاء، أو أن يحضر الطالب معه كل يوم ما يستطيع حمله من الحطب حتى يكون من ضمن الطلبة الدارسين داخل الغرفة الدافئة

وإن لم يحضر الطالب الحطب أو يؤمنه ولي أمره للمعلم فسيدرس في مكان خارج الغرفة الدافئة، وللمعلم هدية مجزية في حساب ذلك الزمن تتكون من النقود والملابس، أو من كمية من الطعام من والد الطالب عندما ينتهي من ختم القرآن الكريم ويعد أهل الطالب الناجح لزملاء ابنهم وجيرانهم وليمة دسمة بهذه المناسبة ويقدم للمعلم هديته أثناء هذه الحفلة التي تسمى «الخْتَامَةُ» وهي مناسبة طيبة حيث يصطحب الطلبة، ويختارون النابه منهم والفصيح الجريء بالقراءة، وينطلقون من بيت المعلم في احدى فترات الدراسة واضعين الطالب الناجح أمامهم ومعلمهم يمشي بمحاذاتهم ويمشون خلفه ويقرأ فيهم زميلهم شيئاً من الأدعية والتراتيل وهم يرددون خلفه ما يقول، وأحياناً يرددون كلمة آمين إذا كان ما يردده من الأدعية والابتهالات مثل:

الحمد لله الذي هدانا
للدين والإسلام ثم اجتبانا

سبحان من خلق سبحانا
بفضله علمنا القرآنا

علمنا معلم يرعانا
أول ما علمنا هجانا

يضربنا بسوطه أحيانا
ثم الصلاة على محمد وآله الكراما

وفي طريقهم من بيت المعلم إلى بيت أهل الطالب عبر الشوارع والأحياء حيث يصطف الناس على الجانبين وعلى طول الطريق رجالاً ونساء كباراً وصغاراً، للمشاركة الرمزية بهذه المناسبة التي يتمنى كل والدين أن يصل ابنهم إليها، هذه المسيرة تسير حتى تصل إلى بيت أهل الطالب، ليجدوهم في استقبالهم بالبشر والترحاب، فإذا دنوا من مكان الحفل رفع الطلبة زميلهم الناجح على الأكتاف وهم يرددون الأدعية المشار إليها تصاحبها الزغاريد والتهليل، حتى يضعوه داخل البيت ثم يجلسوا مع معلمهم لتناول القهوة العربية

ثم ينتقلون لتناول الطعام الذي أعد لهم حسب ما يستطيع أهل الطالب تقديمه، وعادة يبذلون الغالي والرخيص بهذه المناسبة الغالية، وبعد ذلك يقدم للمعلم هدية مناسبة إما من النقود والملابس بحضور الجميع وإن كانت الهدية من الطعام فترسل له في البيت ويشعر المجتمعون في ذلك، ويعيش الناس في ذلك الحي أو القرية يوماً مشهوداً، وتساهم النساء في تشجيع أبنائهن في هذه الناحية، فبعضهن تعمل حفلة للمعلم وطلابه كلما انتهى ابنها من دراسة وقراءة جزء من القرآن، كجزء عمَّ، وجزء تبارك، إلى آخر أجزاء الكتاب وتقدم للمعلم هدية رمزية من مالها الخاص وكذلك يفعل بعض الآباء، وكنتيجة لهذا التشجيع ترى بعض الطلبة يبرز في دراستهم، ويبزو أقرانهم، في ناحية معينة، وكما أشرنا فإن للمعلم السلطة المطلقة في طلابه، ولكونه الوحيد الذي يعلمهم ويؤدبهم في نفس الوقت فإنه يجعل جلوسهم صفوفاً حوله على شكل حلقات نصف دائرية، ولكل صف من هذه الصفوف جريدة طويلة من جرائد النخل تناله، ومتى رأى طالباً غير منتبه لدراسته، أو يلعب مع أقرانه فإنه يتناوله بهذه الجريدة بوخزة خفيفة أو ربما ضربة تتراوح شدتها حسب درجة خطئه، وهكذا يتم للمعلم السيطرة على طلابه وهو جالس بينهم على بساط من قطن أو نسيج من صوف أو نسيج من خوص النخل «سفيف» وربما على الحصباء، وقد يكون المعلم يمارس مهنة ثانية يقوم بتأديتها أثناء التدريس من الحرف البسيطة كخصف الأحذية أو نسيج الجرابات الصوفية وما شابهها في الوقت الذي يستمع لتلاوة الطلبة ويصحح لهم أخطاءهم وهذا الوضع خاصة إذا كان عدد الطلبة قليل ومواردهم لا تفي بالتزامات المعلم المعاشية، فيعمل بهذه المهنة لتغطية النقص الحاصل عنده.

ويحمل الطلبة أثناء الدرس شيئاً من الطعام الصالح للنقل، كالتمر، والأقط، وخبز الصاج، والكليجا، والشعثا، والقديد، والجراد، وذلك لتناوله في الاستراحة من الدرس وهو بمثابة وجبة «الفسحة» المدرسية في الوقت الحاضر.

وهكذا يتخرج الطالب من هذه المدرسة يقرأ القرآن الكريم والأحاديث، ويكتب كتابة طيبة، أما النابهون فإنهم يواصلون دراستهم حتى يصلوا إلى مراتب عليا من التعليم.

□ حلقات الذكر:

تعد حلقات الذكر في المساجد كنوع من التوعية والتثقيف يقوم بها إمام المسجد أو قاضي البلد، أو من يرى في نفسه الكفاءة والمقدرة على تذكير الناس، وذلك بقراءة الأحاديث والآيات التي تحث على نوع من أنواع العبادة، أو ما يتعلق بموضوع ديني أو دنيوي، وأحياناً يخصص لكل حلقة موضوع معين يطرقه المذَكِّر، وأحياناً يتطرق إلى مواضيع متعددة، ويتم النقاش بعد ذلك والاستفسار عن نقطة معينة خافية على البعض وتكون إجابتها مفيدة وشاملة لجميع الحضور، كما أن هناك تلاوة للحديث، بعد صلاتي الظهر والعصر، وأحياناً قبل صلاة العشاء الأخير، وبعد صلاة الفجر، يقرأ إمام المسجد ما يختاره من كتب السنة، بحيث يقرأ يومياً موضوعاً معيناً ليمر على كافة مواضيع الكتاب خلال السنة، كما يعقد نوعاً آخر من حلقات الذكر بين مجموعة من طلبة العلم كما هي تسميتهم آنذاك، إما عند شيخهم الذي يقرؤ ون عليه، أو في بيت أحدهم بالتناوب، وهذا النوع من الدراسة منها ما يختص بالمواد الدينية ومنها ما يتطرق إلى العلوم الأخرى، كاللغة العربية والأدب والشعر، فتجد هذه المجموعة تدرس إلى جانب الأحاديث على المذاهب الأربعة، والفقه، والتفسير، تجدهم يحفظون الفية بن مالك في اللغة العربية واعرابها وكتب الأدب، ومذاهبها وكتب التاريخ، والسير التي تم تأليفها في العصرين الأموي والعباسي، وأكثر ميلهم الى الكتب ذات الصبغة الدينية كذلك لديهم إلمام بكتب تفسير الأحلام وأشهرها للامام محمد بن سيرين، والكتب المتعلقة بالفلك وعلم الحساب، وعلم الفرائض، وغيرها من المجالات العلمية والأدبية، ويعتمد الطلبة على حفظ متن الحديث أو النص، ويتم التحليل بعد ذلك بمداولة الرأي حسب مدلول النص ويختم الكلام عند ذلك بجملة.. والله أعلم، ولطلبة العلم في

هذه احلقات مسابقات ومبارزات، في حفظ متون تلك النصوص والأحاديث والقواعد، والحكم فيها للشيخ المشرف على هذه الحلقة، ويتخرج طالب العلم من هذه المدرسة غير الرسمية ملمًا بكثير من الأمور الدينية والدنيوية فتراهم يتخرجون قضاة، أئمة مساجد، خطباء، كتاباً، على قدر كبير من معرفة قواعد اللغة العربية ومشتقاتها النحو والصرف، ملمًا بعلم الفرائض والأنساب، والآداب والشعر، والفلك، وفوق هذا تجلله الهيبة والوقار، محترماً من الجميع، لما يحمله بين جوانحه من علم، كلمته مسموعة أوامره مطاعة، ومن هؤلاء من يتولون تصريف شؤون البلد كما أسلفنا ومنهم من يواصل دراسته على مشائخ في الأقطار المجاورة أو البعيدة للحصول على مستوى علمي أرفع مما وصل إليه، ليصبح بعد ذلك عالماً يشار إليه بالبنان.

وهناك نوع من حلقات الذكر تعقد بعد صلاة الفجر مباشرة يتم افتتاحها بآي من الذكر الحكيم، ثم يليه اختيار أحاديث معينة تتطرق لموضوع بذاته يتم تفسيره وتحليله للاستفادة من مضمونه، وتعقد هذه الحلقات لدى القاضي أو الأمير ومن اجتمع حوله، أو يبت أحد الأعضاء بالتناوب.

وهكذا نرى هذا المجتمع رغم حرمانه من التعليم المنظم إلا أنه استعاض عنه في تعليم آخر يفي بأدنى احتياج البلد في هذا المجال لكن نسبته ضئيلة إذا ما قيس في الوقت الحاضر لكنه أثبت وجوده خلال تلك العصور المظلمة تحت كابوس الحكم التركي.

□ نسخ الكتب:

ولما كانت الطباعة لم تنتشر آنذاك فإن «طلبة العلم» بالاضافة إلى ما يقومون به من أعمال أثناء الدراسة فإنهم يقومون بنسخ الكتب سواء ما كانوا بحاجة إليه أو من كتب التراب في مختلف المجالات، ويتم ذلك بعد الحصول على النسخة الأصلية أو النسخة المنقولة ثم يبدأ بنسخ محتواها على ورق أبيض ضارباً إلى الصفرة خشن السطح قليلاً، وأحياناً يكون أبيضاً صقيلاً يسمى «الكاغد»

ويستعمل الكاتب الحبر المصنوع محلياً من مختلف الأصباغ التي سبقت الإشارة إليها في فصل مدرسة الكتاتيب، ويجد الكاتب ويثابر على نسخ الكتاب في أقصر مدة ممكنة لينسخة الكاتب الثاني والثالث بحيث يصبح هناك عدد من النسخ في مدة وجيزة ثم يتم تجليد هذه النسخة وحبكها لتبقى مدة طويلة تتناولها الأيدي دونما أحداث أي تلف بها، ويولي الكاتب عناية فائقة في نسخ الكتاب وتبويبه وترقيمه ووضع الحركات على الحروف بلون يغاير لون الكتابة، والكاتب شديد العناية بكتبه، شديد الحرص لزيادتها، ويتطرق الكاتب إلى أنواع الكتب التي يتسفيد منها في دراسته، وربما اهتم بكتب غيرها، ويلاقي المشاق في الحصول على الورق، وفي صنع الحبر كما جرت الإشارة إليه آنفاً كما يلاقي مشقة في الحصول على الأقلام التي تتكون من أغصان الأشجار ذات الغصون الصلبة، أو أن تكون من أعواد القصب «القصبا» التي تجلب من البلاد التي تتوفر بها الأنهار، وتحتاج هذه الأقلام إلى بري رؤسها كلما كلت بسكين حادة، وإذا نظرنا إلى ما يعانيه الكاتب من هذه المشاغل الجانبية أدركنا قوة صبره وجلده وتحمله بالاضافة إلى ما يعانيه من مشكلة الاضاءة للعمل ليلاً، ذلك أن أدوات الاضاءة التي يستعملها تتكون من ذبالة بسيطة، تضاء بالشحم أو النفط «القاز» أو شمعة خافتة، تلعب الريح بضوئها يمنه ويسرة، وأحياناً يطفيها، فتوجد مشكلة إضاءتها من جديد بقدح الزناد أشعالها بأعواد الثقاب، وأحياناً أخرى إذا كان من ميسوري الحال يضيىء بذبالة أو مصباح على النفط «القاز» قد ينتهي الوقود منه أو تتآكل فتيلته فتولد للكاتب ثغرة جانبية هو في غنى عنها، هذه المشاكل الخلفية تضيف إليه أعباء جديدة تشطح بتفكيره، وتفت من عزيمته إلا أنه رغم ذلك يأخذ لكل طارىء حسابه ويجهز كل شيء، ويسهر الليالي الطوال بالاضافة إلى ساعات النهار، بكل عزيمة وتصميم وجد على انهاء نسخ من هذا الكتاب، أو قراءة كتاب جديد أخذه لتوه من أحد زملائه، ثم يبدأ بنسخة من جديد، وهكذا يجاهد أولئك الصابرون، يكابدون المتاعب والمشاق في الأسفار ومصارعة الظروف في سبيل العلم والمعرفة وبذلك أبقوا لنا شعلة مضيئة، من العلم والعرفان، درجنا على ضوئها خطوات وئيدة، حتى انبلج نور العلم وتيسرت سبله.

□ تدوين الحوادث والوثائق:

يتخصص بعض الذين أنهوا دراستهم من طلبة العلم بتدوين الحوادث والأخبار ومختلف الفنون، وغالباً ما يكون أسلوبهم في الكتابة على نمط الأسلوب السائد آنذاك في أواخر العهد العباسي والعهد التركي بما فيه من المحسنات اللغوية، كالسجع والطباق وغيره من فنون صناعة الكلام، ذلك لأن الكتب الموجودة تحت أيديهم كلها بنفس الاسلوب، فلا يعدو أسلوبهم تقليدياً لما تحويه هذه الكتب، أما فيما يختص بالحوادث والأخبار فإن أسلوب الاختصار الشديد يكاد يفقد الحادثة أو الخبر فائدته حيث يذكر الحادثة، دون أن يذكر أسبابها ومسبباتها والنتائج المترتبة عليها ووقت حدوثها باليوم والشهر والسنة بل يكتفي بقوله «في سنة كذا حدث كذا وكذا» دون استكمال عناصر الحادثة من المسببات وسير الحادثة ونتائجها والزمان والمكان، وبذلك تكون الحوادث التي دونوها محدودة الفائدة إلا ما ندر، أما الوثائق والصكوك، فيكون فيها من الاختصار أيضاً ما يفقدها جزءاً كبيراً من فائدتها إذ تنص على الموضوع رأساً، دون مقدمة أو ديباجة تعطي للموضوع رونقه، وغالباً تكون كتابة الوثائق والصكوك على النحو التالي بعد البسملة: «يعلم بـه من يـراه بأن فلان الفلاني بـاع. . أعطى. . فلان الفلاني كذا وكذا بقيمة كذا وقبض القيمة نقداً أو على آجال معينة بشهادة فـلان وكاتبه فلان والله خير الشاهدين». أو بصيغة أخرى بعد البسملة: «موجب تحريـره أن فلان. .» بحيث لا تتعـدى الوثيقـة سطرين أو ثلاثة، وربما صار ذلك شرحاً على طرة الوثيقة السابقة، وتسمى تلك الوثائق أو المكاتبات «حفائظ» وعادة تطوي الوثيقة وتلف على بعضها وتحفظ في علب معينة لتستقر فيها مدة طويلة محتفظة بجدتها، وأكثر ما يهتم هؤلاء بتدوين الوثائق بدرجة رئيسية، وذلك لكثرة تداول الناس بها من مداولات تجارية ومداينات ووصايا، ومكاتبات ورسائل، لذلك تجد الذين يرشحون لهذا النوع من الكتابة خاصة كتابة الوثائق وتدوين الحوادث ممن تتوفر فيهم مجموعة من الشروط، منها القيام بالواجبات الدينية، والاعتدال، ورجاجة العقل، والذكاء، والرزانة وغيرها، لذلك نجدهم نسبة معينة من بين فئة الكتاب في ذلك الوقت،

وبذلك حفظت لنا تلك الفئة ما استطاعوا تدوينه من الحوادث التي وقعت في هذه البلاد خلال تلك الحقبة من الزمن.

□ الحسابات الفلكية:

لم يقتصر العلماء آنذاك على تدوين الحوادث والوثائق التاريخية، فقد طرقوا شتى أنواع العلوم كما أسلفنا، ومنها علم الفلك والحسابات الفلكية المتعلقة بشؤون حياتهم، كالزراعة والرعي، ورغم أنه لا يوجد لديهم مراصد علمية كما هو موجود في دول العالم اليوم، إلا أنهم وصلوا إلى درجة دقيقة في الحسابات الفلكية، من واقع التجربة، والمراقبة الدقيقة للظواهر الطبيعية، وحركة النجوم والكواكب، وذلك بإقامة المراصد البدائية حسب استطاعتهم، إلا أن هذه المراصد رغم بدايتها إلا أن العاملين بها، يثابرون بكل إصرار وتصميم للحصول على أدق المعلومات فيما يتعلق بشؤون حياتهم الزراعية والرعوية، ودخول الفصول على مدار السنة، وطلوع النجوم والكواكب، غير أنهم يستعملون أسماء للفصول شائعة في هذه البقعة على مدار السنة، وقد تشمل التسمية أكثر من نجم من النجوم المعروفة في علم الفلك، فمثلاً يسمون نجم سعد الأخبية، والمقدم، والمؤخر، ومدتها ٣٩ يوماً «بالسماك» ويسمون نجم الرشا، والشرطان، والبطين، ومدتها ٣٩ يوماً «بالصيف» ويسمون «نجم الثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، ومدتها ٣٩ يوماً بالقيظ منها الثريا، والدبران، والهقعة، ومدتها ٣٩ يوماً «أربعمائية القيظ» ويسمونها بالثريا، و «التوبيع»، والجوزاء، والشعراء ــ المرزم، والكليبين، كما يسمون نجم الطرف ــ سهيل، الجبهة، الزبرة، الصرفة، ومدتها ٥٣ يوماً «بسهيل» ويسمون نجم العوًّا، والسماك، والغفر، والزبانا، وأيامها ٥٢ يوماً «بالوسم» ويسمون نجم الأكليل، والقلب، والشولة، وأيامها ٣٩ يوماً «بالمربعانية» ويسمون نجم النعايم، والبلدة، ومدتها ٢٦ يوماً «بالشبط» ويسمون نجم سعد الذابح، وسعد بُلَعْ وسعد السعود ومدتها ٣٩ يوماً «بالعقارب» وهي على التوالي عقرب السم، وعقرب الدم، وعقرب الدسم، وقد رتبها اثنان من أبناء هذه البيئة أحدهما في القرن الحادي عشر الهجري وهو راشد الخلاوي في قصيدة طويلة مطلعها:

١٦٣ ـ متى ما الثريا مع سنا الصبح وايقت

على كل خضرا ودعت بالسنايد[١]

١٦٤ ـ من عقبها نجم كما فرخ مثلي

على الشوف يتليها بمشية يعاود

(راشد الخلاوي)

إلى آخر القصيدة مبيناً لكل نجم صفاته المميزة فيما يتعلق بالزرع والرعي وتقلبات الجو من حر وقر، كما وصفها شاعر ثان من شعراء القرن الثالث عشر الهجري هو محمد العبد الله القاضي بقصيدة تتكون من ٥٤ بيتاً بين لكل نجم خصائصه ومميزاته وما هو متبع في فصله من الزراعة والرعي وغيرها من التقلبات المناخية وقد أجاد الوصف بالقصيدة لهذه النجوم ومطلعها:

١٦٥ ـ سبك لك نجوم الدهر بالفكر حاذق

حوى واختصر مضمونها بأمر خالق[٢]

١٦٦ ـ ترى أول نجوم القيظ سبع رصايف

كما جيب وضحى ضيع الدرك دالق

(محمد العبد الله القاضي)

إلى آخر القصيدة وقد برز كذلك من الفلكيين ممن لم يدرسوا في مدارس الكتاتيب، إنما اتخذوها هواية، وثابروا عليها، بعد معرفة أصولها ومع الزمن تمكنوا من الوصول إلى نتائج طيبة بتحديد المواعيد الدقيقة لمواسم الزرع والحصاد، وغيرها منهم الشيخ ابراهيم الشبرمي «بسميراء» وغيره كثيرون منتشرون في مختلف أصقاع هذه البقعة الطيبة التي أنبتت الكثير من العناصر الفعالة.

---

(١) راشد الخلاوي ٣٠٤.

(٢) راشد الخلاوي ٣٤٣.

وقد سموا الشهور بأسماء ربما كان لها أصولاً قديمة أو تكون نابعة من نفس البيئة فمحرم يسمى عاشور، وصفر على اسمه وربيع أول وربيع الثاني تسمى التوم الأول وجمادى الأولى وجمادى الثاني تسمى التوم الثاني ورجب الغراء وشعبان يسمى «قصير» ورمضان على اسمه وشوال الفطر الأول وذي القعدة يسمى الفطر الثاني وذي الحجة الضحية.

□ □ □

الفصل الثاني عشر :

الناحية الأدبية

□ الشعــــر :

أصيب الشعر العربي كغيره من فروع اللغة العربية بنكسة عنيفة في عهد الانحطاط الذي خيّم على البلاد العربية من أقصاها إلى أدناها مدة تزيد على أربعة قرون، ولا يخفى على أحد ما لهذه الفترة من أثر بالغ في اللغة العربية وآدابها، حيث دبّت فيها اللهجة العامية واللحن شيئاً فشيئاً حتى تفشّت بجسمها، وبطبيعة الحال فقد تأثّر الشعر بهذه الظاهرة، أول ما بدأت ثم غطّته بالكامل في الفترة التي نحن بصددها، عدا النزر اليسير ممن احتفظوا بهذا الفن، ورغم أن البقعة التي نتكلّم عنها لم تدنسها أقدام الأجنبي الغريب إلا لماماً، غير أنها تأثّرت بما حولها فأصبحت اللهجة العامية شعراً ونثراً ومحادثة هي السائدة إلا ما تدوّنه وتتداوله تلك الفئة المتخرّجة من مدارس الكتاتيب من نثر وشعر ومحادثة فإنه يتم باللغة العربية الفصحى، وبعبارة أخرى اللغة الرسمية للمقاطعة كما هو متعارف عليه في الوقت الحاضر، وبذلك فقد غاب الشعر العربي الفصيح من هذه البقعة فترة من الزمن إلا من خلال الفئة المشار إليها، والذين تأثّر شِعرهم بالصبغة الدينية وفي اعتقادهم أن قرض الشعر يعتبر خروجاً عن الخط الذي التزموا به، وساروا عليه، ويظنّون أن مجتمعهم سيلفظهم إن هم جنحوا عن هذا الطريق، لـذا اقتصر شِعـرهم على الإبتهـاولات، والإخوانيـات، والنصائح وما في حكمها. وما عداها من أبواب الشعر تركوه جانباً مما أتاح الفرصة للشِعر العامّي أن ينتشر، وإذا نظرنا إلى العوامل والمؤثّرات التي غيّرت

مجرى الشِعر العربي وأدخلت إليه اللهجة العامّية كتغيير بعض التسميات وتصريف بعض الأفعال وتصحيف وتبديل بعض الكلمات، أما الكلمات والتسميات الرئيسية فقد احتفظت بمكانتها في البيت الشعري إلى حدّ ما رغم كونه باللهجة العامّية، ولذلك نجد الشعر الشعبي في بدايته يحتفظ بكثير من الكلمات الفصيحة، وإذا نظرنا بإنصاف وتمعّن إلى الشعر الشعبي وجدنا له من الخصائص الفنية من قوة في السبك، والتزام القافية، وصدق التعبير، ودقّة الوصف، وعمق المعنى، وحيوية الصورة، والتأثير على السامع، والموسيقى الشعرية، وغيرها ماللشعر العربي، ولا يدرك هذه الخصائص إلا مَن يتذوّق هذا النوع من الشعر ويفهمه، بالإضافة إلى ذلكِ فقد تطرّق الشعر الشعبي لمختلف الأغراض التي خاضها الشعر الفصيح، ودلالة على ذلك، إليك أبياتاً على سبيل المثال لا الحصر:

قوة السبك:

١٦٧ ــ يالجوهر الناريزي بالعطر يالطيب
يالصعد يالصهال ياحصان الاطلاب[1]

١٦٨ ــ يالمزيّر يالزحار يالنمر يالذيب
ياالليث يالـلايوث يالشبل يالداب
(خضير الصعليك)

التزام القافية:

١٦٩ ــ ياقلب وإن كانت علومك صدوقة
بينك وبين الدار عهد وميثاق

١٧٠ ــ تسمع ندا زجر الملك في صفوفه
قضى القضا والتفت الساق بالساق
(محمد بن لعبون)

---

(١) آدابنا الشعبية ص ٢٦٢.

صدق التعبير:

١٧١ ـ وأهـل دمع من عيـوني ذواريف
تـاليـه غثـرب وأول الـدمـع صـافي[1]
(سويلم العلي)

دقّة الوصف:

١٧٢ ـ تشـوفه كقلب الـذيب يلعج بنـوره
مـويق عـلى غـرات حـدب الجـرايـد[2]

١٧٣ ـ سـرى كـانـتـفـاض الـفـرخ في حـنـدس الدجى
يفـوج سناه الليـل مثـل الشعـايـل
(راشد الخلاوي)

عمق المعنى:

١٧٤ ـ الاجهـاد عدّا الـلايمـات عن الفتى
والأرزاق مـا تـأتي الفتى بـالغصـايب
(أبو زيد الهلالي)

١٧٥ ـ يالعبد لا يوريك في نفسـك التزوّد
تـراك مـثـل الفي عجـل زوالـه

١٧٦ ـ دنيـاك لـو تعـطي مـواثيق واعهـود
بـواقـة مـا يـامن العبـد جـالـه
(مشعان بن هزال)

---

(١) ديوان سويلم العلي ص ٣٣.
(٢) الشوارد ص ١٧٢.

١٧٧ ـ أحد تذعذع له على روس الاقذال
واحد يعيش من الوزا عيشة الذيب
(محمد السديري)

حيوية الصورة:

١٧٨ ـ أصفر عفر خده تقل فيه شعشاع
تذهيل تنويش ايتشاعل شعاعه
١٧٩ ـ وذوابيه من فوق الارداف شراع
دراعين قالوا قاسها في ذراعه
(سويلم العلي)

الموسيقى الشعرية:

١٨٠ ـ من لا يدوس الراي من قبل ما ديس
عليه داسوه العيال القرومي(٢)
١٨١ ـ ومن لا يقلط شذرة السيف والكيس
يبدي عليه من الليالي ثلومي
((تركي بن حميد)

التأثير على السامع:

١٨٢ ـ جان الطبيب ومسني وافتكر بي
وغير الشهادة مالقى بي مثابي
١٨٣ ـ وعضيت بالانجاد مما اصتقر بي
ليا ماغطس بين اشفتي راس نابي
( )

١٨٤ ـ أنا اليوم يا حماد ربعي تفرّقوا

كما ملح أمسى بالغدير وذاب

(سرور الأطرش[1])

□ النثـــر:

النثر صنو الشعر وأحد فروع اللغة العربية الذي أصابه التفكّك والخمول أيضاً، ودخلت فيه اللهجة العامّية رويداً رويداً حتى غطّته بالكامل كأخيه الشعر، إلا في نطاق ضيّق على مستوى المكاتبات الإخوانية، والمناظرات الأدبية التي قد نهج بها منظمّوها منهج التقليد للأسلوب الشائع في أواخر العهد العباسي وعهد الدولة العثمانية، والذي يعتمد على الكثير من كلمات التعظيم والتبجيل والحشو بصفّ المترادفات اللغوية ذات المعنى الواحد، وتفخيم الأشخاص لدرجة يمجها الذوق السليم، مع تغليفها بالغلاف الديني، وإغراقها بالأدعية والتوسّلات، التي تبعدها عن الموضوع المقصود، وينحصر نشاط هذه الفئة بالمدن والقرى الكبيرة، أما الأرياف والبادية فقد عمّت فيها اللهجة العامّية، وتميّزت كل قبيلة بلهجة خاصة بها، تعرّف بها عن غيرها، كنطق بعض الحروف بطريقة مغايرة للقبيلة الأخرى، وأغلب ما يكون النثر بالطريقة الشفهية والمناظرات الكلامية، وهي بطبيعة الحال أقل انتشاراً من الشعر الذي تعقد له الحلقات وتجتمع له الأندية، وقد انعكست الآية تماماً، ففي بداية العصر الإسلامي كان الناس يوجّهون أبناءهم من المدن إلى البادية ليكتسبوا اللغة العربية الفصحى، أما في الفترة المشار إليها فقد أضحى الناس يرسلون أبناءهم من البادية إلى المدن والقرى، لمدارس الكتاتيب ليتعلّموا القراءة والكتابة واللغة العربية الفصحى، وهذا لا يعني أن الفصحى قد زالت من البادية تماماً، حيث بقيت المسمّيات ومعظم الكلمات عربية قح، وإنما صار العيب في تصريف الأفعال وهي باقية حتى الوقت الحاضر مغلّفة باللهجة العامّية، ولذلك لجأ ذوو اليسار من أبناء البادية إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس الكتاتيب لتعلّم اللغة العربية والقراءة والكتابة، ومن الطرائف التي تروى بهذه المناسبة «أن إعرابياً

---

(١) آدابنا، ٢٢٥.

أحضر ابنه إلى أحد الكتاتيب وقال له: هذا ابني أريد منك أن تعلّمه القراءة والكتابة، وأجرك سأعطيك إيّاه في الحال، وسأعود إليك بعض قضاء حوائجي من حوانيت المدينة، لأجد ابني قد تعلّم القراءة والكتابة!! فقال له المعلم: كيف يمكنني تعليم ابنك القراءة والكتابة خلال سويعات؟! فردّ عليه الإعرابي: وأنا لا أعرف كيف ذلك!! لأن هذا عملك؟! أما أنا فليس لي إلا ولد يكتب ويقرأ!!!، فذهب قوله مثلاً سائراً في هذه المنطقة.

ونعود لموضوعنا، النثر، فنجده كما أسلفنا قد أصيب بالشلل إلا في فئة خرّيجي مدارس الكتاتيب ولم يبلغ درجة يشار إليها.

◻ الخطـــابة:

تتمثّل الخطابة في ذلك العصر بما يلقيه خطباء المساجد أيام الجمع والأعياد تمشّياً مع نصوص السنّة الشريفة، وإيفاء بالغرض الأساسي للخطبة من تذكير للناس في أمور دينهم ودنياهم، ومعالجة مشكلة من المشاكل التي يعاني منها المجتمع أو إرشاد الناس إلى الصالح العام في أمور دينهم ودنياهم أو الحثّ على موقف من المواقف التي يتطلّبها الوضع الراهن، هذا في الخطبة الأولى، أما الخطبة الثانية فتحتوي على الأدعية والإيتهالات والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلّم، وبما أن خطبة الجمعة تتكرّر ثمانياً وأربعين مرة خلال العام، وهي من حيث العدد والوقت والموضوع كافية لأن يبرز فيها أشخاص في هذه الناحية في معالجة مشاكل المجتمع وتوجيهه إلى الوجهة السليمة إلا أن كابوس عهد الانحطاط ما كان يترك ذلك يتم كما هو مقرّر، بل كتم هذا النفس النشيط ووجّهه إلى الغاية التي يريدها حتى ضعفت هذه الناحية، وأجدبت الأفكار، وزيادة على ذلك فقد تمّ تأليف كتب معيّنة تختصّ بخطب الجمعة في «الأستانة» العاصمة التركية، ووزّعت على الأقطار الرازحة تحت السلطة التركية، وهذه الكتب توزّع خطب الجمعة على مدار السنة ولكل خطبة موضوع تذكير في الأمور الدينية فقط والدعاء للسلطة بالبقاء والدوام، وتتكرّر قراءة هذه الخطب على مدار السنة حتى يحفظها خطباء المساجد عن ظهر قلب، أما الأمور الأخرى

والمشاكل التي يئنّ تحت وطأتها المجتمع فلا تتعرّض لها الخطب من قريب ولا من بعيد، ومع أن البقعة المشار إليها لم ترزح تحت السيطرة العثمانية بالمعنى الصحيح إلا أن تأثير الوضع العام المحيط بها قد نال منها، بحيث لجأ بعض الخطباء إلى الاستعانة بمثل هذه الكتب الصِفراء المنتشرة في الأقطار المجاورة كما استعان البعض الآخر في كتب من خطب ابن نباتة التي تمّ تأليفها في ظل الدولة الحمدانية في القرن الرابع الهجري ٣٤١ ـ ٣٦٥، ومع أن خطب ابن نباتة تحتوي على مواضيع ممتازة في وقتها إلا أنها لا تصلح بحذافيرها في الوقت المشار إليه لما طرأ على المفاهيم والخارطة الجغرافية من تغيير، ولجوء الخطباء إلى الاستعانة بهذه الخطب المكتوبة دليل على الجدب الفكري في ميدان الخطابة، نتيجة الحظر المفروض على الخطباء في بداية الأمر، حتى تبلّدت لديهم القرائح عن الإنتاج وأصبحوا يتعلّقون بقشّة الغريق.

□ القصّـــة:

لم تراوح القصة مكانها منذ عهد طويل، بل زاد عليها سوءاً غمرها باللهجة العامّية، التي غطب الناحية الأدبية بكاملها، وانصرف الكتاتيب عن تدوينها ونسخها، واختلطت القصة الواقعية بالقصة الخيالية، التي انصرف السواد الأعظم عن قراءتها أو تناقلها، باعتبارها من نسج الخيال، ولم تحدث فعلاً، وقد رمي من كتبوها أو نقلوها بتهمة الكذب والاختلاق، وقد اقتصرت القصة في هذا الوقت تدويناً ورواية على القصص الحقيقي، الذي حدث فعلاً وتمّ تناقله من خلال الرواة والقصّاصين الذين احتفظوا بعدد كبير من القصص الواقعية، والتي جرت أحداثها فعلاً فوق أرضية ذلك المجتمع أو بجـواره وتناقلتها السنة الرواة، وحسب حذق الراوي وخصوبة خياله أصبح يطفح بالخيال أحياناً ليضيف إلى القصة الواقعية والتي تكوّن عادة بأسلوب جدّي، ليضيف إليها بعض التحسينات الجذّابة، أو يستعين بذوقه ليصنع بعض المقبّلات والمشهّيات للمستمع للدخول عبرها إلى صلب القصة، كما يستعين القاصّ بالمثيرات التي تحفز المستمع إلى معرفة نتيجة ما حصل في القصة من كافة

جوانبها، ويختار الكلمات الرنّانة ذات الوقع المؤثّر على السامع، وفي الحقيقة أن هذا النوع من القصص الواقعي المزخرفة حواشيه ببعض اللقطات واللمسات الخيالية، من أكثر الآداب التي انتشرت بهذه البقعة على مختلف فئات السكان لدرجة أنك تجد هؤلاء القصّاصين من مختلف المستويات وحواليهم مستمعوهم يتمتّعون بكل اشتياق إلى ما يروى على مسامعهم. ويعتمد القاصّ على مدى حفظه لمتن القصة ومدى سعة خياله لإضافة ما يمكن إضافته للقصة من محسّنات، وحذقه الهندسي في إضافة الفقرات إلى هيكل القصة الواقعية دون أن يفطن أحد إلى موضع التحامها بالجسم الرئيسي، وقد يتطرّق للقصة الواحدة قاصّان على مستويين مختلفين فترى البون ساشعاً بينهما وربما وصل هذا الفرق إلى صلب القصة، وقد انتشرت القصة بشكل واسع وخاصة لدى كبار السن ممّن يملكون قوة الذاكرة وخصب الخيال، ويتجمّع الرجال حول القصّاصين من المسنّين وهؤلاء تكون قصصهم على مستوى معينّ ومواضيع تتعلّق بالكرم والشجاعة، والبطولة، والوفاء... إلخ، أما النساء والصغار فيجتمعون حول العجائز، ليقصصن عليهم من هذه القصص التي يجدون فيها متعة عظيمة وإرواء لبعض تعطّشهم إلى معرفة ما يدور حولهم، وتسمّى هذه القصص «حكايات السعالوى» أو «البحونات» وهي بطبيعة الحال باللهجة العامّية، ولكنها رغم ذلك فإن الصغار يتوسع خيالهم وإشباع بعض غرائزهم، وملء أذهانهم بقصص البطولة، والمغامرة، وتعويدهم آداب الإصغاء، وغرس العادات الحميدة في نفوسهم والتي تجري أحداثها في ثنايا القصص، وتعويدهم على الحفظ، وإذا أمعنّا النظر في هذه القصص وجدناها واقعية في الأساس، لكن مع مرور الأجيال عليها، واختزانها بصدور الرجال لفترات متفاوتة، وطريقة روايتها على السنة الرواة، بالإضافة إلى ما علّق بها من الخيال في هذه المراحل السابقة، اكتسبت صورة مشوّشة، أوجدت فيها ثغرة للطعن بعدم صحتها من قِبَل بعض المعترضين أو الذين لا يدركون أسرار هذا المجتمع، وجعلها في مصاف الأساطير. أما موضوعها، فإنها من المواضيع التي تحدث في هذا المجتمع لكن ما يحفظ منها هي المواضيع الشيّقة أو المثيرة كالمغامرات البطولية، والمغامرات العاطفية، والبطولات التي تحدث في مواقف حرجة، والاتصالات التي تحصل

بعد الهزيمة مباشرة لتقلب موازين القوى بين الخصمين، والمواقف الإنسانية لإنقاذ شخص أو مجموعة أشخاص من مأزق معينّ وقعوا فيه، وما شابه هذه المواضيع، ويصحب القصة في الغالب القصيدة تـحكي تفاصيـل ما جـرى أو تشير إلى ما حدث في القصة ويكون قائلها بطل القصة أو قيلت على لسانه، وهي المصدر الوحيد الذي يحتفظ بجوهر الأحداث ومجرياتها، دون أن يستطيع خيال القصّاصين أن يبدّل فيها شيئاً، أو يضيف إليها جديداً إلا ما ندر، أما أوقات الاستمتاع بسماع هذه القصص فغالباً يكون في أوقات الفراغ بعد تأدية الناس لأعمالهم أي من أول الليل حتى وقت النوم، في المنتديات والمجالس والمقاهي، التي تعقد فيها تلك الحلقات، أو خارج البيوت تحت أديم السماء الأزرق المرصّع باللآلىء البرّاقة أو في الليالي المقمرة، على ضوء القمر الفضي الهادىء، وهكذا نرى أن مجال القصة من أنشط النواحي الثقافية في ذلك المجتمع.

□ □ □

الفصل الثالث عشر:

الفنون الشعبية

□ العرضة النجدية:

العرضة النجدية هي أحدى الفنون الشعبية المنتشرة في هذه البقعة مدار البحث، وهي رقصة الحرب، وتُلعب في الحرب والسلم على حدّ سواء، وقد نشأت هذه اللعبة في الأساس بمعسكرات المحاربين منذ زمن بعيد في أعماق التاريخ، غير أنها تطوّرت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت كما هي عليه في الوقت الحاضر، وقد نشأت لعدة أغراض منها:

١ ـ الظهور أمام العدو بأعداد كثيفة.

٢ ـ الظهور أمام العدو بعدم المبالاة به وبقوّته.

٣ ـ إرهاب العدو بأصوات الطبول التي تقرع أثناء تأدية العرضة أو الطلقات النارية التي تطلق أثناء العرضة وبعدها.

٤ ـ رفع الروح المعنوية للمحاربين، وشحذ روح الاستبسال فيهم بالقصائد التي تردّد في العرضة.

٥ ـ الاحتفاظ باليقظة داخل المعسكر أثناء الليل حتى تبقى الحراسة داخل المعسكر وحوله في انتباه تام ودرجة استعداد جيّدة.

٦ ــ التسلية والقضاء على السأم والملل في نفوس المحاربين أثناء بقائهم في المعسكرات لمدة طويلة بعيدين عن أهلهم وذويهم.

٧ ــ حثّ المحاربين على الاستشهاد بخوض غمار المعارك بكل إصرار وعناد، وذلك في القصائد التي تسبق المعركة.

٨ ــ وصف ما جرى في المعركة من بطولات وتضحيات ومغامرات قتالية وذلك في القصائد التي تتم بعد الفراغ من المعركة.

٩ ــ التغنيّ بالانتصارات التي أحرزها من يحاربون تحت لوائه والافتخار بنتائج هذه الانتصارات.

١٠ ــ مدح السلطة التي يحاربون تحت رايتها وتعداد فضائلها وأمجادها وغير ذلك من الأغراض.

أما في وقت السلم فتقام العرضة بالمناسبات كالأعياد وغيرها وهي شبيهة بما تقام في زمن الحرب، إلا أن تسليح المشتركين فيها يكون أقل، ودرجة الاهتمام بالمظهر العام كنظافة الملابس واختيار الملابس الزاهية يكون أكثر منه في وقت الحرب. وصفتها أن يقف صفّان متقابلان من الرجال الذين تمنطقوا بأحزمتهم سواء أكانت أحزمة السيوف أو أحزمة البنادق المرصوصة بأمشاط من طلقات الذخيرة يتوسّط هذا الحزام فوة السرق الخناجر اللامعة وأحياناً تكون ذهبية لعلية القوم، وعلى أجنابهم المسدسات، وبأيديهم السيوف المجرّدة من أغمادها، أو البنادق المعبّأة بالذخيرة، ويبدأ هذان الصفّان بالاستعداد لبدء الاستعراض، وذلك بتراص الصف بعضه إلى بعض بالقدر الذي يسمح للأفراد بأداء الحركات اللازمة، وبين هذين الصفّين مسافة تطول أو تقصر بما لا يقل عن عشرة أمتار، وبين هذين الصفّين يقف قارعو الطبول صفاً واحداً، وأحياناً ينقسمون إلى صفّين صغيرين كل صف يضعون وجوههم مقابل الصف المحاذي لهم ويكون قارعو الطبول سواء «المخمرون الذين يضربون الدقّتين الناعمتين السريعتين» أو «الثّلاّث» وهو صاحب الضربة المنفردة البطيئة الشديدة، ويقف

الشاعر أو الملقّن وربما أكثر من واحد في الوسط، ويقول الشطر الأول من البيت دون أن تحرّك الطبول، فيبدأ أحد الصفّين ثم يردّ الصف الثاني نفس الشطر ويُردّد على مرّتين من كل صف، ثم يكمل الشاعر البيت وعندها تقرع الطبول، ويبدأ الملقن أو الملقّنان في التنقّل بين الصفوف لترديد الشطر مع هذا الصف، أو تلقين الشطر الثاني من البيت أثناء سكوتهم وارتفاع صوت رفاقهم، وأول ما تبدأ الإيقاعات هادئة ثم تسخن شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها في نهاية العرضة، وتستمر على هذا المنوال، ويصاحب أبيات القصيدة وعلى إيقاع الطبول حركات جذّابة، حيث تتشابك عضود الرجال من خلف المرافق، وترتفع سواعدهم إلى أعلى قابضة على السيوف اللامعة المتراقصة في الهواء، المرتعشة بقبضات الرجال، تتموّج أجسام الرجال يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً، مع انحناءة خاطفة خفيفة، وتمثّل هذه الأجسام كتلة متراصّة، تتحرّك بمرونة فائقة وتشكيل بديع على إيقاعات الطبول، أما قارعو الطبول فيمارسون تموّجاتهم وقفزاتهم تفاعلاً مع الإيقاعات، فترى الراقصين من قارعي الطبول يتلوّى الواحد منهم بجسمه اللدن وكأنه الأفعوان، منسجمًا ومتلاحماً مع إيقاعات الطبول وأبيات القصيدة، ويوجد في هذه الحلبة الراقصون من الرجال بين الصفّين وربما كانوا من عليّة القوم، كل واحد منهم ممتشّق سيفه يتمايل يميناً وشمالاً، يردّد مع الصف الذي يليه نفس الأبيات التي يقولها، فيرفع سيفه اللامع إلى أعلى رأسه يهزّه بحيث يرتعش في كفّه وكأنه البرق الخاطف، وتارة يعرضه على منكبيه ماسكاً مقبضه وطرفه في يده يتهزّع يميناً وشمالاً ويتراقص في هذا الجو المفعم بالحيوية والنشوة، وتنساب الكلمات الشعرية المتدفّقة بالحيوية والحماسية من حناجر الرجال تردّد تلك الأبيات الممتزجة مع الإيقاع والتي تطفح بهم إلى نشوة غامرة تنقلهم إلى الأجواء التي رسمها الشاعر في قصيدته، تشنف آذانهم نقرات الطبول على الإيقاع المحبّب إلى نفوسهم، ويصل الزهو بهم مداه عند نهاية القصيدة حينما يرد الملقّن «ليازمى العايل زمينا» عندها تجتمع هذه الصفوف في شبه حلقة راقصة تلتف حول قارعي الطبول الذين يرفعونها بدورهم ويشدّدون الضرب عليها بسرعة فائقة، تردّد نفس الجملة رافعة السيوف إلى أعلى حدّ تهزّها هزّاً وإن كانت بنادق أفرغوا ما في بطونها في الهواء، وفي الغالب يشترك القائد

أو الأمير في معظم هذه العرضات، وعادة يكون لأبيات القصيدة أثر فعّال في درجة حماس اللاعبين وانسجامهم ونشوتهم كما أن لتوزيع إيقاع الطبول التي تقرع معاً في وقت واحد وبضربة واحدة متوافقة بحيث تبدو وكأنها طبل واحد، وتكوّن دقتين خفيفتين تسمّى «التخمير» تليها دقّة ثالثة أشد منها وأبطأ وتسمّى «التثليث»، وتكون أبيات القصيدة من مختلف البحور الشعرية ولكل بحر الإيقاع الخاص به، وعادة لا تطول القصيدة كثيراً لأنها تردّد من كل صف ثلاث مرات، لكن كلماتها تكون مزكرة تعتني بالموقف أو المناسبة المقامة العرضة من أجلها ومن أمثلة القصائد التي يتم ترديدها:

١٨٥ ـ هذي العنيزة ما نبيعه بالزهيد
ليا فرعن البيض نحمي جالها

١٨٦ ـ الرجل مثلك ما يحايد من بعيد
يقلط على الديرة يهد اجدارها
(......)

وآخر يقول:

١٨٧ ـ راكب حر كما الربدا خبيبه
مثل سبق الطير خرجه لياعدا به[١]

١٨٨ ـ نصّه ابن اسعود شباب الحربية
راية أهل الدين دون اللي لجابه

١٨٩ ـ شيخ جهال يبوجون الضريبة
من مناشيهم يشبون الحرابه
(......)

---

(١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب ص ٣٠٥.

وآخر:

١٩٠ ـ روّح الرايح من ديرة العوجا يخيلونه
يـارقة لايـح وبله كما درج يصبـونـه
صـافي الجوهـر عادة الضـربين يـرونه
من تـولينـا مـاعـود واربعـة يشيلونـه
(. . . . . . .)

١٩١ ـ يـاهل الـديـرة الـلي طـال مبنـاهـا
مـا بـلاد حمـاهـا طـول حـاميهـا

١٩٢ ـ المبـاني تهاوي كـل من جـاهـا
يـا يـفـك المبـاني غـير أهـاليهـا

١٩٣ ـ كـان مـاتفـزع ليمنى ليسـراهـا
فـاعـرف الـلي وطـاهـا ذيك واطيهـا
(عبد الرحمن البواردي)

ويعتني أصحاب الطبول بتجهيزها وتتكوّن من الطار الملبّس بجلد البعير النيىء، ويتم زخرفتها وتزيينها بمختلف النقوش والعثاكيل من الخيوط الملوّنة، بحيث تضفي ألوانها الجذّابة طابعاً مميّزاً على جو العرضة، وإذا كانت العرضة في أوقات السلم يلبس اللاعبون الملابس البيضاء الفضفاضة ذات الأدان الطويلة وربما يلبسون فوقها الجبب المزركشة والموشاة بخيوط الذهب، وتقام العرضة في الميادين الواسعة بالنهار وربما بالليل، كذلك تقام خارج البيوت بحيث تتمكّن الجماهير الغفيرة من المشاهدين والمشاركين ومن محبّي هذا النوع من الفنون الشعبية، كباراً وصغاراً من الرجال والشباب والصبيان والصبايا، ويشارك النساء بمشاهدة العرضة من على شرفات المنازل، وربما أتيحت لهن الفرصة لمشاهدتها عن بعد معقول دون الاختلاط بالرجال وذلك ربما يحدث في بعض الأحيان، هذا النوع من الفن الشعبي المحبوب لدى كافة طبقات المجتمع قديماً وحديثاً وله مكانته المرموقة.

□ السامري:

السامري أحد الفنون الشعبية التي تقام في ليال السمر، وهي نوع قديم متطور من الفنون الشعبية التي تعقد أيام السلم بالمناسبات وفي الليالي التي يحلو لمجموعة من الشباب أن يقضوا جزءاً من الليل في مسامرات ممتعة، وهي أقل حجمًا من العرضة، وهدفها الترويح عن النفس وقضاء وقت منعش مع مجموعة من الشباب، يجلو عن النفس الأكدار العالقة بها من جراء التعب، وتعقد غالباً في الليل في الميادين الفسيحة، أو في مكان خارج البيوت، وفي مكان مستوى مغطى بالجرعا «البطحاء» في بطن أحد الأودية وتعقد بالنهار تحت ظلال الأشجار، إذا كانت مجموعة من الشباب خارجة لنزهة في ضواحي المدينة أو القرية. وصفتها أن يجلس صفان متقابلان متراصان من الشباب جاثين على الركب ومع كل صف مجموعة من قارعي الطبول، المزخرفة والمزينة بعثاكيل من الخيوط الصوفية أو القطنية الملونة، يتولى بعض اللاعبين قرعها بأنفسهم، بالاضافة إلى ترديد الأغاني، وتكون المسافة بين الصفين ما لا يزيد عن ثلاثة أمتار، يقف الملقن أو الشاعر وهو الذي يعرف القصيدة فيما بين الصفين، يلقن هذا الصف الشطر الأول للبيت، ويغني معهم، ثم ينتقل إلى الصف الثاني ليعلمهم نفس شطر البيت، ويرفع صوته معهم، وأحياناً يكون الملقن في أحد الصفين، ويبدأ غناء الشطر الأول من البيت، ويردده الصفان مرتين ثم يكمل الملقن مع أحد الصفين البيت، وعندها تقرع الطبول، وهي دقتان خفيفتان، ودقة ثالثة أقوى منهما، تبعاً للايقاعات الملائمة للقصيدة حيث أن كل قصيدة الايقاع الخاص بها والملائم لوزن أبياتها ويصاحب ايقاعات اللحن المتمشية مع أبيات القصيدة حركات من اللاعبين من غير قارعي الطبول حيث تلتف سواعدهم وتتشابك أيديهم ثم ينهضون قليلاً وهم جلوس على ركبهم بحيث يتمايلون يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً بتموجات بديعة رائعة أما قارعوا الطبول فإنهم لا يقلون روعة بحركاتهم عن زملائهم، وقد اتخذوا من طبولهم حركة تواكب حركة رؤوس اللاعبين، غير أنها تتميز عنها في بعض القصائد بحيث تأخذ هذه الطبول حسب اصطلاحات معروفة تتحكم فيها جرة اللحن وإيقاعات الطبول بحيث تتمايل مع بعضها بحركة واحدة يميناً وشمالاً وترتفع

قليلاً ثم تستقر على الأرض، لتتلقفها الأيدي عند نقرة معينة، وتبدأ حركاتها من جديد هذه الحركات تضفي جواً ممتعاً على هذه اللعبة، ويوجد في الميدان بين هذين الصفين عدد من الراقصين الذين يتمايلون مع إيقاعات اللحن وأصوات المغنين، ومن أمثلة القصائد التي يجري غناؤها في السامري ولكل منها إيقاعها الخاص بها ويسمى «شيلة» فمثلاً القصيدة التي من أبياتها:

١٩٤ ـ يا عل يا سدرة الغرمول يسقيك
من مزنة هلت الما عقربية

١٩٥ ـ باغ ليا جيت سار من حواليك
عجل واخاف القمر يظهر علية

(محمد أبو قارى القرزعي)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

١٩٦ ـ يا حمام على الغابة بتوحي
ساجع بالطرب لا واهنية

١٩٧ ـ جعل زمل تبي سلمي تروحي
تنكسر في شعيب الحامرية

(موسى زيد السويداء)

يختلف إيقاعها عن اقصيدة التي من أبياتها:

١٩٨ ـ يا عيسى باحي
صبري وامزاحي
يا عيسى كنه
من حور الجنة

وتردد رباعية بحيث يردد الشطر الأول ثلاث مرات ويكمل الشطر الثاني مرة واحدة، يختلف إيقاعها القصيدة التي من أبياتها:

١٩٩ ـ يا علي صحت بالصوت الرفيع
يا مرة لاتذبين القناع[1]

٢٠٠ ـ شاقني راعي الصفرا الصنيع
سنها يا علي وقم الرباع

٢٠١ ـ اشتري منه كان انه يبيع
بالعمر مار ما ظني يباع

٢٠٢ ـ يوم أهلنا وأهل مي جميع
نازلين على حد الرفاع

٢٠٣ ـ شيتبني وأنا توى رضيع
جاهل توفي سن الرضاع

(محمد بن لعبون)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

٢٠٤ ـ نطيب رجم واثار الليل ممسيني
بديار غرب لعل السيل ماجاها

٢٠٥ ـ اضحك مع اللي ضحك والهم طاويني
طويت اشنون العرب لا قطر واماها

٢٠٦ ـ وراك ما تزعجيني الدمع يا عيني
على هنوف جديد اللبس يزهاها

(.......)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

---

(١) المجموعة البهية، ص١٢٢.

٢٠٧ ـ سرى البارق اللي له زمانين ما سرى
حقوق اخيالـه بارقـه يطرب السـاري

٢٠٨ ـ عـلى فرعـة الـوادي وسيله تحـدرا
تغني اطيـور الما عـلي الحايـر الجاري

(.......)

ويشبه السامري نوع يعتبر أطول منه في النغمة وأبطأ في الايقاع ويسمى الحوطي ويشبه السامري في جميع ترتيباته غير أنه أبطأ منه في الايقاع، وأمثال القصيدة التي ترد فيه:

٢٠٩ ـ واو جودي وجد من ورد الاجلالي
قـريتـه بـواهـج القيض مـطويـة

٢١٠ ـ طاب كيفي يا عـلي وانسمح بـالي
يـوم ابن مـرشـود جـاب الخبـر ليـة

(.......)

□ المراد ـ المساجلات الشعرية:

المراد أو المساجلات الشعرية هي أحد الفنون الشعبية التي برزت في الآونة الأخيرة، وان كان لها جذور عميقة في الماضي إنما كانت على نطاق ضيق ثم توسعت بعد ذلك، وتعقد في الأمسيات الشعرية وليالي السمر، والغرض منها الترويح عن النفس وقضاء وقت ممتع، وقوامها شاعران يتقابلان على الحلبة وهما قطبا اللعبة ومع كل منهما مجموعة من الرجال يرددون البيت الذي يقوله ويقفون صفاً متراصاً متماسكي الأيدي والشاعر واقف أمامهم، ويبدأ الشاعر بالبيت الأول موجهاً كلامه للشاعر الثاني، كأن يثني عليه في بداية الأمر ثم يدخل للموضوع ربما كان على أساس المداعبة ينعته ببعض النعوت ويردد ومن معه نفس البيت مرة أو مرتين أو أكثر، ثم يرد الشاعر الثاني ورفاقه البيت مرة

أو مرتين أو أكثر، ثم يرد الشاعر الثاني ببيت من نفس القافية والبحر، يرد فيه على ثناء الشاعر الأول أو يفند ما زعمه فيه من مقالب، وعادة تكون من التشبيهات المبهمة على سبيل الدعابة ويستمر رفاق هذا بترديد ما جاء به شاعرهم ويرد عليهم الشاعر الأول ورفاقه وهكذا يستمر الوضع حتى يعجز أحد الشاعرين عن الرد على صاحبه، أو يأتي أحدهما ببيت يعتبر الضربة القاضية على الخصم بحكم الحضور، والمساجلات الشعرية هي رياضة ذهنية للشاعر، تبين قوة الذكاء، وسرعة البديهة، وإيجاد سبك البيت، واختبار أقوى المعاني التي توقف الشاعر الخصم، وهي كذلك مجال فسيح لأن يدخل فيه من يرى في نفسه الكفاءة والمقدرة على مقارعة الخصم، وهي مكان للتجارب للناشئين والراغبين في ارتياد هذا النوع من الفن الشعبي، وتعقد حلقات هذا اللعب في المناسبات كالأفراح والأعياد وغيرها ويتم في الميادين الفسيحة، أو خارج المنازل وربما في النزهات خارج المدن والقرى، متى توفر العدد الكافي من الجمهور والشعراء، ولا يوجد في هذه اللعبة طبول وإنما يستعاض عنها بالتصفيق على إيقاع أبيات القصيدة وعادة تكون القصيدة من الايقاع السحوب ذات المواقف الحادة وعلى هذه المواقف يتم تصفيق الأكف بايقاع واحد، ويصاحب الايقاع تمايل للصفتين المتقابلين يميناً وشمالاً وتثني الركب قليلاً ثم اعتدالها مع تصفيق الأكف المتوافق مع إيقاعات الأبيات التي تتدفق بها الحناجر بكل حيوية وتحفز إلى معرفة رد الشاعر الخصم على هذا البيت الذي يجري التغني به الآن وتطول الصنوف كثيراً من الجمهور الغفير الموجود في الميدان سواء من المتفرجين أو المشاركين في حين يقف كل شاعر في صفه وهو يعصر مخه ويستجمع أفكاره، لاحضار الرد المناسب، وسبك البيت القوي، واختيار المعنى الملائم، ومتى أتم ذلك رفع عقيرته ملقناً أصحابه البيت الذي فرغ من نظمه لتوه، حيث يرفعون أصواتهم، وعندما ينتصر أحد الطرفين على الآخر، سواء بعجز الخصم على الرد أو أنه سد عليه المنافذ، عندها يدوي التصفيق من الجانبين والحضور معاً ثم تعلن نهاية القصيدة بكل روح رياضية ويدخل الميدان عبر هذين الشاعرين، أو يبرز شاعر ثانٍ يبارز الشاعر المنتصر حتى يغلب أحدهما الآخر، ومن الأبيات التي جرت في حلقة من حلقات المراد:

الأول:

٢١١ ـ سلام يالـلي تستحقـون السـلام
أمـوجهن لكبـارهـا واصـغـارهـا)

(طلال السعيد)

الثاني:

٢١٢ ـ يا مرحبا باللي بدا حلو الكلام
عـنـد الـطروق الأولـه وادوارهـا

(سليمان)

الأول:

٢١٣ ـ قـالو لي أنـك تجتلد شرق وشام
عسى الـذهيبـة مـا لـقى دوارهـا

(طلال)

الثاني:

٢١٤ ـ ودي يجي طلعك على قـد المقام
وتختـار يـوم الله عـطاك اخيـارهـا

(سليمان)

الأول:

٤١٥ ـ عسـاك مـا تلقي ويتبعـك المحام
ويـعـودن احـرارنـا لأوكـارهـا

(طلال)

الثاني:

٢١٦ ـ بعض السلع لو هي تجلب ما تسام
والغـاليـة تخـطب وهي بـديـارهـا

(سليمان)

الأول:

٢١٧ ــ سلام يالشاعر اللي كل ما شفته صقرني
مثـل الحبارى اللي ليـا شافت الصـارم صقرها

(ابن دويرج)

الثاني:

٢١٨ ــ تعيش يالشاعر اللي عند حقيم حقرني
انا لك ارنـب سـلف واعـيونها اللي حجرها

(الغرمول)

الأول:

٢١٩ ــ لا تحسبني اجريف كل من جا طمرني
تراى غبة بحر ما كل من جا عبرها

(ابن دويرج)

الثاني:

٢٢٠ ــ والله لخاطر بنفسي وان عجزت الله عذرني
كـللّشْ ولا قولة الغرمول عـود عن خطرها

(الغرمول)

□ الغناء على الربابة:

الربابة هي الآلة البسيطة القديمة التي صاحبت الإنسان العربي وآنسته منذ العصور الضارية في القدم، وهي رفيقته منذ تلك الحقب البعيدة وقد اتخذ منها

أنيساً يشاركه أشجانه، وأحزانه، يتفاعل معها، تمتزج مع أحاسيسه، يذوب مع نغمات أوتارها، يلجأ إليها ساعات المحن، يبث إليها الشكوى ويفتح لها صندوق أسراره ليسر إليها بالنجوى يطفح مع أنغامها ليلامس النجوم، ينساب مع صدى أنغامها ليبترد في الجداول المتدفقة الدافئة، يجتاز في رحلته المساحات البعيدة وتطوى له الأرض طياً بصحبة لغة أوتارها تتطامن الجبال مع هذا اللحن الشجي، ليبصر من يحاكيه كحبيب يوده وكأنه يعيش إلى جواره، تمتص أنغامها الكبت الذي يعانيه، وإذا عدنا قريباً إلى القرن الخامس الهجري أي قبل حوالي ألف سنة وجدنا الانطباع عن هذه الآلة قائمًا على هذا الاعتبار «إن الربابة هي الآلة الموسيقية التي اختص بها العرب القدماء، وبخاصة شبه الجزيرة العربية، وقد ذكر المنصور بن زين المتوفي سنة ٤٤٠ هـ، وهو أحد تلامذة ابن سينا بأن الربابة هي أكثر من غيرها محاكاة للحن، وتساوقاً معه[1]». وتتكون هذه الآلة من الهيكل وهو إطار إما أن يكون مستطيلاً نصف طوله يساوي عرضه أو دائرياً بيضاوياً، ويكسى هذا الاطار بالجلد غير المدبوغ المنظف من الشعر ويشد على هذا الاطار وهو رطب حتى إذا يبس أصبح صلباً ويفضل جلد الابل وأفضلها من جلد الذيب وهناك مثل يبين درجة هذا التفضيل يقول «جر السبيب على السبيب واللي يعوي جلد الذيب» ويخترق هذا الاطار القلب وهو عصا بقدر قبضة اليد أو أرفع يربط به الوتر من طرفيه، ليمر من فوق الجسم يرفعه عنه عودان قصيران مربوطان إلى بعضهما من الطرفين يرتكزان على جلد الجسم ويشدان الوتر يسميان «الحجش» والوتر المربوط في طرفي القلب يتكون من شعر ذيل الخيول «السبيب» وفي الوقت الحاضر يتكون من خيوط النايلون، يشهد هذا الوتر بدرجة جيدة، وهناك القوس وهو عود لدن محنى طرفاه ومربوط بهما شعر مثل الوتر ومشدود أيضاً بدرجة جيدة، وأحياناً يمسح العازف وتر الربابة والقوس بمادة «الجاوني» لتنظيف الأوتار بها ولتخشوشن نسبياً حتى إذا جر عليها القوس يحصل بينهما التفاعل المطلوب.

---

(١) السماع عند العرب ج ٣ ص ٩٠.

والعزف على الربابة من الفنون الشعبية المحبوبة التي يعشقها جمهور كبير من الناس، ويتعلق بهذا الفن المغرمون به لدرجة لا يستطيعون، الصبر عنه، ويتم العزف في حلقات تعقد لهذا الغرض في المناسبات، وفي ليالي السمر، ويلتف حول العازف مجموعة من المستمعين الذين يصغون للعزف بكل حواسهم، ويستمعون إلى القصيدة التي يرددها لعازف بكل انسجام ومشاركة وجدانية، وربما انفرد العازف وحده بلعب على أوتار ربابته في الهزيع الأخير من الليل يناجي أصدقاءه أو يشكي همومه، أو يبث آلامه يتوجد على أحبابه، يبوح بأسراره، يرسل تأوهاته، يتألم مما أصابه، ومن الألحان المشهورة التي تعزف على الربابة المسحوب: وهو ما يجر بعض كلمات القصيدة بنغمة طويلة تخرج من لأعماق ويسحب قوس الربابة تبعاً لذلك ليواكب كلمات القصيدة وهذا النوع دائمًا يختص بمواضيع الشكوى، والوجد، والحزن.

الهجيني: وهو اللحن الراقص على الربابة ويشبه صوت الهجيني الذي يغني على ظهور الإبل وهو ما يعبر عن الوصف، والوجد، وهذا اللحن خفيف الإيقاع راقص النغمة يتمشى مع أبيات القصيدة ذات الأبيات القصيرة، ويوحي هذا اللحن بالفرح.

الردادي: وهذا اللحن أطول من الهجيني وأقصر من المسحوب وهو من الألحان الشجية المؤثرة يتمازج من أبيات القصيدة وهو سريع الايقاع ويعبر عن الابتهاج والفرح أيضاً وهناك ألحان أخرى يتقنها كل عازف كالناعمي، والردادي، وغيرها.

كما أن العازفين يمتازون بالتفنن على تشكيل الألحان تبعاً لايقاع أبيات القصيدة ومن أمثلة القصيدة لنوع المسحوب التي من أبياتها:

٢٢١ ـ اللي وسم حالي خفي على الناس
وسم المحوص بجال خطو الركية

٢٢٢ ــ تعــاطن المعبـار من عنــد دواس
وأنــا عـلى الخــابـور مــالي مــطيــة

٢٢٣ ــ وكـل تذكـر عزوة لـه مع النـاس
وأنــا أتــذكــر عــزوتي شــمــريــة

(عبد الله بن رشيد)

والقصيدة من الهجيني التي من أبياتها:

٢٢٤ ــ يــا غصن لـونــك خضــر مملوح
لــو تــاخــذ الــروح مــسـمــوحي

٢٥٥ ــ خــذيـت روحـي بــلا مـصلوح
يــا عــزوتي لــيــه وش نــوحــي

(......)

والقصيدة من الردادي التي من أبياتها:

٢٢٦ ــ صـار مطراشي مـع البدو ذالـوفي
وابعـدا بي وانتحو عنـك يـا هـلالـه

٢٢٧ عـينهـا جمـة غـديـر يـقـفـقـو في
بمحــاجـر فيضــه عقب مـا ســالــه

٢٢٨ ــ والجـدايـل كـالقيـاطـين مصفـوفي
مثـل شرطـان الـذهب عنـد عمالـه

(......)

□ الغناء على السمسمية:

والسمسمية تشبه الربابة في كل شيء من حيث الأغراض والميزات وكل ما يتعلق بها إلا أنها تختلف عنها في نقطتين رئيسيين هما تعدد الأوتار فالربابة لها وتر واحد ويلعب عليها بالقوس أما السمسمية فلها عدة أوتار من ٣ ــ ٥

ويلعب عليها بمداعبة هذه الأوتار بأصابع اليد أو بريشة صغيرة تشبه في ذلك العزف على القيثار كما أن الألحان تختلف تبعاً ذلك وتعتبر بالمرتبة الثانية بالنسبة للربابة إنما تعتبر نوعاً آخر له أهميته وله محبوه، ويشكل العازف ألحانه على السمسمية بمهارة فائقة كما يشاء ويمكن أن يخضع كثير من الأبيات لألحانه، وأنغامها شجية مطربة راقصة، ومن أمثلة القصيدة التي تغني عليها القصيدة التي من أبياتها:

٢٢٩ ـ لا تجي بيت العنـود ولا تمـره
الحذر يالـلي عـلى عمـرك اتـداري

٢٣٠ ـ العنـود السهيـل والبيض المجـره
فـرقهن مثـل الفتيـل عن السـواري

(.......)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٣١ ـ واوجودي عليها وجد من فاطر له
غـره القيد منهـا في أفـروع المضـامي

٢٣٢ ـ المـوارد بعيدة والـدحل مـا يـدلـه
وأصبحت جرة الفاطر غشاها عسامي

٢٣٣ ـ عين خشف يقود الصيد دقة وجله
غذبت ناقـل البندق سـريع الـولامي

(.......)

□ الغناء مع محال السواني:

السواني هي الابل التي تنزف الماء من البئر بالدلاء، والمحـال هي البكرة الكبيرة المركبة على البير، «يمكن الرجوع إلى الباب الأول من الفصل

الثاني من هذا الكتاب» والمحال يتم تركيبها على البيئر بوضع محورها على حصوتين في المفرض المخصص لها على «الجنبوع» بطريقة فنية موسيقية، وينتج الصوت عن احتكاك المحالة بمحورها الخشبي المحكم «بقبها» ويتحكم بها السائق الماهر بحسه المرهف ليخرج منها مجموعة من النغمات الرفيعة، الوسط، الحادة، الجشة، الرخيمة، ليركب من هذه النغمات النغم الذي يريده، بما يتلاءم وحالته النفسية، بحيث تعزف له لحناً طرباً، أو شجياً، أو حزيناً، وعادة تكون المحال من ٢ ـ ٣ فإن كانت ثلاثاً فهو أفضل، كما أن لطريقة سياق الابل وسيرها في «المنحاة» أثراً كبيراً في تكوين هذه الألحان، فمتى كانت الابل «تنهز» الولاء «نهزاً» أصبح في اللحن إيقاع خاص يضفي عليه رونقاً مؤثراً.

والحقيقة أن الذي لم يسمع تلك الألحان ويتذوقها لا يصدق ما أقول أما من سمعها وعرفها فإنه يعتبرني مقصراً فيما أوردت عنها، وهذه الموسيقى التي تبدأ في الهزيع الأخير من الليل على تلك الآبار المتقاربة وربما المتبعدة أحياناً، وكل سائق قد وزن ألحان محاله وأتقنها، وانسياب هذه الألحان العذبة من هنا وهناك في هذا الوقت من الليل يذكر السامع بالبيت القائل:

٢٣٤ ـ غدو به الـلي يتعبون المحـال
مثـل العسـاكـر لجته بـالضبط فـوق

مع ما يصاحب هذا الوقت من الهدوء التام، والأجواء الصافية والخالية من الضجيج، يترك في النفس أثراً عميقاً، ولاسيما عندما ينهض سائق السواني ليشارك محاله ألحانها، وليتفاعل معها بحيث يمتزج الصوتان معاً ليكونا ألحاناً عذبة تطرب المستمع تحت سكون تلك القبة الزرقاء الصافية المرصعة باللآلىء اللامعة، وتنطلق تلك الحناجر بأغانيها المصاحبة لأنغام المحال في ذلك الوقت المتأخر من الليل وعلى طول النهار حتى حلول المساء الثاني بين الحين والآخر فكلما أحس السائق بالتعب والسأم، نفثه من حنجرته بتلك الأنغام، ويتحاشون الغناء في وقت الأذان والصلاة أما ما عداها فلهم حرية ذلك ويختلف مكان الغناء من المنحاة، فحينما نجد البعض يغني والابل في بداية المنحجاة «المستوى»

عندما تكون الدلاء في الماء بباطن البئر نجد البعض الآخر يغني عندما تكون الابلِ في نهاية المنحاة «المرفع» والدلاء تسكب الماء، وذلك ممن يؤمنون بالنتائج عملاً بالقول السائر «الغناء على الصبة». والغناء على ألحان محال السواني يكون من المسحوب الطويل بحيث يغني البيت من القصيدة «في التصويرة الواحدة» يليه البيت الثاني في «التصويرة الثانية» وهكذا يستمر حتى نهاية القصيدة والقصائد التي تعني بهذه المناسبة القصيدة التي من أبياتها:

٢٣٥ ـ واونتي منها الصغير يشيبي
كبر الجبل والنير واخشوم سنجار

٢٣٦ ـ ونت عليل ما لقواله طبيبي
والاكسير غادي عظمه انشار

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٣٧ ـ نطيت بالمرقاب لين القمر غاب
لين الثريا والنجوم ادبحني

٢٣٨ ـ لا واهنيك يا لنجوم المدابيح
اللي على جال البحر شرعني

(. . . . . .)

وغير ذلك من القصائد المماثلة لها.

□ الغناء وقت البناء:

يقوم العامل العربي بهذه البقعة ببناء القصور والقلاع والبيوت وحيطان البساتين والتحصينات، ويباشر عمله من بزوغ الشمس وحتى غروبها لا يتوقف إلا أثناء تأدية الصلاة أو تناول وجبة الغذاء، وأثناء تأديته لعمله الشاق المضني،

يشعر بالإرهاق والتعب، فلا يجد متنفساً لنفث هذا الاجهاد إلا بالغناء من نفس الموقع، حين نقل الطين أو اللبن، أو الحجارة وغيرها ورفع الأخشاب الغليظة إلى قمة المبنى، وتجريد سعف النخل من خوصه أثناء الليل، ويكون الغناء جماعياً على مجموعتين كل في مكانه، يؤدي عمله وفي نفس الوقت يؤدي دورة في الغناء، وأنسب وقت للغناء في وقت الظهيرة عندما تشتد حرارة الشمس، ويأخذ التعب من العاملين مأخذه، فعند ذلك يلجأون إلى الغناء، لازاحة كابوس السأم والاجهاد عنهم، أو عندما يثقل عليهم حمل الأخشاب الغليظة المحتاجة للرفع إلى سقف المبنى، يستعيون عليها بالغناء ليزيدوا من نشاطهم وقوتهم، أو عندما يريدون تجريد آلاف الجرائد الخضراء من خوص النخيل، بالسكاكين الحادة في ليلة واحدة قبل أن تذبل، لذلك يسهرون عليها ومتى دب النعاس إلى أجفانهم استعانوا عليه بالغناء لطرد النوم عن رؤوسهم، وكما اسلفنا يتم الغناء على مجموعتين وكل يؤدي عمله المعتاد، وربما زادهم الغناء نشاطاً ويتم ترديد البيت من ٢ ــ ٣ مرات لكل مجموعة حتى تنتهي القصيدة وتليها الأخرى، والقصائد التي تغني من بحر واحد هو اللحن الطويل المحرور، بدون استخدام أي نوع من أدوات العزف أو النقر، وإنما يتم الغناء مجرداً من أي شيء ومن أمثلة القصائد التي تغنى بهذه المناسبة القصيدة التي من أبياتها:

٢٣٩ ــ يا فهد ما نلومك لو زعجت الونين
لــو تهيضت بعــالي رفيــع الحمــام

٢٤٠ ــ من يلوم المشقى جعل قلبه حزين
والقلوب الضــوامي ما عليهن مـلام

(. . . . . .)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٤١ ــ الاواو جودي وجد من قيل يا مرحوم
تــوفى عســر من عقب دنيــاه للجنــه

٢٤٢ ـ أنـا صاحبـي شـدوا اهـله مـع رحـيـل اليوم
ولا يـرحعـون الا عـلى بـارق الكنـه

(. . . . . .)

□ الغناء على ظهور الإبل «الهجيني»:

الإبل هي رفيقة الانسان العربي منذ الحقب السحيقة في التاريخ، وعلى ظهورها جاب الفيافي والقفار، وطوت به المسافات الطويلة، وفتح الممالك والأمصار، تطفح به تارة، وترقل به أخرى، وتمشي به الهويني متى كلت واحتاجت إلى الراحة، تحمل زاده وتموينه، وهي شريان حياته النابض بالحيوية والنشاط، ولكل مهمة من المهمات نوع من الإبل «فالزمل» هي الذكور من الإبل والرواحل من الاناث كلها معدة لحمل الأثقال، و«المسح»[1] هي النياق المعدة للحلب وتسمى «الخلفاة»، أما «الهجن» فهي الذلول المعدة للركوب وتسمى مطية وأساس التسمية على الأنثى على أنها تطلق على الذكر من باب المجاز، ويختار منها الأنواع المنصوص عليها في الفصل السابع من الباب الخامس من هذا الكتاب، والنوع الذي يغنينا هو الركائب «الهجن» وهي نوع من الذكور الأحرار، والنوق العمانية وربما من الأنواع الأخرى وهي المعدة للركوب كالغزو والسفر، وهي التي تطرب للغناء كما أشارت إلى ذلك الشاعرة «اللامية» بقولها:

٢٤٣ ـ لا وابن عمي كل ما جيت أبا أنساه
ليـا هي تـذكـرني من الهجن حـايـل[2]

---

(١) قلب جزيرة العرب، فؤاد حزة، ١٢٨.
(٢) من أحاديث السمر، ص ٢٣.

٢٤٤ ـ لا وابن عمي تطرب الهجن لغناه

يـا ما زعـج فوقـه بحـامي القـوايـل

(.......)

هذا النوع من الابل تطرب وترتفع أعناقها ممتدة إلى الأمام، تغذ السير، وتنهب الأرض، وتطوي المسافات، عندما يلامس آذانها أصوات المغنين، على ظهورها، الذين يرددون أغانيهم ذات الايقاع القصير الراقص، المتدفق رقة وعذوبة وحيوية، فيزول عنها التعب ويتجدد نشاطها، ويتلاعب «دلال» الخرج بين قوائمها، متراقصاً مع إيقاع اخفافها على الأرض التي لا تكاد تلامسها، بينما راكبها يتمايل طرباً يميناً وشمالاً فوق أريكة الشداد الناعمة وقد لف ساقه على رأس الشداد الأمامي «غـرابة الشداد» كنوع من الراحة أثناء وخد مطيته وقد أمسك الـرسن بيده اليسرى، وأمسك بعصا الخيزران اللين المتغطرف رافعه إلى أعلى بيده اليمنى، يدق جنبه بمرفقه دقات خفيفة تتمشى مع إيقاعات القصيدة التي يرددها، في هذا الجو الطافح بالنشوة، ولاسيما عندما تكون كلمات أبيات القصيدة تلاس شغـاف القلب من الوصف الـدقيق، والتصويـر الشفاف، والتجسيد البارز، والذكريات الحلوة، والأماني الغالية، عندها يهزه الطرب، فتومي رقاب الهجن على إيقاعات أبيات القصيدة، ووقت الغناء على ظهور الإبل عندما يحس الركاب بالملل من طول المسافة، أو عندما يرون مطيهم قد أحست بالكلل في أوقات ارتفاع حرارة الشمس أو طول السرى، فعندها يرددون اللحن الذي يغني على ظهور «الهجن» وهو «الهجيني» وهو من الايقاع الخفيف الراقص، وقصائد «الهجيني» بنفس الوزن وعادة لا تطول أبياتها بحيث تكون من ثلاثة إلى خمسة أبيات وربما أكثر ومن أمثلة أبياتها:

القصائد التي تغني القصيدة التي من أبياتها:

٢٤٥ ـ يـا هـجـن شـيـلن بـنـا شـلة

يـا شـايـبـات المـحـاقـيـبـي

٢٤٦ ـ واســرن بـنــا لــيـلة كـلـه
وارد بـنــا مــا رد الــذيـبــي

(. . . . . . .)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٤٧ ـ أشــرفـت انــا راس مـيــقــوعـي
وطـبيت مـن عــرض مـن طـبه[1]

٢٤٨ ـ وغـرقت أنـا الـطعس بـدمــوعي
مــثـل الهــمــالــيـل لـيـاصـيـة

٢٤٩ ـ يــالــلي تــريــدون مــنـفــوعــي
حــطو عــلى الــقـلب لــه ضـبــة

٢٥٠ ـ قـلبي فــرا الحـبيـب واضـلوعي
والــقــلـب لا فــروش طــبــة

(. . . . . . .)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥١ ـ قــالــت افـريحـة حمـام نــاح
يــا مــال ســلال الأرواحــي[2]

٢٥٢ ـ يال لورق عـطني هـواك وشــاح
واعــطيـك طـوقــي ومـســبــاحي

٢٥٣ ـ مـار انت يـالــورق مــا تنصــاح
فــأنــا عــلى الــبــاب مــداحـي

---

(١) المعجم الجغرافي، ج ٣، ص ١٢٩٧.
(٢) المجموعة البهية، ص ١٢٥.

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥٤ ـ يـا راكـب لـلي قـراهـن شيـب
شـيـب الـنـسـانـيس والـغـارب

٢٥٥ ـ يلفـن لـبيـت بـه الـتـرحيـب
بـيـب لابـن جـابر الـشـايـب

(حماد الحايطي)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥٦ ـ أمس الضحى شفـت انـا طفـله
والـيـوم مـا شـفـت انـا ريفـي

٢٥٧ ـ ريمـيـة هـين جـفـله
مـا يـنـعـرف لـه مـواقـيـفـي

(......)

□ الغناء على ظهور الخيل:

يختلف الغناء على ظهور الخيل عن أي نوع آخر من الغناء، سواء من حيث الايقاع أو المناسبة أو القصيدة أو الغرض، فحينما نجد الغرض من الغناء هو الطرب أو الترويح عن النفس في الفنون الأخرى، نجده على ظهور الخيل يختص بالافتخار وشحذ الهمم، ودفع الخيل إلى قلب المعركة، كما نجد القصائد التي تقال في الفنون الأخرى طويلة نجد القصيدة هنا تتكون من بيت أو بيتين لتواكب لحظات الحسم القصيرة، كما أن ايقاع القصيدة في الفنون الأخرى من الايقاع الطويل أو الراقص، بينما هي هنا من الايقاع الحاد السريع الذي يتمشى مع وقع حوافر الخيل، لهذا فقد تبين بايضاح، الملامح الرئيسية من الأغنية التي تقال على ظهور الخيل وهي نوع من «الحداء» فعندما يقتحم الفارس غمار

المعركة، ويتحدى خصمة العنيد، يبدأ «بالحداء» على فرسه بكلمات حادة شديدة الوقع على الخصم، تزلزل الأرض من تحته، وعندما تسمع فرسه أو حصانه زمجرة الفارس من فوقها بهذه الكلمات التي تخرج من سويداء قلبه «تشوش» وتطفح عن الأرض واثبة نحو الخصم بسرعة فائقة لتسمع عزف صليل السيوف أو مقارعة الرماح يصاحب هذه الأهازيج المتبادلة بين الفارسين، ومن أمثلة المقطوعات التي تقال على ظهور الخيل:

٢٥٨ ـ يومك تتقى با لعريش
والشُّرْفُ ما فكيتها[١]

٢٥٩ ـ من فعلنا قلبك خريش
والمرجلة خليتها

(الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود)

المقطوعة الثانية:

٢٦٠ ـ يا سابقي عند اللزوم
تاصل وانا خيالها

٢٦١ ـ تقطع سماريت الحزوم
بالمعمعة تجوالها

المقطوعة الثالثة:

٢٦٢ ـ ان كان ما جانا نجيه
فوق النضا والمكرمات

٢٦٣ ـ رد النقامني عليه
قولوه ياهل الموجفات

(الملك عبد العزيز آل سعود)

---

(١) من شيم الملك عبد العزيز، ص ١١٢، ١١٦.

□ غناء سقي المواشي:

يعتبر الغناء مع متح الماء لسقي المواشي نوعاً من الفنون الشعبية المنتشرة على مضارب البادية وبالذات قرب تواجد المياه ولكل قبيلة نوع من المقطوعات التي يرددها الرعاة عندما يكونون على البئر لسقي مواشيهم غير أنها بصفة عامة لا تعدوا كونها متشابهة في الايقاع والغرض والمدلـول، وطول المقـطوعة، فالمقطوعة تتكون من بيتين أو ثلاثة يتم ترديدها وقد سبقت الاشارة إلى ذلك «في الفقرة السادسة من الفصل الخامس من هذا الكتاب» وتتكون هذه المقطوعات من الأبيات القصيرة كما أسلفنا ذات الكلمات السهلة التي يحفظها كل إنسان، أما إيقاعها فهو حاد سريع يواكب وقع أكف الرجال على «المحص» الرشا، الشطن، الذي يمتحون به الماء من البئر لسقي مواشيهم، فإذا أحس الرعاة بالتعب من نزف الماء بالدلاء من قاع البئر لجأوا إلى الغناء بما يرددون وذلك للترويح عن النفس وطرد التعب بتردد تلك الأبيات ويتم اختيار الأبيات ذات الكلمات الرقيقة التي تلامس شغاف القلوب من الوصف الشفاف، أو كلمات الحرقة والوجد على المحبوب أو الافتخار وإظهار مفاخر القبيلة ممن يرغب الشباب ترديده لبعث النشوة والنشاط ولاغراء زملائهم في التسابق والامساك بهـذه الأشطان ونزف الماء لارواء تلك المواشي العطشى ومن أمثال هذه المقطوعات الواردة في الأبيات ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

□ غناء الدّحة «المصنع»:

عند بعض القبائل العربية يعقد نوع من الاحتفالات بمناسبة الأعياد، والزواج، والختان، ومناسبات أخرى كالعودة من السفر ويقام فيها لعب «يسمى الدَّحَّةْ أو المَصْنَعْ»[1] ويشترك في هذا الاحتفال الفتيان والفتيات جنباً إلى جنب، وهذه اللعبة من الألعاب التي تقام في الفترة السابقة، وحيث أن موضوع الاختلاط فيها مخالف لتعاليم الدين الإسلامي السمحة، فقد جرى إلغاؤ ها تماماً

(١) من شيم العرب، ج ٣، ص ٧٢.

في الوقت الحاضر، غير أنه يجب الاشارة إليها استكمالاً للبحث، وصفتها أن يجتمع الفتيات والفتيات قرب مضارب تلك القبائل، نلبس الفتيان أنظف ملابسم ويتمنطقون بأحزمتهم المحلاة بالخناجر اللامعة وبأيديهم السيوف أو البنادق والمسدسات، بينما تحضر الفتيات والنساء وقد لبسن أزهى ملابسهن، وتحلين بأبهى حليهن، ويجتمع المتفرجون من الرجال والنساء بأحسن هيئتهم ليشاركوا بهذه الاحتفالات، يجتمع الكل على صعيد واحد قرب البيوت بحيث يصطف اللاعبون في صفين متقابلين مختلطين ويتماسكون بالأيدي، وبينهم عدد من اللاعبين: اثنان من الفتيان واثنتان من الفتيات ثم يبدأ واحد من الفتيان مع واحدة من الفتيات باللعب حول بعضهما يدور كل واحد حول صاحبه، يتلامسون بأطراف الأكف، وهي قريبة الشبه من «الدبكة الأردنية» ويبدأ الشاعر يلقن أحد الصفين بيت القصيدة ثم يردده الصف الثاني، وهكذا يتم ترديد أبيات القصيدة، يصاحب إيقاع أبيات القصيدة تصفيق بالأكف من الصفين ثم اشتباك الأكف مرة أخرى مع تمايل إلى اليمين والشمال والأمام والخلف، مع رفع الأقدام قليلاً بالتناوب على إيقاعات القصيدة ويتلوى اللاعبون في الميدان على إيقاعات التصفيق بحركات رشيقة، وأحياناً يصاحبها قارع طبل واحد لدى بعض القبائل وتستمر هذه اللعبة، ويتناوب في الميدان من يحب اللعب من الصفين المشار إليهما حتى نهاية اللعبة، أما القصيدة التي تقال فهي من الأبيات القصيرة كنوع من «الحداء» ذات الايقاع الحاد السريع وعندما يصاحبها تصفيق الأكف يكون لها صوت مؤثر يغمر اللاعبين بنشوته، بحيث يستمر من يلعب في الميدان وقتاً طويلاً لا يحس بما يبذله من جهد جسماني، في حركاته العنفوانية، وتعقد هذه الألعاب غالباً في وقت الأصيل، وربما استمرت إلى منتصف الليل، أما القصائد التي تغنى فيها فمن أمثالها ما يلي:

٢٦٤ ـ جينا على الدحة جينا
يا ما احلا صوت منادينا

٢٦٥ ـ نلعب والقمرا تفضحنا
بالظلما يبرق موضينا

(......)

والمقطوعة الثانية:

٢٦٦ ـ بـالمصـنـع سـهـرتـنـا الـلـيلة
يـا حليـل الـعـنـدا يـا حليـله

٢٦٧ ـ تـلعب كـنـه ريم الـصـحـرا
تجـفـل مـن لمـسـه شـليـله

(.......)

والمقطوعة الثالثة:

٢٦٨ ـ ليـا جـا بـالـقـمـرا صـوتـنـا
عـلى المـلعـب يـا غـزلان

(٢٦٩ ـ قـولـو لـلعـود يجـنـبـنـا
يجـيـنـا بس الـصـبـيـان

(.......)

◻ الغناء مع الرحى:

تعاني المرأة العربية في ذلك المجتمع من الجهد الجسماني ما يفوق طاقة الإنسان، ويمكن الاطلاع على ما تقوم به من عمل في الفقرة الثانية من الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب ومن ضمن الأعمال التي تقوم بها، طحن الحب على الرحي المكونة من قطعتين دائريتين من صخر «الجرانيت» محزوقتين من الوسط السفلى تكون ثابته وبها القطب الذي تدور عليه القطعة العليا التي يوجد بثقبها بكرة القطب ومثبت رأسياً بأحد أطرافها وتد من الخشب يسمى اليد، تمسكه المرأة وتبدأ بادارة القطعة العلوية وتسكب الحب قبضة قبضة في بلعوم الرحى حيث تدخل من بين الطبقتين وأثناء إدارة الطبقة العليا يخرج من بينهما طحين ناعم، وتتحكم المرأة بنعومة الدقيق وخشونته من خلال رفع القطب أو خفضه بالقدر الذي تريد، وبما أن الدقيق مادة رئيسية في الغذاء اليومي والذي

لابد أن يكون قد مر بين فكي الرحى من خلال قبضات اليد المتتالية التي تلهمها المرأة بلعوم الرحى، فإن المرأة والحالة هذه تقضي مقدار ساعة في طحن وجبة اليوم للعائلة المتوسطة، فكيف الحال إذا كانت تريد طحن دقيق لوليمة كبيرة، أو تجهيز زاد للمسافرين، أو الحجاج، أو الغزو وما إلى ذلك؟ فلابد أن تقضي ساعات وهي جاثمة على مركب الرحى لطحن زنابيل الحب، المنقى سلفاً من الشوائب والمزوج بالكمية الكافية من الملح ثم تعبئته في الزنابيل مرة أخرى، وهذا النوع المتوسط من الزنابيل يسمى «المطحان» إذاً والحالة كذلك تنقى الحب وتصفيه ثم تبدأ بطحنه فلابد أنها تكابد هذا التعب الجسماني المرهق لابد لها أن تبحث عن منفس يطرد عنها الارهاق والسأم، فعند ذلك تلجأ إلى الغناء والغنى مع الرحى محبوب عند كثير من النساء، فهو إلى جانب كونه نوعاً من الترويح عن النفس وطرد التعب والسأم ففيه كذلك تنفيس عن الكبت بأنواعه، العاطفي والاجتماعي، وما تعانيه المرأة من المشاكل الاجتماعية وما تريد أن تعبر عنه بطريقة غير مباشرة، وتعتبر الرحى مفتاح أسرار المرأة، فمتى تعبت وأخذ منها الاجهاد مأخذه، وضاقت في عينيها رحابة الكون وهي بجانب هذه الرحى، أدلت بما لديها وكشفت صفحة أسرارها بصوت مرتفع على مسمع من الناس، وكثير من أسرارها تبوح بها من هذا المنبر المرهق، ولغناء النساء مع الرحى شجى، مطرب، ينساب من شفاههن بنغمة مسحوبة خمرية جذابة، وبأوتار رقيقة تتدفق عذوبة وسحراً، يتمشى إيقاع أغانيهن مع دوران الرحى وصليل أطرافها بالحب متفاعلاً مع صوت الحفيف الناتج عن تكسير الحب بين فكي الرحى، وتتلاعب ظفائرها مع مجاذبتها وتر الرحى، وأفضل ما يكون الغناء إذا تقابلت إمرأتان على مراكب الرحى يتجاذبان الوتد، ويطوحان بتلك الأصوات الجميلة بالطريقة المشار إليها، تقول أحداهن شطر البيت، فترده الثانية وهكذا مرتين لكل شطر من البيت، حتى نهاية القصيدة.

والقصيدة التي تغني بهذه المناسبة، من القصائد الطويلة ذات الايقاع المجرور، وربما امتد وقت الغناء لساعات يتم خلالها الغناء بين فترة وأخرى، ويطرب لأصواتهن من يسمعهن داخل البيت أو بقرب المكان، وأفضل الأوقات

للغناء هو وقت الهجير عند اشتداد الحر وزيادة الارهاق، أو في الليل عندما يكون الناس قد أخلدوا إلى الراحة، ومن القصائد التي تغنى بهذه المناسبة، القصيدة التي من أبياتها:

٢٧٠ ـ أمس الضحى نطيت راس المذيريب
من طلعة البيضا لما قيل غابه

٢٧١ ـ وأنا على حسي عوى عاوي الذيب
والقلب ذاب ودمعة العين رابه

٢٧٢ ـ يا سعود قل لامك ترى جاك خطيب
يبغاه مني مار قولي هلابه

(محمد راشد الحمد)

والثانية التي من أبياتها:

٢٧٣ ـ لا وافرير واتمزع ضميري
على عشيري دب الأيام ما انساه

٢٧٤ ـ والله من دمع يهله نظيري
لو هو على واد الحليفة درج ماه

٢٧٥ ـ عليه مزعنا ثويب الحريري
وشوك الهصير بروس الأقدا ناطاه

(زوجة البجادي)

والثالثة التي من أبياتها:

٢٧٦ ـ نطيت بالمرقاب وأوميت بالخمس
واقول يا واد الغضا وين خليٍّ

٢٧٧ ــ كان أمس مثل اليوم واليوم مثل أمس
وان كــان بــاكــر مثلهن زاد غــليٍّ

٢٧٨ ــ خـلي عقد لي عقـدتـين بـلا لمس
وأنــا عقــدت الـثــالـثــة مــا تحـليٍّ

(. . . . . . .)

وما شابه ذلك من القصائد التي تتعلق بالمرأة.

□ الغناء على المهراس:

المهمة الثانية التي تقوم بها المرأة في تجهيز الوجبة الغذائية اليومية هي هرس الحبوب غير القابلة للطحن، مثل القمح الصلب «اللقيمي» أو الدخن بأنواعه، هذه الأنواع غير قابلة للطحن وإنما يتم هرسها حتى تذهب القشرة العليا من الحبة وعند ذلك تطبخ على حالها وأحياناً تجرش مرة ثانية، كذلك يحتاج إلى «هبش» نوع من الأرز العراقي «التمن» وذلك لوجود قشور على الحب فيتم هرسه قليلاً ثم ينقى ويصفى تمهيداً لطبخه، والأداة التي تتم بها العملية هي المهراس «المهباش، الميخف» وهو خشبة غليظة بطول المتر تقريباً وقطرها حوالي ٥٠ سم محفور أعلاها بحيث يصبح قطر الحفر ٤٠ كم بعمق حوالي ٤٠ سم، وتختلف الأحجام بالكبر والصغر ويكون له عصا غليظة وربما اثنتان بطول متر ونصف وسماكة قطره حوالي ١٠ سم ويوضع الحب بداخل هذا الحفر ويبلل قليلاً ثم تبدأ النساء بهرسه بهذه العصا الغليظة ومع هذه العملية يبدأ الغناء كما أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

٢٧٩ ــ طـرابـة الـدنيـا معـاميـل وأفــراش
وصينيـة يـركض بهـا العبـد مسعــود

٢٨٠ ــ وبيض تعاطن اللحن فوق مهباش
واحلوبــين اكفـوفهن قــاسي العــود

(مشعان بن هذال)

وكما هي الحال في الغناء مع الرحى فإن الغناء هنا لغرض الترويح عن النفس، وبعث النشاط والحيوية في هذا الوقت بالذات التي تحتاج فيه المرأة إلى النشاط والقوة لرفع هذا العصا رأسياً ثم إيراده بقوة في قاع المهراس التي يتم هرس الحب بها، ويتقابل اثنتان واقفتان كل واحدة معها عصاها المشار إليه، والمهراس بينهما ويتعاقبن بالهرس بهذا العصا واحدة ترفع والثانية تورد بالتتالي وهكذا حتى يتم هرس الكمية الموجودة في بطن المهراس ثم تفرغ ويوضع غيرها حتى يتم هرس القدر المطلوب، وبطبيعة الحال فإن القصائد التي تقال بهذه المناسبة من الايقاع السريع والحاد المتمشي مع إيقاع العصا في بطن المهراس وهو شبيه «بالحداء» وعندما تقوم النساء بهذا الجهد المضني ويشعرن بالتعب يبدأن بالغناء يتمايلن أماماً وخلفاً رافعات موردات تلك العصي الغليظة يتخاطفن أنفاسهن من التعب يصاحب هذه الأنفاس الأغاني التي تطوح بها واحدة للثانية ومن الأمثلة عليها: هذه الأبيات وما شابهها:

٢٨١ ـ نجم ياللي تلالا صوب ديرة هلي
بشـــر أمي تـرا لمحجـول حصلتنـاه

٢٨٢ ـ صاحبي ينقش الحنا بكف حسـين
مثـل نقش المطوع بـالقلم والـدواه

□ الغناء في حفلات الرقص:

كما أن للرجال مناسبات يجتمعون بها ويلعبون بها ويرددون أغانيهم فكذلك لنساء، فإن المناسبات العامة كالأعياد وأفراح الزواج والختان وغيرها، خير مجال لتجمع النساء في مكان منعزل حصين عن الرجال، يقمن بهذا التجمع للرقص والغناء وحدهن، وتقوم الفتيات بنصيب وافر من الرقص أما السيدات فيشارك بعضهن والبعض الآخر يحضرن للتشجيع والمشاركة والتفرج، وحينما تحضر النساء إلى مكان الاحتفال وقد ارتدين أزهى ملابسهن، ولبسن أبهى حليهن، وتعطرن بأزكى أنواع العطور، كل حسب مقدرتها، وتزين بمختلف أنواع الزينة المتاحة آنذاك من الكحل والحناء والمشاط وغيرها، ويكون الرقص

في مكان متسع يصف فيه النساء صفين متقابلين من السيدات وإذا كان الرقص بمناسبة زواج فيكون الرقص بحجرة العروسين أو بالقرب منها وفي وسط الميدان ينزل واحدة أو اثنتان، وقد نقضن جدائل شعورهن، وكيفية الرقص أن ترقص الفتاة منفردة على نغمات الأغنية التي يرددها الصفان والمتمشية مع إيقاع تصفيق الأكف ونقرات الطبل، وتبدأ الراقصة بالتمايل يميناً وشمالاً تلاعب شعرها المتدلي إلى الأرض ثم تأخذ حركات إلى الأمام والخلف تجاذب شعرها مع قفزات خفيفة ثم تبدأ بحركة إضفاء أحد أردان ثوبها الفضفاض الموشى بخيوط الذهب على شعرها وتحجب به وجهها واضعة ذراعها فوق رأسها وهي ترقص بحركات أخف قليلاً لتأخذ قسطاً من الراحة، ثم تزيح الأردان عن شعرها وتبدأ تتمايل ملوحة بيديها وأردانها تلعب بشعرها المتموج ذات اليمين وذات الشمال، والصفان من حولها يتبادلن أبيات القصيدة ويصفقن بإيقاع جميل ترقص الفتاة عليه ويختلف موضوع القصيدة فحيناً تحتوي الأغنية على مديح أخ الفتاة الراقصة أو اباها أو أحد أقاربها وتدخل الملقنة اسم المذكور في بيت اضافي بنفس القافية إلى القصيدة السابقة بحيث يغني مع أبياتها وكأنه جزء منها، وأحياناً تكون القصيدة مستقلة، والغرض من الغناء هو الترويح عن النفس وقضاء وقت ممتع بعيداً عن جو العمل المرهق في هذه المناسبة، والاختلاط ببعض الصديقات اللواتي لم يجتمعن بهن منذ فترة طويلة وهو مجال فسيح للفتيات لممارسة عملية الرقص والتدريب عليه، كما أن هذه المناسبة مجال للتعارف بين النساء والفتيات من بنات الحي الواحد أو القرية أو مضارب البادية، ولهذه الاحتفالات أهمية بالغة لدى كثير من النساء حيث ينتظرنها بفارغ الصبر، ويتم الاعداد لها بوقت كاف، وعادة يكون الرقص في بيت من بيوت الناس الموثوق فيهم بعد خروج الرجال منه ويكون لصاحب هذا البيت هيبة عند الشباب، حتى لا يتجرأ أحد من الشباب بالاقتراب منه ومضايقة النساء، ويستمر الحفل من ساعتين إلى ثلاث وأحياناً يمتد أكثر من ذلك ويعقد عادة في النهار، أما القصائد التي تغنى بهذه المناسبة فهي على نوعين نوع من الأبيات التي تغنى با «لهجيني» لكن إيقاعها يختلف حيث تتخذ ايقاعات سريعة متتابعة حادة راقصة، يرد فيها شط البيت مرتين متتاليين ثم يتم الانتقال إلى الشطر الثاني بنفس الطريقة وتسمى «السوقية»

والنوع الآخر هي القصائد الي تغنى بالسامري، وتختلف كذلك في إيقاعها عن السامري بحيث يردد شطر البيت مرتين بنغمة أطول من سابقتها، وهناك الكثير من القصائد يتم تكييفها وتلحينها لتصبح صالحة للغناء مع الايقاعات التي تناسبها ومن الأمثلة على ذلك ما يلي.

القصيدة التي من أبياتها:

٢٨٣ ــ يــا غــزيــل البكــر وش جــابــك
يــا غــزيــل البكــر وش جــابــك

تجــلــب بــســوق الــبــكــيــريــة
تجــلــب بــســوق الــبــكــيــريــة

٢٨٤ ــ تجــلب خــفــى مــا دريــنــا بــك
تجــلب خــفــى مــا دريــنــا بــك

يــا تــيــة الخــير مــن يــتــيــة
يــا تــيــه الخــير مــن يــتــيــه

مــا تشــوف حــالي من أســبــابــك
مــا تشــوف حــالي من اســبــابــك

٢٨٥ ــ مــثــل الــعــيــاديــن مــبــريــة
مــثــل الــعــيــاديــن مــبــريــة

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٨٦ ــ واونــتــي ونــت مــريض عــنــوبــه
واونــتــي ونــة مــريض عــنــوبــه

عــضيض غــلث وشم دم الــبــرازي
عــضيض غــلث وشم دم الــبــرازي

٢٨٧ ـ على الذي يا خليف ماني بصـوبه

على الذي يـا خليف مـاني بصـوبـة

لا هـو ولـد عمي ولا هــو مجـازي

لا هـو ولـد عمي ولا هــو مجـازي

٢٨٨ ـ الخـد قـرطـاس الشـريف اكتــوبـه

الخــد قـرطــاس الشـريف اكتبــوبـه

والعـين عـين الـلي ربت بـالنفــازي

والعـين عـين الـلي ربت بــالنفــازي

(حماد الحايطي)

وغير ذلك من القصائد شائعة الاستعمال في مثل هذه المناسبات.

□ □ □

الفصل الرابع عشر:

الحياة الاجتماعية

□ العادات والتقاليد والأعراف:

العادة فعل معينّ اعتاد الفرد أو المجموعة على عمله بعد أن استمروه وراق لهم، وقد تكون جذورها موروثة قديمة أو بدأت حديثاً واعتادها الناس، أما التقليد فهو كذلك فعل معينّ بدأه أحد الناس قديماً أو حديثاً وغالباً يكون الذي بدأه من المرموقين أو من علية القوم، ورأى الآخرون في هذا الفعل حسناً فقلّدوه وساروا عليه، أما العِرف فهو أيضاً عمل معينّ تعارف الناس على استحسانه واستساغوه واتّخذوه منهجاً يسيرون عليه، وكل من العادات والتقاليد والأعراف لها مسبّباتها التي ارتكزت عليها جذورها البعيدة، كما أن لها نتائجها المترتّبة عليها بعد ذلك، وحيث أن هذا الثالوث لا يوجد له نصوص يرتكز عليها، وإنما يبدؤه شخص معينّ لظروف معيّنة يتمشّى معه ويخدمه وربما بزوال هذا الظرف تقلّ أهمية هذه العادة وربما يكون لها أثر سلبي مؤثّر، وخذ مثلاً على ذلك، هناك عادة الانتهاء من الطعام دفعة واحدة بمجرّد أن يقوم أحدهم ويتنحنح قائلاً «خلّف الله عليكم» يقفز كل مَن على الوليمة حتى ولو كان البعض لا تزال في نفسه رغبة للمزيد من الأكل، وقد نشأت هذه العادة عندما كان الطعام قليلاً لدى الناس مع كثرة الضيوف والزوّار، مما يجعل المضيف يقدّم ما يستطيع تقديمه من الزاد الذي يضعه أمام ضيوفه، وهذا الزاد الموضوع بتلك الصينية ليس لهؤلاء الضيوف والمدعوّين فقط، ولكن هناك بقية ضيوف ومدعوّين آخرين ينتظرون دورهم، وربما أهل البيت أيضاً، حيث لا يوجد زاد

غيره، لذلك عندما يرى كبير القوم أن الدفعة التي معه قد نالت نصيباً من هذا الطعام، وبدافع الإبقاء للآخرين ينهض «مخلّفاً» ويقول: «زادكم الله من واسع فضله» وذلك إيذاناً للآخرين بالقيام وترك المجال لغيرهم، ويعيب الناس على من يتخلّف عن القيام بعد ذلك، وهكذا بقيت هذه العادة مواكبة لذلك الظرف وخادمة له وحينما زال بتوفّر الخيّرات أمر جلالة الملك عبد العزيز بإلغائها فزالت شيئاً فشيئاً. أما التقليد فهو يختصّ بالمظهر العام للناس، وخذ مثلاً على ذلك، اعتاد العربي أن يلبس العباءة «البشت» تحت «الغتـرة» الطرحة واستمر على ذلك طويلاً حتى بدأت العباءة يوشي جيبها بالخيوط الذهبية منذ ما يزيد على قرن من الزمان، وقد أهديت للحاكم عباءة موشاة بخيوط الذهب فلبسها على الطريقة المعتادة، غير أن أحد حاشيته اقترح عليه أن يلبسها فوق «الغترة» وذلك لإظهار نقش الخيوط الذهبية ففعل، ومنذ أن رأى الناس الأمير قد لبسها على تلك الطريقة الصحيحة قلّدوه، وأصبحت هي لبستها المفضّلة منذ ذلك الوقت، أما العرف فهو في نفس الإطار إلا أن له غرضاً أعم، وخذ مثلاً على ذلك، كان الناس إذا أراد شخص أن يتزوج دعا مجموعة من أقاربه، وأصدقائه وجماعيته لحضور حفل الزواج، وقد تعارف الناس أن كل مدعو عليه أن يحضر للعريس هدية بقدر استطاعته سواء أكانت نقدية أو عينية وذلك انطلاقـاً من مبدأ المساعدة للعريس على تكلفة الزواج، كذلك الحال فيمن تدعوهن أم العروسة، فإنهن يساهمن بهداياهن لمساعدة العروسة على تأثيث بيتها والقيام بأودها، هذا العِرف نشأ عندما كانت حالة الناس المادية ضعيفة واستجابة لمبدأ التعاون سار هذا العِرف وساهم مساهمة فعّالة في سدّ عوز الناس. هذه العادات والتقاليد والأعراف تنشأ عند الحاجة إليها أو عندما يتمّ تصحيح وضع معينّ، أو عندما يرى فيها مساعدة للآخرين، والواقع أن لكل جزء من المنطقة موضوع البحث عاداته وتقاليده وأعرافه، ولا أبالغ إذا قلت أن لكل مدينة أو قرية أو قبيلة نمط معينّ من العادات والتقاليد والأعراف تسير عليه، ويصعب حصرها في هذا المجال الضيّق، إنما كلّها تنبع من المصادر التي أشرت إليها وتؤدّي نفس الأغراض الإنسانية التي ذكرتها، وبما أن هذه العادات والتقاليد والأعراف تنشأ لظروف معيّنة كما أشرت فإن هناك إمكانية لتبديلها والاستعاضة عنها بأحسن

منها، وبمعنى آخر هناك مجال لتطويرها تطويراً مستمرّاً يتمشّى مع مفهوم الناس ونظرتهم لتلك الأمور، فقد تكون هذه العادة أو هذا التقليد أو ذاك العِرف، يعتبر الإخلال به معيباً أو شائناً في وقت من الأوقات ثم يصبح بعد ذلك لا غضاضة في فعله حتى يصبح جائزاً عمله، وذلك بتطوّره أو حلول بديل عنه، أو اكتشاف خطأ فيه، وللعادات والتقاليد والأعراف إيجابياتها وسلبياتها، فهي ولا شك تنشأ عن الحاجة، وتفي بالتزامات معيّنة، وتؤدّي خدمة كبيرة لقطاع معينّ من المجتمع لفترة زمنية محدودة، لكنها إلى جانب ذلك تضع بعض القيود والعراقيل أمام انطلاقة الإنسان التائق دائمًا إلى التجديد، ولا سيما عندما يمضي عليها مدة طويلة وتتغيرّ مفاهيم الناس، ويكون القائمون عليها من محدودي التفكير الذين يرون كل خروج عنها خطيئة كبيرة، فعند ذلك يصبح لها آثار عكسية، وتكون حينئذ إزالتها واجبة، أما القابل للتطوّر والتجديد والنابع من مبادىء إنسانية عريقة فهو باق في قطاعات هذا المجتمع منذ وقت طويل وحتى الزمن الحاضر.

□ الأعياد والمناسبات:

لا يوجد في هذه البقعة سوى عيدين فقط هما: عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى السعيد، ومناسبات متفرّقة وغير ثابتة، ويحسب الناس لهذين العيدين كل حساب للاحتفال بهما وإظهار مشاعر الفرح والسرور بقدومهما، فإلى جانب أهدافهما السامية التي نصّ عليها التشريع الإسلامي، وسبقت الإشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل التاسع من هذا الكتاب، يوجد لهما تأثير اجتماعي، يبرز في تفاعل الناس مع فرحة هذا العيد، وانصهارهم في بوتقته، ومدى استعدادهم للمشاركة فيه والحرص على حضوره مع الأهل والأقارب، حيث يحضر البعيد، ويمتنع المسافر، وتعطّل جميع الأعمال، وتؤجّل المشاريع والأفراح إلى ما بعد انتهائه، وتؤجّل الصفقات التجارية، ويلتمّ شمل الناس ويتجمّع تشتّتهم، ومن حكمت عليه ظروفه بالبعد والحرمان من المتعة في أيام العيد فإنه قد يتمثّل ببيت أبي الطيب المتنبّي:

عيـد بـأيّـة حال عـدت يا عيـد
بمـا مضى أم لعهـد فيـك تجـديـد[1]

أمـا الأحـبّـة فـالـبـيـداء دونهم
فـليت دونـك بـيـد دونها بيـد
(أبو الطيّب المتنبّي)

أو بيت الشاعرة التي تقول:

٢٨٩ ـ الـعـيـد لـوجـان مـا همّـن
لا عـاد مـا عـايـد الـغـالي
(. . . . . . .)

وربما بيت الشاعر الذي يقول:

٢٩٠ ـ كـل نهار العيـد عـايـد وديـده
وأنـا نهار العيـد عـيـدي ادمـوعي[2]
(أبو زويد الشمري)

هذه الأعياد تعتبر من الروابط الاجتماعية التي لها أثر لا يستهان به في تماسك تلك البنية الاجتماعية المتراصّة، ويتمّ الاستعداد له قبل حلوله بوقت كاف، وتولي النساء والصغار والشباب هذه المناسبة ما تستحقّ من صنوف الزينة والبهرج، أما الرجال فإن اهتمامهم ينصبّ على النواحي المعنوية، لذلك نجد المرأة تعدّ أغلى وأفخر أنواع الملابس لترتديها يوم العيد، وتحتفظ بأثمن السلع والحلي لتلبسها ولتزيّن بها عنقها وأطرافها، وتضمخ شعرها بأزكى أنواع الرياحين والورود ضمن المشاط الذي تشبع به شعرها، وتضع «أنوج» أصناف العطور على ملابسها وبشرتها، وتستعمل وسائل التجميل المتاحة آنذاك كالكحل

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي جـ . . . ، ص . . .
(٢) ليالي السمر، ص ١٦٦.

لعينيها، وتستعمل الحناء بكفّيها وربما لأطراف أصبع أقدامها، عندما تتمثّل بيت الشعرة التي تقول:

٢٩١ ـ لا يا خلف يالفغم واين أنت عنّا
ليتك ضحى العيد عندي تشوفي

٢٩٢ ـ حطّيت لك باطراف الأصابع حنّا
وخضبت لك حتى مثاني كفوفي

أما الصغار من صبية وصبايا فإن أهلهم يعتنون بلباسهم ونظافتهم وذلك بتجهيزهم بأزهى ألوان الملابس للمشاركة بهذه المناسبة السعيدة، وكذلك الشباب يستعدّون للعيد باقتناء أحسن الملابس وأغلى الأسلحة والأحزمة، أما الرجال فمع اهتمامهم بالمظهر العام إلا أن جُلّ اهتمامهم ينصبّ على الناحية المعنوية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في فصل سابق ويهمّنا الآن الآثار الاجتماعية المترتّبة على هذه المناسبة من التجمّع من مكان بعيد للمشاركة فيه. والتسامح الذي يحصل بين من يوجد بينهم خلافات، وتطهير النفوس من الحزازات النفسية، وإصلاح ذات البين، وتبادل الآراء حول مواضيع معيّنة، ومناقشة بعض المشاكل وإيجاد الحلو لها، وبحث الحالة المادّية لبعض المعوزين ومساعدتهم بقدر الإمكان، والتعرّف على الفتيات البالغات لسن الزواج من قِبَل الأمهات لأبنائهن، والخطوبة التي تتمّ في هذا الوقت الذي يعدّ وقت فراغ لكل الناس ومجالاً للمداولات واستطلاع الآراء، وربما تحدث زيجات بعد العيد مباشرة تجمع آراء واقتباسات الوافدين من أماكن مختلفة وانتقاء الصالح منها الذي يتلاءم مع مفاهيم الناس، كل هذه التأثيرات تحدث في تجمّعات الأعياد وهي ولا شك لها أثرها الفعّال لتجديد حيوية هذا المجتمع وزيادة تفاعلاته مع نفسه ومع مَن حوله، ودرجة تأثّره وتأثيره في الآخرين.

□ مناسبات الزواج:

مناسبات الزواج بهذه البقعة في غاية البساطة، وأقصى درجات التعاطف، وأقل التكاليف، ومنتهى الصراحة، وأصدق الصدق، وذلك في حالة

الموافقة على الزواج، وذلك لما يتمتّع به أفراد هذا المجتمع من السمات الحميدة، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية موافقة العروسة، وأحياناً بدون موافقتها إذا كان وليّها رأى ما لا تراه في العريس، وقد يسافر الرجل وليس عنده نيّة للزواج، ويشاء الله وتتواءم الظروف وتتظافر الجهود فيصبح عريساً في ليلة واحدة إذا كان الرجل كفؤاً وتتم الترتيبات كالوليمة وغيرها بعد إتمام الزواج، وقد يتردّد الخطيب مراراً وتكراراً ويرسل المراسيل ويجهد نفسه دون أن يحصل على ما يريد، وقد يخدم الرجل عند أهل البنت دون أن يكشف مركزه عند قومه وذلك لغرض رؤيتها، ويتحينّ الفرصة التي يثبّت لمضيفه بالفعل أنه كفؤ للزواج من إبنته، وقد يمهر عروسه بريال واحد «ريال وشيمة رجال»، وقد يمهرها بعدد من الخيل والإبل، أو بعدد من النخيل أو بستان، أو بالسلاح كالسيوف والبنادق، أو بمئات من النقود والحلي، وهذا المهر مرتفع جداً، إنما هذه الأشياء نسبتها ضئيلة بحيث لا تتجاوز ٥٪، أما الغالبية العظمى من الفتيات فهنّ من النوع البسيط تمشّياً مع أحاديث الرسول صلىّ الله عليه وسلّم «أعظم النساء بركة أيسرهنّ مؤونة»[١]، «وزوّجوهن وأعينوا عليهن» ومن الآباء من يشترط المهر لابنته والغالبية يترك ذلك للعريس وعادة هناك أشياء ثابتة وأخرى ثانوية، ففي بيئة الفلاحين يشترط للعروسة نخلة من النوع الجيد تبقى لها جذعاً وثمرة ما دامت بذمّة الزوج، ويختار البعض النخلة التي تتحمّل العطش «كالقسبة» وربما أكثر من نخلة واحدة بالإضافة إلى ما يؤمّنه العريس من المصاغ والملابس، أما في بيئة العرب الرحّل فيشترط لها جملاً من خيار الإبل وربما أكثر من واحد يبقى لها ما دامت بذمّة الزوج، ويشترط كذلك قطعة من القطيفة «زل» وأحياناً بندقية بالإضافة إلى ما يأتي به الزوج من المصاغ والملابس، أما في بيئة التجّار وأصحاب المهن فيشترط لها نوعاً ثميناً من المصاغ بالإضافة إلى ما يحضره العريس من بقية المصاغ والملابس، وعادة يزيّن للعروسين غرفة في بيت أهل العروسة، أو خيمة أو بيت شعر صغير قرب بيوت أهلها وذلك في مضارب البادية، وتزيّن هذه الغرفة وتفرش بالفرش الوثيرة وتزيّن جدرانها بالتحف

(١) منهاج مسلم، ص ٣٨٤.

والمرايا والبسط المزركشة، وتُرشّ بمختلف أنواع العطور، وتُضاء بـالإضاءة الكافية، حسب وسائل الإضاءة المتوفّرة آنذاك، وهي الذبالات، والمصابيح، والسرج، ويحرق بهذه الغرفة من البخور «العود» أو «المعمول» ما يجعلها تفوح برائحة زكية، وتختلف طريقة ترتيب الزواج من مكان إلى آخر حسب أحكام التقاليد والأعراف، وإذا سلّطنا الضوء على جزء من هذه الأجزاء وجدنا الطريقة تتمّ كالآتي: يتّفق على الميعاد للزواج بعد الخطبة في يوم معلوم ويفضّلون ليلة الخميس أو ليلة الإثنين وقبل ليلة الزفاف بليلة واحدة، يرسل العريس ما يريد إرساله لعروسه وأهلها من أنواع الثياب والمتاع والذبائح والخراف وربما الإبل وغيرها إلى أهل العروسة ويسمّى «الدّفَاع» وفي الليلة المعلومة يتجمّع لدى أهل العريس أقاربه وأصدقاؤه وجيرانه في بيته ويسمّى هذا التجمّع «السَّفَارَة» وإذا كانت حالة العريس المادية رقيقة فإنه يلقى العون المادي من الأقارب والجيران والمعارف كلّ بحسب قدرته وبعد أن يتكاملوا يتناولون القهوة والشاي والطيب ثم ينتقلون معاً بمعيّة العريس مشياً على الأقدام ومعهم المصابيح أو السرج إلى بيت أهل العروسة، ويتلقّاهم الناس الذين تقع منازلهم بطريقهم سواء أكان ذلك بالشارع أو القرية أو مضرب البادية ويقدّمون لهم القهوة العربية والشاي والطيب وربما الفاكهة والخضار واللبن في مواسمها، فتمرّ «السفارة» على هذه البيوت بيتاً بيتاً، ويكون الناس جميعاً قد لبسوا أجمل ملابسهم، وعادة تبدأ المسيرة بعد صلاة العشاء مباشرة، حتى إذا وصلوا إلى بيت أهل العروسة وجدوهم على الباب يملأ وجوههم البشر والترحاب ومعهم المصابيح والسرج، ثم استقبلوا السفارة بغرفة القهوة وقد تناولوا القهوة والشاي وربما الخضار والفاكهة واللبن إذا توفّر ثم انتقل العريس وذووه وعليّة القوم إلى غرفة العرس «الحجرة» فيدخلون هناك وبقية السفارة بما حول الحجرة ثم تدار القهوة مرة ثانية وتدار كذلك زجاجات العطور بمختلف أنواعها والبخور «العود القماري» على مختلف درجاته، ويدعو والد العروس أو أخوها الحاضرين لتناول طعام العشاء بعد صلاة العصر مباشرة من يوم غد بكلام يوجّهه للجميع قائلاً: «الله يحيكم تفضّلوا على العشاء بعد صلاة العصر يوم غد» ثم يقرأ القارىء آي من الذكر الحكيم ويختمها بقوله: «بارك الله لك وعليك» مؤذناً «للسّفارة»

بالانصراف، ويلبث المأذون مع العريس ووالده إن لم يكن تمّ عقد القران، وإن كان الموضوع قد انتهى فيغادر الجميع الحجرة ولا يبقى فيها سوى العريس ووالده وبعض أقاربه الذين يبارحون المكان بعد فترة وجيزة يودّعون العريس مردّدين «بارك الله لك وعليك» ويدعون له بالدعاء المأثور، وبعد قليل تزفّ العروس إلى عريسها من قِبَل اثنتين من قريباتها ومعهن والدتها أو مَن ينوب عنها، وتجسيداً لفكرة تمنّع الفتاة العربية عن التزلف والارتماء في أحضان الرجل الغريب عليها، فإن العروسة تتمنّع من الدخول على زوجها وتزفّ إليه زفّاً بشيء من التمنّع والدلال، وتتمنّع عنه في حجرته مبدئياً بدافع الحياء من الرجل الغريب وهذا الابتعاد مما يحبّبها لزوجها، ومتى زفّت عروسه إليه نثر على من زفّها الدراهم وأعطاهن ما تيسّر، وتبقى بجانب العروس والدتها أو مَن ينوب عنها حتى يهدأ روعها برهة ثم تغادر المكان داعية لهم بالبركة وبالتوفيق والرفاه والبنين، ويعقد بعض الأحيان حلقة غناء بقرب حجرة العرس، فإذا أصبح الصباح أعطى العريس عروسه ما أحضر لها من مصاغ وتسمّى «الصبحة» ويتناولان معاً القهوة وطعام الإفطار، ويقضي العريس والعروس أسبوعاً كاملاً محل الحفاوة والتكريم من الأهل والأصدقاء إذا كانت عروسه بكراً، إما إذا كانت ثيباً فالمدة ثلاثة أيام، وعادة يدعو جيران أهل العروسة العريس لتناول طعام الغداء ويدعون على شرفه الجيران طيلة المدة المتعارف عليها، يعملون له الولائم المناسبة ويأخذه الجيران واحداً بعد الآخر وربما يمتنع عن ذلك مراعاة لظروف الجيران المادية، وبعد أسبوع أو ثلاثة أيام تنتقل العروس إلى بيت زوجها ويحضر معها حشد من نسائها تحمل كل واحدة منهن شيئاً من أثاثها ويسمّى هذا الموكب «الرحالات» ويرافق هذا الموكب الصبية والصبايا يصفّقون ويزغردون حتى إذا وصلوا إلى بيت العريس وجدن من يستقبلهن بالترحيب والكلمات المتدفّقة بالبشر والحيوية، ويقدّم لهن القهوة والشاي مع وليمة تسمّى «النزالة» وأحياناً يكتفي ببعض الفاكهة والمشروبات، أما وليمة العرس فتعدّ في اليوم الثاني للزفاف وقد تُنحر جزور أو جزر أو مجموعة من الخراف تُطبخ وتُقدّم مع الزاد على صوان كبيرة من النحاس سيأتي ذكرها في الأثاث المنزلي، ويلبّي النـاس الدعوة لتناول طعام العشاء بعد صلاة العصر مباشرة، ويحضر المدعوّون

بن الأقارب والأصدقاء والجيران وأهل الشارع وربما أهل القرية أو مضرب البادية بكاملهم، وأحياناً تقتصر وليمة الزواج على نفر قليل من أقارب العروسين والأصدقاء وتعتبر هذه الطريقة المثلى لدى الغالبية العظمى من الناس.

أما إذا كان أهل العروس من بلد وأهل العريس من بلد آخر، فإنه يتمّ انتقال «السّفارة» بطرق المواصلات المناسبة ويتمّ اختصار بعض الترتيبات من حيث الوليمة ربما تكون بنفس اليوم وترحيل العروس في اليوم الثاني مراعاة لظروف الوافدين، ومناسبات الزواج هي نوع من الرباط الأسري الذي يتعدّى تأثيره العروسين إلى المجتمع الصغير الذي يعيشان فيه، وهو على بساطته وقلّة تكاليفه له ذكريات لا تنسى، لأن العريس ينتهي من عملية الزواج خالياً من الالتزامات المادية المرهقة التي نراها في الوقت الحاضر، يئنّ تحت وطأتها العريس وقتاً طويلاً.

□ حلقات التجمّع الليلي:

لم يكن آنذاك أي وسيلة للتسلية وقضاء الوقت كما هي عليه في الوقت الحاضر، ولذلك يلجأ الناس بعد أداء عمل يوم كامل إلى قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات من أول الليل في حلقات تجمّع على مختلف المستويات، فالرجال مع الرجال، والشباب مع أقرانهم، والصبية وحدهم بقرب الشباب، والنساء إلى جانب النساء، والشابّات والصبايا بقرب العجائز يقصصن عليهن من أحاجيهن، فالرجال تجدهم في موسم الصيف بالساحات الكبيرة خارج البيوت وبقربها أو في قرنة أحد الشوارع مستندين إلى حائط البيت، وربما على عقم أو حفاد قديم يجلسون في شبه حلقة دائرية على الأرض مباشرة، وربما اتّكأ من يحسّ بالتعب منهم على كومة من الرمل بمثابة وسادة، وقد يستلقي البعض منهم على ظهورهم على وسادة من الرمل، أو ينبطح بعضهم على الأرض الليّنة النظيفة وهي مكان جلوسهم متوسّداً ذراعه، فيتجاذبون خلالها أطراف الحديث في شتى المواضيع وكلّ يقصّ ما جرى عليه في يومه، أو ما شاهده أو ما ينوي أن يفعله غداً، ويتبادلون الرأي فيما يتعلّق بحياتهم اليومية ويذهبون بالحديث كل

مذهب، بينما يجلس الشباب حول بعضهم بنفس الطريقة إنما يبتعدون عن الكبار قليلاً، ويقصّ كل واحد منهم ما جرى له في يومه وربما تناول الحديث بعض المغامرات البطولية والعاطفية التي جرت على كل منهم، وقد يركب بعضهم خياله في تصوير مثل هذه المغامرات، ويجلس بقربهم الصبية، للاستفادة مما يسمعون، بينما تجلس النساء داخل البيوت، في بيت إحداهن، وربما إذا وجد مكان متوسّط بين البيوت بعيد عن طرق الرجال اجتمعن فيه وأحياناً بقرب مبارك الإبل في بيئة الفلاحين، حيث تتولىّ النساء إطعام الإبل علفها وبعد الانتهاء من ذلك يتجمّعن ويتبادلن الحديث ويستعرضن أخبار المجتمع من كل جوانبه، ونجد الصبايا والأطفال قد تحلّقوا حول العجائز يقصصن عليهم من أحاجيهن ما يتمتّعون به حتى يحين وقت النوم، ولهذه القصص لدى الأطفال وقع محبّب إلى نفوسهم، أما في بيئة العرب الرحّل فكذلك تجد نفس هذه التجمّعات قرب مضارب البيوت وعلى نفس الترتيب، وتستمرّ هذه التجمّعات من بعد صلاة المغرب وحتى بعد صلاة العشاء الأخير بحوالي ساعة، بعد ذلك يخلد الجميع إلى الراحة بالنوم كلّ في بيته، وربما نام الشباب العزاب في مكان تجمّعهم خاصة في فصل الصيف حتى يحين موعد قيامهم لأعمالهم الذي قد يحين في منتصف الليل ولا يتعدّى أذان الفجر، أما التجمّعات المذكورة في الشتاء فتحدث في المقاهي. وقد لا ينام الشباب ويتّفقون على تجهيز أكلة على حسابهم جميعاً تسمّى «جواداً» وهي كلمة في الأصل مشتقّة من الجود، والجواد أن يجود كل شخص بعنصر معينّ من عناصر الأكلة، كأن يحضر أحدهم السمن، والثاني الطحين، وهكذا، أما الذبيحة فمن حساب الجميع، ويشترون الذبيحة ويطبخوها ويحضّرون معها ما تيسّر من الطحين ليعملوه خبزاً أو غير ذلك، وربما أكلوا مع الذبيحة من الرطب الجني مع الأرتشاف من مرق الذبيحة، ويكملون سهرتهم إلى آخر الليل وربما كان الجواد من لحم الطيور، أو الأرانب، وقد يكون ثريداً أو حنينياً أو ما تيسّر، ولذكريات الجواد بصمات حيّة تنبض بالحيوية لدى من جرّب تلك التجمّعات والسهرات، والأنس والضحكات التي جرت بين الأصحاب والأحباب من الشباب، وقد أضفى الزمن عليها ستاره منذ ذلك الحين، ولهذه الحلقات والتجمّعات ذكريات لا تُنسى لدى من جرّبوها

وعاشوها، لما تتّسم به من البساطة والهدوء والديمقراطية في إبداء الرأي، كما أن لها الأثر الكبير في تقوية الوشائج الأخوية والروابط الاجتماعية بين أفراد ذلك المجتمع المتماسك، كما لا يخفى أثرها في سرعة انتشار الخبر والعلم به من جميع الناس، ومعرفة ما يدور بهذه البيئة أو حولها، كذلك يدور في هذه التجمّعات كثير من القصص، وتتلى القصائد القديمة والحديثة، فهي بمثابة ناد أدبي إلى جانب تأثيراتها الاجتماعية.

□ المقاهي «القهاوي»:

المقاهي جمع قهوة والتسمية مجازة من إطلاق اسم الجزء على الكل، وهي الغرفة المخصّصة لعمل القهوة وتناولها، وتُعتبر المقاهي بمثابة المنتديات الشعبية، ففي كل بيت يوجد غرفة كبيرة ذات سقف مرتفع، وفي مكان منعزل عن البيت الداخلي وربما يوجد لها ملاحق إضافية، هذا في بيئة الحضر أما في بيئة العرب الرحّل فمكان القهوة في «رفة» البيت وهو الجزء المخصّص لمجلس الرجال، ففي هذه المقاهي يجتمع القوم من مختلف الأعمار ويتصدّر كبار السن وعليّة القوم هذه المقاهي التي يجلسون فيها على فرش مناسبة متكئين على أرائك وثيرة وقد تكون مناسبة، ويبدأ صاحب القهوة، بشبّ النار وإيقادها وتحميص حَبّ القهوة عليها بالمحماسة الخاصة بها، ثم يبرّدها بالمبرادة حتى تبرد ومن ثم يدقّها «بالنجر» الهاون ثم يلقّم الدلة بمسحوق القهوة ويغليها قليلاً ثم يصفّيها ويدق بهارها وهو من حَبّ الهال «هيل» والقرنفل وربما الزعفران ويضعه في دلة أصغر منها تسمّى «المبهارة»، ثم يزل عليها القهوة ويقرّبها من النار قليلاً حتى تغلي ثم يصبّها للقوم، وعادة ينبري واحد من الشباب ويتولىّ إدارة القهوة على الحاضرين، وتقدّم قبل القهوة صينية مليئة بالتمر أو الرطب في حينه وربما الأقط «البقل» والزبد أو السمن في بيئة العرب الرحّل، ليتناول الحاضرون منه ما تيسّر ثم تدار القهوة وبعدها تدار كؤوس الشاي، ويقدّم بعدها الفاكهة الموسمية أو الخضار الموجودة في وقتها أو اللبن في وقته. وأثناء هذه الجلسة يجري بحث مختلف شؤون الحياة ويتبادل الجميع الرأي والمناقشة حول موضوع معينّ حتى

يصلوا إلى حلّ مناسب، كما يجري بهذه المقاهي المطارحات الشعرية وقصص البطولات، «وعلوم الرجال» كما يجري فيها استقبال الضيوف الذين يغدون إلى هذا المكان من الأماكن المجاورة، فالضيف يتنقّل من قهوة إلى قهوة، ومعه المدعوّون مما يقضي فيه ساعات من الوقت يتمتّع خلالها بالتعرّف على وجوه جديدة، ويأخذ الناس منه الأخبار التي جاء بها من المكان القادم منه، كما أن تنقّل الضيف من مكان إلى آخر يعطي المضيف الأساسي فرصة لتجهيز الوليمة اللازمة له، ووقت التجمّع بالقهوة ليس محدوداً، فهي تستمر طول النهار لكبار السن ومَن لا عمل لهم، ولا ينتهي وقتها حتى موعد النوم بعد صلاة العشاء الأخير بساعتين تقريباً، وبهذه المقاهي نوع من الترابط العضوي بين أفراد هذا المجتمع، ففيها يرى بعضهم بعضاً، ويتبادلون الرأي، ويتشاركون في خدمة الضيف القادم إليهم ويسلّونه، ويتعرّفون على الضيوف الذين يفدون إليهم، ويعرفون أخبار ما يدور حولهم، ويحمّلون ضيوفهم أخبارهم وانطباعاتهم، وهي مجال أيضاً للمعوزين الذين لا يجدون طعاماً إلا الأكل من هذه المقاهي مما يقدّم لروّادها بالمجان، كما أنها مكان للتجمّع غير المقصود فيما لو طرأ طارىء يكون وجودهم بمكان واحد يتحرّكون منه دفعة واحدة، كما أنها مكان للتعاون الذي يحتاجه الفرد، فإذا كان لديه عمل يحتاج لأكثر من شخص بطريقة مستعجلة، فزعوا معه وساعدوه على إنجازه، وبذلك نرى أن هذه المقاهي لها فوائد كثيرة متعدّدة، كما سبقت الإشارة إليها، وقد أدّت دوراً فعّالاً في وقتها.

□ □ □

الفصل الخامس عشر:

المأكولات اليومية

المأكولات اليومية هي ما يتناوله الناس في هذه المنطقة خلال يومهم وليلتهم وتتكون من وجبتين رئيسيتين هما الغذاء والعشـاء. أما الفطور، فيتناول ما تيسر منه وكذلك وجبة «الهجور» وهو وجبة خفيفة يتم تناولها بعد صلاة الظهر مباشرة، وتفصيل ذلك مر بنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وتتكون الوجبات الغذائية من العناصر الآتية: الحبوب، التمور، الألبان ومشتقاتها، اللحوم، الفواكه، الخضار، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما مضى ويهمنا الآن معرفة الوجبات المطبوخة، ويرتكز بصفة أساسية على الحبوب، سواء ما كان منها مهروساً أو مطحوناً أو مجروشاً، ومن الحبوب التي يجري هرسها عادة القمح الصلب «اللقيمي» ونوع من الشعير يسمى «السلت» لخلوه من القشور، والدخن بأنواعه، أما الحبوب التي يجري طحنها فالقمح الطري الحنطة، والشعير والذر ونوع من الدخن «لشامية» وحبوب أخرى أما الحبوب المجروشة فهي هريسة القمح الصلب والذرة والشعير، ويؤسفني أن أعين المقادير لكل طبخة من أي نوع من هذه الأنواع، وذلك لكونها آنذاك تطبخ بكميات كبيرة وبأوان واسعة يصعب معها تحديد كمية الماء والمواد، إنما يعود ذلك لخبرة المرأة من واقع تجاربها في هذا المجال، والأكلات الشعبية المشهورة في ذلك الوقت وبعضها موجود حتى الوقت الحاضر وان اختلفت التسمية لبعضها من مكان إلى آخر إنما هي تعنى نفس الشيء ومنها:

١ ـ **اَلْهَرِيْسَة**: وهي القمح المهروس النظيف الخالي من القشرة وتطبخ حباً

ويستغرق طبخها وقتاً طويلاً، قد يصل إلى ثلاث ساعات، يضاف إليها البهارات والملح والشحم أو السمن، وفصوص من البصل وقطع من اللحم وربما اللبن الحامض، أو حريسة الأقسط حتى إذا استوى بانتفاخ تلك الحبوب بعد تشربها بالماء وما يخالطه، تحرك بالمسواط وهو عصا غليظة بمقدار قبضة اليد، وبعد أن يتم سوطها حتى تتلاءم الحبوب مع بعضها وتمتزج بطعم المواد المطبوخة معها يتم غرفها، في الصواني والأوعية التي تقدم بها، ثم يضاف إلى سطحها، سمن مقلي معه شيء من الفلافل والبهارات يسمى «بروقاً» وتقدم للأكل ويفضل أكلها ساخنة، غير أنها إذا بردت فهي لذيذة ولا تفقد شيئاً من قيمتها الغذائية ومن أحسن جزء منها هي «الحكاكة» وهي قرارة القدر اللاصقة بأسفله والهريسة مادة غذائية ممتازة إذ قد تكفي الوجبة منها عن وجبتين، وهي وجبة شعبية محبوبة لدى كثير من الناس وتقدم في الغالب عشاء وربما غداء.

٢ ـ **الْجَرِيْشَهْ**: هي من نفس القمح المهروس ويتم جرشها برحى مخصصة لذلك تسمى «المجراشة» مثل الرحى تماماً إلا أنها أخف منها بحيث تكتفي بتكسير الحب دون طحنه، وأحياناً تكون من جريشة الذرة أو من جريشة نوع من الشعير الخالي من القشور يسمى «السلت» وطبخها أخف من طبخ الهريسة إذ يستغرق وقت طبخها حوالي ساعة يضاف إليها المواد التي تضاف للهريسة، وتحتاج إلى سوط خفيف، وتقدم للأكل كما تقدم سابقتها، ويفضل أكلها ساخنة، غير أنها إذا بردت فمذاقها لذيذ ولا تفقد أي شيء من قيمتها الغذائية، وتعتبر أكلة شعبية يحبها كثير من الناس خاصة جريشة «اللقيمي» أما جريشة الذرة والشعير فلا تطبخ إلا في وقت الحاجة والعوز، وهي غذاء للطبقة الفقيرة وتقدم في الغالب عشاء وربما غداء.

٣ ـ **اَلْهَبِيْشَةْ**: هي من الدخن المهروس سواء الدخن العادي أو «المليسا» «الحصنية» ويتم هرسها حتى تطير قشرتها ثم تطبخ بالماء مضافاً إليها الفلافل والملح والبهارات واللبن الحامض أو مريس الأقيط والشحم

أو السمن وقطع اللحم ويستغرق طبخها حوالي ساعة ومتى تشـربت حبيباتها بالمواد المخلوطة مع الماء انتفخ الحب وسيطت ثم غرفت في أواني التقديم، ويدهن سطحها بالسمن المقلي مع الفلافل، وتؤكل ساخنة وكلما بردت صارت أحسن، وإذا باتت بالشتاء تصبح لذيذة المذاق وتقدم هذه الأكلة عند الحاجة وهي غذاء للطبقة الفقيرة.

٤ ـ **اَلثَّرِيْدَةُ**: والثريدة من عجينة دقيق البر، ويعمل بأقراص كبيرة ثخينة، بعدة طرق إما أن تشوي بجمر النار، أو أن تشوى على الصاج، أو تطبخ في مرق اللحم، وأفضلها ماتشوىعلى الجمر حيث تدفن داخل الجمر حتى تنضج وتحتاج إلى عناية وخبرة وانتبهاه حتى لا تحترق أو تبقى نيئة، وبعد أن تنضج تكسر إلى قطع صغيرة، ويضاف إليها السمن البري بقدر مناسب أو الزبدة الطازجة مع قطع من البصل ثم تتردد وتفرك حتى تختلط بالسمن والبصل بشكل جيد ثم تؤكل بنفس أنائها، وهي زاد للمسافر، سهلة التجهيز، قليلة التكلفة وبنفس الوقت غذاء ممتاز، ويعملها من يخرجون للرحلات والنزهات، وتعمل في البيوت، وتؤكل ساخنة وهو الأفضل، ولها قيمة غذائية جيدة، وتؤكل غذاءً وعشاءً وفطوراً.

٥ ـ **الُحْنِينيَّة**: والحنينية هي من نفس مادة الثريدة وتعمل بنفس الطريقة غير أنه يستبدل البصل بالتمر بكمية مناسبة يساوي التمر فيها ٢٥٪ وان عدم التمر فيوضع بدله الدبس أو العسل ويختار لها التمر الفاخر أمثال الحلوة وغيرها ويدعك خبز البر السابق ذكره مع السمن البري أو الزبدة الطازجة ويفرك ويقلب حتى يصبح قريباً من العجينة ثم تقدم للأكل ساخنة ويفضل أن تكون حارة، وهي مادة غذائية متكاملة تعطي آكلها مزيداً من السعرات الحرارية وتكفي الوجبة منها عن وجبتين، وتعمل في أيام البرد الشديد لدى ذوي اليسار وبالمناسبة أرى من الأفضل ايراد ملحة تقول: في أحد الأيام الباردة طلب ابن رجل من الطبقة الغنية من أحد أترابه من الطبقة الفقيرة أن يلعب معه، فقال له الطفل الفقير أنا لا أستطيع اللعب

معك لأنني بردان وجائع وعارٍ. فقال له ابن الغني: بسيطة إدخل إلى بيتكم وكل من الحنينية وألبس جوخِتك وتعال نلعب سوياً!! فتنهد زميله الفقير بصوت حزين وقال: ولكن من أين لي ما ذكرت؟؟ فذهبت مثلاً سائراً في نجد يضرب للمقارنة بين أمرين متضادين. وتصلح الحنينية كذلك طعاماً في معسكرات المحاربين ولاسيما في الأيام التي تكون المرابطة مستمرة لأن الوجبة منها تكفي لمدة أربع وعشرين ساعة.

٦ ـ **الصَّبِيْبِ**: أو القرصان أو القرص، أو الهفتان» كل هذه المترادفات تعني شيئاً واحداً وهو رغيف من عجينة البر الرخوة مضافاً إليها الخميرة تصب على صاح خاص ويكون الرغيف على قدر الصاج، وهو شفاف رقيق حتى أنك ترى الصاج من خلاله، وتتولى المرأة عمل هذه الأرغفة، كلما نضج واحد قشعته من الصاج بطرف السكين وصبت الثاني بدله، وهكذا حتى تنتهي من الكمية التي تريدها، وتنزع الرغيف أشقر ناضجاً وهو لذيذ المذاق والنكهة عندما يكون طرياً ساخناً وتجمع هذه الأرغفة في طبق كبير. وفي نفس المكان تكون المرأة قد طبخت في الماء الذي سيبلل الصبيب به بعض الخضروات، كالقرع والباذنجان مع قطع من اللحم أو الشحم حسب المتوفر، وأعدت طبخه ثالثة من حب اللوبا المخلوط بقطع البصل ومجموعة من البهارات والأفاوية، ثم تبدأ تغط بهذا المرق رغيفين وتفرشهما في الاناء، ثم تذر فوقهما شيء من حب اللوبا وتوابعه ثم تضع طبقة ثانية من ارغفة وهكذا حتى تنتهي من كامل الكمية، ثم ترشه ببقية المرق وتتوجه ببقية اللوبا وتضع فوقه قطع اللحم، وربما الذبيحة وبعض الناس يغطي الذبيحة بأرغفة مبلولة فوق الصينية، وهذه الأكلة من الأكلات المشهورة والمحبوبة لدى كثير من الناس، ولها قيمتها الغذائية، وتعتبر من أفخر الأكلات، ولا يجيد عملها إلا السيدات ذوات الخبرة، وتقدم وجبة للغذاء والعشاء، وربما الأفطار.

٧ ـ **اَلْمَقْشُوْشْ**: يعمل المقشوش من عجينة دقيق الحنطة الرخوة قليلاً مضاف

إليها الخميرة وهو عبارة عن أرغفة صغيرة سميكة بمقدار اللقمة الواحدة، ويعمل على صاج خاص مقعر يوضع على نار الفحم وتنقط المرأة العجينة على سطح الصاج المقعر حتى يمتلىء ثم تتركه مركب على النار بينما تشد الأرغفة في الصاج ثم تقلب الصاج بحيث تكون الأرغفة في الجهة السفلى مما يلي النار، حتى تصبح تلك الأرغفة شقراء ناضجة ثم تقلب الصاج إلى أعلى لتنزعها بذباب السكين وتقشها وتضعها في ماعون بجانب النار فيه سمن أو زبدة طازجة مع السكر أو العسل أو دبس التمر، وتترك هذه الأرغفة تتشرب من هذا الخليط، وتصف دفعة ثانية وثالثة حتى تنتهي ثم تقلب هذه الأرغفة حتى تتبلغ بالسمن والسكر وتقدم ساخنة للآكلين، وهي أكلة محبوبة ومفضلة لدى كثير من الناس ولا تتوفر إلا عند ذوي اليسار والثروة وأكثر ما تقدم كطعام للأفطار وربما العشاء وفطوراً للضيوف الوافدين وهي وجبة غذائية ممتازة.

٨ ـ **الرُّغَيِّفَاتْ**: أو «النديلات» وهي تصغير رغيف من عجينة طحين البر الرخوة مضافاً إليها الخميرة وهي بنفس حجم أرغفة «المقشوش» غير أنها يختلف صفها عن سابقتها، بحيث توضع على صاج مدبب قليلاً وتصب على ظهر الصاج المركب على نار الحطب وهي أسرع صفاً من سابقتها وتصب واحداً واحداً ومتى نضج الوجه اللاصق على الصاج يتم قشعه ويقلب على الوجه الآخر حتى ينضج ثم ينزع ويوضع في اناء بقرب النار حتى لا يبرد، ثم يضاف إليها السمن البري أو الزبدة الطازجة مع قطع البصل ويُقَلَّب فيه حتى يبلغ بالسمن ويقدم للأكل، كوجبه أفطار وربما عشاء وهو وجبة دسمة ممتازة.

٩ ـ **اَلْمَرَاصِيْعِ**: «أرغفة القلابة» وهي راغفة من عجينة دقيق البر ويفضل أن يضاف إليها الخميرة وتعمل على ظهر الصاج بحجم أكبر من سابقتها بحيث يكون قطر الرغيف من ٥ ـ ١٠ سم وبسماكة حوالي سنتمر وتصب المرأة العجينة الرخوة على الصاج الحامي رغيفاً بجانب الآخر

وتتركها فترة على الصاج ومتى نضجت جهتها السفلى قشعتها المرأة وقلبها على الجهة الثانية حتى تنضج ثم تجمع في وعاء وتقطع إلى قطع صغيرة وبعضهم يضيف اليها السمن البري أو الزبدة الطازجة والبصل المقطع أو الكمأة في وقتها وفي حالة اضافة المأة فيكتفي بها مع السمن أو الزبدة بدون بصل، والبعض الآخر يعمل لهذه الأرغفة مرقاً ممزوجاً بالفلافل والبهارات والبصل المقطع والسمن يسمى «المواصة» يصب هذا المرق على الأرغفة المقطعة فيصبح وجبة لذيذة، ذات مادة غذائية جيدة، وتقدم كغذاء وخاصة في مواسم العمل لمستمر وبالذات تكثر في موسم تصفية زرع الشتاء وتسمى «مراصيع الصايرة».

١٠ ـ **المَرْقُوْق**: وهو من عجينة دقيق القمح القاسية وتقطع إلى قطع متساوية تسمى «تمثالة» ثم تفرد وترق بطريقتين إحداهما تفرد على سطح صلب ويفرش تحتها شيء من الطحين حتى لا تلصق على السطح وتغطى بالطحين أيضاً حتى لا تلتصق بالعود ثم تفرد بعود من الخشب يسمى «المرقاق» حتى تصبح رقيقة جداً، وإذا القدر قد وضع فيه قطع من اللحم والسمن والفلافل والبهارات والخضار المقطعة كالقرع والباذنجان وحب اللوبا وما يماثلها والكمأة في موسمها ثم تؤخذ الرقاقة وتفرش على سطح الماء الفائر ثم تمزق مزقاً لتغوص في الماء وتطبخ بينما المرأة تجهز الرقاقة الثانية وهكذا.

أما الطريقة الثانية فهي أن تفرد المرأة قطعة العجين بكفيها وتقلبها على ذراعيها وتمددها حتى تصبح رقيقة وتضعها بالقدر المشار إليه، لكن الطريقة الأولى تعتبر أسهل، وأرهف رقاقاً وبعد أن يطبخ بالقدر حتى ينضج، يكون قد شرب جزء من الماء وتبخر الجزء الآخر وبقي فيه شيء من المرق للارتشاف، وربما لا يبقى إلا ما يكفي لطراوة المرقوق، وبعد أن ينضج بغزف إما بصينية أو صحن ويقدم كوجبة عشاء في الغالب وهو وجبة غذائية جيدة وربما أضيف إلى المرقوق كمية قليلة من الجريش

أو الأزر أو التمن وفي هذه الحالة يسمى «مرقوقاً مثقلاً» وهناك نوع شبيه بالمرقوق يسمى «مردوداً» وهو من نفس مواد وطريقة المرقوق غير أن رقائقه تعمل بطريقة ثانية وهي وضعها على الصاج بشكل أرغفة الصبيب حتى تنضج وبعد أن تجف قليلاً، تكسر وتطبخ بنفس طريقة المرقوق، فيصبح له نكهة وطعم ممتاز قد تفوق طعم المرقوق.

١١ ـ **المَطَازِيْزَ**: و«المطازيز أو القريصات» هي شيء واحد وتعمل من عجينة دقيق القمح ويفضل أن تضاف إليها الخميرة وتقطع إلى قطع صغيرة بمقدار حجم البيضة ثم تفرد بين أصابع اليد، وأحياناً يفرد قطع كبير وترق كطريقة عمل الرقاق ثم تقطع بحافة دائرية كفوهة علبة من العلب الصغيرة، ويكون القدر يغلي بالماء ومحتوياته من قطع اللحم، والكمأة والسمن وقطع الخضار كالقرع والباذنجان، وحب اللوبا، والبهارات، والفلافل، ثم يرمى بهذه الأقراص واحدة واحدة، حتى تنتهي الكمية ثم تترك تطبخ حتى تنضج، ثم تغرف في اناء أو صينية، وتقدم كوجبة عشاء في الغالب أو غذاء وهو وجبة مفضلة لدى كثير من الناس ذات قيمة غذائية جيدة. والواقع أنني أذكر دائمًا عجينة دقيق القمح في هذه الوجبات على أساس أنه الأصل وهو الأفضل ويقول المثل الشعبي «الحنطة مسامير الركب» غير أنه في بعض الأحيان تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فيخلط حب الحنطة بالشعير أو غيره من الحبوب بما يسمى «بغيثاً» ويطحن وتعمل منه الوجبات المشار إليها غير أنها تكون أقل جودة من الحنطة الصافية.

١٢ ـ **عَصِيْدَةُ**: وتعمل العصيدة من طحين القمح أو الذرة أو نوع من الدخن تسمى «الشامية» وتجهز المرأة للعصيدة الماء المغلي بالقدر ويحتوي الماء على السمن وقطع البصل وأحياناً قطع من الخضار كالقرع والباذنجان بالاضافة إلى الفلافل والتوابل ثم يذر الطحين في الماء الفائر وتحركه بعود خشبي يسمى «المسواط» وتستمر حتى تنتهي كملة الدقيق وعندها تصبح

غليظة تتركها تغلي حتى تنضج ثم تغرف في اناء وصينية، وتترك لتبرد قليلاً ويدهن سطحها بالسمن البري أو الزبدة والعسل أو الدبس ويوضع في وسطها سمن أو خليط من السمن والدبس وربما في اللبن وربما وضعوا «جورة» في وسطها بحيث يأخذ الآكل اللقمة ويغمسها في «الادم» ويأكلها وهي لذيذة الطعم محبوبة لدى بعض الناس، وأكثر ما تقدم للأفطار وخاصة في فصل الشتاء، ولها قيمة غذائية جيدة، وهي سهلة التجهيز، ولا يلجأ اليها لوجبة العشاء أو الغذاء إلا في أوقات الشدة والحاجة، وفي هذه الحالة قد تصبح الغذاء الرئيسي للطبقة الفقيرة، وهناك نوع من العصيدة أخف منها ولا يوضع لها أدام تسمى «المويسة» وهي قريبة من شربة العدس، وترتشف ارتشافاً، أو تلحس لحساً.

١٣ ـ **الأرز**: والأرز لم يتوفر كما هو عليه الآن إلا في الآونة الأخيرة غير أن الموجود قبل ذلك هو «التمن» وهو الرز العراقي بأنواعه «العنبر، الخضيراوي، المهبَّشْ، الأحمر» وطريقة طبخه سهلة وذلك بوضع مستلزمات الطبخ من قطع اللحم والخضار المقطع، والبصل والسمن والفلافل والبهارات، وينظف من القشور والشوائب وذلك «بهرسه قليلاً ثم تنقيته ويغسل قليلاً ثم يسكب في القدر الفائر ويسقى بالماء الحار أو مرق اللحم شيئاً فشيئاً حتى ينضج ثم يغرف بالصحون أو الصواني ويوضع فوقه اللحم وربما الذبيحة ثم يقدم للأكل ويفضل تقديمه للضيوف، كما أشار إليه الشاعر.

٢٩٣ ـ يذبح لهم من كل كبش مُقَرنٌ
وعيش العراقي بالصحون افراش[1]

(راشد الخلاوي)

وهو مادة غذائية جيدة، وفاخرة.

---

(١) راشد الخلاوي، ص ٣٠٩.

١٤ ــ **الْكُلَيْجَا**: هي نوع من الفطائر اللذيذة وتعمل من جريش القمح الناعم أو الطحين الخشن مضافاً اليها بعض البهارات، وتبس بالسمن البري مع السكر أو العسل أو الدبس ثم يضاف إليها قليل من الماء حتى تصبح عجينة صلبة ثم تقطع بقوالب معينة وتوضع هذه القطع على نار جمر خفيفة حتى تستوي من الجهتين، وتوضع طرية جيدة المذاق وتؤكل في وجبات خفيفة، ولا تتوفر إلا لدى الطبقة الغنية وتتخذ زاداً للمسافرين والحجاج لأنها جاهزة للأكل في أي وقت وهي مادة غذائية جيدة.

١٥ ــ **الشَّعْثَاء**: هي نوع من الفطائر اللذيذة وهي عبارة عن خليط من الأقط «البقل» المجروش بنسبة ٢ ــ ٣ ومعها تمر معبوك خال من النوى بنسبة ١ ــ ٣ ثم يخلطان معاً ويضاف إليهما قليل من السمن البري وبعض الأفاوية التي تعطيها نكهة جيدة ومتى أصبحت عجينة غليظة قطعت بقالب معين ونشرت في الظل حتى تجف قليلاً وهي وجبة طيبة تتخذ زاداً للمسافرين والحجاج وتؤكل كوجبة إضافية خفيفة مثلها مثل سابقتها تتوفر لدى الطبقة الغنية.

١٦ ــ **البَسِيْسَةُ**: هي عبارة عن دقيق حب الشعير المحموس، وعادة يقطفون سنابل الشعير المستوية ثم يخرطون تلك السنابل وهي رطبة وتحمس في صاج كبير وبعد الحمس تنشف ثم تطحن بالرحى وينخل الصحين ثم يكون هناك مريسة من التمر مع قليل من السمن يضاف إليها الدقيق وتبس فيها فتصبح حلوة المذاق طيبة النكهة فاخرة الرائحة وهي أكلة شعبية موسمية في وقت الحصاد من كل عام.

١٧ ــ **اللحوم**: واللحوم المتوفرة آنذاك هي لحوم الغنم، والإبل والبقر، والماعز، والغزلان، والوعول، والأرانب البرية والضبان، والطيور المحلية والبرية الوافدة، ونظراً لعدم وجود الوسائل التي يحفظ بها اللحم

لمدة معينة فيضطر الناس إلى طبخ اللحوم في يومها أو اليوم الذي يليه في الفصول الباردة والمعتدلة لذلك نجد البعض إذا توفرت عنده كمية من اللحم لا يستطيع أكلها يلجأ إلى تشريحها إلى سيور ويغمرها أو يخلطها بالملح ثم ينشفها بالظل وتسمى قديداً أو شريحاً أو وشيقاً أو «قُفْراً» ويمكن الاحتفاظ بهذا اللحم مدة طويلة يطبخ بعدها ولا يفقد كثيراً من قيمته الغذائية وهو لذيذ الطعم طيب النكهة إذا أجيد بالملح ويطبخ مع أي نوع من الطعام ويفضل أن يكون مع المرقوق أو «المطازيز» أما الشحوم فيجري اذابتها و«خلعها» واخراج الودك منها الذي يتخذ قفراً بمثابة السمن في سني الشدة وكذلك يتخذ هنا للجلود ومثاله «الخليع» يوضع قليل منه مع الطعام ويؤكل، وهناك فئة في جزء من هذه البقعة تخزن شيئاً من الشحم في كرش الشاة بعد تنظيفها جيداً ثم تُسَدُّ منافذها بأحكام جيد وتعلق بالسقف حتى يذوب الشحم بداخلها بفعل العوامل الجوية ويتآكل مع بعضه البعض ليصبح بعد ذلك مركزاً بدرجة كبيرة له رائحة نفاذة يسمى «المحزر» ويكفي النزر اليسير منه للوجبة الواحدة، وأكثر ما يستعمل مع الجريشة والعصيدة وهو مفضل عند كثير من سكان الجزء المشار إليه.

١٨ ـ **السَّمْح، والدَّعَاعْ، والفِوَيْغِـرَهْ**: تلك أنواع من حبوب الأعشاب التي تنبت بالربيع ويحبها الناس، وقد جرت الاشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل الثالث من هذا الكتاب، ويهمنا الآن الوجبات التي تتخذ من هذه الحبوب وتقتصر على نوعين:

(أ) الأرغفة بمختلف أحجامها.

(ب) العصيدة.

وأرغفة الدعام وعصيدته تعمل بنفس طريقة مثيلاتها من القمح السابق ذكرها وهذه الأرغفة سمراء داكنة غير أنها في وقت الحاجة يجعلها الجوع لذيذة، أما السمح والفريغرة فأرغفتها وعصيدتها على نفس

المنوال إلا أن لونها بني وألذ طعمًا من الدعاع بحكم الحاجة كفانا الله شر وقعها وقد عاشت على هذه الحبوب مجموعات من الناس ردحاً من الزمن لا أعاده الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١٩ ــ **الأعشاب «البروق، الحنبازى، الحماض، الحمصيص»**: وغيرها وقد سبقت الإشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل الثالث من هذا الكتاب ويهمنا الآن الوجبة التي تقدم منها يلجأ الناس في سني الجوع أعاذنا الله منها ومن عودتها وابعادها عنا وأتم علينا نعمته انه سميع مجيب، إلى جنى هذه الأعشاب، وتقطيع فصوص الحنباز أو الأعشاب الأخرى بكاملها ثم تجري طبخها قليلاً وخلطها بشيء قليل من الجريش أو الطحين وربما وحدها مع بعض البهارات والفلافل والملح وتغرف في اناء يأكله الناس وجبة عشاء في الغالب أو غداء أحياناً ليسدوا به رمقهم مع أن قيمته الغذائية لا تذكر، غير أنهم عاشوا عليه شهوراً في سني المسغبة، كذلك أكل الناس نوى التمر المحروق أعاذنا الله من تلك الأوقات العصيبة.

□ □ □

الفصل السادس عشر:

المشروبات

□ القهوة العربية:

القهوة من المشروبات الرئيسية، التي تتمتع بمكانة مرموقة في هذا الجزء، منذ ما ينوف على ثلاثة قرون تقريباً، وقد بقيت منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر مقياساً من مقاييس الرجولة، ومعياراً من معايير الكرم، وأصبح الرجل المرموق بين قومه من يتمتع بعدة خصال منها ما يقدمه من القهوة لقاصديه كما أصبحت أحد الخلال التي يفتخر بها الرجال، ويكنى البعض بأن دلالة لا تبرد، أو «نجره» لا يسكت، أو قهوته والمكان، لا يخلو من القاصدين، وأصبح الرجال البارزين يضعون فثال القهوة بعد طبخها في كومة أمام المجلس وذلك في بيوت الشعر، أو عند باب غرفة القهوة كنوع من الافتخار في إبراز ما تم حمسه وطبخه من القهوة العربية، وعندما سئلت فتاة عن رأسمال أبيها المدفون تحت الأرض قادتهم إلى كومة من قثال القهوة عند الباب قائلة: «هذا رأسمال أبي!!»[1] تقول ذلك وهي رافعة الرأس مفتخرة بهذا الرسمال الذي لم يدفن بالأرض وإنما قدمه أبوها الكريم لضيوفه وقاصديه والقهوة مشروب الرجال الرئيسي ولها عدة أسماء منها «الكيف» و«المعنى» و«الفنجال» و«مؤنسة» و«الطبخة» وغير ذلك وتحتل القهوة البرية اليمنية درجة عالية من المكانة بين

---

(١) الفتاة هي مليحة بنت ناصر اللحيدان بالوسيطا حائل جرى ذلك عام ١٣٣٢ هـ.

الأنواع الأخرى وهي مؤنسة الرجال في المجال وسميرتهم في الأمسيات، يتسلى الرجال بعملها وكأن لسان حال أحدهم يقول:

٢٩٤ ـ ليا ضاق صدري قمت أحوف المعاميل
وازين الفنجال بكر ولا اثنيه

(.......)

يقصدها من كثرت همومه لتشاركه في التنفيس عما في أعماقه وليبوح لها ببعض ما يجيش بصدره، وليرتشف منها ما يحس بأنه البلسم الشافي لمعاناته وكأن لسان حاله يقول:

٢٩٥ ـ مزيت من بكره ثلاثة فناجيل
وكيس الشقيري فاتحين مصرة

(خضري الصعليك)

وقد تغنى الشعراء بهذه الحبوب الخضراء الضارية للصفرة والتي تلبسها النار حلة شقراء ذهبية، وتضفي عليها وشاحاً أسمرا ليصبح لونها بين الشقرة والسمرة، يطفو عليها من حباب عرقها الفواح ما يزيدها لمعاناً، ويكللها رونقاً متراقصاً جذاباً. ويصعب حصر القصائد التي قيلت في القهوة لكن نورد مثالاً على ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر:

٢٩٦ ـ دنيت محماسي وكفى خذاميل
برية من سوق صنعا مقره

٢٩٧ ـ يا ما حلا صبه برقط الفناجيل
دولابه دلة بسلكه تجره

(خضيري الصعليك)

وتعمل القهوة بنفس المقهى، كما سبقت الاشارة إلى ذلك آنفاً ونرى الشاعر يوصي من يتولى حمس القهوة ودقها وتجهيزها في قصيدة طويلة نورد منها هذه الأبيات المليئة بالصور الحية الناطقة بأوصاف القهوة وكيفية صنعها إذ يقول:

٢٩٨ ـ دنيت لي من غـالي البـن مـالاق
بـالكف نـاقيهـا عن العـذف منسـوق[١]

٢٩٩ ـ احمس ثلاث يا نـديمي على سـاق
ريحه على جمر الفضى يفضح السـوق

٣٠٠ ـ ايـاك والنيـة وبـالـك والاحـراق
واصحـا تصير بحمسـة البن مطفـوق

٣٠١ ـ ليا اصفر لونه ثم ابشت بالاعراق
صفرا كما اليـاقوت يـطرب لها المـوق

٣٠٢ ـ وعـطت بريـح فاضـح فاخـر فـاق
ريحـه كـما العنبـر بـالأنفـاس منشـوق

٣٠٣ ـ دقـه ينجـر بسمعـه كـل مشتـاق
راع الهـوى يـطرب ليـادق بخفـوق

(محمد العبد الله القاضي)

ويرغب الشاعر الثاني في أن يكون من يعمل القهوة من المرحين الذين يداعبون مشاعر من حولهم بالمزاح والملح والنكات أثناء عملهم للقهوة إذ يقول:

٣٠٤ ـ ليا صرت للطبخة بالايمـان قضاب
فـاعـزم وزم وكب عنـك التحـاسيب

---

(١) أشعار النبط، ص ١٣٢.

٣٠٥ ـ خله يسويها من الربع عجاب
وخله يزين حمسته بالتعاجيب

٣٠٦ ـ كبه ليا من العرق فوقها ذاب
كالورد من فوق الزمرد ليا ذيب

٣٠٧ ـ النجر عقبه تقل مدلوك بخضاب
حنا صبغ بكفوف زين الرعابيب

(ابراهيم البخناني)

وبحث الشاعر الآخر على شبة النار والاسراع بعمل القهوة للضيوف الوافدين وقاصدي مكان القهوة لارتشافها حيث يقول:

٣٠٨ ـ يا كليب شب النار يا كليب شبه
عليك شبه والحطب لك ايجابي

٣٠٩ ـ وعلي أنا يا كليب هيله وحبه
وعليك تفليط الدلال العذابي

(دغيم الظلماوي)

وقال الآخر:

٣١٠ ـ قم سو فنجال من البن مقصور
أوجد ابهار الهيل حتى يزينا

٣١١ ـ واحرص على لاشف ما قبل مدمور
ولا يقال بحمسته مخملينا

٣٢٢ ـ ليا صار صاف ماه والتول منثور
ومنزهات عن دنس كل شينا

٣٢٣ ـ فنجا لهن بالكاس ما ذم بهجور
الله يقوينا عليهن سنينا

٣٢٤ ـ وليا انقطع من مذلقه تقل حيمور
أو دم جوف لا نقطع من وتينا

(سلطان عبد الله الجلعود)

ويوصي الشاعر الثاني بشبة النار في وقت الأصيل ليهتدي إلى نارها الضيوف القادمين من أماكن بعيدة أو قاصدي المقاهي من المقيمين حيث يقول:

٣٢٥ ـ يا علي شب النار يا علي شبه
ليا مال فَيّ امشمرخات الهضابي

٣٢٦ ـ وادغث لها يا علي من جزل خبه
وقلط لها اللي مثل لون الغرابي

٢٣٧ ـ حنكية ما تنجلي لو نربه
بلغودها تلقى سنا النار هابي

(علي القبالي)

ويصر الآخر على تجهيز القهوة بصفة دائمة حيث يقول:

٣٢٨ ـ بمنومس لقم على بكر صافي
عليه من شغل ابن سكران توليف

٣٢٩ ـ وأحمس ولقم بالعجل يالسنافي
بشامية طرف لها الجمر تطريف

---

(١) الأزهار النادية، ج ٣ ص ٩٢ ـ ٩٣.

٣٣٠ ـ حماسها قرم من الغوش شافي
دايم بقلبها حريص على الكيف

٣٣١ ـ وزله وصفه عن سريب المصافي
من خوفة أحد قال بالكيف يا حيف

٣٣٢ ـ وابهارها من يمة الهند لافي
في مركب يقداه زجر العواصيف

٣٣٣ ـ فنجالها لاشف بين الأشافي
ليا تقل يجذب من شفا شاربه شيف

(زيد الخشيم)

وهي شراب الكيف الذي يستأنس بقربه الرجال، ومع تناوله يقضون أطيب الأوقات مع الأقارب والرفاق والأصدقاء كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٣٤ ـ الله على الفنجان مع سيحة البال
في مجلس مابه نفوس ثقيله

٣٣٥ ـ هذا ولدعم وهذا ولد خال
وهذا رفيق ما ندور بديله

(راكان بن حثلين)

كما يشتاق إليها من تعود لشربها، وخاصة وقت القيلولة أو في الصباح الباكر، أو في المساء كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٣٦ ـ الله على الفنجال لاجا محله
بدلال خطو الغشمري حومة الطير

٣٧٧ ـ يـوقـد بجـرم مـا يـوقـد بجله
والـزعفـران أبهـارهـا خـالـطة هيـل

(سودان بن سعِّيد الشمري)

ويبذل الرجال المال الكثير في سبيل توفير القهوة لشاربيها، وتصب القهوة لعلية القوم، الشجعان الكرماء، ومن لهم مكانتهم وذلك في المقام الأول ثم تدار على بقية الجالسين كما أشار إلى ذلك الشاعر:

٣٣٨ ـ صُبَّـه لمن يـثني خـلاف المقـافي
يـوم الفـرنـج يقـذف الملح تقـذيف

٣٣٩ ـ الـلي ليـا غليت شـراهـا جـزافي
مـار طله عنـد الـدلاليـل بنصيف

٢٤٠ ـ ونفـل بهـا الـلي بـالمـروات وافي
مـا دور التجـرات بـه والمصـاريف

(زيد الخشيم)

ولا يبالي الرجل فيما يخسره من المال في سبيل تأمين القهوة حتى ولو غليت قيمتها، ما دام هؤلاء الكرماء موجودين فسوف يشترونها بأي ثمن وقد يستوعبون جميع المعروض بالسوق منها وقد أشار إلى ذلك الشاعر في قوله:

٣٤١ ـ ما راخص من مَيرْ صنعـا بضاعـة
وابن الحيـدان عـلى جـاهـد القـاع

٣٤٢ ـ مـا نفـدت يمنـاه من البن سـاعـة
يكفي شهـر للزوم ثـلاث الأصبـاع

(خضيري الصعليك)

وكما أشرنا فهي مؤنسة الرجال كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

٣٤٣ ـ ليا ضاق صدري جبت نجر ومحماس
وادلال بيض غالي مشتراها[1]

٣٤٤ ـ قم سَوِّ فنجال على خمسة أجناس
إحذر تجي حرقه وبالك نياها

٣٤٥ ـ خلك لها عن كل عذر وب حساس
قيس لها الطبخة على قدماها

٣٤٦ ـ حتى يجي فنجالها يجلى الأعماس
عقب الصلف والسهر ما اكبر غلاها

٣٤٧ ـ خصص مشاكيل على النار جلاس
حبوس الرجال اللي بعيد مداها

(مشاري بن ربيعان الروقي)

وتجلو القهوة صدأ النفوس وتصقلها وتلمعها كما تبين ذلك مما يلي:

٣٤٨ ـ يجلي صدا قلبي ضبيح المهاريس
لا قام شرَّاب القهاوي يعومي

٣٤٩ ـ بادلال فوق النار دايم مجاليس
اكرامهن حق علينا لزومي

(تركي بن حميد)

وأحياناً تعدم هذه السلعة المحبوبة أو تقل من الأسواق ومع الحاجة يلجأ البعض إلى طبخ القهوة أربع مرات في الطبخة الواحدة فالمرة الأولى تسمى

---

(١) أشعارنا الشعبية، ص ١٨٤.

«بِكْر» وهي أفضلها ثم يضاف إليها الماء وتطبخ ثانية وتسمى «ثَنْوَة» ثم يضاف إليها الماء وتغلى للمرة الثالثة وتسمى «عَشْرَةْ»، ثم يضاف إليها الماء وتطبخ للمرة الرابعة وتسمى «تَنْخِيرَةْ»، وخلاصة القول أن القهوة من المشروبات الشعبية ذات الأهمية الكبيرة منذ القدم وحتى الوقت الحاضر لا يخلو بيت في نجد من القهوة وأوانيها وتقدم للضيوف والقاصدين في أي وقت من الأوقات.

□ الشاهي:

الشاي هو أحد المشروبات الشعبية الرئيسية التي انتشرت في هذه البقعة في الآونة الأخيرة حيث لا يتجاوز عمره بضع عشرات من السنين وكان في البداية مخصصاً للنساء إلا أن الرجال استساغوه وأصبحوا يتناولونه إلى جانب القهوة، لكنه أقل شأناً منها وأدنى مكانة ولم ينتشر بدرجة إلا مؤخراً، ويتكون من ورق الشاي الأخضر والمحمص مع السكر بمقادير معينة، ويفضله كثير من الناس خفيفاً ويضاف إليه أحياناً النعناع، والحبق، والزنجبيل والزعفران حسب حالة المناخ ويعمل بأباريق من الصاج المدهون أو المعدن أو الصيني أو البلاتين، ويسكب ويدار بكؤوس مختلفة الأشكال والأحجام، ويشرب في أغلب الأوقات.

□ حليب الإبل:

حليب الإبل هو أحد المشروبات الغذائية التي يتوق الكثير من الناس إلى شربه ويتمنى البعض منهم لو تكون وجباتهم الرئيسية من حليب الابل، وخاصة البكار الصغيرة التي يعتبر حليبها مادة غذائية متكاملة يعيش عليها الناس، ويمتاز الشخص المداوم على شرب حليب الابل بصحة الجسم والنشاط والقوة وخفة الحركة خاصة إذا كان الحليب ساخناً من ضرع الناقة به مادة صحية جيدة تقضي على كثير من الأمراض والجراثيم في الجهاز الهضمي، ومن امتلأت أضلاعه من حليب الابل لا يزال يحن إلى التضلع منه مرة بعد أخرى، ورعاة الابل يعيشون عليه ولا يتناولون غيره لعدة شهور، وعندما يفد على راعي الإبل

ضيف فإنه يحلب له إحدى النياق ويسقيه من حليبها الطازج برغوته الواقفة قدر شبر فوق الاناء كضيافة له، والإبل سخية بحليبها الكثير اللذيذ وقد وصف أحد الشعراء ريق حبيبته بحليب النوق حيث يقول:

٣٢٠ ـ ريق الحبيب حليب النوق
من مشة الزور لا جاني

(. . . . . . .)

وإذا وجد حليب الإبل يفضله الكثيرون على الألبان الأخرى وبالطبع فالحليب لا يتوفر بدرجة كافية إلا في مضارب البادية عند أهل الابل، أما ما عداهم فيعتبر عندهم قليلاً ويتفكهون بوجوده وكلما كان الحليب ساخناً كان أفضل، ومتى برد أو راب قلت قيمته ورغبة الشاربين فيه، وقد تغنى به الشعراء وتطمعوا في مذاقه من خلال قصائدهم كقول أحدهم:

٢٥٠ ـ والذ من در المباكير بالشتاء
لباحث من بعض الرياض تحاش[١]

(راشد الخلاوي)

وأشار الشاعر الثاني بقصيدة منها قوله:

٣٥١ ـ حلو حديثه كن ذوب العسل فيه
والايشادي در عرب مباهيل

(شامان العصيمي)

كما أشار الثالث بتقديم الحليب للضيوف بقوله:

٣٥٢ ـ ترعى بها واضحا من الذود معطار
غبوقة الخطار عجل عطيفه[١]

(مقحم الصقري)

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ١٧٦.

□ لبن المخيض:

ويعتبر اللبن غذاء رئيسياً متكاملاً يفي باحتياج قطاع كبير من السكان لفصل الربيع. وقطاع العرب الرحل يكتفون به غذاء لهم طيلة فصل الربيع، وقد يتناولون معه شيئاً من التمر، أما بعض الحضر فإذا توفر اللبن مع التمر فإنهم يفضلونه على أي نوع من أنواع الأغذية الأخرى، واللبن يحلب من الغنم والماعز بدرجة رئيسية ثم البقر بدرجة ثانية أما الابل فيشرب لبنها حليباً كما أسلفنا ويجمع الحليب في أوعية كبيرة تسمى «المِروَبْ» حتى يروب ومتى راب يمخض بوعاء يسمى «الصميل» وقد جرت الإشارة إلى ذلك في موضوع آخر من هذا الكتاب، وبعد ذلك تعزل منه الزبدة ويصبح اللبن جاهزاً للشرب، ولا يكاد ينقطع العرب الرحل من اللبن وخاصة في فصل الربيع إلا في فترة قصيرة من أيام الصيف، ومتى حل فصل الشتاء، وبدءوا بشرب اللبن ظهرت آثار ذلك على وجوههم، وانصرفوا عن أكل أي طعام سواه، أما الحضر فيعتبرونه مادة غذائية مكملة للتمر أو الأطعمة الأخرى، وبصفة عامة فإن اللبن الطازج قبل أن يصبح حامضاً شراب شعبي ممتاز، يشربه الناس في الصباح ويسمى «صَبُوْحاً» ويشرب في المساء ويسمى «غَبُوْقاً» وبالمناسبة فهناك قصة يقول موجزها: إن هناك ابنة أحد أمراء القبائل اسمها «ليلى» ولها خطيب اسمه «جَرِيْ» يعيش بنفس النزل التي تقيم فيه، ويؤتى لها بصبوحها وغبوقها من أجود اللبن وألذه فتبقيه عندها حتى ينصرف من أتى به ثم ترسله إلى خطيبها مع خادمتها فجاء الخادم الذي يحضر اللبن اليومي فسألته الخادمة عما معه فقال: «صبوح ليلى» فقالت: «الإِسْمُ لِلَيْلَى والَصَّبُوْحُ لِجَرِيْ» فذهب قولها مثلاً سائراً في نجد حتى الوقت الحاضر.

واللبن العادي هو الطبيعي بدون خلطه بالماء، فإذا مزج بالماء يسمى «شنينة» ويضاف إلى اللبن حينما يكون قليلاً والشاربون كُثرُ، فعند ذلك تتوفر الكمية اللازمة لتغطية الاحتياج، وبعض القبائل اعتادت أن تمزج اللبن بالماء، واللبن في أول الربيع يكون ممتازاً تظهر فيه حلاوة طبيعية أما إذا انصرف فصل الربيع وتغيرت حرارة الجو فإن اللبن يصبح حامضاً في الغالب إلا بعد مخضه

مباشرة، أما ألبان الأبقار فتستمر على مدار السنة إذا توفرت لها الأعلاف اللازمة، وتوجد الأبقار عند الحضر أما البادية فلا يعتنون بها وتعتبر ألبانها غذاء مكملاً في هذه البيئة ولا يستغنى عنه كثير من الناس.

أما الحليب فإنه يفضل من حليب الماعز حيث يغلي قليلاً ومتى فار أضيف إليه شيء من السكر ليصبح ذا مذاق ممتاز ونكهة منعشة، ويتم تناوله مع الأفطار، وربما يكفي يعن وجبة الفطور، ويضاف إليه أحياناً بدلاً من السكر قليل من الملح وأحياناً أخرى يضاف إليه قليل من الزنجبيل والفلفل الأسود، أو الزعفران حسب أمزجة شاربيه. وهناك نوع آخر من الشراب من مشتقات الألبان هو «الـمَرِيْسَةُ» وهي عبارة عن مرس كمية من الأقط «البقل» وهو اللبن المجفف الذي سبقت الاشارة إليه من وضع هذا الأقط بالماء لفترة وجيزة ثم يبدأ فركه ومرسه وتحريكه بأيد نظيفة حتى يصبح مزيجاً من الشراب الأبيض الضارب إلى الصفرة شبيهاً باللبن لذيذ المذاق يحتوي على قليل من الحموضة، فأحياناً يضاف إليه قليل من الملح، وأحياناً أخرى يمرس معه قليل من التمر أو السكر ليصبح بعد ذلك مريساً محلي يفضله كثير من الناس ويستعمل المريس عندما يقل اللبن الطازج وأكثر ما يستعمل في فصلي الصيف والخريف لاسيما عندما يتوفر الرطب.

□ □ □

الفصل السابع عشر:

الصيـــد

□ صيد الظباء، والوعول، والمها، وحمر الوحش:

الصيد من الهوايات العريقة التي يتمتّع بها العربي بصفة عامة، وأهل هذه البقعة بصفة خاصة، ويمارس هواية الصيد عدد كبير من الناس كلّ حسب مستواه، لغرض الاستفادة من لحومه، والنزهـة، والتسلية، وقضـاء أطيب الأوقات بممارسة هذه الهواية المحبّبة إلى نفوسهم، ويتحمّلون المشاق والمتاعب في هذا السبيل بكل متعة وسرور، ومنذ الأحقاب البعيدة من السنين والعربي يشبع غريزته بممارسة هذه الهواية، وعندما نطلّ على حامل لواء الشعر العربي وأميره امرىء القيس بن حجر نجده على ظهر جواده يترنّم بهذه الأبيات:

وقـد اغتـدى والـطير في وكنـاتهـا
بمـنجـرد قـيـد الأوابد هـيـكـل[1]

فعـادي عـداء بـين ثـور ونعجـة
دراكـا ولم ينضـج بمـاء فيغسـل

فـظلّ طهاة الحي مـا بين منضـج
ضفيف شـواء أو قـديـد معجـل

(أمرؤ القيس)

(١) ديوان امرؤ القيس ١٥٦.

ويصف أنواع الصيد الذي يعود به إلى الحي بقوله:

إذا مـا ركبنـا قـال ولـدان أهلنـا
تعـالـوا إلى أن يـأتي الصيـد نحـطب[1]

فـيـومـاً عــلى سـرب نقـى جلوده
ويــومــاً عــلى بيــدانــة أم تــولب

فـآنست سـربـاً من بعيـد كـأنـه
رواهـب عـيـد في مــلاء مــهـذب

(أمرؤ القيس)

ويتم الصيد آنذاك بطرده على ظهور الخيل، وعند الاقتراب منه يتمّ رميه بالرمح أو النبال وعمل الشرك والكمائن له، ثم الإلمام بالصيد من كل جانب، وعمل المعوقات، كالحبال الطويلة التي يمسكها اثنان من الصيادين ويختفون بالكمين، بينما الثالث يُنَفِّر أو يحد عليهم فرق الظباء أو ألمها أو حمر الوحش، وربما الوعول، وكان الصيد متوفّراً بأعداد كبيرة في ذلك الوقت، نظراً للخصب المتواصل الذي تتمتّع به المنطقة ولعدم وصول الإنسان إلى بعض البقع الغدراء منها والتي يلجأ إليها الصيد عندما يضايقه الصيّادون، كما أن السلاح الذي يتمّ الصيد به سلاح بدائي لا ينال البعيد منه، وبالتالي لا يقضي على الأعداد الهائلة من الصيد، كما أن الإنسان بطبيعته في ذلك الوقت قنوع بما يصيده لقوت يومه فقط، أو لممارسة هوايته وربما اكتفى بصيدة واحدة ويترك الباقي من الفريق ليذهب إلى البرية، علمًا بأن باستطاعته أن يصيد أكثر من ذلك، لكن حبّه لبقاء هذا الصيد وعدم إفنائه جعله يكتفي بواحدة أو اثنتين كما أن تنوّع الصيد يعطي الصياد حرية تشكيل الصيد من الحيوانات بأنواعها، والطيور بأشكالها المختلفة،كما أن للقطع المحمية من قِبَل السلطة الحاكمة والتي يتوفّر فيها أعداد كثيرة من الصيد مكان يلوذ به، وقد شاهدت ذلك بنفسي عندما كنت صغيراً.

---

(١) ديوان امرؤ القيس ٥٤.

ومما سبق يتّضح لنا أن عدة عوامل قد تضافرت مسبّبة توفّر الصيد وقد سبقت الإشارة إليها، وعلى عكسها عوامل قلّلت من عدد الصيد منها الجدب الذي حصل في هذه البقعة، وظهور السلاح الناري الحديث واستخدام السيارة لطرد الصيد والبندقية لرميه، كما أن شره الإنسان بصيد أكبر عدد ممكن منه بما يفوق حاجته اليومية، كل هذه العوامل تسبّبت في القضاء عليه وبالتالي في انقراضه، ويتمّ الصيد كما أسلفنا بطرده على ظهور الخيل وطعنه بالرماح ورشقه بالسهام وصيده بالشراك، والاستعانة بكلاب الصيد «السلق» التي أشار إليها الشاعر الذي يمدح كلبة صيده بقوله:

٣٥٣ ـ سخا بالعضيبا جروة حضرمية
أطارف بنانيها من الدم خاضب[١]

٣٥٤ ـ ترى ثوب راعيها شلوح وحبلها
كثير العقد من كثر ما هي تجاذب

٣٥٥ ـ تحطّ الجوازي راس ذا عند رجل ذا
كما الودع واني بينهن نظم كاعب

(راشد الخلاوي)

وجرى الصيد بهذه الطريقة إلى أن اتخذت بدلاً عن ذلك البندقية على مختلف درجاتها، فيذهب الصياد للقنص حاملاً سلاحه قاصداً المكان الذي يعتقد بوجود الصيد فيه، وقد يتردّد على هذا المكان أكثر من مرة وكأن لسان حاله يقول:

٣٥٦ ـ من كثر الردّات للصيد ربما
يأتي بغراته ويجي منه صايد[٢]

---

(١) راشد الخلاوي ص ١٠٠.

٣٥٧ ـ ومن قـابل المشراق والكن والـذرا
يـوت مـا حـاشت يـديـه الفـوايـد
(راشد الخلاوي)

وقد يمضّي الساعات الطويلة يترقّب الصيد، وقد يختبىء في مكمنه وينتظر الساعات الطويلة المملّة لكنها عنده تمضي وكأنها سويعات أنس متى رأى الظبي أو المها أو الوعل قد دنفت إليه، وقد يرتقي أصعب الذرا في شماريخ الجبال وكأنها القنن الصغيرة، وذلك للاختباء للوعول النافرة وصيدها، وقد يجري على قدميه المسافات الطويلة وهو يخاتل حمر الوحش ويراوغها ويواجهها، وأثناء ذلك قد تتعرّض الأشواك العاسلة لقدميه وقد تصاب بالجروح العميقة ولكنه لا يشعر بها ولا يأبه بآلامها إطلاقاً متى ظفر بطريدته، وقد يلهث وراء صيدته حتى يقدح حلقه من شدة العطش لكنه يستمر يجري حتى يـظفر بهـا ناسيـاً العطش والإجهاد، وقد يمضي النهار كله دون أن يتناول الطعام، لا يشعر بالجوع ينهك قواه ما دام هناك أمل في تذوّق شَويّة لذيذة من لحم صيدته، ربما كبدها أو أحد شواياها، وعندما يعود الصياد بصيدته ينسى كل ما واجهه من مشاق ومتاعب، تحدوه نشوة حُبّ القنص، ويهزّه عنفوان إرواء تلك الهواية المحبّبة إلى نفسه، يبتهج بما أحضره من صيد يقدّمه لأهله وجيرانه وأصدقائه وقاصديه وربما أحذى من صادفه بالطريق شيئاً من صيدته، وعادة عندما يصادف أحد الناس صياداً يقول له «الحذية» فإن كان الصياد يريد إعطاءه، ردّ عليـه «أبشر بالعطيّة» وأعطاه مما معه، وإن أراد اعتذاره يردّ عليه «ما لك أذية» وهذا نادر الحصول، وعادة يكون مع الصياد ما يحمّل عليه صيدته، أما فرسه أو بعيره، وأحياناً حماره، إما إذا كان قريباً فيحمله على ظهره، وقد اعتاد الصيادون أن يركّزوا على صيد قائد الفريق من الغزلان أو المها لأن الفريق بعد صيد قائده يرتبك ويسهل اصطياده وربما صاد أكثر من ذلك، لنستمع إلى أحدهم يتغنّ ببندقيته بقوله:

٣٥٨ ـ لي بنـدق ما صنعهـا الصانـع التالي
من صنعـه الهـنـد نحـال مقـاضبهـا

٣٥٩ ــ اليــالفــونــا من المقنــاص زعــالي
أحـد مدح بنـدقـه وأحـد يعـذر بهـا

٣٦٠ ــ بشــرتهم بـالعشــامن عقب مقيــالي
ألقـا يده مـع مدق الكـوع ضـاربهـا

(. . . . . . .)

ويتّخذ الملوك والأمراء وعليّة القوم من القنص مجالاً للنزهـة ورحلة للاستجمام، وفترة للراحة، ولا زالت هذه العادة باقية حتى الوقت الحاضر مع قلّة الصيد.

□ صيد الحبارى والسمق والأرانب البرّية:

الحبارى من الطيور البرية التي يُغرم بصيدها كثير من الناس وخاصة الأمراء وعليّة القوم وذلك للمتعة التي تحدث أثناء الصيد، ولطيب مذاق لحمها، والحبارى من الطيور التي لا ترتفع كثيراً عن الأرض عند طيرانها، وهي سريعة الزوغان والاختفاء عندما يداهمها صقر الصياد، كما أن لها وسيلة أخرى تدافع بها عن نفسها ضد الصقر المهاجم وهو «ذرقها الرخو» الذي تسلّطه على عيون الصقر، بحيث تسبّب له العمى الوقتي لفترة تتمكّن خلالها من الإفلات منه والاختفاء عنه، ويستخدم لصيد الحبارى الصقور بأنواعها والشياهين، ويستعان كذلك بكلاب الصيد السلوقي ويعتني الصيادون بانتقاء طيور الصيد الممتازة «كالنادر» والحرص على اختيار الأفضل منها، وهناك عناية خاصة في طيور الصيد منذ الوصول إليها بأوكارها الوعرة بعيدة المنال ثم تغذيتها بأطيب اللحوم وتدريبها وتعليمها للصيد تدريجياً بتدريبات خاصة، وللطيور درجات متفاوتة منها النادر، وهو أعلاها درجة ومن أسمائها، النادر والهليع والحـر والأشقر والقطامى والصيرمي وغيرها، أما أردؤها فهو التبع. . .

وللطير أثناء التدريب إشارات وعلامـات وصيحات تسمّى «النـدب» يتعلّمها أثناء إطلاقه «هده» أو عودته «تربيعة» إلى صاحبه حينما يناديه باسمه

ويرفع له العلامة التي درّبه بالنزول عليها، ومتى أصبح الطير مدرّباً على الصيد بدأ الصياد يقنص به ومعه كلب الصيد، ينطلقان معاً فالصقر حينما ينقضّ على الصيدة «يهد» يضربها بمخلبه صفعة تطرحها على الأرض في الوقت الذي يكون السلوقي يجري تحته وقد وصل بقربها ليمسكها بيديه ويعضّها عضّة خفيفة غير مؤثّرة بفمه ويمسكها حتى يأتي الصياد فيذبحها سواء كانت الصيدة من الحبارى أو السمق أو الطيور الأخرى أو الأرانب البرية، وأحياناً يكتفي الصياد بالطير وحده، فهو يضرب الصيدة بمخلبه ضربة مؤثّرة ثم يجثم عليها بكل قواه ليشلّ حركتها، ويعرقلها حتى يحضر صاحبه، وعادة يحصل صراع بين الصقر وفريسته، فإن كانت حبارى بدأ يصفعها على حذر المرة تلو الأخرى حتى تخور قواها ويلقيها على الأرض، هذا إذا كان الطير مدرّباً ومن أصل جيّد، أما إذا كان الطير غير مدرّب أو من درجة ثانية فإن الحبارى قد تتمكّن من الإفلات منه وذلك «برشّه» أي تبخه بذرقها الرخو على وجهه وتعميته لفترة تتمكّن خلالها من الهرب وتختفي، ومثل هذا الصراع يحصل مع الأرانب البرية إلا أن وسيلة الأرنب هي اللجوء إلى أقرب جحر عندها أو الدخول تحت الأشجار الشائكة التي تحميها من الطير وتجعلها تفلت منه، ولهذه المواقف تأتي أهمية وجود السلوقي لضمان عدم إفلات الصيدة لأنه يمسكها ولا يؤثّر فيه وسائلها، ويحتاج الطير إلى غذاء جيّد من اللحم النيىء يومياً، ومن مستلزمات الطير «المركاب» وهو أسطوانة خشبية مغطّاة بنسيج أو جلد ولها قائم خشبي بأسفله مسمار يثبّت بالأرض وتركّز للطير للوقوف عليها، ويحتاج كذلك إلى البرقع وهو من الجلد الليّن يحزم على رأسه بلطف في أعلى الرقبة يوضع على رأس الطير لوقاية عينيه من الغبار والهواء ومنعه من رؤية بعض المناظر المثيرة له وخاصة منظر اللحم، وهو جزء من تدريب الطير في البداية على رؤية الدم فلا يرفع عنه البرقع إلا لرؤية الدم ثم يبرقع مرة أخرى حتى يتعوّد على رؤيته وبالتالي يألف هذا المنظر ويعشقه وينقضّ على فريسته لإحداثه، كما يوضع للطير قيد في رجليه وهو عبارة عن حلقتين من سير الجلد الليّن المتين وبطرفها سلسلة مناسبة مربوطة بالمركاب لتعطيه حرية الحركة، بالنزول عن المركاب والرقي عليه، كما يحتاج «الصقّار» إلى وضع قطعة من الجلد على يديه لوقايتها من مخالب الصقر، وعند «هد» الصقر

يطلق قيده ويرفع برقعه، وقد تغنّى الشعراء بالطيور النادرة على مختلف درجاتها بعدد لا يحصى من القصائد، ونعتوها بمختلف النعوت كما وصفوا الأبطال من الرجال وشبّهوهم بالنادر من الطيور في سرعة انقضاضه، وضربته، وسطوته، والتفاؤل بهدّته والرجاء بعودته، وإجهازه، وقوّته، وحدّة نظرته، وغير ذلك من الصفات التي تتوفّر بالممتاز النادر من الصقور على مختلف أنواعها، وعلى سبيل المثال الاستشهاد بما تعرّض له الشعراء في هذا المجال نورد الأبيات الآتية:

٣٦١ ـ يالضاري الهيلع عقاب المراقيب
يا نافل جيله بعيدين واقراب[١]

٣٦٢ ـ الحر يضرب بالكفوف المعاطيب
والتّبع قناصة من الصيد ماجاب

(خضري الصعيليك)

٣٦٣ ـ راح العقاب الصيرمي ذايع الصيت
ياعلى من عقبه تراعد عظامي[٢]

(سعدون العواجي)

٣٦٤ ـ حلياك حر يغني الصيد ملحوم
متفهق الجنحان حر قطوعي[٣]

٣٦٥ ـ حر علم بالصيد من غير تعلوم
يودع بداد الريش شت مزوعي

(محدى الهبداني)

---

(١) آدابنا الشعبية ص ١٦٢.

(٢) أبطال من الصحراء ص ٩٩.

(٣) أبطال من الصحراء ص ٢٣١.

٣٦٦ ـ حر شلع من راس عال الطويلات
للصيـدة الـلي حط خمسـة وراهـا[٤]

٣٦٧ ـ غـز المخالب بـالثنـادي السمينـات
تـل القلوب وبـالمخـالب فـراهـا
(خلف الأذن)

٣٦٨ ـ حـر شـلع مـن مـقيـله طـار
لم مجـمـع الـصـيـد وأدلى بـه
(جوزاء الدويش)

٣٦٩ ـ ريعت لـه تـرييـع طـير لـراعيـه
لا شـاف نسـرة واجهـزة بـان بـانـه[٥]
(عبد الله بن سبيل)

٣٧٠ ـ طـير السعد يـا نـور عيني شهـر بي
لم الـثـريـا والـكـواكـب رقـابي

٣٧١ ـ ومع مثل سلك العنكبوت انحدر بي
يـا جـديـع بنقـرة حضـوضي رمـا بي
(.......)

٣٧٢ ـ طيور السعد ماتاكـل اللي لجبـاري
ربعي عمى عينـك وربعي رمـدهـا
(عبد الرحمن بن معيتق العنزي)

٣٧٣ ـ حنّـا كـما حـر تعـلا بمـشـراف
صيـده من الجـل الحبـارى الجسـامي

---

(٤) أبطال من الصحراء ص ٢٦٢.

٣٧٤ ـ جاه اسمر من صايدة سم الأتلاف
طقـه وحط اسبوق ريشـه هـدامي
(راكان بن حثلين)

٣٧٥ ـ يشبـه لحر هـد من راس قـاره
صبح المطر لا شـاف جول السمـاقي
(عبد المحسن الهذيلي)

٣٧٦ ـ طـيـري غـدا والسـلوقي راح
لا واحـلو لاه يـا طـيـري

٣٧٧ ـ وأصـيـح وارفـع لـه الملواح
واثـريـه نـزَّل عـلى غـيـري
(. . . . . .)

□ صيد الطيور الموسمية الكبيرة:

والطيور الموسمية الكبيرة التي تتوفر في هذه البقعة هي المالكي، والخضاري، والرهو، والغرنوق، والصفراء، والقميري، والخضري أو «لعيبة المطر» بالإضافة إلى الحمام البري والحجل، والكروان، والمريعي، والدفعة الأولى من هذه الطيور تتوفر في مواسم معينة من العام وتأتي على فرق مهاجرة من مواطنها الأصلية تبعاً لموجات هجرة الطيور من الشمال إلى الجنوب وبالعكس وتمر بهذه المنطقة في طريقها ويتم صيد شيء منها أثناء وجودها، وتمكث في فروع النخيل والأشجار ويجري اقتناصها، أما الفئة الثانية فهي متواجدة على مدار السنة، وكانت في البداية تصاد بالنبل والأقواس المعروفة وكذلك «المجلاد» وهو قوس صلب يثبت أحد أطرافه بوتد ويكون في وسطه وتد ثاني ويحني طرفه على شكل نصف دائرة ويربط بالوتد الثالث بخيط متين رفيع بحيث إذا أفلت هذا الطرف المجذوب انطلق بسرعة وقوة شديدة وضرب ما يوجد بقطره من الطيور فأرداها قتيلة أو مصابة إصابة جيدة أو مكسرة

الأجنحة أو شل حركتها وتحبل الأقواس «المجلاد» بقرب المياه للطيور التي ترد الماء في أي فصل من فصول السنة، وكذلك الشرك وهو عبارة عن عيون من شعر ذيل الإبل أو الخيل ذات لون باهت فلا تؤثر على رؤية الطيور وتعمل بقطر حوالي ٥ سم وتوضع على شكل حلقات متراصة إما في ممر ضيق أو بطريق الماء أو حوله ويوضع بداخلها طعم للطيور من الحب وتوقف على شكل «تركة» وبمجرد أن يدخل خلالها الطير أو يدخل رأسه فيها لالتقاط الحب يرتفع السلك في حلقه فيخنقه ويكون صاحب «الشَّرَكة» بالقرب منها لأخذ صيدته قبل أن تموت إن هي وقعت في شراكه. أما حينما ظهرت البندقية فقد أصبح صيد هذه الأنواع من الطيور متيسراً أكثر من أي وقت مضى، ولا يستعمل لصيد الطيور الذخيرة ذات القصدير الكبير وإنما يستعمل نوع من البنادق التي تسمى «الفتيل» وتعبأ بملح البارود وحصى صغير يسمى «الرَّشْم» وهو بقد حبة الحمص بحيث إذا أصابت الطير لا يمزق لحمه ثم جاءت بعد هذه «القبسون» بنفس طريقتها مع اختلاف بجهاز الاطلاق، وجاءت بعدها «الشَّوْزَرْ» ذات الذخيرة الجاهزة والمعبأة بحبوب صغيرة من «القصدير» وهذه تصيد الطيور والغزلان عن قرب والأرانب البرية وما في مستواها ويتعب الصياد في مطاردة الصيد وإن كان سلاحه من الأنواع القديمة «الفتيل» و«القبسون» فتجد في جعبته شيئاً من ملح البارود المعمول لهذا الغرض إلى جانب كمية من الحصى وأعواد الكبريت، وفي الشق الآخر تجد الصيد الذي حصل عليه، ويقضي الصياد الساعات الطويلة في التنقل من مكان إلى آخر ومن بستان إلى ثانٍ وفي غابات الأثل والأشجار الكثيفة. وبين المزارع وفي الأودية والوهاد يخاتل صيدته ويخادعها، ومتى اقترب منها خف مشيه عن الأرض وبدأ يمشي على رؤوس أنامل قدميه وعينه إلى صيدته يراقب حركاتها وسكناتها مخافة عليها أن تطير من بين يديه، ومتى مد بندقيته عليها ورماها فإن أصابها بدا السرور على وجهه، فدنا منها ثم ذبحها بسكين صغيرة معه، وإن اخطأها ارتسم الغبن على محياه ثم عبأ بندقيته وبدأ بالمطاردة مرة ثانية دونما يأس أو ملل.

ويستمر الساعات الطويلة من يومه وربما يومه كله وقد يحضر وجعبته مليئة

بالصيد في خلال وقت قصير، ويعاني صياد الطيور مثل زميله صياد الأرانب البرية والغزلان والوعول من التصب والعطش والجوع الكثير، لكنه ينسى ذلك كله عندما يعود وجعبته مليئة بأصناف الطيور، ويعزو أي فشل يحول دون صيده في يوم من الأيام إلى الحظ والتوفيق من الله، أما من يصيد بالشَّرَك أو المجلاد» فيمكث الساعات الطويلة مختبئاً بقرب احبولته يراقبها وينتظر أن تصيد له من الطيور ما يريد، وأحياناً تتهافت الطيور ويصيد منها ما يشاء في مدة وجيزة، وأكثر ما تنصب الشرك للحمام والحجل، والقطا، والقميري «الكرور» قرب المياه وعند أماكن الحبوب بحيث يوضع داخل هذه الشَّرَكة الطعم وهو الحب، لتأتي تلك الطيور لالتقاطه وبالتالي تقع رقابها في هذه الأشراك المنصوبة لها؛ والصيد يساعد كثيراً من الأسر الفقيرة على تأمين لقمة العيشي خاصة في الأوقات العصيبة، كما يمنح ذوي اليسار على تذوق أنواع مختلفة من لحوم الطيور المتوفرة والوافدة ويحذى الصياد بعض من يصادفه حيث يقول له «الحذية» فعندها يرد عليه «أبشر بالعطية» أو «مالك أذية» ولا يغضب من لم يحذ أو يكون في نفسه شيء على الصياد.

◻ صيد الطيور الموسمية الصغيرة:

أما الطيور الصغيرة التي يتم صيدها من قبل الصبية الصغار فمنها الموسمي الوافد ومنها الموجود على مدار السنة، فالطيور الموسمية الوافدة ضمن رحلة موجات الطيور التي تمر بهذه المنطقة خلال فصول السنة ومن هذه الطيور «الصَّعَوْ» بألوانه الزاهية الصفراء، والرمادية، والصعُّو طائر جميل رشيق متناسق يتراقص عند وقوفه، سمين ولحمه لذيذ، له من الألوان، الأصفر الفاتح بكامل جسمه وتسمى «الشُّوَيخة» والصفراء ذات الرأس الأسود وتسمى «سوداء رأس» والخضراء الضارية إلى الزرقة وبها تكحيل أبيض قرب عينها، والرمادية المائلة للخضرة المكحلة بالبياض ويعتقد آنذاك أن الصَّعو يأتي من البحر ولا يبيض ولذلك هناك مثل سائر في نجد يضرب عند استحالة الشيء أو عدم الصدق والوفاء فيقال: «لِيَا بَيَّضْ الصَّعْوَ». أما «الزغبر» فهو كذلك طائر رشيق جميل

يشبه الصعو في كل شيء ويختلف عنه في الألوان فهو بصفه عامة رمادي مكحل بالسواد والبياض وحنجرته نقطة مثلثة سوداء وبطنه أبيض، أما «البزباز» فلونه بني منقط بلون ذهبي وهو بحجم سابقيه غير أنه يتصف بالغباء سهل صيده ويسمى «أخو حمدة» وتعيش هذه الطيور على الحشرات الطائرة التي توجد حول مستنقعات الماء وفي أماكن حصيدة الزرع، وهذه الطيور أجسامها بحجم البيضة أو أكبر قليلاً ويصطادها الصبية، أما الأنواع المستمرة على مدار السنة فهي العصافير ذكورها «الكحالي» وإناثها «السليقا» والقُبَّرَهْ «العقلاء» أم عـريف وغيرها ويتم صيد هذه الطيور بالفخاخ التي يحبلها الصبية بالأماكن التي توجد بها هذه الطيور، والفخاخ جمع فخ وهو قطعة من عسيب النخل أو عرجونها محنية على شكل نصف دائرة قطرها حوالي من ٧ ــ ١٠ سم وأكبر أو أصغر ويربط بطرفيه حبل رقيق من شعر ذيل الإبل أو المطاط على بتين، ويدخل من بينهما عصا قصيرة بمقدار طول قطر الفخ بحيث يثبت بالطرف الذي ينطبق على الفخ طوق إما من الأغصان الدقيقة أو من قضبان المعدن اللدن ويربط طرفا الطوق بطرفي الفخ، وبنصف قطره بعصا الفخ ويلوي العصا عدة مرات بحيث يطبق العصا بالطوق على الفخ وبطرف العصا الثاني يوجد سن صغيرة من الخشب بها عدد من الفروض يسمى «المطراف» وبه خيط يلتف على جسم الفخ في حالة نصبه بحيث تلتقي بخيط ثاني يثبت بنفس العصا وبرأسه خرزة صغيرة تمسك بأحد فروض المطراف ويتم حشر رباط الطعم خلف هذه الحرزة، وفي حالة نصب الفخ يفتح فكيه ويثبت خرزة الطعم بالمطراف ثم يحفر للفخ بالأرض قبلاً ويدفن بتراب ناعم خفيف بحيث يغطيه تماماً تغطية حقيقة ولا يبدو من الفخ إلا الطعم الموضح للطير المقصود صيده ويركز خلف الفخ مباشرة أعواد صغيرة تمنع الصيدة من إتيانه من الخلف، ومتى جاءت الصيدة من الأمام ونقرت الطعم قفز الفخ بها وصادها، وللصيادين بحكم التجارب طرق فتية في حبل الفخاخ، بحيث يجعل الفخ يمسك الصيدة أما مع الرقبة أو مع وسط الجسم أو مع الأطراف كالأرجل والأجنحة.

وهذه الطريقة تسمى «حُبْلَةِ ٱلْفَخّ» والحبلات منها «كب» و«تنقيح» و«مدة

عصا» ويفضلون الحبلة التي يصيد فيها الفخ مع الرقبة لضمان عدم إفلات الصيدة، والطعم الذي يوضع بالفخ إما من الحبوب المبللة والمنظومة بسلك أو سنابل القمح، أو الطعوم الأخرى التي تأكلها بعض الطيور، ومتى جاءت الصيدة إلى الفخ من خلفه فإنها تأكل الطعم ولا يصيدها، وبعض الطيور تكون حذرة وتبعد عن الفخاخ وتوعز لرفاقها بالابتعاد عنها، وبعضها يستطيع أن ينهب الطعم ولا يصيده الفخ، ويوجد نوع آخر يسمى «الفَـحَّةْ» وهي مؤنث الفخ مع التصحيف في التسمية والفحة من قرون الماعز التي تطابق مقاس الفخ وبها كل عدة الفخ ولها نفس المزايا والطرق والفخاخ لها حكايات وحكايات وقصص لا تحصى لدى الصبية والمراهقين، إذا علمنا أن عدداً كبيراً منهم يمارس هذه الهواية التي قلما تجد أحداً لا يمارسها خاصة إذا علمنا أنه لا يوجد مدارس تشغلهم أو أعمال يقومون بها، وللصبية كثير من الكلمات يرددونها حينما يبدؤون بتوجيه وتدريج تلك الطيور إلى فخاخهم وتسمى هذه العملية «بالدورجة» أو التدريج ويظنون أن هذه الطيور تسير وفق توجيهاتهم لها بتلك الكلمات التي يرددونها بشكل «حداوي» مثل «يا عبوه يا عبوه والطعم تنا هبوه» وغيرها كثير ويتعب الصيادون الصغار كآبائهم الكبار في الصيد حيث يمضون الساعات الطويلة وهم يطاردون هذه الطيور وقد ينهكهم التعب ويؤثر فيهم الجوع والعطش دون أن يشعروا ويلهتون خلف هذه الطيور، وهناك طريقة أخرى لصيد العصافير خاصة التي تكون حذرة بصيدها بالفخاخ الطريقة هي صيدها بالأطباق وعندما ينصب لها الطبق الكبير على عود دقيق ويربط به سلك رفيع وينثر تحت الطبق الحب ويختبىء الصياد بالقرب من الطبق ومتى رأى مجموعة كبيرة من العصافير دخلت تحت الطبق لالتقاط الحب جذب العود المربوط بالسلك بسرعة بحيث يطبق الطبق على العصافير ويسرع لاصطيادها من تحت الطبق.

وهكذا نرى هؤلاء الصبية يجدون متعة في صيد هذه الطيور وشوائها ويتم الحبل «للصعو» و«الزغابر» و«البزابيز» في مكان حصيدة الزرع وقت الحصاد، أما العصافير والقبر «العقلاء» ففي مكان الحصيدة وفي ظلال الأشجار والحيطان

كما انتشرت طريقة الصيد في السنوات الأخيرة «نبالة المطاط» وهي «النباطة» هي فرعان من غصن شجرة يجتمعان معاً في جذع واحد وطول الفرعين حوالي ١٥ سم، ومقبض اليد في القاعدة حوالي ٥ سم ويربط بطرفيهما سيرين من المطاط وبطرفهما قطعة من الجلد اللين توضع بها الحصاة بحجم حبة الحمص ثم تمط بالقدر الكافي ويصوب الحصاة إلى الطير ثم يطلقنها نحوه فيصيبه ويرديه على الأرض أو يخطئه فيطير وهكذا يصيد الصبية هذه الطيور ويتسلون بها.

□ صيد الضبان اليرابيع الجربوع :

الضب هو أحد الزواحف الجازية المتوفرة بهذه المنطقة، ويصاد فيؤكل، أما اليربوع الجـربوع فهو كذلك أحد الحيوانات الثديية الصغيرة جميل اللون والمنظر أكبر من حجم الفأر وأصفر من الجرذان وله صفات تميزه عنهما فهو رشيق الجسم، طويل الرجلين، قصير اليدين، بارز العينين طويل الذيل، وبطرف ذيله «حصنه» بيضاء يختلف كذلك في عمله لحجره، ويتم صيده بطرق منها حفر حجره الذي يعمل شتى الوسائل لاخفائه، فحينما يحفر حجره يخفي معالم فم الحجر خوفاً من الأعداء، الإنسان، والثعابين، ولا تجد عند فم الحجر «نثيلة» وإنما تجد كومة صغيرة قد سدت فم الحجر تسمـى «قَصْعَة».

الجربوع: وهو من الحيوانات الصغيرة الحذرة فحينما يحفر الحجر يجعل به أكثر من مخرج احتياطي يحفره إلى سطح الأرض ويبقى مقدار ½ سم من قشرة الأرض بحيث إذا داهمه عدو كسر الطبقة الباقية برأسه وهرب ولا يعود لحجره مرة أخرى وبصعوبة يهتدى المرء على حجر اليربوع إلا ذوي الخبرة فإذا وجده الصياد وضع على فم الحجر قطعة قماش كبيرة «كغترته» مثلاً ثم بدأ يبحث عن المخارج الاضطرارية «النِّطَّاقَهْ» ومتى عثر عليها هدمها ودكها بالرمل وبدأ يحفر الحجر حتى يعثر عليه، وحينما يخرجه من حجره يذبحه ويشويه، وطعم لحمه لذيذ جداً، والطريقة الأخرى في حالة عثور الصياد على مخرجه «النطاقة» أن يمسكها بقطعة قماش وبدخل بالحجر عصا يفزعه فيها ومتى أحس اليربوع

بالحركة الداخلة عليه في حجره هرب مع مخرج الطواري ووقع في الشبكة الموضوعة له على المخرج وتم اصطياده، ويحكى على لسان اليربوع أنه في يوم من الأيام دخل عليه في حجره عدوه اللدود الثعبان، فقال اليربوع: ما الذي جاء بك هنا؟ فقال الثعبان: أنا ضيفك هذه الليلة لأنام معك في حجرك فخرج اليربوع من الحجر وقال: «هو لك يا أبا طويلا» وهرب ويضرب مثلاً للضيف الثقيل الذي يخشى منه، أما الضب فيتم صيده بطرق منها، حفر حجره الذي يتصف بالعمق والطول والطريقة الثانية في موسم هطول الأمطار على المواقع المتوفر فيها الضباب يجر ماء الغدير ويسحب إلى حجره ومتى جاءه الماء خرج بحيث يكون الصياد له على ولم يمسكه ويذبحه، أما بعد خروج السيارة فقد اتخذوا طريقة ثالثة وهي إيصال ماسورة العادم «الشكمان» إلى فتحة حجره وعندما يدخل عليه الدخان يؤثر عليه فيخرج ويتم اصطياده والطريقة الرابعة لصيده في نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف وهي «كنسة» في هذا الفصل يبقى الضب بالقرب من فم الحجر للابتراد ومن ثم النوم ويأتي الصياد ومعه ما يشبه الرمح يسمى «مكناس» بكل خفة يمشي على رؤوس أقدامه حتى يصل إلى الحجر ويطل عليه ومتى رآه طعنه «بمكناسة» ورصه على جال الحجر فإن كان قريباً أمسكه بيده الثانية وإن كان بعيداً ضغط على عصا المكناس برجله وبدأ يحفر الحجر بعصا أخرى حتى يصل إلى صيدته، والضب من الحيوانات التي لا تحتاج إلى الماء وذلك بحكم تكوين جلده الخالي من المسام.

ويمتاز الضب بالصبر عن الأكل حيث يمكث بحجره أشهر بدون أكل كما أنه من الزواحف الغبية حيث يتيه عن حجره إذا أبعد عنه ويأتي إلى حجره حتى ولو رأى الصياد عنده، وبعض الصيادين إذا رأى الضب خارج حجره دفنه وجلس عنده ومتى عاد الضب طارده واصطاده، والضب سريع الجري غير أنه يمكن اللحاق به، وأحسن ما بالضب من اللحم ذنبه «العكرة» وجلد الضب اناء ممتاز للسمن بعد دبغه وتسمى «ضبية» ولا يلجأ الناس لصيد الضب إلا في سنوات الشدة.

□ صيد الجراد:

الجراد تلك الحشرات الطائرة تغشي أسرابها الكثيفة هذه المنطقة في بعض سني الربيع وغالباً ما يكون قدومها في فصل الشتاء وأول ما تفد هذه الأسراب يكون لونها أحمراً وتكون هزيلة وتسمى «البحاري» وبعد أن ترعى هذه الأسراب من العشب تسمن وتنقلب ألوانها، فالذكر يصبح لونه أصفر فاتحاً ويسمى «الزعيري» والاناث يصبح لونها بين الأصفر والرمادي، وتكتظي ذيول الأناث من الجراد بالبيض الذي يسمى «النُّصُّ» فتدعى الجرادة من هذه الفئة «منصصة» أو «مكون» وعندما يكتمل نمو البيض لديها تفرغه وذلك بغرس دنبها في باطن الأرض على عمق يتراوح بين ٣ ـ ٧ سم وتجذب ذنبها الفارغ من البيض بعد أن تتركه في باطن الأرض ملفوفاً مع بعضه بغشاء لزج يجف على البيض ويحميه من المؤثرات الخارجية وبعد أن تنزل الأمطار في فصل الربيع بعد دخول «السماك» تأتي الرطوبة على البيض فيتفاعل ويتكون فيه «اليرقات» حيث يخرج منها يرقات «الدِّبا» بأطواره المختلفة و«الدبا» هو جمع دباة وهو فروخ الجراد ومتى كثر يسمى «الرِّهَالي» ويخرج من الأرض بأعداد كثيفة هائلة يغطي الأرض التي يسير عليها، ويلتهم ما عليها من الأخضر واليابس ويهلك الحرث والنسل، وربما سبب الأمراض للبلد الذي يحل فيها ذلك أنه يسقط في آبار مياه الشرب ويموت ويعفن ويؤثر على الماء وبالتالي على الصحة العامة، ويجلب الأوبئة، وكلنا يذكر «دبا» العيينة وأمثالها كثير، ومتى كبر الدبا وانتهى من أطواره التي يزحف فيها على الأرض وهي اليرقة ـ والحورية ـ والعذراء، انتقل إلى طور الطيران بعد استكمال نموه بظهور ريش كامل للجرادة مثل أمهاته وعندئذ يطير بأسراب هائلة ويسمى «الخَيْفَانَ» ويلتهم المزروعات والنخيل والأشجار وما يقع تحت طائلته، وكم من نكبات وجوعات ومهالك حدثت بهذه البقعة بسبب الجراد.

نعود الآن إلى اصطياده، تفد أسراب الجراد بأعداد هائلة وكثيفة كقطع الغيم تحجب رؤية الشمس وتطير هذه الأسراب مكونة كتلة واحدة وكأنها

الإعصار الهوائي الهائج يرتفع عمود الجراد إلى عنان السماء ويسمى «عموداً» والقاعدة تطير بحركة دائرية ملامسة للأرض تسمى «رحى الجراد» وعادة تكون رحى الجراد من الإناث نظراً لثقلها بالبيض، والعمود الأعلى من الذكور، وعندما تفد أسواب الجراد وتبيت بقرب البلد، أو يعلمون عنها حتى ولو كان بعيداً جاء من علم به إلى البلد أو النزل وصاح بأعلى صوته «يا جرَّادة» الجراد بالمكان الفلاني وعند ذلك يسرع الناس إلى تجهيز أوعيتهم من «رزم» و «فراد» و «خياش» و «مقانب» وركبوا إبلهم ودوابهم وأسرعوا من ساعتهم إلى المكان المذكور فإذا كان الوقت بارداً، والهواء ساكناً أدرك الناس من الجراد ما يحتاجونه، وإن كان الطقس بارداً نسبياً أو يوجد فيه رياح لا يستطيع الناس تحصيل القدر المطلوبة منه لأن الجراد يبرد مع سكون الهواء ويدفأ مع وجوده، ويأخذ الناس هذه الرزم والأوعية، وعادة يبدأ «الجَرَّاد» بملء المقنب وهو كيس صغير يملؤه ثم يفرغه في الوعاء الكبيرة مرة بعد أخرى حتى يمتلىء، ويصطاد الجرَّادُ الجَرَادَ من الشجر بقبضات كبيرة في كلتا يديه نظراً لكثافته على الشجر، وإذا كان هناك اثنان يساعد أحدهما الآخر يتولى أحدهما فتح الوعاء والآخر يحشوه، فإن كان الطقس بارداً يبقى الجراد لا يستطيع حراكاً، عند ذلك يتم اقتلاع الشجر الصغير ونفضه لتساقط منه الجراد بدون حراك ويجري «قَشُّهُ» وتعبئته، والرجل الذي يعثر على الجراد يبقى معه حتى يخيم عليه الليل ويبيت الجراد ليطمئن إلى بقائه في نفس الكان، فأحياناً يغيرِّ الجراد مكانه فينتقل يميناً أو شمالاً بمقدار يتراوح بين ١ ــ ٥ كيلاً من مكانه الأول وحينما يأتي الناس لا يجدونه في مكانه، وأحياناً يتهمون «المبيت للجراد» بعدم الثقة، وربما انخدع بعض الناس بكثرة الجراد حينما يكون منتشراً وقت الأصيل، ويخبر الناس على هذا الأساس ولكنه عندما يدخل بالشجر ويختفي عن الناس وهنا يأتي الاتهام مرة ثانية للرجل الذي بيته بأن الجراد خدعه، وهنا مثل يقول «جراد الزريقي» هذا الرجل ممن انخدع بكثرة الجراد عندما كان منتشراً، وعندما أخبر الناس حضروا ولم يجدو ما أخبرهم به وعندما لاموه على ذلك قال لهم: «اتركوه حتى ينتشر في الغداة وعندها سوف ترون كثرته وتصدقوني» وبالطبع إذا انتشر مع شمس اليوم التالي طار عنهم، والسرب القليل من الجراد يسمى «كراعاً» وبعد

تعبئة الأوعية والرزم تحضر للبيوت ويكون هناك قدور كبيرة ضخمة منصوبة على النار توقد نيران مسعرة وعندما يفور الماء والملح يجري كب الجراد الحي بالماء الفائر ليموت فيه، ويحيط بالقدر أهل البيت وكل واحد منهم معه خشبة صغيرة يغمس بها الجراد بالقدر بينها اثنان منها يمسكان بالوعاء، ويكبان ما فيه، وبعد أن يطبخ وينضج بالماء والملح يتم اخراجه من القدر ونشره بسطوح المنازل وعلى بيوت الشعر، ومتى تم طبخ الكمية التي تم اصطيادها يبقى آخر طبخه بالقدر مربصة بالماء تسمى «الرِّبيص» وتبرد ويؤكل الجراد بعد الطبخ أو الشوي، وللربيصة طعمها الخاص وبالذات عندما تبرد وينـزع من الجرادة أرجلهـا و«قصاميلها» وهي الأرجل الطويلة وريشها وأحياناً رأسها، والجراد مفيد من الناحية الصحية، لمن يعرف لديهم أمراضاً باطنية ربما لأنه يأكل من كل شجرة يمر عليها ومن ذلك قد يبقى خلاصة هذه الأعشاب بامعائه ويكون لها تأثير على من يأكله.

ويقول المثل: «إذا جاء الجراد انثر الدواء» إشارة إلى الاستفادة من الجراد بهذه الناحية وبعد أن يجف الجراد على سطوح المنازل أو على بيوت الشعر يتم تخزينه كمتاع عند الحاجة، ومن أناث الجراد الجـاف الملآى بـالبيض «المنصص» «المكن» ينزع منها أرجلها وريشها ورأسها وتسمى «قنزوعة» وتطبخ مع المرقومة، أو المطازيز عوضاً عن اللحم ويكون لها مذاق ممتاز، وربما بقي الجراد بقرب هذا البلد أو ذاك، في موضعه بضعة أيام وبالذات إذا صار الطقس بارداً، لذلك يستفيد الناس منه ويحصلون منه كمات هائلة يختزنونها في بيوتهم لأكلها عند الحاجة، وقد عاش الناس على الجراد وبالذات الطبقة الفقيرة شهوراً في سنوات الشدة أعاذنا الله من عودتها، ولرحلات الجراد واصطياده حكايات وذكريات تدغدغ أفئدة من حضروه، ويكثر الجراد أو يقل، وقد يؤرخ به بعض الناس كأن يقول سنة «جراد كذا...»، ويضرب المثل بالجراد لكثرته ويوصف الجيش الكثيف في عدده با «الجراد التهامي» أو «بالدّبا الرهالي» لكثرته، وقد أشار الشعراء إلى هذه الناحية.

كقول الشاعر:

٣٧٨ ـ طالع ورا أقصى بلاد العسيري
وراحت يمن مثل الجراد البحاري

(عبد الله القضاعي)

والجراد اليابس لا يشبع آكله إنما يسد الرمق.

□ □ □

الفصل الثامن عشر:

الألعاب الرياضية

□ سباق الفروسية:

تعجّ هذه البقعة بمختلف أنواع النشاط، وتتفاعل بكل حيوية وجدّ، ومن هذه الأنشطة سباق الخيل، ويتمّ هذا السباق ليس كما هو عليه الآن، حيث يجري السباق للسباق والاستعراض فقط وحسب جدول زمني معينّ على ميدان فسيح يحضره المتفرّجون وتقدّم في نهايته الجوائز والهدايا، وإنما يتم آنذاك لتمرين الخيل المربوطة في الاصطبلات وذلك لإبعاد الوهن عنها، ويجري بصفة دورية مستمرة للمحافظة على رشاقتها وحيويتها وصلابة عودها، وتخرج جميع الخيول من اصطبلاتها لهذا التمرين، ويكون السباق جماعياً وبصفوف طويلة ويجري بما يشبه المناورة الحربية في الوقت الحاضر، أي معارك وهمية يخوضها الفرسان على خيولهم، وتجري مبارزات في هذا الميدان الفسيح وأمام أناس يحتمل أن يمثّل الفرسان منهم أعداداً كبيرة، كما تجري سباقات على ألعاب بهلوانية، لا يدخل فيها إلا الفرسان ذوو الخبرة والمران، كأن يأتي الفارس على فرسه المغيرة ويلتقط برمحه شيئاً قد وقع له على الأرض، وربما التقط بيده علامة معيّنة من الأرض، كما يوضع علامة تمثّل نقطة الهدف ويأتي الفرسان وخيلهم بأقصى سرعتها، فيُصوّبون رماحهم أو بنادقهم إلى هذه النقطة لإصابتها، ولا ينال على هذه الإصابة أي جائزة، وإنما ليكسب سمعة عند أصحابه، ويبدي الفرسان مهارة فائقة في هذا المجال، كما يتمّ وضع علامات لتقفز الخيل من فوقها، وعليها فرسانها، وذلك لتدريب الخيل على اجتياز الحواجز والعوائق التي قد تعترض

طريقها في وقت الجد، كما يتم تدريب الخيل في الأيام المطيرة على اجتياز السيل الجاري مع الأودية لا سيما عندما يكون السيل قد أتى من مكان بعيد وبقي مكان السباق جافاً تستطيع الخيل أن تركض فيه دون أن تغوص حوافرها في الوحل وذلك لتدريب الخيل على اجتياز العوائق المائية عند الحاجة، وبما أن الخيل آنذاك هي إحدى معدّات الحرب الرئيسية فإن العناية بها قد تفوق بعض الأحيان العناية بالإنسان نفسه، كما أن الناس في معظمهم فرسان، أو ركبوا الخيل وعرفوا عنها الكثير، بالإضافة إلى هذا النوع من السباق الذي يُعتبر جزءاً من التمرين فإنه في أيام الأعياد يتمّ سباق للخيل ومطاردة عليها، واستعراض لخفّتها ومرونتها، وعليها الفرسان الذين يرتدون ملابس العيد المكوّنة من الثياب البيضاء الفضفاضة ذات الأردان الطويلة، ويرتدون عليها جبب الجوخ الحمراء والزرقاء والسوداء الموشاة بخيوط الذهب حاملين معهم كامل أسلحتهم المكوّنة من السيوف المذهّبة والخناجر الذهبية في أغمادها والبنادق والمسدّسات على رأس هؤلاء الأمراء وعليّة القوم، وتشترك في هذه الاستعراضات الخيول العائدة للسلطة الحاكمة كنوع من إظهار القوة أمام الناس، وهذه السباقات المشار إليها آنفاً ينقصها التنظيم الجاري في الوقت الحاضر لكنها أكثر جدّية وحيوية ونشاطاً ومرونة، حيث يجد الفارس من بين المتفرّجين من يرشده إلى ثغرة حدثت منه أثناء غارته أو حركة فعلها مع أنه في غنى عنها، وذلك لأن جمهوره ليسوا من هواة مشاهدة السباق فحسب، وإنما هم فرسان أيضاً يعرفون كل كبيرة وصغيرة مما يتعلّق بالخيل وركوبها، والألعاب البهلوانية وأصولها مما سيكون له الأثر الكبير لدى الفارس وهو يمارس هذه الهواية أن يحرص على اتّباع أسلم الطرق ويمشي حسب توجيهات مشاهديه ذوي الخبرة والحنكة والدراية، بهذا الفن المنتشر في تلك البقعة الطيّبة، وتحصل مراهنات على سباقات الخيل تكون حصيلتها لمن كسب الرهان إما جواداً أو مبلغاً من المال.

□ سباق العدو الجري :

هذا النوع من السباقات ينتشر بشكل كثيف بين مجموعات الشباب في معظم الأيام بدون ترتيب مسبق، ويتم في الميادين الفسيحة أو بقرب البيوت

أو منازل البادية، وأكثر ما يتمّ السباق في أول الليل وخاصة في الليالي المقمرة، وأحياناً يتم بعد العصر وذلك لمختلف الأعمار من الصبيان وحتى الشباب الكبار كلّ على قدر المسافة التي يستطيع قطعها، ويتم السباق مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك إنما في الغالب يتمّ السباق بين اثنين وتحدّد نقطة البداية والنهاية، بحيث تكون نقطة النهاية عند تجمّع المتفرّجين ونقطة البداية في مكان يبعد أو يقرب منهم، وتتراوح المسافة بين ٥٠ «بوعاً» ١٠٠ متر أو ١٠٠ «بوع» ٢٠٠ متر وتصل إلى ٢٠٠ «بوع» ٤٠٠ متر، والمتسابقون يحدّدون لحظة الانطلاق بالعد من ١ ــ ٣ ومتى نطق العدّاد الرقم الأخير انطلقوا مسرعين إلى نقطة النهاية وهي الهدف ليجدوا الحكم هناك وهو أحد المتفرّجين ممّن يثقون به، وتنتهي هذه المسابقات بالتشجيع المعنوي من المتفرجين فقط، أما اللباس الذي يرتديه المتسابقون فليس هنالك لباس مخصّص للمسابقات، فإما أن تكون ملابسهم العادية وعند السباق يرفعونها إلى ما فوق الركبة حتى لا تعوقهم أثناء الجري أو أن ينزعوها من على أجسامهم وتبقى عليهم السراويل فقط، وتحصل مراهنات على هذا المسابقات يحصل الفائزون فيها على ولائم دسمة ممن خسروا المراهنات وقد تكون هناك جوائز عينية.

□ المطارحة:

والمطارحة هي إحدى رياضات القوى المحبّبة وتشبه المصارعة التي تجري في الوقت الحاضر على حلبات خاصة مع اختلاف في الكيفية والأحكام والميدان، فالمطارحة تتم على أرض ليّنة في مجمع من الناس وغالباً ما يكون من الشباب، فيتماسك المتطارحان بحيث يحضن كل واحد منهم الآخر واضعاً يديه من خلف ظهر صاحبه والأخرى من فوق منكبه وبذلك يكون صاحبه على عكسه تماماً، وينحني المتطارحان، يتجاذبان، يلوي كل منهما صاحبه يميناً وشمالاً، يجذبه إلى الأمام تارة ويدفعه إلى الخلف تارة أخرى، يراوغه فيرفعه إلى أعلى، ينكبّ صاحبه، بإحدى رجليه يحاول أن يلفّ ساقه بساق صاحبه، وينكبّه ليلقي به على الأرض، وهذه المحاولات تجري من كلا الطرفين بشكل مستمر حتى إذا

استطاع أحدهما أن يطرح صاحبه أرضاً فتحتسب له نقطة ثم يبدآن من جديد، وتجري المعادلة إذا حصل الخصم على نقطة مماثلة، والعدّ النهائي أن يطرح أحدهما صاحبه أرضاً ثلاث مرات يكون قد حقّق الانتصار على خصمه الذي منيَ بالهزيمة، وأحياناً يبدأ العدّ من جديد من واحد إلى ثلاث وبعدها يدخل الميدان غيرهما، وهكذا تتم المطارحة على مختلف المستويات والأعمار، وغالباً يكون وقتها بعد العصر وحتى حلول المساء، وفي أول الليل وخاصة في الليالي المقمرة فيمتد حتى ما بعد صلاة العشاء بساعتين، وتجري تحدّيات ومنافسات بطولية وفي هذه اللعبة هناك اصطلاح يقال للتحدّي كأن يقول: «أنا رافع لك إشارة كذا. . . وأتحدّى من يطارحني» ولا يقول هذا الكلام إلا من يثق بنفسه، لأن فوق كل قوي مَن هو أقوى منه، وتتمّ المطارحة بالملابس العادية غير أنه يحصل رفع الثياب في الحزام، أو ربطه بالسروال، وتمنع أعراف المطارحة لمس المواضع التي يجزع من لمسها الإنسان كالإبط وأسفل الخاصرة وأي مواضع تثير الضحك وتثبط من نشاط الفرد، كما تمنع منعاً باتاً العنف كالضرب واللكم، والطعن، والعضّ، وشدّ الشعر وغيرها، وإذا أحسّ أحد الخصمين بالتعب والإرهاق طلب من صاحبه العفو بقوله «العِفّة» وعندها يفلته صاحبه في الحال ليستريح، وتجري على المطارحة مراهنات وتؤكل بسببها الولائم.

□ السبـــاحة:

نظراً لأن موقع هذه البقعة بعيداً عن البحار والأنهار لذلك اقتصرت رياضة السباحة فيها على بعض العيون والآبار والغدران المتخلّفة من السيول في موسم الأمطار، والسباحة كلها تجري في المياه العذبة وهي بطبيعة الحال أصعب من السباحة في مياه البحار والمحيطات، ورغم أن هذه الرياضة قليلة الانتشار إلا أنه قلّما يوجد تجمّع سكاني يخلو ممّن يجيد السباحة كضرورة يلجأ إليها عند الحاجة، وفي القرى تجد معظم الناس يشتغلون بالزراعة، وبالآبار، يتدرّب الأفراد على السباحة في الآبار ذات الفوهات الواسعة والمياه الغزيرة أو بالعيون المتوفّرة في مناطق أخرى، ويربط من يريد التدريب على السباحة فوق ظهره

مجموعة «من كرب النخل» المربوط مع بعضه، أو قِربة منفوخة بالهواء لترفعه إلى سطح الماء وتمنعه من الغوص فيه، ويكون المدرّب بجانبه حتى يستطيع السباحة بدون مساعدة ثم يتركه وشأنه، أما السباحة في الغدران فتكون لفترة وجيزة إلى أن يقلّ ماء الغدر وتتكثّف فيه كمية الطمي وعندها يكون خطراً وينصرف الناس عن السباحة فيه، ويتعلّم السباحة الكبار والصغار على مختلف الأعمار عملاً بقول الرسول صلىّ الله عليه وسلّم «علّموا بنيكم السباحة والرمي ولنعم لهو المرأة مغزلها»[1].

□ الرمـــاية:

الرماية من الهوايات الضرورية التي يمارسها الشباب والرجال معاً وربما النساء، في أماكن تخصّص لهذا النوع من الرياضة، وعندما كانت الأقواس والسهام هي أدوات الرماية، لم تكن الضرورة تدعو إلى انتجاع مكان بعيد عن حركة الناس نظراً لعدم بعد طيش السهام، أما عندما أصبحت البنادق النارية والمسدّسات هي المستعملة في الرماية فقد دعت الضرورة إلى تخصيص أماكن بعيدة عن تحرّكات الناس، أو أن يكون اتّجاه الرماة إلى جبل أو تلة أو جرف واد وغيره، وتحدث الرماية بالمبارزة وذلك بوضع إشارة الهدف «النيشان» وتبدأ الرماية بين الأفراد واحداً تلو الآخر، وبما أنه لا يوجد جيش نظامي في هذا البقعة كما مرّ بنا فإنه من الضروري لكل فرد من الناس أن يتعلّم الرماية، حيث أن كل واحد منهم يجد نفسه مضطرّاً يوماً من الأيام أن يصبح جندياً محارباً لعدوّه أو مدافعاً عن أرضه، إذاً والحالة هكذا فهناك ضرورة قصوى أن يتعلّم الرماية ويتدرّب عليها أتقن تدريب، وهناك مجال آخر يستطيع المرء أن يتدرّب على الرماية من خلاله هو ميدان صيد الطيور. وتعقد للرماية حلقات ومبارزة ومنافسة على عدد الإصابات الصحيحة ومقدار دقّة التصويب، وتحتاج الرماية إلى حدّة النظر، ورزانة الجأش، وقوة الأعصاب، ودقة التقدير، ومتى توفّرت

---

(١) كشف الخفاء، ج ١، ٢، ص ٦٨.

هذه العناصر الأربعة في الشخص أصبح مؤهّلاً للبروز في هذا الميدان، وتجري مراهنات على الرماية وعدد الإصابات ودقّة التصويب، ويتبعها «حق» أي وليمة دسمة للمتراهنين كما أن هناك نوعاً من القذف «بالمقلاع»وهي نوعٍ من السلاح القديم والمقلاع يقذف بها الحصى التي بحجم البيضة وأصغر قليلاً، وهي من الأسلحة القديمة وهي عبارة عن نسيج على شكل راحة اليد لها طرفان بارزان يسمّيان الجناحين، ويتمّ نسجها من خيوط الصوف، وبطرفيها البارزين خيطان من الصوف أو القطن بطول حوالي ٦٠سم، يأخذها القاذف ويثبّت أحد خيوطها بخنصر يده وطرفها الآخر يمسكه بإبهامه وسبابته، ويضع القذيفة في وسط «المقلاع» ثم يمسك الخيط الثاني ويومي بها بشدّة عدة مرات بحركة دائرية ثم يقذفها بشدّة نحو الهدف المقصود، بحيث يرمي القذيفة على بعد يتراوح بين ٣٠ ـ ٤٠٠ متر وربما أكثر من ذلك حسب قوة القاذف وجودة المقلاع، ويتم المبارزة فيها كنوع من الرماية، وكانت المقلاع يوماً من الأيام سلاحاً يتمّ المراشقة بالحصى بواسطته ويستخدمها الفلاحون في طرد الطيور من المزارع، حيث يستطيع الفلاح تفريق الطيور الضارّة من مزرعته.

□ لعبة عظيم ضاح:

من الألعاب الشعبية التي يمارسها الشباب لعبة «عظيم ضاح» وهذه اللعبة تتم في ليالي الصيف أو الخريف المقمرة، سواء بقرب المنازل أو مضارب البادية، ويقوم مجموعة من الشباب من مختلف الأعمار وكل منهم في سن واحدة أو متقاربي السن يلعبون مع بعضهم، وتبدأ اللعبة كالآتي: يتجمّع الشباب على شكل نصف حلقة ويبرز اللاعبون من بينهم فيخلعون ملابسهم إلا سراويلهم حتى لا يستطيع رفاقهم إمساكهم عندما يقتربون منهم، وتعتبر الحلقة نقطة النهاية ويختارون قطعة من العظم الأبيض أو أي شيء أبيض بحجم قبضة اليد ويتعرّف عليه الجميع ثم يرميه أحدهم بيده بقوة في اتّجاه معينٍ بعد أن يقول بصوت عال «عظيم ضاح واين سرى واين راح واين مكسور الجناح»؟ ثم ينطلق اللاعبون في هذا الاتجاه للبحث عن العظم تحت ضوء القمر وعندما يجده

أحدهم يصيح بصوت عال «سرى» يردّدها عدة مرات ونطلق مسرعاً إلى نقطة النهاية لدى الجالسين، ويحاول صحبه اعتراضه وانتزاع العظم من يده، فإن كان سريع الجري قوي البنية استطاع أن يفلت منهم ويصل إلى نقطة النهاية، وبهذا يكسب السبق، وإن كان غير ذلك لحقه مَن هو أقوى منه وأسبق وأخذ العظم من يده وأسرع هذا الأخير بالعظم إلى نقطة النهاية وحاز السبق، وتستمر هذه اللعبة بالساعات التي تمضي دون أن يشعر بها اللاعبون، وليس هنا جوائز تقدّم إلى اللاعبين وإنما يكتفي اللاعبون بالتشجيع والفوز المعنوي مع رياضة الجسم التي تحدث بطبيعة الحال أثناء الجري، وهي رياضة بدنية مفيدة وتعتبر إحدى ألعاب القوى التي يجب تطويرها.

□ لعبة «شق القنا»:

لعبة «شق القنا» من الألعاب المنتشرة بين الشباب من مختلف الأعمار، وكل مجموعة من متقاربي السن يلعبون مع بعضهم ويتم لعبها في ليالي الصيف والخريف المقمرة قرب المنازل ومضارب البادية، وتختلف هذه اللعبة عن سابقتها بحيث تتكوّن من فريقين كل فريق من ٣ ــ ٧ أفراد، وتحدّد نقطة النهاية بالقرب من المتفرّجين، ويتقابل الفريقان بعد خلع ملابسهم عدا السراويل، على بعد يتراوح بين ٥٠ ــ ١٠٠ متر تقريباً ونقطة النهاية بينهما بالنصف، ويقول أحدهما بصوت عال يسمعه أعضاء الفريق الثاني «شق القنا» فيردّ عليه أحد أعضاء الفريق الثاني بنفس مستوى الصوت «بكم الفنا» فيسأل متكلّم الفريق الأول «من هي بعينه» فيردّ عليه متكلّم الفريق الثاني «بعين فلان» ويعينّ الإسم وإن كانت «بعين» المتكلّم نفسه فيقول «بعيني وأنا أخو فلانة» وينطلق من وقع عليه الاختيار متّجهاً إلى نقطة النهاية بحماية رفاقه، في نفس الوقت الذي يعترضه أعضاء الفريق الثاني لمحاولة ثنيه عن نقطة النهاية ومتى أمسكوه وحالوا بينه وبين الوصول إلى نقطة الهدف خسر اللعبة وبالتالي خسر السبق، ولذلـك ترى الشخص المختار الذي تكون «بعينه» يحرص أشدّ الحرص على الوصول إلى الهدف بالمراوغة والإفلات من أعضاء الخصم، بينما رفاقه كل واحد منهم يمسك

واحداً من أعضاء الفريق الخصم وذلك لإتاحة الفرصة لزميلهم بالوصول إلى الهدف، وهم بدورهم يحاولون الإمساك به للحيلولة دون وصوله إلى نقطة النهاية، وتعتمد هذه اللعبة بشكل رئيسي على سرعة الجري والمهارة في المراوغة وقوة العضلات والوصول إلى نقطة الهدف من أقصر الطرق، ويمضي الشباب الساعات الممتعة في هذه اللعبة دون أن يشعروا بها وقد تمتد إلى جزء كبير من الليل.

□ لعبة «حَبْشَة»:

لعبة «حبشة» هي إحدى الألعاب الشعبية المنتشرة بين الشباب والشابّات وكل جنس يمارس هذه اللعبة وحده، ووقت هذه اللعبة في ليالي الصيف والخريف المقمرة أو سويعات الأصيل لمختلف الأعمار، وقوام هذه اللعبة يعتمد على الجري وسرعة المراوغة ويعينّ اللاعبون نقطة النهاية قرب الجالسين وينتشر اللاعبون من نقطة النهاية إلى مسافات تتراوح بين ٣٠ ــ ٥٠ متراً تقريباً، وعندما يأخذ كل منهم البعد المطلوب تعطى إشارة البدء وعندها كلّ يحاول أن يلمس أكبر عدد ممكن من اللاعبين دون أن يلمسه أحد وعندما يلمس أحد اللاعبين صاحبه فإنه يقول «حبش» وعندها يستسلم الفرد الذي تمّ «حبشه» ويعود إلى نقطة النهاية ماشياً بعدما لمسه صاحبه فلان، ويبقى الفرد الذي سلم من لمس زملائه ولمس جسم أكبر عدد منهم يبقى هذا اللاعب هو الفائز، وإن بقي اثنان حـاول أحدهما أن يصفّي خصمه وذلك بلمسه «حبشه» حتى يبقى هو الفائز الوحيد. ويعود لى نقطة النهاية مرفوع الرأس، وتعتمد هذه اللعبة على سرعة الجري والبراعة في المراوغة والإفلات، والحذر من لمس الآخرين وهكذا تتمّ هذه اللعبة غارسة في الشباب روح المرح والسرور والنشاط مما ينعكس في قوة الأجسام وصلابتها.

□ لعبة «أعقبونا ونعقبكم»:

هذه اللعبة هي إحدى الألعاب المنتشرة بين الشباب وربما الشابات كلّ يلعب على حدة، وهي من الألعاب التي تجري في ليالي الصيف والخريف،

ويمارسها اللاعبون تحت أشعّة ضوء القمر وكيفيّتها أن يتكوّن اللاعبون من فريقين كل فريق يذهب إلى جهة معاكسة لجهة الخصم ويبدأ بإحدى طريقين، إما أن يضع خطوطاً بأصابع اليد على الرمل في أماكن خفيّة في ظلال الجدار بالقمراء وتحت الأشجار وغيرها، أو أن يضع أكواماً صغيرة من الرمل في الأماكن الخفيّة المشار إليها، وبعد انتهاء كل فريق من وضع علاماته بالقدر الكافي ينادي المنادي هل انتهيتم؟ فيقول كل فريق بصوت عال «خلاص» وعندها ينادي «أعقبونا ونعقبكم» فينطلق كل فريق إلى مكان الفريق الخصم ويمسحون خطوط وأكوام الفريق الثاني وعند الانتهاء ينادي المنادي «خلاص» ثم يجتمع الفريقان معاً ويذهبان كلجنة حكم إلى مكان أحد الفريقين وأي خط لم يمسح أو كومة لم تمح تعتبر نقطة لصالح الفريق الذي توجد بميدانه، وعند الانتهاء من هذا الميدان ينتقلون إلى الميدان الثاني، وتعدّ النقاط الباقية لهم، ويرى أي الفريقين أكثر من منافسه يكون الفائز باللعبة، وتعتمد هذه اللعبة على الخفّة في الحركة، ودقّة الملاحظة، وفن التمويه، وتكسب الشباب الرياضة الجسمية، حيث يقضون الساعات الطويلة في هذه اللعبة الممتعة.

□ لعبة «الجلدية» «الحول»:

لعبة «الجلدية» أو الحول» تشبه إلى حدّ كبير لعبة «الجلف» المنتشرة في الغرب، إن لم تكن هي مع بعض التطوير والتنظيم في الغرب، ويتم اللعب بين لاعبين متقابلين وبينهما مسافة تتراوح بين ٢٠ ــ ٥٠ متراً تقريباً على خط هو نقطة البداية، ومع كل واحد منهما عصاً غليظة ذات رأس معقوف قليلاً ويوضع قطعة من عظم رأس ورك البعير بحجم أكبر من البيضة ثم يضعها على خط مستقيم ويمسك اللاعب العصى بكلتا يديه ويضربها بشدّة، بحيث يحاول إيصالها إلى خط صاحبه ويحاول خصمه إرجاعها دون أن تصل إلى خطّه، وكلما ضرب أحد اللاعبين الكرة «الجلدية» وأوصلها إلى ما بعد خط صاحبه بضربة واحدة دون أن تمسّ الأرض أو تتدحرج عليها تحتسب له نقطة كاملة، ويتم تغلّب لاعب على الآخر بعدد النقاط التي يحرزها، بينما المتفرّجون يقفون بعيداً عن أطراف ميدان

اللعب، ويجري الحكم بين اللاعبين من أحد المتفرّجين ويقف كل واحد منهم موازياً لخط أحد اللاعبين ويجري اللعب في وقت الأصيل وربما بعد صلاة الظهر في الأيام الباردة، ويمارس اللعبة الشباب الأقوياء والكبار والرجال وهي لعبة محبّبة لها عشّاقها وهي مفيدة من الناحية الرياضية.

□ لعبة «عتّة»:

لعبة «عتّة» هي إحدى الألعاب الشعبية المشهورة التي يمارسها الشباب من مختلف الأعمار، وغالباً تكون في أوائل الليالي المقمرة أو بعد العصر وتحت ظلال الأشجار والنخيل، وكيفيّتها أن يتم خط دائرة يتراوح قطرها ما بين ٥ ــ ٢٠ متراً على أرض ليّنة، ويبدأ اللاعبون واحداً بعد الآخر بأن يثني إحدى رجليه أو يعقلها بحزام أو حبل يجمع الفخذ والساق، وتبقى الرجل مربوطة بهذا الشكل وأحياناً بدون رباط على أن تبقى مثنية، ثم يقف اللاعب على رجل واحدة ويبدأ «يَعُتّ» يقفز عليها ويدور حول هذه الدائرة مرة بعد الأخرى إلى ثلاث مرات بشوط واحد، وكل ثلاث مرات يدور على الدائرة تحتسب له نقطة واحدة، وأحياناً كل دورة نقطة واحدة حسب الاتّفاق، وإذا كانت اللعبة من شخصين فينبري أحد اللاعبين ويتبعه الآخر يطارده فإن أمسك به قبل أن يتم كامل الدائرة فتعتبر هزيمة لصاحبه، كل هذا يجري واللاعبون كل منهم على رجل واحدة ينقز عليها نقزاً، ومن مزايا هذه اللعبة تقوية عضلات الرجلين والصدر، مع خفّة في الحركة والتعوّد على القفز، ويمارس هذه اللعبة كبار الشباب وهي محبوبة لدى الكثيرين.

□ لعبة «البير» «الحدل»:

لعبة «البير» أو «الحدل» هي إحدى الألعاب الشعبية المشهورة المنتشرة بين الشباب وخاصة الكبار منهم، و«البير» هو عصا قصيرة طولها أقل من «الشبر» حوالي ١٥ سم يضرب بعصا يقارب طولها ٦٠ سم، وكيفية اللعب أن يتم تحديد خط بداية وخط نهاية، ويقف كل لاعب على خطّه وكل واحد معه عصاه

ويمسك أحدهما العصا الصغيرة «البير» بجانب قبضة يده ثم يقذفه بالهواء ويعترضه بالعصا الطويلة يضربه فيها ضربة توصله إلى خط النهاية، فإن سقط قبل خط النهاية أعاد الضربة مرة ثانية بإيقافه على الأرض، فإن لم يوصله فلا يحق له ضربة مرة ثالثة وبنفس الطريقة غير أنه يركّزه على كومة من التراب ويمسك العصا بكلتا يديه ليضرب «البير» بالعصا الكبيرة حتى يوصله إلى خط النهاية، فإن لم يستطع سقط حقّه في اللعب وجاء لاعب آخر. وعلى اللاعب المغلوب أن يحمل رفيقه على ظهره من مكانه الذي يقف فيه حتى خط النهاية لرفيقه، وإن أوصل «البير» إلى خط النهاية بضربة واحدة ردّه عليه اللاعب الثاني بنفس الطريقة، وهذه اللعبة شبيهة بلعبة «الكرة» أو «الجولف» تفيد عضلات اليدين والصدر.

□ لعبة «طَرّهْ»:

لعبة «طرة» إحدى الألعاب الشعبية المنتشرة بين الشباب وأكثر ما تجري في الليالي المقمرة وربما المظلمة، وكيفيتها أن يجلس واحد من اللاعبين كنقطة ارتكاز ويسمى «الأم» ويمسك بطرف «غترة» اللاعب الذي يبدأ اللعب ويضع اللاعبون «غترهم» لدى «الأم» يضعها بجانبه ويمسك اللاعب الطرف الآخر «للغترة» التي يمسك اللاعب الأم طرفها ويبد اللاعب بحماية «الغتر» الموجودة بقرب الأم في نفس الوقت يحاول اللاعبون نهب «غترهم» بينما اللاعب الذي في الميدان يدافع عنها برفس المهاجمين باحدى رجليه وهم يحاولون انتزاعها منه في هذه المحاولة والمراوغة فإن تمكن اللاعب من إصابة أحد المهاجمين بضربة ولو خفيفة وحتى لمسه في أي جزء من جسمه دخل هذا المصاب في الميدان وأمسك «الغترة» وبدأ يدافعُ عن البقية وصار اللاعب الأول من ضمن المهاجمين وإن تمكن المهاجمون من انتزاع «الغتر» من أمام اللاعب المدافع فإن كل واحد منهم يأخذ «غترته» ويفتلها ويبدؤ ون بضرب اللاعب المدافع «بالغتر» المفتولة وهو يحاول جاهداً إصابة أحدهم بالرفس ومتى أصاب واحداً منهم فإنه يحل محله، وهذه اللعبة تحتاج إلى المهارة والحذر وشدة الانتباه وخفة الحركة التي يتطلبها الموقف وبمضي

الشباب في هذه اللعبة الساعات الطويلة دون أن يشعروا بها وهي مقيدة جسمياً.

□ لعبة شد الحبل:

لعبة شد الحبل «الرشا» هي من الألعاب الموجودة لكنها أقل انتشاراً من غيرها وهي لا تختلف عما هي عليه في الوقت الحاضر ويمارسها الشباب على مختلف المستويات والأعمار ويتم لعبها ليلاً ونهاراً بحيث يجتمع اللاعبون في مجموعتين ويكون هناك حبل غليظ أو رشا يمسك كل فريق بطرف منه ويتم الاستعداد للبدء بالشد، ويعد من ١ ـ ٣ وعندها يمسك كل مجموعة بسحب المجموعة الثانية بينما تلك المجموعة تحاول الثبات بمواقعها وجر المجموعة الخصم إلى أن يتم سحب أحد المجموعتين وهي رياضة بدنية تنمي عضلات اليدين والصدر والرجلين والبطن ولها عشاقها من الشباب.

□ لعبة «المَزَاقِيْط»:

لعبة «المزاقيط» هي لعبة شائعة ومنتشرة لدى الشباب والشابات ووقت لعبها في النهار تحت ظلام الأشجار والنخيل وحيطان البيوت على أرض لينة وربما صلبة نوعاً ما، واللعبة هي عبارة عن خمس حصيات، يلعبها اثنان يتقابلان جالسين على الأرض ومعهما الحصيات الخمس ينثرها اللاعب للمرة الأولى ويختار واحدة منها فيقذفها في الهواء قليلاً ويفرش ظهر كفه تحتهما لتفريق الحصى ويختار واحدة منها «المزقاط» ويقذفه بالهواء قليلاً ويلتقط حصاة ثم يلقفه قبل أن يقع على الأرض، ثم يقذفه مرة ثانية ويلتقط حصاة ثانية ويلقف «المزقاط» وهكذا حتى نهاية الحصيات وتسمى هذه المرحلة «فردية» وبعد استكمالها ينثرها مرة ثانية ثم يختار واحدة منها يلتقطها اثنتين اثنتين بعد قذف المزقاط «بنفس الطريقة الأولى وتسمى هذه المرحلة «ثنائية» ثم ينثرها مرة ثالثة ويختار «المزقاط» منها ثم يقذفه للهواء على نفس الأسلوب ويلتقط ثلاث حصيات في كفه ثم يضعها كومة على

الحصاة الباقية بعد قذف «المزقاط»كَسبٌ» ثم يقذف «المزقاط» في الهواء ويأخذ الأربع حصيات دفعة واحدة ويتقلف «المزقاط» وتسمى «كمش» ثم يكون إبهام يده اليسرى مع السبابة على شكل قوس واقف على الأرض بشكل بواية ثم يأخذ كامل الحصيات بيده اليمنى ويلويها من خلف القوس وينثر الحصيات بحيث يترك المجال للخصم أن يختار «خاله» من هذه الحصيات، وهنا يأتي دور الخصم ليخار الحصاة القريبة من البوابة أو في الطريق إليها، ويبدأ اللاعب بقذف «المزقاط» وادخال الحصى حصاة بعد أخرى في كل قذفة بحيث لا يلمس «الخال» وعندها يكون قد فاز باللعبة واعتبرت له نقطة كاملة، أما إذا سقط «المزقاط» على الأرض بأية قدفة، أو لم يستطع اللاعب أخذ حصائين في «الزوج» أو ثلاثاً في «التثليث» أو بقيت حصاة واحدة في «الكمش» أو لمس «الخال» اثناء ادخال الحصيات فإن حقه في اللعبة يسقط وينتقل اللعب إلى زميله، ولهذه اصطلاحاتها المتعارف عليها وهي لعبة تسلية وتنشط الذهن لدى اللاعبين ودقة الانتباه والحذق في التصرف.

□ لعبة الخذروف « الدوامة أو المعول»:

والخذروف أو «الدوامة»، «المعول» هي لعبة شعبية منتشرة لدى الصبية ويلعبها اثنان أو أكثر وربما تكون فردية بحيث يملك كل صبي أو شاب خذروفاً خاصاً به وتجري المباراة على أرض صلبة في الشوارع وتحت ظلال الأشجار والنخيل، والخذروف معروف منذ القدم وقد ورد في شعر امرىء القيس حيث يقول واصفا فرسه بسرعة الجري والافترار:

دريـر كـخـذروف الـولـيـد أمـره
تـقلب كـفـيـه بـخـيط مـوصـل[١]

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٥٥.

والخذروف عبارة عن قطعة صغيرة من الخشب مصنوعة بشكل اسطواني مدبب الرأس ينتهي رأسه بمسمار يدور عليه، فيلف الصبي عليه خيط رفيع محكم من رأسه إلى قاعدته، ثم يمسك بطرف الخيط ويرمي به بشدة إلى الأرض ويحرص أن يكون وصوله إلى الأرض على محور الارتكاز ومع قوة الحذف وانتقاض الخيط من حوله بقوة وسرعة يحدث للخذروف دوران شديد على الأرض يستمر إلى خمس دقائق تقريباً ثم يأخذه الصبي ويلفه من جديد ويحذفه إلى الأرض، وهكذا دواليك، ويتبارى الصبية في أيهما يبقى خذروفه يدور مدة أطول ويكون له صوت «خنين» حينما يقذفه على الأرض، وهي لعبة شيقة وممتعة للصبية يقضون فيها أغلب أوقاتهم.

□ لعبة البقرة:

ولعبة البقرة هي لعبة يمارسها الشباب في بعض الليالي التي تكون قمراؤ ها غير ساطعة، ويقوم بها مجموعة من الشباب وقوامها شخصان يضعان كتلة من الملابس على شكل رأس بقرة له خرطوم وأذنان ويمسكه أحدهما بيديه ويركع حاسراً عن رجليه إلى ما فوق الركبة ويمثل الجزء الأمامي من جسم البقرة ويأتي زميله ويسند يديه إلى ظهر صاحبه ويحسر عن رجليه أيضاً ويمثل الجزء الأخير من جسم البقرة ثم يُغَطِّيَانِ بجلال يغطي جسميهما ولا يظهر إلا رجليهما التي تتراءى للناظر في الظلام وكأنها قوائم البقرة ثم يبدآن بالمشي على هيئة مشية البقرة ويحدث الأمامي صوتاً يشبه خوار البقرة، وعادة تعمل هذه اللعبة في الليالي التي تكون القمراء ضعيفة أما أول الشهر أو آخر وربما الليالي المظلمة بحيث تكون مفاجأة للمجتمعين الذين لم يعلموا إلا ظهور البقرة عليهم مما يحدث ضجة وفزعاً للصغار ويمضي الشباب الساعات الممتعة في متابعة هذه البقرة بالشوارع والممرات وقرب البيوت.

□ لعبة الكعوب:

الكعوب جمع كعب وهو عظيمة مستقلة في عرقوب أرجل الماشية وما يهمنا هو كعب الغنم والماعز والغزلان والوعول وهي من الألعاب الشعبية المنتشرة

بشكل واسع بين الشباب وربما لا تجد أحداً من الشباب لا يعرف لعبة الكعوب ولها قوانينها واصطلاحاتها المتعارف عليها، ولها أسماؤها وأنواعها ، وأفضلها كعوب الوعول لثقل وزنها تليها كعوب الغزلان لثقلها أيضاً وتليها كعوب الخراف المسنة «القارح» ثم كعوب الضأن والماعز، ومن أسماء الكعوب «الصولة» وهي من أكبرها وهي التي يضرب بها صف الكعاب في ميدان الدائرة، ولزيادة ثقلها ينقر بطنها ويصب فيه «القصدير» و«السحلية» وهي ما يحك جانبيها بصخرة حتى تصير ملساء في جانبيها وذلك لسهولة انتصابها على أحد الجانبين الأملسين، وينقر وسطها أيضاً ويصب فيه القصدير لزيادة ثقلها وبقية الكعوب عادية، ويحرص الصبية والشباب على جمع الكعوب فيفرحون وقت ذبح الأضاحي أو الذبائح لا من أجل لحومها ولكن من أجل كعوبها.

وأول ما ينتزعون من الذبيحة كعباها قبل أكل لحمها ومتى حصل الشباب على مجموعة من الكعاب يشعر وكأنه أصبح «مليونيراً» ولعبة الكعوب تتم بطريقتين الأولى يلعبها اثنان يجلسان متقابلين ويشتركان في لعبة وادة وربما اشترك في اللعبة أربعة أفراد في حلقة واحدة يجمعون الكعوب كل واحد كعبين أو ثلاثة وكل بالطبع عارف ما يخصه وينثرونها ويقول من ينثرها على الأرض قائلاً: «الديش» الديش ولد الرديء ما يعيش» وعند نثرها ينظرون إن كان انتصب من كعوب أحد اللاعبين واحد على جنبه يعتبر أكل ما يوالي وجهه حسب الاتفاق وإن لم ينتصب من هذه الكعوب شيء يعاد جمعها ونثرها من اللاعب الثاني وهكذا والكعب الجيد في نظر صاحبه ما يكسب أكبر عدد من الكعاب ويكسب ويخسر الفرد في هذه اللعبة فربما يدخل الميدان ومعه عدد كبير منها ويخرج صفر اليدين إنما بروح رياضية سمحة، وربما دخل الميدان ومعه كعب واحد وكسب العشرات منها ومتى كسب أصبح فرحاً مسروراً وكأنه حاز على جائزة «نوبل» في العصر الحاضر، أما الخاسر فيشعر بالامتعاض ولكنه لا يغضب، والمثل الشعبي يقول: «الغَلَبَةْ شَيْنَة حَتَّى بِلَعِبِ الكُعُوْبْ». أما الطريقة الثانية فهي لعبة الميدان وهي وضع دائرة قطرها حوالي ٤٠ ــ ٥٠ سم وصف الكعوب بطريقة رأسية على مستطيل من حفاد الرمل وتعيين خط النهاية ويسمى الميدان ببعد من ٥ ــ

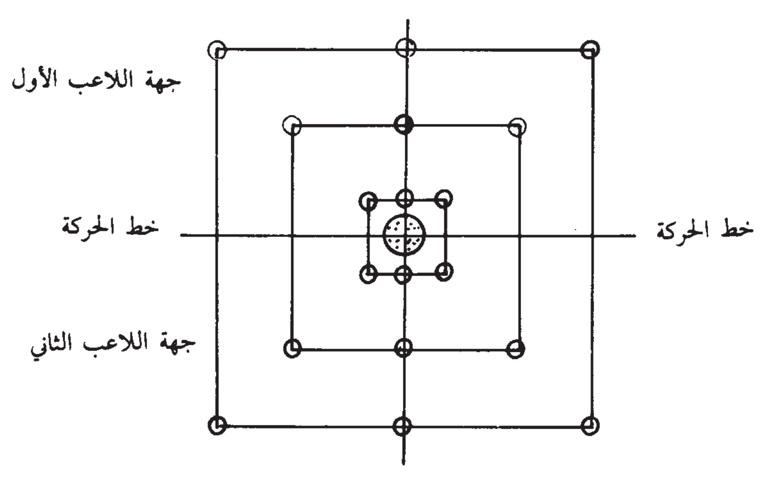
١٠ أمتار يقف عليه اللاعب ويصوب «صولته» ويضرب فيها صف الكعوب، وكلما أخرج كعباً بنفس الضربة فقد كسبه ثم يقف مكان استقرار «الصولة» فيضرب البقية فإن أخرج كعباً آخر وقف مكان «الصولة» مرة أخرى وضرب البقية ومتى أخرج كعباً ثالثاً استمر حتى يخرج كل ما في الميدان وبقية اللاعبين يتفرجون دقيقي الملاحظة على ضربات اللاعب ومتى أخطأ فقد سقط حقه في المتابعة وإن لم يستطع اللاعب إخراج أي من الكعاب في البداية أو في المرحلة الثانية سقط حقه وبدأ اللاعب الثاني مكانه على نفس الطريقة واللعبة لها من الاعراف والاصطلاحات المتعارف عليها في غاية الدقة وأعلى درجات الاحترام، ومع هذا فإن كعوب اللاعبين عرضة للنهب من قبل الآخرين ولذلك عندما يرى اللاعبون شاباً قادماً يقولون له «شورك» وهذه الكلمة تحمي كعابهم وتمنع الشاب القادم من اختطافها ولذلك هو يحترم هذه الكلمة، وإن لم يقولوا هذه الكلمة هجم على الكعاب ونهبها قائلاً: «نكخي بالشور ما شورلي» ويأخذها منهم ويجلس معهم يشاركهم في اللعب «المقاشط» للكسب أو الخسارة دون أي احراج أو اعتراض منهم، ولذلك تجد اللاعبين يحرصون أشد الحرص على الانتباه للقادمين واطلاق تلك الكلمة على القادم بصوت يسمعه، وربما بلفظ أدق وأعم إذا كان من المشهورين بنهب الكعوب وهو «شورك عما ينوي به قلبك وينطق به لسانك» لذلك يضمنون عدم خطفه لكعوبهم وأحياناً يختفي من ينوي اختطاف الكعوب خلف أي انسان قادم في طريقه إلى اللاعبين حتى يصلهم وهم لا يشعرون به وعندها يفاجئهم لهذا يحرص اللاعبون على الحيطة والحذر من كل قادم، وما قد يخبىء خلفه.

ولعبة الكعوب محبوبة من الجميع فإلى جانب كونها رياضة ذهنية وعضلية فهي تنمي لدى الأفراد حب الكسب بالصفقات «التجارية» واحترام القوانين والتعليمات.

□ لعبة المخططه «أم تسع»:

لعبة المخططة أو «أم تسع» من الألعاب الشائعة والمنتشرة بشكل كبير ويلعبها الشباب والكبار وتتخذ للتسلية مثل لعبة «الورق البلوت» في الوقت

الحاضر إلا أنها شبيهة إلى حد كبير بلعبة الشطرنج، ويجري لعبها وقت الفراغ ليلاً ويلعبها الذين لا عمل لهم وميدانها على أرض لينة تتضح عليها خطوط الأصابع وخطوطها ثلاثة مربعات بعضها داخل بعض فالمربع الخارجي طول ضلعه حوالي ٤٠ سم والمربع الأوسط طول ضلعه ٣٠ سم والمرابع الداخلي طول ضلعه ٢٠ سم، ويقطع هذه المربعات خطان يتقاطعان في نقطة واحـدة بوسط المربع الصغير، ويلعبها اثنان لدى كل واحد منهما تسع حصيات يختلف لونها عما في يد رميله، ويتقابل اللاعبان ينزل كل واحد منهما الميدان بالتتالي في عملية التثبيت ينزل كل منهما حصاة وينزل خصمه أخرى وتحتاج عملية النزول إلى تفكير وإدراك في اختيار المواقع المناسبة، وبعد وضع كامل الحصى في الميدان تبدأ عملية الحركة «القفش» و«الطخ» وتتحرك كل حصاة بنفس خطها يميناً وشمالاً وأما ماماً وخلفاً وتتبع حصوات الخصم لاحراقها أو أن تتخذ موقفاً دفاعياً والحصاة التي يجري إحراقها معنوياً توضع في الوسط على تقاطع الخطين وعندما تزحف الحصاة وتأتي على حصاتين في صف واحد لا حامي لهما فإنها تحرقهما، أو عندما تزحف حصاتان في صف واحد مع حصاة ثالثة للخصم فانهما تحرقانها، واللعبة لها مصطلحات متعارف عليها تحكمها، ويمكن أن تختلف هذه المصطلحات من مكان إلى آخر، وهي شبيهة إلى حد كبير بلعبة الشطرنج من حيث الأحكام والتصديق وهي رياضة ذهنية مفيدة ولها شعبية كبيرة بين الشباب والكبار.



□ لعبة «أم خطوط»:

ولعبة «أم خطوط» من الألعاب الشعبية الواسعة الانتشار بين الشباب والشابات وتعمل على شكل مستطيل مقسم إلى أربعة أقسام متساوية يفصل بينهما خطان متوازيان في نصف المسافة بعرض حوالي ٢٠ سم وما بين هذين الخطين يعتبر استراحة اللاعبين وتتم اللعبة بالطريقة الآتية: قوام اللعبة قطعة من الخشب أوعظم ضلع البعير أو البقرة حجمها حوالي ٣ × ٥ سم يرميه اللاعب خارج المستطيل ثم يبدأ ادخال العظم بإمساكه بأصابع رجله التي يرتكز عليها في القفز ويثني الرجل الأخرى والرجل التي يقفز عليها القفزات المتتابعة هي التي يلتقط العظم بأصابعها فيدخلها للمستطيل الأول ثم يخرجها منه ثم يدخلها المستطيل الثاني ويخرجها منه ثم ينقلها للمستطيل الثالث ويستريح في منطقة الاستراحة ثم يخرجها مرة ثالثة ثم يعيدها عبر المستطيلات الثلاثة حتى يصل بها إلى المستطيل الأخير ثم يخرجها ويحظر على اللاعب سقوط العظمة من رجله في أي مرحلة من مراحل اللعبة وإلا خسر اللعبة ودخل الميدان غيره، كما يحظر عليه أن يطأ أياً من الخطوط التي تقسم المستطيلات عدا ما بين خطي الاستراحة وموعد هذه اللعبة في النهار أو في الليل بالأماكن المضاءة بضوء القمر على أرض صلبة ويخطط لها على الأرض أو بصبغ أو شيء له أثر وتجد اللاعبين أو اللاعبات في مجموعات وكل مجموعة على حدة ويمضون بهذه اللعبة ساعات ممتعة، وهي رياضة بدنية ممتازة وذلك بسبب عملية القفز التي تجري أثناءها، ولها قواعدها واصطلاحاتها المتعارف عليها ويجري احترامها من الجميع بدرجة عالية.

(١)	(٢)	منطقة الاستراحة	(٣)	(٤)

□ لعبة «طبق لولو»:

لعبة «طبق لولو. طبق مرجان» من الألعاب المنتشرة بين الفتيات والصبايا بصفة خاصة ويتم ممارسة هذه اللعبة داخل البيوت وفي الساحات المغلقة وهي لعبة ثنائية تتقابل فيها اللاعبتان يتقابلن ويصفقن بالأكف كل واحدة تصفق بكف الثانية وتقول الأولى ماذا تعطيني؟ فترد عليها الثانية. أعطيك طبق لولو، وتسأل الثانية وأنتي ماذا تعطيني فتقول لها الأولى: أعطيك طبق مرجان وهنا تسند الأولى ظهرها إلى ظهر الثانية ويتماسكن بالأيدي من فوق متونهن وتحمل أحداهن على ظهرها من خلال إمساكها بكفيها قائلة «طبق لول» ثم تنزلها إلى الأرض فترفعها زميلتها بنفس الطريقة قائلة «طبق مرجان» ويبدأن بالتأرجح هذه مرتفعة والأخرى نازلة ويرددن كلمات «طبق لولو. طبق مرجان ومن شروط هذه اللعبة أن تكون الفتاتان بسن متقاربة وأجسامهن متقاربة أيضاً وأي واحدة منهم تعبت من نقل زميلتها تكون قد خسرت اللعبة، وهي لعبة رياضية ممتازة تجلب المرح والسرور وتفيد اللاعبات بصلابة الأجسام ونمو العضلات الصدرية وهي محبوبة لدى الفتيات.

□ لعبة العرائس «العياج»:

لعبة العرائس «العياج» من الألعاب الخاصة بالفتيات والصبايا منذ سن مبكرة حيث تُكَوِّنُ هذه اللعبة لديهن عالماً مستقلاً بذاته، نموذجاً مصغراً لما تدركه عقولهن من العالم المحسوس فالعروسة التمثال هي عبارة عن قطعة من العظم الأبيض أو قطعة خشب صغيرة يربط في أعلاها عود يعتبر مثابة اليدين للإنسان، وتشق لها قطع القماش وتلف عليها كملابس وقد تخاط لها الملابس، وتفرش قطع من الخرق كفراش ودثار، وتصفف لها قطع من المجسمات الصغيرة تمثل بمفهوم الصغيرات أدوات منزلية، ويؤتى لها بأدوات الزينة المتاحة والتي تدركها الصغيرات، وهي بنطرهن تمثل دور سيدة بيت بمالها وما عليها حسب مفهومهن وما اكتسبنه من بيئتهن، وتستنطق ويحكى على لسانها طلباتها وتملي على الآخرين متطلباتها ويدور حوار من الصبية الصغيرة على لسان

عروستها مع زميلتها التي تتكلم بلسان عروستها، ويجري حديث ذو شجون حسب إدراك الصغيرات، وأسلوبهن في الحديث، ويَسْبَحْنَ في خيال عميق على ألسنة عرائسهن، قد ينسين معه أنهن لا يزلن في عالم آخر غير الذي يتحدثن عنه، وتمضي الساعات الطويلة، ويأخذ منهن الجوع مأخذه دون أن يشعرن به لما هن فيه من الانسجام والمتعة في عالم لعبة العرائس، ويتضايقن حين يقطع عليهن هذه الأوقات الشيقة والمحببة إلى نفوسهن حتى ولو كان هذا الحادث في صالحهن وقد يرفضن تناول طعام وجبة الغذاء أثناء ممارستهن هذه اللعبة ووقت لعبها في النهار في إحدى زوايا المنزل، وهي لعبة مفيدة تنمي لدى الصغيرات الخيال الواسع وتوحي لهن بالنضوج الفكري المبكر وتوقظ لديهن الشعور بتحمل المسؤولية المنزلية، وهي لعبة محببة لدى الجميع.

□ لعبة «حبح حوح»:

هذه اللعبة أيضاً تخص الفتيات، ويلعبنها داخل البيوت وفي الساحات المغلقة بعيداً عن أماكن تواجد الشباب، وهي لعبة جماعية تتجمع الفتيات والشابات في حلقة متكاملة ممسكات أيدي بعضهن البعض قافزات قفزات خفيفة يرددن كلمتي حبح.. حوح» سبع مرات ثم يفردن الحلقة بصف طويل وكل واحدة تلوي جسمها لتدخل من تحت يدها ويد جارتها المتماسكتين ثلاث مرات من اليمين إلى الشمال وثلاث مرات من الشمال إلى اليمين ثم يغلقن الحلقة مرة ثانية، ويبدأن بالقفز الخفيف وترديد كلمتي «حبح.. حوح» ثم يجلسن في لحظة واحدة ويصفقن بأكفهن وهن جلوس على إيقاعات متتالية ثم ينهضن ويقفن فجأة، ويعدن نفس القفزات والكلمات ويعاد هذا الوضع أربع مرات، وهذه اللعبة رياضية مفيدة للفتيات وهي ممتعة وشيقة ولها قواعدها ومصطلحاتها وايقاعاتها المتعارف عليها.

□ لعبة «غُمَيًّا»:

ولعبة «غُمَيًّا» من الألعاب المنتشرة بين الصبية والشباب وربما بين الصبايا، وهي عبارة عن لعبة تعمية للشخص، اللاعب وكيفيتها أن تعين نقطة نهاية

تسمى «الأم» سواء أكانت دائرة على الأرض أو أي إشارة أخرى أو شخص يجلس بالوسط، ويكون هو بمثابة نقطة الارتكاز يتم التجمع حولها وبعد ذلك تعصب عيون أحد اللاعبين، ثم ينفرق الباقون في كل اتجاه ويأتي من عميت عيناه يتلمس أحد من أصحابه على حس وقع أقدامهم على الأرض أو أصواتهم، ومتى قبض على أحد منهم قبل وصوله إلى الأم فإنه يحل محله وإن لم يمسك أحداً قبل وصوله إلى نقطة النهاية فإنه يستمر باللعب مرة ثانية وثالثة وبعد الثلاث مرات يستبدل بغيره، ومكان لعبها في مكان فسيح ذي أرض مستوية خالية من العوائق وليس بها ما يؤذي، من أحجار وغيرها. وتتم هذه اللعبة ويجري خلالها الضحك على حركات معصوب العينين.

◻ لعبة «طوط»:

لعبة «طوط» شبيهة بلعبة «غميا» غير أنها تجري في الليال الظلماء ولا يكون الشخص معصوب العينين وإنما يكون الظلام الذي أسبل ستاره على الكون كفيلاً بتعمية اللاعب عن أبصار بقية الفريق وفي نفس الوقت يكون ميدانها أكبر حيث يأتي اللاعب إلى الشخص الجالس في نقطة النهاية «الأم» وهذا يمسك بعيني اللاعب حتى يتفرق صحبه شذر مذر ويختفون في أماكن هنا وهناك وعند استكمال اختفائهم يطلقون صوت «طوط» كل في مكانه وعندها تأتي الأصوات من كل اتجاه في وسط هذه الظلماء وعندها يركض اللاعب باتجاه أحد الأصوات التي انطلقت قبل لحظة، في نفس الوقت يتجه اللاعبون إلى نقطة النهاية «الأم» مبتعدين عن اللاعب يراوغونه بحذر وحذق حتى لا يلمس جسم أحدهم أو يمسك به وعند وصولهم إلى نقطة النهاية «الأم» يعتبرون دخلوا منطقة الأمان، أما عندما يمسك أحدهم أو يلمس أي جزء من جسمه فإنه يحل محله في اللعبة أما إذا لم يتمكن من لمس أحدهم أو الإمساك به فإنه يستمر إلى ثلاث مرات، ويمضي الصبيان وربما الصبايا أوقات سعيدة بهذه اللعبة وهي شعبية واسعة الانتشار ولها فوائد كثيرة منها الرياضة الجسمية والنفسية والتدريب على السير والركض في الظلام، والتدريب على الرؤ ية الليلية وإبعاد شبح الخوف من الظلام عمن يمارسها من الشباب.

□ لعبة الخيل «الأسياخ» السيارات:

لعبة الأطار «الأسياخ» هي لعبة انتشرت مؤخراً ولا تزال آثارها باقية حتى الوقت الحاضر، وتتخذ من إطارات معدنية يكون لها مقود من عصا برأسه إطار حديدي له ثنية تلف على الاطار من جهة واحدة ويمسكه الصبي ويدفع به الاطار ويركض وراءه، ويعملون لهذه اللعبة مسابقات هي في الواقع لنفس الشباب إنما تأتي تجاوزاً باسم الاطارات حيث يصف الشباب باطاراتهم ينطلقون بها من نقطة البداية إلى نقطة النهاية حتى يصلوا اليها وأيهما كسب قصب السبق يعتبر إطاره هو السابق، ولهذه اللعبة شبيهة على نفس النمط وهي لعبة السيارات وهي عبارة عن عجلتين من الخشب تسمى «قرقر» يثبتان في عارضة صغيرة ويكون مقوده عصا طويلة يدفع الصبي تينك العجلتين اللتين تجريان بفعل دفعه لهما ويركض الصبي وراءهما وتجري مسابقة مثل لعبة الأسياخ وهاتان اللعبتان قد تطورتا من لعبة «الحصان» وهي جريدة النخل محنى جذعها بحيث يرتفع إلى أعلى ويمسكها الصبي مع طرفها الرفيع ويدفعها إلى الأمام وبحكم انحنائها يرتفع جذعها عالياً ويراها وكأنها الحصان وتجري لهذه اللعبة مسابقات شبيهة بسابقاتها، وهذه الألعاب مفيدة جداً رياضياً وصحياً للصبية حيث تعودهم على الجري والركض لمسافات طويلة ويمارسها الصبية والشباب بدون ملل ويقضون أوقاتاً سعيدة بممارستها.

وهناك ألعاب أخرى مماثلة لم أتمكن من إدراجها لعدم استكمال المعلومات اللازمة لها وسوف نضيفها مستقبلاً.

□ □ □

الفصل التاسع عشر:

الناحية الصحية

□ الصحة العامة:

الصحة العامة في هذه البقعة بوجه عام جيدة، عدا ما يعتور السكان من الأمراض العادية الناتجة عن تقلّبات الجو، وبصفة خاصة في أواخر فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء الذي يسمّونه «الصّفِري»، حيث تكثر الأمراض الصدرية والنزلات المعوية، والحصبة للأطفال، وفيما يجتاح المنطقة في بعض السنين من الأمراض المعدية الفتّاكة مثل، الطاعون، الجدري، الحصبة، وحمى الملاريا، ولكنها تفد إلى المنطقة في فترات متباعدة نسبياً، وحمّى الملاريا توجد بصفة مستمرة في بعض الأماكن الموبوءة بهذا الداء، وهي تلقي بثقلها على الوافدين إلى هذه الأماكن، أما أهلها المستقرّون بنفس البلد فيكون وقعها عليهم أخفّ من غيرهم، وذلك بسبب ما اكتسبوه من مناعة ضد هذا المرض، وسبب انتشار هذه الأمراض يعود إلى عدم وجود المضادات الحيوية والعقاقير والأمصال التي يتمّ بواسطتها مكافحة هذه الأمراض وحصرها أو القضاء عليها، أما السبب في تمتّع الأعداد الكبيرة من الناس بصحة جيّدة رغم تناقص كمية الغذاء أحياناً، وعدم الاعتناء الكافي بالنظافة العامة، ونقص الملابس الواقية الكافية عند بعض الطبقات، فيعود إلى ما يتمتّع به السكان من نشاط وحيوية في ممارسة أعمالهم اليومية بكل جدّية وعزم وعدم تناولهم وجبة الطعام إلا وهم جياع وبحاجة إلى تناولها، مما يجعل هضمها سهلاً سريعاً، بحيث لا تتراكم في

أجوافهم وينتج عنها التلبّك والأمراض المعدية، وذلك عملاً بالقول المأثور: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

كما أن الهواء الطلق الذي يستنشقونه من الأجواء النقيّة من أي تلوّث ينقّي فيهم الدورة الدموية وينشّطها، أما الجهد الجسماني الذي يبذلونه في سبيل تحصيل لقمة العيش فيحرق الطاقة الزائدة لديهم من الطعام والشراب، أما الأمراض النفسية وهي أمراض العصر الحاضر، فليس لها سبيل إلى نفوسهم، وذلك لما يتمتّعون به من راحة نفسية، حيث لا يهم الفرد منهم سوى أداء عمله الذي يقوم به ويحصل منه على لقمة عيشه، يتّقنه وينجزه فقط، وتمثّل هذه النظرة السـود الأعظم من الناس، وينظرون إلى الأمور البسيطة بدرجة أبسط مما هي عليه فعلاً، ولبعد المسافة بين مكان وآخر بسبب المواصلات المتاحة آنذاك أثراً كبيراً في عدم وصول الأخبار التي تشغل تفكير الناس، وذلك قبل انتشار المخترعات ووسائل الإعلام الحديثة التي تقض مضاجع الناس بأنبائها وما تحويه من أشياء مزعجة، أما الملابس فبرغم قلّتها وشحّ الجيّد الملائم منها، فإنهم يتكيّفون مع الأجواء المتقلّبة التي يعيشون فيها بحيث تكتسب أجسامهم مناعة ضد تقلّب الطقس من حين لآخر، كما يأخذون استعدادهم للوقاية من البرد المسبّب لكثير من الأمراض وذلك بإعداد مواقد الحطب داخل البيوت، ومراعاة هذه الناحية عند تصميم البيوت وتنفيذها. أما النظافة العامة في المأكل والمشرب والملبس، فبرغم الهفوات التي تتخلّلها إلا أن قوة أجسامهم ومناعتها جعلها تقاوم تأثير الطفيليات والجراثيم العالقة بها وتقضي عليها، وذلك بمصاحبة الثقة التامة في نفوسهم بعدم تأثيرها، وعدم الاهتمام بالآلام البسيطة التي قد يكون لها أثر نفسي كبير فيما لو فكر فيها الفرد بعمق، كما أنهم يشغلون فراغهم بالفنون والألعاب المختلفة التي تطرد عنهم الملل والسأم وتُدخل في نفوسهم البهجة والسرور، وتجعل الفرد منهم يأوي إلى فراشه خالي الوفاض من مشاغل الحياة ومنغّصاتها، وينام مرتاحاً ليستيقظ لعمله نشيطاً في اليوم التالي، هذه بصفة عامة بعض المؤثّرات الأساسية التي جعلت الناس يعيشون بهذه البقعة وهم يتمتّعون بصحة جيّدة بوجه عام.

□ العناية بنظافة الأجسام:

وبما أن جسم الإنسان يحتاج إلى النظافة بصفة مستمرّة وبدونها قد تغزو جسمه الأمراض الظاهرة والباطنة، وحيث أن وسائل النظافة الحالية لم تكن متوفّرة آنذاك، حيث لا يوجد سوى الماء الساخن وبعض أوراق الأشجار اللزجة والمزبدة عند عرك الأجسام بها مع الماء الساخن وذلك مثل ورق الطلح «الخبط» ورق الشنان والسمح وغيرها، ومع ذلك فقد حافظ الناس بقدر المستطاع على العناية بنظافة أجسامهم، كما أن للدين الحنيف فضلاً كبيراً في موضوع النظافة الذي جعلها جزءاً من الإيمان، حيث يقوم الناس بالوضوء لأداء الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، فيغسلون أطرافهم وأماكن ضرورية التنـظيف من أجسامهم عند الوضوء لأداء هذه الصلوات، كما أن الاستحمام عادة محبّبة إلى نفوسهم، وضرورة دينية للمتزوّجين منهم، وإن لم تكن الحمامات داخل البيوت كما هي عليه في الوقت الحاضر إلا أنها وافية بالضرورة، ويغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد الفراغ منه إلا ما ندر، أما الملابس فإنها، كما أسلفنا، قليلة حيث لا يملك الفرد أحياناً سوى ثوب واحد أو اثنين وربما ثلاثة على الأكثر، ولكن رغم هذه القلّة فإن الملابس يتمّ غسلها كلما اتّسخت، ولكن لأسباب أخرى تجد بعض الناس يلبسون ثياباً بحاجة إلى تنظيف مما يترتّب عليه انبعاث رائحة كريهة من أجسامهم وربما توجد حشرات القمل بين ثناياها، وهذا إذا وجد فإن الإهمال وسوء التغذية سببان لهذه الحالة، وهي على كل حال قلّما تحدث إلا عند الطبقة الفقيرة من المجتمع، أما ميسورو الحال فإن النظافة لديهم من الضرورات الأساسية، وتبديل الملابس ظاهرة مألوفة كما أن التطيّب بمختلف العطور من العادات المحبّبة إليهم رجالاً ونساء وخاصة عند الذهاب إلى المساجد لأداء الصلاة، وهي، كما أسلفنا، خمس مرات بالإضافة إلى صلاة الجمعة والعيدين، وبصفة عامة فالنظافة الجسمية مستواها طيّب بالمقارنة إلى وسائل النظافة المتاحة يومئذ.

□ الأمراض السائدة:

إذا أمعنّا النظر بالأمراض السائدة آنذاك نجدها تتركّز بصفة أساسية على الجهاز التنفّسي، والجهاز الهضمي، وذلك بسبب تقلّبات الجو وتغيرّ الطقس المفاجىء أحياناً، خاصة وأنه لا يوجد الملابس الواقية بدرجة كافية ضد لسعات البرد، ولأمراض الجهاز التنفّسي أسماء محلية بالإضافة إلى أسمائها الصحيحة، وإن كان لها اشتقاق من نفس المرض، فمثلاً يسمّون ذات الجنب «بالشَّربَة» والزكام «بالصَّدمة» والسعال «بالقحّة» والتهاب اللوزتين «بالرقَّبة» والصداع بالرأس «بالصَّالب» كما أن أمراض الجهاز الهضمي تحتل المرتبة الثانية بين الأمراض السائدة، وذلك بسبب تناول بعض الوجبات الدسمة، أو الإكثار من نوع معينّ من الطعام، أو تناول طعام نيّىء مما ينتج عنه تلبّك المعدة وذلك بعجز الإفرازات الهاضمة عن تصريف هذا الطعام، وبالتالي عسر الهضم الذي قد يؤدّي إلى انسداد الشهية، وقد يصاحب هذه الحالة اضطراب الجهاز الهضمي وربما حدث حّمى مصاحبة لذلك، وهذه الحمّى سواء الملازمة لهذه الحالة أو حّمى الملاريا لها درجتان وإسمان، فإن كانت الحمّى مصحوبة بارتعاش المريض مع ارتفاع درجة الحرارة والشعور بالبرد الشديد تسمّى «نفَّاضة» وإن كانت حّمى بنفس الحالة الأولى بدون ارتعاش فتسمّى «هَمَّادَة» وقد قرأت مقالاً بمجلة «الفيصل» بعددها رقم ( ) وتاريخ عن المخ أن الارتعاش الذي يصاحب الحمّى ليس من أساس المرض وإنما هذا الارتعاش هو دفاع من الجسم ضد المرض بإيعاز من الجزء الخاص لهذه المهمة في المخ، كما تحتل أمراض الأنسجة العضلية والعمود الفقري المرتبة الثالثة وذلك نتيجة الجهد الذي يزاوله الفرد، فيحدث أن يزاول الشخص عملاً يزيد عن طاقته فيحدث تخلخل في عضلات الكتف أو عضلات الذراعين فيسمّى «بالمشع» أو أن يحمل ثقلاً يزيد عن مقدرته فيحدث في عموده الفقري ركون أو انزلاق ويسمّى «بالملْعِ» كما تأتي الكسور والرضوض بالمرتبة الرابعة وذلك نتيجة للحياة الكادحة التي يزاولها، ولكل حالة من هذه الحالات علاجها وإن كان علاجاً بدائياً إلا أنه يشفي كثيراً من الناس، وبعد ذلك تأتي أمراض العيون كرمد العيون الحاد «أم ذيل»

أو الرمد الحُبَيبي والصديدي، وأمراض الآذان وأمراض الجهاز البولي واحتباس البول «أمِّ الحُقَى» والأمراض الجلدية كالجذام السفلس «البلش» بأنواعه وهو قليل الحدوث، والحبة «الحبطة» وهي سرطان الجلد، وأمراض الجهاز العصبي «الفالج» وهو نادر الحدوث، والأمراض النفسية «كالجنون» والصرع.

□ الأمراض الطارئة:

أما الأمراض الطارئة ـ كفانا الله شرّها ـ فهي ما تفد إلى المنطقة بين الحين والآخر ولكن من رحمة الله بعباده أنها تأتي في فترات متباعدة تعدّ بالسنين عدا مرض الحصبة فهو كثير التردّد ربما سنوياً، ومن هذه الأمراض الطارئة، الطاعون والجدري، وحّمى الملاريا، والحصبة، فالطاعون «الكوليرا» يفد في أوقات متباعدة لكنه يفتك بالناس ويبيد المئات منهم في فترة وجيزة وربما قضى على قرى بأكملها ويسمّى هذا المرض «بالرَّحَمْة» ولا أدري ما هو السبب لهذه التسمية إذ ربما لكثرة من ينتقل بسببه إلى رحمة ربّه كالذي حدث سنة ١٠٨٦ هـ بمنطقة الخليج وامتد إلى شرقي نجد، وكما حدث عام ١٢٤٦ هـ في مكة المكرّمة وانتقل منها إلى جنوبي نجد، وما حدث عام **١٣٣٢** هـ وعمّ المنطقة بكاملها، أما الجدري فيطرق المكان في فترات أقرب أي في ظرف عشرات السنين، ويبدأ الناس في عملية اللقاح ضدّه، وذلك بأخذ جزء من صديد الشخص المصاب وبضع عضد الشخص السليم، ويوضع قطعة من القطن بها جزء من هذا الصديد على المبضع وتربط برباط، وتسمّى «عضبة» وبذلك يكتسب الشخص السليم مناعة ضد هذا المرض، غير أنه يفتك بأعداد كبيرة من الناس، ويترك بصماته البغيضة على وجوه من نجا منهم، كما يبقي أزراره البيضاء على عيون بعضهم إن لم يفقده كامل بصره، وعند حلول هذا المرض تجمع النساء عيّنات من جميع أنواع الأطعمة وأصناف اللحوم التي يحتمل أن تؤكل في فترة النقاهة من المرض، ثم تطبخ في إناء واحد وتسمّى «القِرْوُ» ويأكلها المريض أو يشرب مرقها كنوع من الحيطة وذلك لاعتقادهم أن المريض إذا تناول أي نوع من هذه الأنواع في فترة النقاهة وهي أربعون يوماً التالية

لإصابته في المرض لن يضرّه. أما إذا أكل صنفاً من الأصناف التي لم يذقها مع هذا الخليط فإنه يحصل له مضاعفات من المرض وانتكاسة ربما تؤدّي إلى وفاته أو إحداث تشويهاً بجسمه ببصره. وتسمّى «بالرَّمحة» ولذلك يتم منع المريض عن تناول الأصناف التي لم يذقها مع طبخة «القرو» ولهذا الغرض تجد العجائز يحتفظن بعيّنات من مختلف أنواع اللحوم جافّة وخاصة لحم الفحل من الضأن والماعز والإبل وغيرها من الأشياء ذات التركيبات الحادة، وإذا أصيب فرد أو عدة أفراد بداء الجدري فإنه يجرى لهم العزل اللازم بعيداً عن البلد لمدة أربعين يوماً، وربما كان هذا العزل في بيوت مهجورة بأطراف البلد، ويتردّد عليه واحد أو اثنان من أقاربه ليأتوه بالطعام والشراب، ولا يؤكل بالأنية التي يستعملها، وهؤلاء الذين يلجون إلى المصابين لا يختلطون بالناس كثيراً خشية انتشار العدوى، ويتم أخذ الصديد من المريض بواسطتهم، وتطعيم بقية الناس، وبذلك ينجو الكثير من شر انتشار هذا الوباء، وربما كان مكان العزل بعض القلاع القديمة أو الأبراج المحيطة بالبلد وقد يطلق على بعضها «برج المُجدَّر»، وهذا شاعر قد أصيب بالجدري ولا يفد إليه سوى نسوته وأخواته الباكيات الحزينات تحت جنح الليل مما كان له الأثر الكبير في نفسه حينما طالت عليه مدة العزل مثنياً على جرذان يؤنسه يسير بقربه متنقّلاً بين جحوره في سويعات النهار الأخيرة، حيث يقول:

٣٧٩ ـ وأرجلي اللي عدّ بيها جبارة
تسعين ليلة عن فم البرج ما أسير

٣٨٠ ـ الله يبيّض وجه راع الخبارة
وأعصير ليـاد لا يقد المسايير

٣٨١ ـ لياجا سواد الليل وأقبل سماره
تقابلن يشدن حنين المخاوير

(راشد المضيان)

ومن أصيب بالجدري مرة فقد اكتسب مناعة ضد هذا المرض طول عمره أما حّمى الملاريا فكما أشرت منها المستوطن الدائم في بعض الأماكن وهذه خفيفة التأثير بالنسبة للمستوطنين بهذا المكان، أما من جاءه وافداً فوقعها شديد عليه، وقد تأتي بموجات متباعدة وأكثر ما تنتشر في آخر فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء فيما يسمّى «الصِّفري» وتفتك بالكثير من الناس لا سيما إذا وجدت في الشخص أمراضاً أخرى أو كانت قوة مقاومة الجسم لها ضعيفة، خاصة عند كبار السن، أما الحصبة فإنها تنتشر بسرعة بين الأطفال ولا يتّخذ إزاءها أي إجراء سوى تدفئة المريض وعدم تعريضه للهواء لمدة ثلاثة أيام حتى يخرج طفح الحبوب على جلده، ويجمع له عيّنات من «القِرو» كما في حالة الإصابة بالجدري، ويمنع عن أكل الأصناف التي لم يذقها في حبينها، وإذا حصل انتكاسة للمرض على المريض بسبب تناوله شيئاً لم يذقه تسمّى «الرمحة» وأكثر ما تؤثّر في العيون فتفقدها بصرها أو بالأمعاء فتمزّقها وتؤدّي إلى الوفاة، والواقع أن الأوبئة الطارئة قد أفنت الآلاف من البشر قبل أن يمنّ الله على الناس بمنجزات العلم الحديث من الأمصال والمضادات الحيوية التي يجعل الله بسببها نجاة كثير من الناس وإزاحة كابوس هذه الأمراض الثقيل الجاثم على صدر البشرية.

□ التداوي بالأعشاب:

يلجأ الإنسان تحت وطأة المرض إلى البحث عن كل ما يعتقد أن فيه شفاء لمرضه، وبحكم التجربة فقد استخدم بعض الأعشاب لمعالجة عدد من الأمراض خاصة في الأجسام المتشابهة في المناعة الداخلية، وقد يفيد الدواء لإنسان ولا يستفيد منه الآخر وذلك لاختلاف تفاعلات الأجسام الداخلية، ومن الأعشاب التي تستعمل في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر أوراق شجيرة «السنا» وأراق شجيرة «الحرمل» وحب شجيرة «بزر الدود» كل هذه الأنواع تفيد لتنظيف الجهاز الهضمي وتستعمل «كَحَلَّة» بعد غليها بالماء وشرب مائها، أو سحقها والتهامها، كما أن أوراق شجيرة كل من البعيثران، والشيح، والقيصوم تفيد في علاج تلبّك المعدة وضعف إفراز مرارة الكبد، وتسحق

أوراقها حتى تكوّن مسحوقاً ناعمًا ثم تلتهم التهاماً، كما تفيد شجيرة «الجَنْبَة» الشوكية في تنظيف المسالك البولية، وتفكّ احتباس البول وما يسمّى «أم الحِقى» كما يفيد دخان شجيرة «الحَزَا» وهدب الأثل وقشور البصل في تخفيف حالة تسمّم الجروح وذلك بوضعه على جمر وتعريض المصاب لدخانه «كَبُوْ» كما أن مجاميع أخرى كثيرة لا حصر لها من هذه الأعشاب تستعمل لكثير من الأمراض وبذلك ترى الإنسان بهذه البقعة استفاد من كثير مما حوّله في علاج نفسه ضد بعض الأمراض ونجح إلى حدّ كبير، وإن لم يكن النجاح المدعم بالنتائج العلمية إلا أنه أدّى خدمة ضرورية في وقته وحسب وسائله وإمكانياته.

□ التداوي بالمركّبات:

وكما هي الحال بالتداوي بالأعشاب فإن هناك أيضاً مركّبات أخرى يعود بعضها في الأصل إلى الأعشاب، والبعض الآخر إلى المعادن والكيماويات، وهذه المركّبات تستعمل لعلاج بعض الأمراض، ومن هذه المركبات، الصِّبْر، والحِلْتِيب، والمر، وصَمغة الريح، و«الزَّاج» و«التُّوت» نترات النحاس، واللبان المر، وغيرها كثير يفوق الحصر، وتستعمل مثل هذه المركّبات لعلاج أمراض الجهاز الهضمي، كما تستعمل بعض الأفادية والفلافل في علاج أمراض الجهاز التنفّسي، والحلق والحنجرة كما يستعمل الكحل المخلوط ببعض العناصر الكيماوية بمقادير مناسبة لعلاج الرمد بأنواعه، وهذا المخلوط يسمّى «باللعوط» كما تستعمل بعض المركّبات الأخرى النباتية والكيمائية المنقوعة بالماء والمسمّاة «بالسَعُوط» لعلاج الأطفال من بعض الأمراض وخاصة ما يسمّى «بالأخت، الخشة» وهي ما يحصل للطفل من اضطراب المعدة المصحوب بالإسهال أو الاستفراغ، وذلك إثر تناوله وجبة ثقيلة من الطعام أو تناول أمه وجبة دسمة إذا كان الطفل رضيعاً، ويقوم بالعلاج في كل هذه الحالات النساء، ويكون لبعضهن معرفة تامة بمختلف الأمراض نتيجة لطول التجربة لديها، فأول ما تبدأ المرأة بمداواة أولادها والحاذقة منهن تبرز في هذه الناحية، وبصفة عامة فإن المرأة تقوم بنصيب كبير في هذا الميدان حيث تقوم بالتمريض والمداواة لأبنائها وذويها،

وتجد عند أغلبهن ما يشبه الصيدلية المتنقّلة من هذه الأدوية، في مجموعة من الصُرَر والزجاجات، وتقوم بتركيب الدواء اللازم عند الطلب، ثم تسحقه وتعطي الإرشادات اللازمة لاستعماله، وقد تكون جهّزت لكل مرض ما يناسبه من هذه الأدوية مسبقاً، كما تستعمل بعض المساحيق المركّبة لعلاج الجروح الظاهرة.

□ التداوي بالعزائم والتعاويذ:

الأمراض النفسية، كمسّ الجن، والصرع، وحالات الغيبوبة المؤقّتة التي تنتاب بعض الناس وتكثر عند النساء تعالج بالعزائم والتعاويذ، فالعزائم يكتب فيها آيات مختارة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية وأدعية من الكلام المأثور، ثم تُلفّ وتغلّف بقطعة من الجلد وتُعلّق بعنق المريض، مع تحاشي وضعها في حالة النجاسة، أما التعاويذ فهي كذلك شبيهة بمضمون العزيمة إلا أن القارىء يحضر إلى المريض أو يُحُضّر له، ويبدأ بقراءة آيات من الذكر الحكيم سراً والأحاديث والأدعية وينفث على المريض في فمه مع همز أنحاء معيّنة من جسمه، وبإذن الله يتم شفاء المريض بعد ذلك، أما في حالة التشنّج أو الغيبوبة بمسّ الجن، فيعمد القارىء إلى تربيط بُهُم المريض ليديه ورجليه بخيط ثم يبدأ بالقراءة والنفث عليه، وقد رأيت بعيني قارىء يقرأ على مريض وهو مربوط ويقول المريض كلاماً في غير واقعه، ويقصّ قصصاً شبيهة بالخيال، ويحاور محاورة وكأنه يتكلّم على لسان إمرأة، وعندما عاهد القارىء على الخروج من جسم المريض وعدم العودة إليه بعهود يمليها عليه القارىء بعد ذلك عمد القارىء إلى فكّ رباط أحد إبهامَي الرجل المريض، وعندها غمس المريض إبهامه المفكوكة في الأرض حتى اختفى ظفرها ثم ركّزها مشدودة لمدة حوالي دقيقة، وكأنها تفرغ شحنة كهربائية في الأرض، وبعدها استرخى المريض ثم خمد في فراشه، وبدأ العرق يتصبّب من جسمه وغطّ في نوم عميق لمدة ساعة، أفاق بعدها متعباً لا يدري ماذا جرى عليه في تلك الفترة من الزمن، وعندها نهض لا يحسّ بأي ألم، وأسوأ ما في التعاويذ هي عادة النفث والتفل بالماء

أو الملح، ذلك أنه يوضع قليل من الماء في وعاء يقف فيه أحد الغلمة في باب المسجد وكل من خرج منه نفث فيه أو تفل، وبعد ذلك يؤتى بهذا الماء إلى المريض ليشربه، وهي ولا شك عادة سيّئة تضرّ المريض كثيراً وذلك فيما يحويه هذا الماء من آثار أنفاس الناس وربما تفالهم بما تحمل من جراثيم وأمراض قد يكون المريض في غنى عنها. أما فيما يتعلّق بالإصابة بالعين «النحاتة» وهي الحسد فلا يشفي منها سوى نفث المسبّب «الحاسد» على المريض، وهذه أشياء ثابتة أيضاً ولها ناس مشهورون إذا تكلّم أحدهم كلمة أصاب هدفه، هذه الأمراض النفسية تفيد فيها التمائم والتعاويذ بإذن الله، وقد أدّى هذا العلاج دوره كاملاً في حينه ولا يزال ساري المفعول حتى الوقت الحاضر. ولا يفيد فيه من مخترعات الطب الحديث شيئاً.

□ التداوي بالكيّ:

يقول المثل العربي «آخر الطب الكي» والكي يعتبر علاجاً ناجحاً لبعض الأمراض وذلك قبل إيجاد وسائل العلاج الحديثة، وإن كنت لا أستطيع اكتشاف كنه ذلك، ولا علاقة الكي بشفاء هذا المرض أو ذاك، إلا فيما يخرج من مكان الكي من الصديد والمواد الأخرى، التي ربما يكون موضع الكي قد امتصّها من داخل الجسم، أو أن تكون وجدت متنفّساً لها من خلال هذا الثقب في الجلد، ومن الأمراض التي يفيد فيها الكي مرض ذات الجنب «الشربة» ومرض الرمد الحاد «أم ذيل» ومرض التهاب اللوزتين الحاد، ومرض اضطراب الجهاز الهضمي «الخَشّة» ومرض «الشقيقة» «الصالب» والفتق في التحام عظم الجمجمة «أبو دمغه» ومرض ارتخاء عضلات الوجه النصفي «أبو وجه» واحتقان الأذن وإيقاف الدم وغير ذلك من الأمراض التي لا تحضرني أسماؤها، ولكن الكي يحتاج إلى شخص بصير بمواقعه على الجسم ولديه خبرة ودراية في هذا المجال لأن الكيّة إذا أخطأت الموضع المقرّر لها فإنها لا تفيد وربما تشوّه وتزيد المريض سوء، غير أن الخطأ السائد هو الكي لأمراض لا يفيدها، أو الكي بمواضع غير ملائمة، من هذا ترى التشويه المكروه. وبهذه المناسبة فإنني أدعو الأطباء النابعين

من هذه البيئة والذين يعرفون كثيراً من الأمراض التي يفيد فيها الكي أن يجروا بحثاً أكاديمياً علمياً لمعرفة علاقة الكي بشفاء هذه الأمراض، بصرف النظر عن الآراء التي تنكر ذلك حتى يثبّتوا للعالم صحة ما أشار إليه الإسلام في هذه الناحية، وما أعتقد أن الأطباء الصينيين الذين أثبتوا للعالم علمياً طريقة التخدير بوخز الإبرة المستخدمة قديماً أكثر جدّية من شبابنا، ولا النظرية التي اتّبعوها أكثر صدقاً وحقيقة مما أشار إليه الإسلام في الحديث الشريف «الشفاء في ثلاث، شربة من عسل، أو شرطة محجم، أو كيّة نار[1]، وفي رواية آي من قرآن أو لعقة عسل أو لذعة من نار» وما أخالهم إلا فاعلين.

□ التداوي بالحجامة والفصد:

الحجامة هي استخراج الدم من مواضع معيّنة من جسم الإنسان بواسطة أدوات بدائية، ومقدار كمية الدم المستخرجة بهذه العملية هو حوالي ٥٠ سم^{٣}، أما الفصد فهو كذلك استخراج كمية من الدم بنفس الكمية تقريباً عن طريق فرض أحد أوردة اليد بمشرط أو موس بشقّ طولي، وتوضع يد المريض بإناء كبير بداخله ماء ساخن، ويبدأ الدم ينزف من خلال هذا الجرح تحت مراقبة الشخص الذي أجرى العملية، ومتى رأى المريض قد فقد الكمية المطلوبة من الدم وبقيت فيه الكمية الضرورية أوقف النزيف وذلك بحزم الجرح، وإن تعذّر إيقاف الدم بهذه الطريقة العادية فيؤتى بشيء من بيت العنكبوت ويوضع على الجرح ليقف حالاً. أما إن كان الفصد بالرأس فلا يغمس بالماء وإنما يترك يقطر منه الدم تحت المراقبة الدقيقة، وعند الضرورة يجري شد الوريد المجروح حتى يقف الدم. وتجري عملية الحجامة لعدد قليل من الناس وخاصة كبار السن، وذلك على رأس السنة، ويلجأ إليها من يشتكي ثقلاً في الرأس أو القدمين ويعتقدون أن خروج هذا الدم الفاسد يخفّف من هذه الآلام والواقع أنها تجديد دوري لكمية الدم الموجودة بجسمه، وتجري عملية الحجامة من أعلى الرقبة

---

(١) الطب النبوي ص ٣٨٠.

الخلفي في أسفل الرأس، ومع الأكتاف، ومن خلف القدم بجانب العقب من الداخل، وذكر لي أحد المجرّبين أنه يشعر بارتياح بعد سحب كمية الدم منه، أما الفصد فإنه يجري للرأس على يمين الجبين أو شماله من فوق الحاجب، وذلك لمن يشعر بثقل بالرأس، ويجرى الفصد لمن أصيب بذات الجنب مع العضد، وقد شاهدت بعيني مريضة مصابة بذات الجنب ويحشرج نفسها بالنزع الأخير، وجاء الرجل الذي فصدها فوضع يدها في إناء مليء بالماء الساخن ثم تحسّس الوريد اللازم فصده ففرضه بموس معه، وترك السائل الأحمر ينساب من الماء الساخن، وبعد حوالي عشر دقائق لاحظنا المريضة بدأت تتنفّس بسهولة، وبعد عشر دقائق أخرى رأيناها تفتح عينيها وتحاول أن تتكلم، وعند ذلك أوقف الرجل خروج الدم بربط الموضع، فبدأت تتنفّس بسهولة وشعرت بالارتياح، ونصح بأن تشرب ماء العرن وهو شجر يستخدم لدبغ الجلود ولونه أحمر قان مرّ المذاق، نصح بأن تشرب من مائه خفيفاً وعندها تماثلت للشفاء بعد ثلاثة أيام، أما السائل الذي خرج منها وبقي بالإناء فقد تجمّد في كتلة واحدة ذات لون وردي ومادة مخاطية وبقي في الماء قليل من الدم بقدر ما غيرّ لون الماء قليلاً، وهذه الطريقة معروفة ومشهود لها بالنجاح بإذن الله إذا جاءت بالوقت المناسب.

□ جبر الكسور:

يُعتبر جبر الكسور على الطريقة العربية ناجحاً حتى الوقت الحاضر وخاصة الأعضاء البارزة، كاليدين والرجلين وحتى الأعضاء الداخلية، ورغم عدم وجود الوسائل العلمية لجبر الكسور آنذاك إلا أنهم يعملون شرائح من الخشب أو جريد النخل بما يزيد عن طول موضع الكسر قليلاً، ويوضع لهذه الشرائح رباط في طرفيها يترك بين الشريحة والأخرى مقدار ٢ سم، ثم يجهّز الجابر لفائف من القطن والقماش وبعد ذلك يجذب العضو المكسور ويمسّه جيّداً حتى تتراكب أجزاء العظم تماماً ثم يمسكها بيده ويضغطها ويفركها حتى تتراكب بصفة جيّدة ثم يلفّ عليها لفّة من القماش وفوقها لفّة أخرى من القطن ثم طبقة من القماش، ويضع عليها الجبائر ويربطها جيداً بما لا يعوق حركة الدم من الجريان

في العروق ويكون المكسور تحت ملاحظة الجابر بين الحين والآخر ويحجب عن أكل كثير من الأطعمة، عدا الحنطة والسمن البري واللحم بالإضافة إلى حبة الحلبة لمدة أربعين يوماً، وبإذن الله يكون بعدها قد عاد عضوه المكسور إلى ما كان عليه قبل الكسر، ويختلف جابرو الكسور من شخص إلى آخر من حيث اتّقان العمل واعتدال العضو في حالة الجبر، كما هي حالة الأطباء في الوقت الحاضر، وهناك ظاهرة أودّ التنويه عنها وأرجو أن تعطى الدراسة والتحليل الكافي للاطّلاع على كنهها، فقد حدّثني ثقات أن الكسير قبل بلوغه أربعين يوماً يمكن أن ينكسر عظمه إذا تناول تمراً، أو جامع زوجته حتى ولو كان لم يتحرّك من مكانه، فعند هاتين الحالتين ينكسر العظم في الحال، وقد أفادني أحد جابري العظام بأنه إذا كان جبر العضو مائلاً فما عليه سوى تقديم شيء من التمر للمريض حتى يشبع منه وعند ذلك يشعر المريض بآلام مبرحة، وينكسر العظم بعد ذلك في الحال، ويتم جبر العظم وتعديله مرة أخرى، فيا ترى ما هو السر في ذلك؟؟ وما هي المواد الكيماوية التي يحتوي عليها التمر وتجب العظم الطري بهذه السرعة، وكذا الحال بالنسبة للجماع؟؟.

□ □ □

الفصل العشرون:

السكن

◻ الإطار العام للبيوت:

تمتاز هذه المنطقة بطابعٍ خاص، يميزها عن غيرها من المناطق الأخرى وان كانت لا تختلف عنها كثيراً، وتخضع لعدة اعتبارات عند تصميمها منها الاعتبارات الاجتماعية، والأمنية، والصحية، والمناخية، والجمالية، مما يكسبها ملامح مميزة يجعلها تحتفظ بها طيلة أجيال متتالية، مع بعض التطوير التعديل، وعلى العموم فالناس لا يهتمون كثيراً بزخرفة وتنميق البيوت إلا بقدر ما يفي بالضروريات ويخدم الأهداف التي سبقت الاشارة إليها، وإذا ألقينا نظرة على المنزل في هذه المنطقة وجدناه يتألف من ثلاثة أحجام تقريباً هي القصر وهو أكبرها وهو ما يختص به الأمراء وذوي الشأن وعلية القوم، والمنزل العادي الوسط وهو ما يكتنف الغالبية العظمى من أفراد هذا المجتمع، والمنزل الصغير وهو ما يحتضن أفراد أسرة الطبقة الفقيرة وأرباب الأسر الصغيرة، ولنأخذ الحجم المتوسط مثلاً لأن خير الأمور أوسطها، فنجد الملامح الرئيسة لهذا المنزل من حيث التصميم قد أضفت عليه يد التطوير مسحة من التحسين، فبعد أن كان العمود الفقري للبيت هي غرفة المستودع للمواد الغذائية وتسمى «القصبة» أو «المقصورة» وهي عبارة عن غرفة كبيرة أو غرفتين أحدهما بداخل الأخرى في وسط المنزل، وتكون المقصورة من دورين أو ثلاثة وهي بمثابة رأس الهرم، تحيط بها غرف النوم المرافق والمنافع الأخرى، وهي بصفة عامة رديئة التهوية، ويأتي بمحاذاتها مجلس الرجال «القهوة» «الديوانية» وبجانبها المساحة المكشوفة الواقعة

بجانبها وهي مكان للحطب ومن خلفها تجد حوش للابل، ومربط للفرس، وزريبة الغنم والبهائم وقد صمم البيت بهذه الطريقة حتى يخدم الناحية الأمنية بالدرجة الأولى بحيث يأوي الرجل إلى بيته وجميع ممتلكاته المنقولة بحوزته وتحت حمايته وعادة تكون المقصورة من دورين فأكثر، وبها سلم داخلي وبها بروز على شكل مربعات ذات ثقوب يطل منهما على ما حوله تسمى «القاتولة» أو «الطرمة» وهي معدة للدفاع عن البيت ومحتوياته إذا لزم الأمر من خلال هذه الثقوب بالنبال، ثم بالبندقية، إلى أن أصبح المنزل بعد ذلك أحسن تصميمًا فقد وضعت الغرف بصف واحد وسقف جزء من المساحة الواقعة أمامها المسمى «مجبب» أو «قبة» وتقوم على صف من أعمدة الحجر والجبص أو الطين أحياناً وترك من هذا الجزء مساحة مكشوفة داخل المنزل للتهوية، كما أبعدت دورة المياه عن غرف النوم، وتم سقف جزء من المساحة المكشوفة بجانب غرفة الرجال «القهوة» وسميت الايوان «الليوان» وذلك للجلوس فيها في فصل الصيف والخريف. وتكون المنزل من دورين الدور الأعلى تسمى غرفه «رواشن» والسقف الذي أمامها تسمى «مصابيح» ثم أضيف إليها تصميم ثالث بحيث يبقى مجلس الرجال وايوانه ومرافقه على ما هو عليه ووضعت بقية الغرف في مربع واحد مع مرافقها وأمامها «المجبب» القائم على صف من أعمدة الحجر والجص على شكل مربع يتوسطها صحن مكشوف مناسب يعطي التهوية اللازمة للمنزل وربما غرس في هذا الصحن شجرة أو نخلة.

هذا من ناحية التصميم أما التنفيذ فقد كانت المنازل تبنى من الطين على أساسات من الحجر، وربما بنيت حتى السقف الأول من الحجر وما بعده يكمل بالطين سواء أكان على هيئة لبن أو مداميك «عروق» من الطين، وأحياناً تبنى من أساسها بالطين عروق واللبن، وتكسى في كلا الحالين بالجص الأبيض من الداخل وربما من الخارج وتتوج البيوت «بالشرف» وهي شرفات بأعلى ذروة الجدار ثم تكسى بالجص الذي يعطيها منظراً خلاباً وتسقف البيوت بخشب الاثل، وأحياناً بجذوع النخل مع جريد النخل وخوصه، وتعمل لها

الأبواب من خشب الاثل وجذوع النخل، ويتفنن النجار باتقان صنعه للأبواب واقفالها الخشبية «ضباب» مفردها «ضَبَّة» سواء ما كان منها بالمفتاح أو «المزلاج» وهي على درجة جيدة من القوة والاتقان. وإذا نظرنا إلى التنفيذ من ناحية التهوية فإننا نجد الشبابيك تشبه الكوَّة الصغيرة قد يصل اتساعها إلى ٤٠ × ٤٠ سم وتكبر قليلاً في الغرف التي توقد فيها النار كا «لقهوة» والمطبخ ولا يوضع لهذه الشبابيك أبواب عدا ما يوضع لها من شبك جريد النخل في شكل مربعات تمنع العصافير وغيرها من ولوجها، وتحت تأثير الناحية الأمنية فإن الشبابيك ترفع إلى ما دون السقف قليلاً، والحقيقة أنها توضع بأشكال هندسية رائعة حيث توضع على شكل مثلث متساوي الساقين بوضع هندسي يجعلها في زوايا مثلث كبير أو مربع أو مستطيل تعطي المبنى من بعيد منظراً جيداً وقد روعي أثناء التنفيذ تقلبات المناخ من شتاء وربيع وصيف وخريف، فلذلك نجد الناس يحرصون ما أمكنهم على أن تكون واجهات المنازل إلى الشمال أو الشرق، وإذا لم يتيسر ذلك بحكم موقع البيت فإنهم يجعلون الدور الثاني «الرواشن» و «المصابيح» على هذا الاتجاه وذلك الاستفادة من الهواء البارد القادم من جهة الشمال، واغتنام ظلال العصر في فصل الصيف، كما يجري رفع الأسقف للغرف العادية بما يقارب الأربعة أمتار لجلب البرودة صيفاً ويرتفع مجلس الرجال «القهوة» حوالي ستة أمتار لنفس الغرض ولكون هذا المكان توقد فيه النار على مدار فصول السنة ويوضع في سقفه فتحة لها غطاء متحرك محكم تسمى «كشافة» أو «سوامة» تفتح عند الحاجة وعند امتلاء الغرفة بدخان الحطب بالاضافة إلى نوافذ الغرفة المرتفعة تحت السقف مباشرة والمفتوحة على الدوام.

كما يوجد بالمجلس أو أحد أركانه موقد النار الكانون أو «الوجار» وبه توقد النار وبجانبه يجلس الشخص الذي يتولى عمل القهوة وتجهيزها وهو مكان دلال القهوة وأباريق الشاي، كما يوجد إلى جانبه المكان المعد للدلال والأباريق الزائدة عن الاستعمال العادي ويسمى «كُمَار» وعادة يكون مزخرفاً بزخارف وأشكال هندسية رائعة من الجص وللمجلس «القهوة» عناية خاصة من حيث الزخرفة والنقوش الجذابة وكتابة الآيات القرآنية والأحاديث والأقوال المأثورة والحكم كما

يوجد داخل جدران البيت سواء في القهوة أو القبب وحتى الغرف مجموعة من الأوتاد المثبتة بالجدار عند البناء يسمى واحدها «خِلاَلْ» يعلق فيها الأسلحة والملابس والأشياء الأخرى ونأتي لغرفة النوم لنجدها قد أقتطع منها بأحد أركانها جزء محاط بجدار على ارتفاع متر تقريباً يملأ هذا الجزء بالتبن أو خوص النخل أو الليف وربما القطن والصوف والرياشي ويفرش فوقه فراش الرجل وزوجته ويسمى هذا المكان «الدَّكَةْ» وهو بمثابة السرير في الوقت الحاضر ونجد في كل جهة من جهات الغرفة حفرة مربعة أو مثلثة داخل الجدار بعمق حوالي ٢٠ سم وسعة ٤٠ × ٣٠ سم على ارتفاع حوالي ١٥٠ سم تسمى «خزانة» وذلك لوضع ذبالة الاضاءة أو السراج فيها أو بعض لوازم الزوجة وأهل البيت.

وتوجد هذه «الخزائن» ببقية الغرف الأخرى أما المطبخ فلا يوجد فيه سوى موقد النار والأثاني أو كرسي القدر بالإضافة إلى حوض الحطب وأدوات الطبخ من قدور وصواني وملاعق خشبية مرتبة على بعضها. ونذهب إلى غرفة المستودع «القصبة، أو المقصورة، أو دار المحل» فنجدها مقسمة إلى عدة أجزاء بجدران يصل ارتفاعها إلى متر ونصف ويزيد أو ينقص ارتفاعها عن ذلك وكل جزء منها يسمى «حوضاً» وكل حوض يخزن به نوع من أنواع الحبوب أما التمر فيكنز بغرفة مستقلة بحياض مماثلة لحياض الحب غير أنها أكثر ارتفاعاً وأتقن بناء ويعتني ببنائها واعدادها، ويوجد بجانبها أوان كبيرة من الجص تسمى الواحدة منها «جصة» تستوعب مئات الكيلوجرامات من التمر، وتستعمل الحصة للأنواع الفاخرة من التمور حيث تتحمل تفاعل التمر الطري ويسيل منها الدبس بغزارة ويعمل لها مجاري ومجامع للدبس تمتلىء وتفرغ بين الحين والآخر، أما الحياض الكبيرة فيوضع فيها التمر الأقل جودة من سابقه والمعد للاستهلاك العادي، وأحياناً تستوعب هذه الحياض آلاف الكيلوجرامات من التمر، وهناك حوض صغير بجانب الباب لجمع نوى التمر «الفصم، العبس» أما مساحات غرف المنزل فعادة يتراوح اتساعها بين ٣ × ٤، ٤ × ٥، ٥ × ٦ متر^{2}، أما مجلس الرجال فيتراوح اتساعه بين ٥ ×٦، ٨ × ١٠، ١٠ × ١٢ م^{2} حسب اتساع الأرض ومكانة صاحب البيت الاجتماعية، وتكون في سطوح المنازل

مصارف للمياه تسمى «مرزاب» مرزاب تصب معها مياه الأمطار إذا هطلت.

أما القصور الكبيرة فلا تختلف كثيراً عن ذلك سوى أنها أكثر غرفاً وأفسح مجالساً وأرحب ساحات وأكثر منافعاً وتنظيمها فيه بعض الاختلاف، أما البيوت الصغيرة فإنها تكون مضغوطة عن الحجم المتوسط بمقدار قد يجعلها لا تفي باحتياج ساكنيها، وبصفة عامة فالمنزل بهذه المنطقة رغم بساطة تصميمه وبدائية تنفيذه إلا أنه يحتفظ بجانب جمالي واضح يبرزه وقوعه على خد أرض فسيحة بجانب البساتين الخضرة وهذا في الأرياف، أما في المدن المزدحمة فإن تناسق البيوت واختلافها في الارتفاع والانخفاض بعضها عن بعض يضفي عليها الطابع الجمالي المميز وذلك بما تحمله من شرفات وطراز بارز من ذات المادة التي تبنى فيها وتعمر هذه البيوت وتبقى قائمة مع الترميم السنوي المستمر إلى ما يصل حوالي مئتي سنة. وتصل أحياناً إلى ثلاثمائة سنة وهي قائمة على حالها.

□ □ □

الفصل الحادي والعشرون:

الأدوات المنزلية

□ أدوات القهوة:

في مجلس الرجال «القهوة» تلك الغرفة الفسيحة التي تعتبر منتدى الرجال الأول يوجد الأثاث الضروري حسب المستوى المعيشي للشخص فيتكون من الحصير وهو «سفيف» الخوص أو «السياح» وهي الأنسجة الصوفية المحليّة عند الطبقة الفقيرة والمتوسطة ومن قطع السجاد والقطائف المختلفة في مستواها لدى الطبقة الغنية يتخللها بين المسافة والأخرى إما «مراكي» يتكأ عليها مثبتة في نفس الجدار أو من الصناديق الصغيرة المنمقة بالنقوش والمرايا ويوضع على كلا الصنفين ارائك محشوة بالريش، أو القطن، والوبر، والصوف، وربما ليف النخل أو التبن، في أعلاها وسائد محشوة من نفس المادة التي تحشى بها سابقتها ويستند الرجال على تلك الأرائك لتناول القهوة العربية مستندين إلى مساند وحجم الواحدة ٥٠ × ٧٠ × ٢٠ سم في مجالس ذوي اليسار، أما في مضارب البادية فيتكىء كبار السن وذوو الشأن وعلية القوم على أرائك ووسائد موضوعة على أشَدَّةِ الهجن، وربما وضع خرج المطية على الشداد بدون أي أرائك أو سائد للاستناد عليه؛ أما أدوات القهوة التي تجدها في كل غرفة «القهوة» فهي كما يلي:

١ ــ **الدِّلَال**: وتتكون في العادة من أربع بأحجام مختلفة أكبرها تسمى «مِصْفَاةْ» وبها تصفى القهوة من «الفثل» تليها في الحجم «المِطْبَاخَةْ» وهي التي تطبخ بها القهوة ثم تلي هذه اثنتان إحداهما أصغر من الأخرى قليلا

وتسمى كل واحدة منهن «مِبْهَارَةْ» وهما اللتان توضع بهما القهوة ويضاف إليها البهار، الهيل والقرنفل والزعفران وتكون الدلال أما من النحاس الأصفر مطلى داخلها بالخارصين الأبيض لتصبح بيضاء نظيفة من الداخل أو أن تكون من النحاس الأحمر المطلي بالخارصين الأبيض من الداخل والخارج فتبدو بيضا كالمرو ويلزم الدلة الصغيرة «المبهارة» شيء من ليف النخل في مصبها أو خشبة صغيرة وذلك لخروج القهوة صافية دون أن يخرج معها «فَتْل» الهيل.

٢ ـ **المِحْمَاسَةِ**: وهي ما يحمس بها القهوة على النار وهي من الحديد، برأس نصف اسطواني مجوف يبلغ قطره من ٢٠ ـ ٤٠ سم وبعمق من ٤ ـ ٧ سم حسب كبر حجم المحماسة وصغرها ولها عصا من نفس قضيب الحديد مربع الشكل ذو فصوص مربعة بارزة في نفس العصا مطعمة بفصوص من النحاس الأصفر والأحمر ويبلغ طول العصا من متر واحد إلى متر ونصف تقريباً وبطرف العصا الخلفي قرص ثانٍ صغير بطرفه سلسلة تربط بها يد المحماسة، وهي قضيب دقيق من الحديد بطرفه قرص دائري قطره حوالي ٣ سم يتم بواسطته تقليب القهوة داخل المحماسة حتى تنضج.

٣ ـ **«المِبْرَادَةْ»**، وهي وعاء رشيق من الخشب مزخرف ومرصع بالمسامير النحاسية أو مطعم بشرائح من القصدير بنقوش جميلة جذابة وتوضع بها القهوة الحارة رأس من المحماسة حتى تبرد وتكون مهيئة للسحق وتغرف بها القهوة المسحوقة من «النجر» المهراس لوصفها بالدلة.

٤ ـ **النَجْرِ**: وهو المهراس أو المهباش وهو ما تدق فيه القهوة حتى تصبح مناسبة للطبخ، و«النجر» نوعان نوع من النحاس الأصفر المقوي «ماو» وقد صنع بهيكل جميل وهو عبارة عن فوهة عليا ذات عمق يتراوح بين ١٠ ـ ٣٠ سم حسب حجمه تحته عنق اسطوني رشيق يرتكز على قاعدة دائرية مناسبة لحجمه، وله يد من نفس المادة ذات فصوص جميلة ولهذا النوع

صوت جذاب وطنين فاضح يرن بصوته بعدة نغمات خاصة إذا دق القهوة به من له ذوق بتنويع إيقاعات ضرباته. أما النوع الثاني فهو «النجر» المصنوع من نوع من الحجر الجرانيتي اللون المتوفر بمنطقة الجوف بشمالي نجد وهذا النوع يصنع بهيكل مربع يرتفع بجسمه الرشيق بحيث تكون قاعدته أقل من سطحه العلوي بمقدار النصف وينحت بجوانبه الحروف والنقوش الجميلة وبسطحه الأعلى حافة مرتفعة وتجويف بعمق حوالي ٢٠ سم تسمى «عين» النجر توضع بها القهوة وتدق وله يد طويلة غليظة من حجر الصوَّان الأزرق الضارب إلى الخضرة بطول يتراوح بين ٦٠ ـ ١٠٠ سم ويسحق بها القهوة بعد أن تبرد على سطح «النجر» أو «بالمبرادة» وتغرف القهوة من «عين النجر» «بمغرافة» شبيهة بالملعقة المصفحة التي إما أن تكون من الحديد أو النحاس الأصفر.

٥ ـ **فناجين القهوة**: وهي من الصيني ذات النقوش والزخارف الجميلة ولها صينية من النحاس الأصفر المزخرف أو الصاج المدهون أو النحاس الأحمر المطلي بالخارصين.

٦ ـ **«الفَاتِيَةْ»**: وهي صندوق صغير جميل الصنع، بحجم ٦٠ × ٨٠ × ٨٠ سم له أدراج متعددة يوضع بهذه الأدراج القهوة، والهيل، والسكر، والشاي، والقرنفل، والزعفران، والطيب «العود» وغيرها من لوازم القهوة وبأعلاها مكان لصينية الفناجين وكؤوس الشاي.

٧ ـ **أباريق الشاي**: من مختلف الأحجام وهي مصنوعة من «التوتوا» الأبيض ويستعمل لغلي الماء ثم الأنواع الأخرى المصنوعة من الصاج المدهون أو الصيني أو النحاس الأحمر المطلي بالخارصين باختلاف أحجامها وأشكالها.

٨ ـ **الْكُمَارْ**: وهو الجزء الجميل المزخرف بمختلف النقوش بأحد زوايا المجلس وتتم زخرفته بالجبص وتوضع فيه الدلال والأباريق الزائدة عن الاستعمال اليومي وهو مجال للزينة أكثر مما هو ضروري.

٩ ـ **المِبْخَرَةْ**: وهي التي يوضع بها البخور «عود القماري» ويطيب به الرجال وهي مصنوعة من الخشب ومرصعة بالمرايا والمسامير النحاسية الصفراء ذات الأقراص المنفوخة ومطعمة بشرائح من القصدير بنقوش دقيقة جذابة ولا يخلو مجلس منها.

١٠ ـ **الملقط**: وهو ما يتلقط به الجمر وما تحرك به النار ويساوي به الحطب فوق النار وهو قضيب مصفح من الحديد بطرفيه قرصان مصفحان يتلقط بهما الأشياء.

١١ ـ **المِنْفَاخُ**: وهو ما ينفخ به النار حتى تشب في الحطب وهو عبارة عن طبقتين من الخشب على شكل الفكين بشكل اسطواني مستطيل يرتكزان على نقطة ارتكاز بطرفها أنبوبة صغيرة بطول ٣٠ سم وفي الفك الأسفل ثقب يدخل منه الهواء ويغلق عند الضغط، مثل لسان الحنجرة، وما بين الفكين ملبس بالجلد الناعم المحكم بالمسامير الصغيرة، وعند رفع الفك العلوي يرتفع غطاء الثقاب الموجود بالفك الأسفل ويمتلىء ما بينهما بالهواء وعند ضغطه يغلق الثقب ويندفع الهواء مع الأنبوبة مشبهاً لعملية الزفير للإنسان فيزجر النار على الاشتعال، ويتم تزيين المنفاخ بالنقوش والأصباغ والمرايا والمسامير النحاسية حيث يبدو تحفة رائعة.

□ أدوات المطبخ:

تتكون أدوات المطبخ من القدور المصنوعة من النحاس الأحمر المطلي «مربوب» بالخارصين من الداخل ويتم طلاؤها بين الحين والآخر وذلك لضمان بقائها نظيفة بيضاء من الداخل على اختلاف أحجامها، وكذلك الصواني المصنوعة من النحاس الأحمر والمطلية بالخارصين كذلك من الداخل والخارج تبقى بيضاء لامعة ولها أحجامها المختلفة أيضاً ويحتوي المطبخ العادي مجموعة كبيرة من القدور وأكبر ما يتسع لطبخ ذبيحتين بكاملهما ويتسع لحوالي ١٥٠ لتراً مكعباً من الماء وبه حلقتان أو ثلاث حلقات وذلك لنقله وتركيبه أو تنزيله وتأتي

الأحجام التي تلي ذلك حتى أصغرها الذي تطبخ فيه وجبة الأسرة ثم يلي ذلك الأحجام الصغيرة المستخدمة للقلي وهو ما يتسع لحوالي لتر واحد من الماء، أما في مطابخ بيوت الأمراء وعلية القوم فهناك أحجام أكبر من القدور حيث يوجد قدر جزور، وجزورين أي ما يتسع لطبخ لحم بعيرين كاملين أو بعير كامل بكل أعضائه ويكون ارتفاع إطارها القائم حوالي ١٥٠ سم وقطرها ٢٠٠ سم تقريباً وتستوعب من الماء حوالي ١٠٠٠ لتر مكعب وبها ثماني حلقات لنقلها فارغة وتركيبها وعادة مثل هذه القدور تستخدم عند إعداد الولائم الكبيرة وتتدرج بقية الأحجام كما سبقت الاشارة إليها.

أما الصواني فنجد أحجامها كذلك تواكب أحجام القدور حيث يوجد صوانٍ تتسع لجزور بكاملها تبرُكُ عليها مطبوخة ناضجة وتحتها الطعام المطبوخ المتيسر، ويصف حواليها عدد من الخراف الناضجة بكاملها، وكأنها حبوب الخاتم تحيط بفصه الكبير وهذه الصواني الكبيرة لها صحن علوي يبلغ قطره ٢٥٠ سم تقريباً ولها قاعدة اسطوانية ترتكز عليها ويساعد القاعدة عدد من الأعمدة الحديدية تثبت بحافة السطح وعلى حافة القاعدة، وعادة مثل هذه الصواني تسير على عجلات وذلك لعدم إمكانية نقلها بالأيدي مع وجود عدد من الحلقات بها قد تصل إلى ثماني حلقات ليتمكن الرجال من زحزحتها ووضعها كما يجب، ويليها الصواني من نفس النوع إلا أنها أصغر حجمًا حيث تتسع لذبيحتين «خروفين» مع الزاد الموضوع تحتها وهذه يكون لها ست حلقات أو أربع ويليها ما يستوعب ذبيحة واحدة ثم تلي ذلك الأحجام الصغيرة وكل الصواني النحاسية السابق ذكرها يكون لها ركزة ترتفع بها عن الأرض، ويأتي بعد ذلك الأواني الخشبية وهي أقداح محفورة من خشب الاثل الثخين فإن كان ذا عمق أكبر يسمى «قدحاً» وهو يشبه نصف الكرة ذا فوهة كبيرة محفورة بعمق يتراوح ما بين ٢٠ ـ ٥٠ سم حسب اختلاف أحجامه وقطره يتراوح ما بين ٣٠ ـ ٧٠ سم، ويراعى عند صنعه من خشب الاثل الرطب يعرض على النار بعد عملية تغطية أجزاء منه بالطين ليظهر مكان هذه الأجزاء المغطاة نقوش جميلة ويكون لون القدحبنياً ضارباً إلى الشقرة وله مقابض من نفس خشبته تسمى

الواحدة «عروة» وللأكل فيه نكهة ممتازة لا توجد بغيره من الأواني وخاصة القرصان والأرغفة، والنوع الثاني ما يسمى «الموقعة» وهو من نفس الفصيلة إلا أنه أقل عمقاً وأكثر اتساعاً، أما المغارف الخشبية على اختلاف أحجامها فهي شبيهة بالمغارف النحاسية الحالية، غير أنها مصنوعة من الخشب لها عصا طويلة ورأس نصف كروي محفور وتخضع في صنعها لنفس مواصفات الأقداح ويتبع الأواني الخشبية «نِجْرِ» الخشب وهو ما يدق به الفلافل والبهارات وغيرها وتجده بكل مطبخ وكذلك «المرقاق» و«المسواط» وهما قضيبان أملسان من الخشب حجم الواحد منهما بمقدار قبضة اليد يستعمل الأول لصنع الرقائق والثاني لسوط العصيدة ونجد إلى جانب ذلك السكاكين والمبارد. أما مصنوعات الخوص فنجد السفرة المصنوعة من خوص النخل الأبيض والموشاة والمنقوشة بخيوط من الشعر الأسود أو القطن الملون على اختلاف مقاساتها وهي دائرية الشكل يتراوح قطر الواحدة منها بين ٣٠٠ ــ ١٠٠ سم حسب المقاس وتفرش هذه «السُّفَرْةِ» تحت الصواني عند تقديم الأكل عليها حسب مقاس الصينية وهناك مجموعة من العلب الصغيرة التي تحتوي على الملح والبهارات والأفاوية والأصباغ المستعملة لصنع الطعام وتكون هذه العلب أما مصنوعة من الخشب أو المعدن أو النحاس أو الصيني ويوجد بالمطبخ الزند والصلبوخ و « الوذيحة» المستعمل لاشعال النار قبل وجود أعواد الثقاب بأيدي الناس وربما اضطر بعض الناس إلى اقتباس شعلة أو جمرة من النار من أحد الجيران في حالة عدم إمكانية إشعالها داخل منزله لسبب أو آخر، كما نجد «الصاج» على مختلف مقاساته وأشكاله ولكل نوع استعمال خاص لعمل الأرغفة والقرصان ومنها المقعر الذي يستخدم لتمحيص الحبوب الطرية وتتراوح أقطارها ما بين ٥٠ ــ ٨٠ سم حسب المقاس وهناك أحجام صغيرة ذات يد طويلة تسمى «المقرصة» ويصنع بها الأقراص الثخينة في بعض الأحيان ولكل واحد من هذه الأنواع استخدام خاص لا يستخدم لغيره.

ولتسخين الماء يستخدم وعاء نحاس أحمر مطلي بالخارصين من الوجهين اسطواني يتراوح قطره بين ٣٠ ــ ٦٠ سم ويرتفع من ١٠٠ ــ ١٥٠ سم يسمى «سُمَوَّرْ» يجلس على كرسي من الحديد وبواسطة أنبوبة مفرغة من أسفل إلى أعلى

يوضع فيها الجمر وتوقد النار ومتى اشعلت النار في الفحم امتدت الحرارة إلى الماء فأصبح ساخناً، و«للسمور» صنبور لتفريغ الماء منه وتجده في معظم البيوت على مختلف مستوياته وقد يسخن الماء في القدور والأواني الأخرى وذلك في فصل الشتاء.

□ أدوات التبريد:

لا يتصور المرء أدوات التبريد كالآلات الحديثة في الوقت الحاضر وإنما هي تلك الأدوات البدائية التي وفت بالغرض الضروري، وأدت خدمة لا يستهان بها على مدى قرون طويلة إلى أن مَنَّ الله على الناس بوصول ما نتج عن العلم الحديث من آلات ومخترعات تخدم هذا الجانب، فأدوات تبريد الماء في المنزل آنذاك هي القِرْبَةُ بمختلف أحجامها في بيئة الحضر والعرب الرحل، والقربة مصنوعة من الجلد المدبوغ يخرز من قاعدته وتصرٌّ مكان أيدي الشاة ويبقى مكان رقبتها فمًا للقربة وبعد دبغ الجلد يدهن بالودك ثم تخرز ويحقن بها الماء وتعلق في الهواء بمحجن خاص، وتجد في كل بيت سقيفة صغيرة وغالباً تكون عند مدخل المنزل وفي مكان يطرقه الهواء باستمرار ويعلق بهذا المكان مجموعة من القرب حسب حجم الأسرة المقيمة في المنزل ويكون بقربها مجموعة من أواني الشرب وتسمى الواحدة منها «طَاسَةٌ» وهي مصنوعة من النحاس الأحمر المطلي بالخارصين وتحمل كثيراً من النقوش والزخارف والحلقاة التي تزينها، وتستوعب الواحدة من ١ ـ ٣ لتر مكعب من الماء، وعادة راغب الشرب من هذه القرب يجسها باللمس من ظاهرها ليرى أيها أبرد ملمساً ليجد ماءها بارداً، ويبرد الماء داخل القرية عندما يتم رشح جزء منه فيتبخر ويلامس الهواء سطح القـربة ليمتص منه درجة الحرارة فيبرد السطح وتتسرب البرودة إلى الماء بداخل القربة، وعادة تكون سقيفة القرب مفتوحة من جهة الشمال أو الشرق تحقيقاً لبرودتها. ولا يستغرب أن يطلب عطشان ممن سيحضر له الماء على سبيل الدعاية» ان يأتيه بالماء من شمالي القربة»!!، أما تبريد اللبن فيعلق كذلك إلى جانب القرب بنفس صميلة أو يمزج أحياناً بماء بارد من القـربة لاستساغة شربة خاصة في فصل الصيف،

ولماء القربة نكهة ممتازة وبالذات إذا كانت مدبوغة بالأرطي أو العرن أو وضع بداخلها أعواد من البعيثران، أما تبريد الفاكهة والخضروات فتوضع قبل مدة كافية في مكان ظليل يداعبه النسيم، لتبرد، كما يوجد من الأدوات المتعلقة بالماء وتجهيزة الأواني الضرورية الكبيرة لتخزين الماء وهي أوان مصنوعة من النحاس الأحمر ومطلية بالخارصين منها «اللمِرْكَاةُ» وتستوعب الواحدة منها حسب حجمها من ٢ ــ ٥ متر مكعب من الماء تقريباً. وهذه تكون بجانب البيت قرب مكان القرب وتغطي فوهتها بغطاء خشبي ذي جزء متحرك يفتح عند أخذ الماء ويخصص واحدة منها للماء القراح المخصص للشرب والثاني للماء المالح المستعمل للطبخ والتنظيف إذا كان البلد يوجد فيه نوعان من الماء، واحضار الماء إلى البيت هو من مهام المرأة فتحضره على رأسها من خارج المنزل من جورة أو ساقية مخصصة لهذا الغرض تسمى «المَرْوَى» وذلك بإناء نحاس يسمى «جَذَعَةْ»، يستوعب من ٦٠ ــ ٨٠ لتراً من الماء تأخذ المرأة هذا الإناء فارغاً مع «طاسة» صغيرة وتغرف من تلك الجورة وتحمله على رأسها بمساعدة زميلاتها وتأتي به وتصبه في الخزان الكبير «المركاة» عدة مرات حتى تملأها أما في بيئة العرب الرحل فمستودع الماء هي قرب كبيرة الحجم من الجلد وتحضر المرأة الماء في قربة مناسبة تربط طرفيها برباط وتضعه على رأسها لتتدلى القربة على ظهرها وتنحني قليلاً ليكون الحمل على الظهر وهكذا تتردد بقربتها حتى تملأ ما لديها من الأوعية.

أما المروحة اليدوية فهي ما يلطف بها الناس الهواء داخل الغرف في فصل الصيف وهي مروحة منسوجة من خوص النخل مربعة الشكل محلاة بالنقوش والزخارف من الخوص المصبوغ بألوان مختلفة. ولها عصا يمسك بها ويحركها المرء حول وجهه لتعمل خلخلة للهواء بحيث يلامس البشرة وعندها يشعر بانتعاش من البرودة التي تحدثها هذه العملية وذلك قبل اختراع أدوات تكييف الهواء الكهربائية من مراوح ومكيفات.

□ أدوات تجهيز اللبن:

لقد سبقت الإشارة إلى هذه الأدوات في الفصل الخامس من هذا الكتاب لكن ليس هناك ما يضير إلى ذكرها من موضعها، فأدوات تجهيز اللبن تتكون من «المِرْوَبِ» وهو صميل كبير من الجلد المدبوغ والمدهون يجمع فيه الحليب، أو إناء كبير من النحاس المطلي أو الصاج المدهون يوضع فيه الحليب ويوضع بمكان دافىء شتاء، وبارد صيفاً حتى يروب اللبن وتراقب ربة البيت اللبن تمشياً مع تقلبات الطقس لإمكان تدفئته أو تبريده تبعاً لذلك، ثم يليه الصميل وهو من الجلد المدبوغ والمدهون وهو ما يمخض يخض به اللبن حتي تتكثف كمية الزبدة التي بداخله وتكون كتلة واحدة وتخرج بعد ذلك وتحفظ الزبدة بوعاء من الجلد له فتحة كبيرة يسمى «المِكْرَشِ» أو بإناء نظيف من النحاس المطلي أو من الصاج المدهون أو الصيني حتى تتجمع كمية كبيرة من الزبدة وتجري إذابتها لتصبح سمناً ويسكب اللبن المخيض في اناء كبير كقدر أو غيره ويعد للشرب بآنية «الطاسة» والأقداح وربما بقي بصميلة حتى يحين وقت شربه.

□ مفروشات النوم:

مفروشات غرفة النوم على بساطتها وتواضعها فقد أدت مهمتها لقرون عدة، وهي بطبيعة الحال على مستويات مختلفة كما هي عليه في الوقت الحاضر ولكن الدرجة العليا منها آنذاك لا تمثل شيئاً يذكر في الوقت الحاضر، إنما تتكون من الضروريات المرفهة، ودعنا ندلف إلى غرفة نوم ربة البيت فنجد أمامنا صندوقاً كبيراً من الخشب إما أن يكون مرتفعاً عن الأرض على أربع أرجل بمقدار متر ونصف أو أن يكون ارتفاعه بسيطاً وربما بدون أرجل وهذا الصندوق محلى بمختلف النقوش والزخارف الجذابة مرصعاً بالمسامير النحاسية والمرايا مما يجعله تحفة رائعة ويعتبر رأسمال المرأة فيه تضع كامل ممتلكاتها من مصاغ وملابس وعطور وأدوات زينتها وأشياء ثمينة وغير ذلك وله قفل تحتفظ بمفتاحه وتحته أو حواليه يوجد مجموعة من الأواني والتحف وعلب الزينة الخشبية وغيرها وفي الأونة الأخيرة بدأت النسوة يضعن الستائر من القماش على سقف الغرفة

والرفوف التي ترفع عليها الأواني الزجاجية وأواني الصاج المدهون «فناجيل» «غضار» والمبخرة وتعلق المرايا الكبيرة على حيطان غرفة النوم من عدة جهات أما الفراش فإما أن تكون أرضية الغرفة مفروشة بالكامل أو جزء منها ويختلف نوع الفرش إما أن يكون من نسيج الخوص «خصاف» أو بالبسط أو «العدل» وهو نسيج صوفي أسود أو بالقطيفة «الزل» حسب المستوى المعيشي للشخص ويكون الفراش الثمين من اللحف المحشوة بالقطن وقطع القطيفة والملايات والوسائد المملوءة بالريش أو القطن أو يكون الفراش من البسط «العدول» ووسائد محشوة التبن والقش حسب مستوى الأسرة وأحياناً يكون بجزء من الغرفة «دكة» مثبتة سبقت الاشارة إليها عند التعرض لتصميم المنزل وتملأ بالتبن أو ثمر «الطِّرْفْ» ويفرش عليها الفراش المهيأ وهي بمثابة السرير في الوقت الحاضر وهي مفيدة في البلاد الباردة حيث تجلب الدفء للنائم بها، أما بقية أفراد الأسرة فلا تعد كونها فرشاً عادية على الأرض من اللحاف أو «العدل» أو القطيفة وعليها الوسائد المحشوة بالريش أو القطن أو التبن ويتدثرون بقطع مماثلة للفراش حسب المستوى المعيشي للأسرة وإذا مررنا بمكان تناول الطعام فنجده عبارة عن غرفة أو سقيفة مفروشة بأي فراش يوضع عليها سفرة الطعام المصنوعة من الخوص وتوضع عليها صينية الطعام يتناوله أفراد الأسرة بأيديهم بعد غسلها قبل الأكل وبعده، أما في بيئة العرب الرحل فكل شيء في غاية البساطة من حيث التأثيث فغرفة النوم هي جزء من بيت الشعر تفرش به ربة البيت فراشها مع زوجها وإلى جانبهم فرش أبنائهم في جزء آخر على بعد أمتار قليلة وأغلب الرجال في هذه البيئة ينام وحده في القسم المخصص للرجال «الرُّفَّهْ» تاركاً بقية البيت لزوجته وأولاده، والفرش المستعملة لديهم هي البسط التي تنسجها النسوة «والعدل» والقطيفة التي تكون عادة من ضمن مهر المرأة وتكون ملابس المرأة وحليها وعطورها وأدوات زينتها محفوظة في «مِزْوَدَتِهَا» وهي وعاء من نسيج الصوف الجميل ذي الألوان الزاهية الجذابة وبقية الفرش مما سبقت الإشارة إليه.

□ أدوات الطحن وتجهيز الحب:

قلنا إن المرأة هي التي تقوم باعداد الطعام من حالته الأولى عندما كان حباً

حتى يصبح طعاماً لذيذاً، ولذلك فهو يتطلب الاعداد من تنقيته من العوالق والشوائب وهرس، وجرش، وطحن، ونخل، . . الخ، وأدوات تنقية الحب هي من الأطباق الواسعة المسطحة لها حافة مائلة يبلغ ارتفاعها حوالي ٥ سم، وهذه الأطباق مصنوعة من خوص النخل الأبيض بأطر ملفوفة على شرائح من عراجين النخل، كما ينقى الحب بالأطباق المماثلة لذلك وإذا كان في الحب فصوص وقشور فإنها تدق بأداة تسمى «الميجمة»، «الكابون» وهي قطعة اسطوانية من الخشب الغليظ مثقوب نصفها وبها عصا طوله ٦٠ سم، كما يوجد «المهراس» «الميخف» وهو ما يهرس به الحب وسبقت الاشارة إليه في مكان سابق من هذا الكتاب. أما أدوات الطحن فهي الرحي وسبقت الاشارة إليها في مكان آخر، والمجراشة وهي ما يجرش بها الحب المهروس ليصبح بعد ذلك جريشاً، وهي خفيفة الوزن نوعاً ما ، لذلك نجدها هي المتوفرة بشكل رئيسي لدى العرب الرحل، كما يوجد رحى صغيرة وثقيلة وهي ما يطحن بها المساحيق الخاصة كالأصباغ والبهارات والأفاوية والمشاط وغيره من المساحيق التي تستعملها النساء وتبعاً للرحى يوجد المنخل وهو نسيج من سلك الحديد الناعم له إطار خشبي ينخل به الدقيق بعد الطحن لتبقى النخالة والكسور الخشنة والعوالق الأخرى ويبقى الطحين صافياً نقياً من الشوائب.

□ □ □

الفصل الثاني والعشرون:

الملابس

□ الملابس الرجالية:

بكل بيئة من البيئات الملابس التي تناسب سكانها، ولكل شعب الزي الوطني الذي تتوارثه الأجيال بكل فخر واعتزاز، والعربي منذ القدم اختار الملابس التي تناسبه وتتواءم مع الأجواء السائدة في موطنه فاختار الملابس الفضفاضة التي تتمشى مع فصل الصيف الحار فتسمح للهواء من التخلخل إلى جسده فيحس بالبرودة المنعشة، حتى إذا جاء الشتاء أضاف عليها مايضمها أو يثقلها لتجلب له الدفء، وليست كالملابس التي نشاهدها في الأفلام ويدعون أنها تمثل الملابس العربية المكونة من الملابس الفضفاضة جداً والعمائم الكبيرة التي تمثل الملابس الهندية والفارسية أكثر مما تمثل الملابس العربية، وإذا نظرنا بإمعان إلى الملابس في البقعة موضع البحث للرجل والمرأة وجدناها بسيطة جداً وجميلة في نفس الوقت، متقاربة في بعضها في التصميم مع اختلاف في اللون ومختلفة في أنواع أخرى في التصميم واللون معاً، فالرجل يتكون لباسه مما يأتي:

١ ـ «المقطع» الثوب، وهو عبارة عن الثوب العادي ذي الأكمام القصيرة المنتهية بالرسغ على حد الكف، واتساع الكم يسمح بادخال يده واخراجها وكشفها عند الوضوء وغير ذلك، وهو ثوب عملي، وتتسع أكمامه من بدايتها بما تحت الإبط ليستطيع لابسه من ممارسة عمله بكل حرية، ويتسع الثوب من أسفله «شليلة» ليسمح له بالركض والحركة وله جيب واسع

ينتهي بطوق بسيط وأزرار قطنية كروية صغيرة بقدر حبة الحمص من نفس القماش، وتتم خياطة الثوب بالابرة اليدوية وبخيوط منه ويكون الجيب «المخبأ» الرئيسية التي يعتمد عليها الرجل ويضع بها مفاتيحه على الصدر من الجهة اليسرى فوق موضع القلب تتدلى طولاً إلى ما تحت السرة وفمها من أعلا مع فتحة الجيب، أما الجيب الجانبية فلا يُعَوَّل عليها، وهذا النوع من الثياب يلبسه السواد الأعظم من الناس من الذكور من سن الطفولة وحتى سن الشيخوخة ولا يزال يلبس حتى الوقت الحاضر مع اجراء بعض التعديلات على شكلة.

٢ ـ **الثوب «المرودن»**: وهو بصفة عامة كسابقه ولا يختلف عنه سوى في سعة أردانه الفضفاضة الطويلة التي تجر على الأرض ويكون في الغالب من القماش الخفيف الشفاف «الشاش» أو «الجنقل» المشبع بالنشا، ويلبس هذا الثوب فوق «المقطع» أو يلبس وحده وهو معد من لباس الزينة في المناسبات والأعياد وغيرها ويعتني الشباب بهذا النوع من الثياب ليظهروا أمام أقرانهم وفتياتهم بالمنظر النظيف اللائق مما دفع باحداهن بأن تقول:

٣٨٢ ـ هني من لفة اردونك
من قبل قصاف الآجال

٣ ـ **«الغترة أو الشماغ»**: وهي قطعة مربعة من قماش أبيض خاص رقيق شفاف أو «شماغ» وهو نسيج مربع من قماش شفاف منقط بنقط حمراء من نسيج مطرز في داخل إطارات جميلة ويطبق «الغترة» أو الشماغ على شكل مثلث توضع نصف قاعدته على مفرق الرأس وطرفاه عن يمين الوجه وشماله ورأس المثلث يكون على خلف الرأس وهو يلبس حتى الوقت الحاضر بنوعية «الغترة» و«الشماغ» بالطبع مع جودة في الصنف واعتناء بكيفية اللبس والنظافة.

٤ ـ **الكوفية «الطاقية»**: وهي لباس نصف اسطواني نصف كروي على مقاس

الرأس تتكون من طبقتين محشو ما بينهما بطبقة رقيقة من القطن أو منسوجة بخيوط مستقلة وكانت تخاط بالابرة اليدوية وتزخرف بالخيوط الحريرية الملونة والخيوط المذهبة ويختار لها القماش الممتاز ذو الألوان الزاهية وتلبس تحت «الغترة» ويولي الشباب عناية خاصة في اختيار الأفضل منها والتفنن في لبسها منذ ذالك الوقت وحتى الوقت الحاضر، ويوجد منها الأنواع العادية للرجال والشيوخ وهي تلبس حتى الوقت الحالي.

٥ ـ **العقال**: وهو ما يلبس فوق الرأس، وكان عند بدايته من خيوط الصوف ذات اللون الأبيض يلف لفتين فوق الرأس وله طرفان ينسابان على مؤخرة الرأس، وسماكته معقولة، ثم أدخلت عليه الألوان الأخرى ويسمى «ذنيب الفيل» وهو أدق من سابقه وله طرفان يتدليان إلى الخلف وهذا النوع يلبسه الشباب لتمشى مع الألوان الزاهية التي يرغبونها، أما العقال الأبيض فيلبسه الكبار، ثم أدخل عليه تعديل اللون بحيث أصبح لونه أسوداً لكي يظهر على الغترة البيضاء أو الشماغ الأحمر،

أما المتدينون من يرون أنهم العقلاء فلا يلبسون العقال اطلاقاً وإنما يكتفون بالغترة والشماغ لوحده وبعضهم يلبس العمامة حتى الوقت الحاضر، وهناك العقال المذهب «الشطفة» ولا يلبسها سوى الأمراء وهي عقال من طبقتين مربعتين من خيوط المرعز ملفوفة بالمخيوط المذهبة وبترتيبها يظهر مثاني خيوط المرعز السوداء ولها ذيل خفيف إلى الخلف وهي جميلة رائعة.

٦ ـ **العمامة**: وهي لفة من القماش الأبيض الخفيف تلف فوق الرأس فوق الغترة أو الشماع مرتين أو ثلاثاً ولها طرف أو طرفان يتدليان إلى الخلف، ويلبسها الرجال كبار السن ممن يقتدون بسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكانت من شعارات رجال الدعوة السلفية «الإخوان» غير أن البعض يبالغ بعدد لغاتها ولا يزال البعض يلبسها حتى الآن.

٧ ـ **السراويل**: وهي قليلة الانتشار إلا في الآونة الأخيرة وكانت قصيرة تنتهي بما فوق الكعب وفي الغالب لا تظهر من تحت الثوب وتخاط بالإبرة اليدوية وتلبس حتى الآن مع تغيير في طولها حيث قصرت إلى ما فوق الركبة وبقي بعضها على طوله السابق مع ادخال البنطلون عليه.

٨ ـ **الحذاء**: وهو ما يخصف «يخرز» محلياً على مختلف أنواعه وقد صنع ليكون ملائمًا في الصيف ويجلب الدفء بالشتاء ويصنع من جلود الابل والبقر والغنم المدبوغة ويزدهي بالنقوش والألوان الجذابة وهو سهل اللبس والخلع ولا يزال موجوداً وتحت الاستعمال مع ادخال بعض التطوير إليه.

٩ ـ **الجرابات «الدُّسُوْسِ»**: وهي نسيج من خيوط وبر الابل له نعلة من جلود الابل وجوانب ورقية من جلود الغنم الناعم ويلبس في فصل الشتاء للوقاية من البرد، وهو بمثابة الحذاء الحديث إلا أنه أكثر دفئاً منه.

١٠ ـ **الجبة**: وهي نسيج صوفي ناعم تلبس فوق الملابس، ولها أردان بطول أكمام الثوب وتستخدم للتدفئة أما ما يستخدم للزينة فهي من الجوخ الملون بالأحمر والأزرق والأسود وتسمى «الجوخة» وتطرز بخيوط مذهبة أو خيوط حريرية وتوشى بمختلف النقوش والأشكال الهندسية الرائعة وتلبس للزينة في المناسبات كالأعياد والأفراح ويلبسها الأمراء وعلية القوم والموسرون من الناس.

١١ ـ **«البريم»**: وهي سيور من الجلد المدبوغ والمدهون الناعم جداً ويفضل جلود الثعالب على غيرها تجدل هذه السيور الرقيقة وله عروة بأحد طرفيه وعقدة في طرفه الآخر يقرن به ويلف على الوسط من تحت الملابس مباشرة ثلاث لفات أو أربعاً وربما ستاً ويلبس على الجلد مباشرة فيما تحت السرة فوق الورك، وهو يساعد على شد الظهر عند الاجهاد في العمل، وينفع عند المطارحة والتدريب على السباحة، ويرفع الرجل به ملابسه عندما يشتغل في عمله «يتنفذ» به.

١٢ ــ **«الزبون»**: وهو شبيه بالثوب بجسده وأكمامه ويختلف عنه بأنه مفتوح من الأمام من أعلاه إلى أسفله، ويكون قماشه من الكتان المقلم بالألوان الأزرق والأسود والبني والأخضر، وله فتحتان جانبيتان بطول ٣٠ سم وبفتحته الأمامية «عمائل» خيوط وأزرار من الكتان وخيوط قصيرة يربط بها الزبون على صاحبه ويلبس الزبون فوق الملابس ويستخدم للزِينة أكثر من الضرورة وهناك ما يشبه الزبون وتسمى «الصاية» وتختلف عن الزبون بأنها من اللون الأبيض الخفيف وإن كانت مقلمة فالتقليم من نفس اللون وتكون أكثر أزراراً في فتحتها الأمامية ولها جيوب في الصدر، وبعضهم يجعلها أقصر قليلاً من الزبون وتلبس فوق الثياب للزينة في المناسبات كالأعياد والزواج وغيره.

١٣ ــ **العباءة**: وهي نسيج من الصوف أو الوبر الناعم وتتكون من شقين يثبتان إلى بعضهما «مخبونة» على مقاس صاحبها، ويختلف درجاتها ويوشى جيبها بالخيوط الذهبية أو الحريرية ويلف عصام من رأس الكتف حتى طرف الكم ويعلق بجيبها خيوط بها أجراس من نفس الخيوط المنقوشة بها، تسمى «عمائل» وتلبس من فوق الملابس كلها بما في ذلك «الغترة» أو «الشماغ» ولها درجات مختلفة من الجودة والنعومة ودقة النسيج واتقان التطريز وتسمى «البشت» وتستعمل للزينة والتدفئة، وإن كان ما يستخدم للتدفئة من النوع الثقيل وما يلبس للزينة من النوع الخفيف ويلبسها الرجال البالغون دون الصغار وهي لا تزال تلبس حتى الوقت الحاضر بعد ادخال تطوير على تطريزها وأقمشتها.

هذه الملابس التي كان يرتديها الرجل في ذلك الوقت بعضها قد عزف عنه والبعض الآخر أدخل عليه بعض التطوير والتحسين ولا يزال يلبسه حتى الوقت الحاضر وهو الزي الذي نفتخر بارتدائه لما له من قيمة معنوية تربطنا بتراث الأجداد.

□ الملابس النسائية:

والملابس النسائية تسير في الاطار العام الذي تسير فيه ملابس الرجال من حيث التصميم لتلائم المناخ السائد في هذه البقعة وهو المناخ الصحراوي ولم تدخل عليها الطرازات الجديدة «الموضة» التي أصبحت تلهث وراء كل ما يصدر عن الغرب من تصاميم على رداءتها وسذاجة وعري بعضها. ولذلك جاءت الملابس لتتمشى مع هذا الجو، وبالقاء نظرة على الملابس النسائية نجدها تتكون من:

١ ـ **الفستان العادي «المِقْطَعْ»**: وهو قريب من حيث التصميم من ثوب الرجل مع اختلاف في الألوان والخياطة، حيث تتكون ألوانه من الأحمر والأخضر والأزرق والأسود والأصفر والزهري.. الخ وهو من القطن أو الكتان أو الحرير «البِرْيسم»، «الوِرْيْسِي» وقد يكون لون القطن العادي أبيضاً فيتم صبغه من قبل النساء بالألوان التي تعجبهن وذلك يتركيب الصبغ بأنفسهم ثم وضع القماش فيه حتى يصير إلى اللون المطلوب ولهن ذوق رفيع وخبرة كافية بهذه الناحية وبعد أن يأخذ اللون المناسب يتم تفصيله وخياطته، ويخاط الفستان بخيوط منه أو بخيوط من الحرير «البريسم» على اختلاف ألوانه وتنقش وتوشى أطراف أكمامه بخيوط الحرير والخيوط المذهبة كما ينقش جيبه إلى حد الطوق من نفس الخيوط برسوم ونقوش جميلة تعطيه مظهراً جذاباً كما يزين جيب الثوب بتثبيت أزرار من الذهب بحجم البلحة مزينة بالنقوش الرائعة مرصعة بفصوص الفيروز والزبرجد والأحجار الكريمة وتكون هذه الأزرار من ٥ ـ ٧ وقد تصل إلى تسعة فتزيد رونقه جمالاً، وهذا الفستان عملي ترتديه المرأة على اختلاف الأعمار منذ أن تكون صبية حتى تصبح عجوزاً مع اختلاف بالعناية بالنقوش والزينة والألوان الزاهية في مختلف مراحل سنها.

٢ ـ **الثوب**: وهو ذو أكمام واسعة جداً يبلغ اتساع الكم حوالي ٨٠ سم

ويسمى «المعورج» ويكون من الألوان الزاهية ويتم نقش جيبه بخيوط الحرير «البريسم» بنقوش وزخارف بديعة وهذه النقوش أعرض مما في سابقه، كما تطرز حدود جسد الثوب مع أردانه بخيوط الحرير بعرض حوالي ٢ سم ولهذا يسمى «المعورج» كما توشى حواف الأكمام من نفس الخيوط ويكون أسفله الأمامي على مقدار طول الفستان السابق أما من الخلف فله ذيل طويل تسحبه على الأرض ويستر خلف أقدامها ولا يلبس هذا الثوب إلا عندما تريد المرأة الخروج من بيتها لبعض شأنها ويمكن أن تستخدم أكمام هذا الثوب باضفائها فوق رأسها لتغطية وجهها أو شعرها إذا كان خمارها خفيفاً، ومن هذا الثوب نوع من الحرير الممتاز الأحمر والقرمزي والأخضر والأزرق موشاة أردانه وجيبه بخيوط مذهبة رائعة الصنع وعلى جانب كبير من الجودة والاتقان ويسمى هذا النوع «الْوِرْسِي» وهناك نوع ثالث من القماش الشفاف موشاة أردانه وجيبه بخيوط مذهبة ومثبت به أقراص زجاجية لامعة بألوان زاهية وترتيب بديع يسمى «تَنْتَرَ» نسبة إلى اسم الأقراص المثبتة به وهذان النوعان الأخيران من الثياب النسائية تلبسها المرأة للزينة في الأعياد والأفرام والمناسبات وتعتبر ملابس زينة أكثر منها ضرورية.

٣ ــ **الخمار «الشيلة»**: وهي قطعة من القماش الأسود الشفاف الذي إذا أضفته المرأة على وجهها احتجب عن رائيه وفي نفس الوقت تستطيع أن تبصر طريقها وتميز الأشياء ويبلغ طول هذا الخمار ٤ أمتار إلى ثلاثة بعرض القماش حوالي ٦٠ سم، وله درجات مختلفة وتضعه المرأة على رأسها لتلف به شعرها ووجهها عند خروجها من منزلها أو عندما تكون عند غير محارمها تنفيذاً لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وهذا الخمار ضروري للمرأة ولا تزال ترتديه حتى الوقت الحاضر ولكن بأشكال أخرى وهناك نوع آخر يسمى المقرونة وهي شبيهة بالخمار العادي إلا أنها أصغر منه، قد صممت لتلف مؤخرة الرأس وتثبت عليه وهي شبيهة بقناع الدرع.

٤ ــ **السراويل**: وهي لم تتوفر إلا في الآونة الأخيرة وكانت أكمامها قصيرة إلى

نصف الساق ثم بدأت بتطويلها حتى غطت كعبيها ووضعت بأطرافها حاقة مكسرة من القماش المغاير وغالباً يكون أبيض يسمى «النفنوف» وقد تلاشى هذا النوع مؤخراً واستعاضت عنه بأنواع وأشكال أخرى قصيرة أو بنطلون.

٥ ـ **الحذاء**: وتلبس المرأة حذاء جلدي له دعسة من الجلد المتين، وله سيور من الجلد الرقيق المزخرف بالألوان الزاهية والنقوش الجميلة وأحد السيرين مكان باصبع ابهام القدم والكبير على ظهر القدم وقد يكون الحذاء غير هذا النوع إنما من نفس التصميم وتلبسه المرأة في ثلاثة فصول من السنة، أما في فصل الشتاء فتلبس جوارب منسوجة من خيوط وبر الابل ولها نعلة من الجلد الغليظ وغطاء وجوانب من الجلد الرقيق الملون وتسمى هذه الجوارب «الدُّسُوْس» وتمتاز بدفئها وجودتها.

٦ ـ **«البريم»**: وهو مثل البريم الذي يلبسه الرجل غير أن «بريم» المرأة أدق وأكثر ليونة ويوضع به أزرار كنوع من الزينة تلبسه المرأة تحت ملابسها تلفه على خصرها ثلاث أو أربع مرات ويدل قصر البريم على دقة الخصر وتستعمله للزينة في وسطها لزوجها.

٧ ـ **الرداء**: وهو قطعة من القماش قد تبلغ ٢ × ٢ متر من مختلف أنواع الأقمشة وتتشح به المرأة ويجللها بدلاً من العباءة داخل بيتها وتلتف به في وقت أداء الصلاة.

٨ ـ **العباءة**: وهي من الصوف أو الوبر تشبه عباءة الرجل إلا أنها تختلف عنها بلونها الأسود على الدوام ونقشتها السميكة بالخيوط المذهبة وأكبر حجماً بالهدب المتدلي من جيبها ذي العثاكيل والأجراس الكبيرة مع ضيق في جيبها لا يزيد عن ١٠ سم وثخانة في عصام أكمامها وضيق فتحات أردانها وتسمى عباءة المرأة «الْمَزْوَيَّةْ» وسبب التعديل في تصميم الأردان والجيب هو أن المرأة تتقنع بعباءتها ولا تخرج يديها من أكمامها بينما الرجل يرتديها على أكتافه ويخرج يديه من أكمامها ولا تزال تلبس حتى الوقت الحاضر مع

ما دخل عليها في التسمية «بالبشت» وصارت من «الجرسية» والحرير والأنواع الأخرى.

٩ ـ **العصابة**: وهي شريحة من القماش الأسود لطيفة في شكلها ولبسها على قمة الرأس بأعلى الجبين يتضح من خلفها مفرق شعر الرأس، وليست مثل ما نشاهده بالأفلام من السماكة وعصابتها من أعلى الجبين منحدرة من فوق الأذنين إلى أسفل مؤخرة الرأس، وتعصب المرأة بها رأسها من فوق طبقة من خمارها وربما من تحت الخمار وتستعملها الفتيات للزينة وخاصة عند العرب الرحل، أما العجائز ومن تحس برأسها ألماً فانها تستخدمها للحاجة.

١٠ ـ **ملابس الأطفال**، وملابس الأطفال لا تخرج عن هذا الاطار ولكن بشكل مصغر إلا في مراحل حياتهم الأولى فهي تتكون من اللفائف القطنية والصوفية المناسبة التي يمهدون بها ويمتقطون بأحزمة تحفظ الأمهات بواسطتها تناسق أجسام أطفالهن وعندما يكبرو يتم تفصيل الملابس المناسبة لهم مثل الكبار كل حسب جنسه مضافاً إلى ذلك لباس الرأس «القبع» أو «الطربوش» وهو شبيه بالكوفية يصمم ويعمل للصغار حسب المقاس من الأقمشة الجميلة ويطرز بنقوش جميلة ويجعل له عثكولة في قمته ويلبس للصغار لحمايتهم من برد الشتاء.

□ □ □

الفصل الثالث والعشرون:

الزينة والحلي

□ الزينة عند الرجال:

لا يعتني الرجال بالزينة سوى من جوانب معيّنة منها التمنطق بالأحزمة المرصّعة بأقراص المسامير النحاسية يتوسّطها الخنجر المذهّب أو المفضّض، وربما المكسو بصفائح معدنية بيضاء لامعة وعليها النقوش والزخارف المتقنة، كما يتوشّحون بالسيوف المذهّبة أو العادية وذلك لإظهار الزينة في الأعياد والمناسبات، كما يضعون بدل الخناجر «الجنبيات» وهي المُدَي في وسط الحزام، وقد يكون حزام بندقية يغصّ بأمشاط الذخيرة من طرفه إلى طرفه، وقد يكون حزام المسدس المكتظ بالطلقات يتوشّح به من على متنه ويتدلىّ إلى تحت خاصرته العكسية ويقف الرجل الشاب مزهوّاً بهذه الزينة التي تدلّ على الرجولة والشجاعة والنضج، كما أن من جوانب الزينة الاعتناء بشعر الرأس وغسله وتمشيطه وجدله في جدائل وضفائر تتدلىّ بكثافة على صدر الرجل قد تصل طولاً إلى ما تحت الحزام، وقد يترك شعره بدون ظفر فيبقى ذروة تتراقص غدائرها على أعلى صدره، مع المحافظة على مظهر الرجولة والتمشّي في إطارها، أما الحلي فلا يلبس الرجل منها سوى خاتم فضّي ذي فصٍّ بارز من نفس المادة أو فصٍّ من معدن آخر، يلبسه في خنصر أو بنصر يده اليمنى وربما نقش اسمه على فصّ خاتمه، وقد يكون الخاتم من معدن آخر غير الذهب، وما عدا ذلك لا يلبس الرجل من الحلي شيئاً وإنما يترك ذلك للمرأة، أما الجانب الثالث من الزينة فهو الاكتحال وهو كحل عينه بكحل الإثمد أو غيره مما يركّب محلياً، والاكتحال

إلى جانب الناحية الجمالية فهو سنة من سنن الرسول صلىّ الله عليه وسلّم، أما شعر الوجه، فاللحية تترك مسبلة بدرجة معقولة حسب السنّة وهي قبضة اليد وما زاد على ذلك، فالبعض يقصّرها والبعض الآخر يتركها، أما الشوارب فالبعض يتركها كما هي عليه بشكل كثيف ويعتزّ بها والبعض الآخر يقصّرها ويحفيها كنص الحديث الشريف «وفروا اللحى وأصحفوا الشوارب»[1]، أما الشيوخ وكبار السن فيتركون لحاهم تطول على ما هي عليه والبعض يترك لون شعره أبيض بدون صبغ والبعض الآخر يصبغه بالحناء ليصبح أحمراً داكناً والبعض يصبغه بالسواد، أما حلق اللحى فتعدّ من النقائص المحذورة وإذا أريد عقاب شخص بسبب جرم ارتكبه فإنه يحلق ذقنه على الصفر، ويبقى متخفّياً في بيته مدة حتى ينبت ذقنه، وإذا أراد شخص أن يعيب آخر قال له: «يا مهلوس الذقن»، ولذلك تجد المثل الشعبي يتعرّض لهذه الناحية بالحثّ على الأولوية فيقول «كن الأول لو بحلق اللحى» ومن الأشياء المحبّبة بهذه المنطقة الاستياك بالمسواك وهو عروق شجر الأراك عند كل صلاة عملاً بالسنّة الشريفة، ولتنقية الفم من فضلات الطعام وتلميع الأسنان وإظهارها بالمظهر الأبيض الناصع، أما ارتداء الجديد من الثياب وتنظيف الملابس والنظافة الجسمية فهذا شيء وارد ويحافظ عليه الرجال كمظهر من مكمّلات الزينة كما سبقت الإشارة إليه في موضع آخر، وقبل نهاية هذه الفقرة لا يفوتني إلا الإشارة إلى إحدى أوعية أدوات الزينة وهي «البقشة» وتمثّل محفظة من القماش المطرّز والمنقوش بخيوط حريرية ملوّنة، وهي بمثابة محفظة النقود في الوقت الحاضر ولها عدة مخابىء ولسان يلفّ عليها عدة مرات، ويربط بنهايته بسلك رفيع يضع بها الشاب المكحل ومرآته وزجاجة الطيب «القفلة» ومنقاش الشوك، ويهديها الأصدقاء لأصدقائهم والأحباب لأحبابهم كهدية تذكارية، ويضعها الشاب في جيبه.

□ الزينة عند النساء:

تولي المرأة عناية خاصة بزينتها عندما يسمح لها الوقت في ذلك بعد فراغها

---

(١) رسالة عبد الرحمن بن قاسم ص٢.

من عملها اليومي، فالنظافة من مقوّمات الزينة لديها ولذلك تضعها نصب عينيها كضرورة حتمية، وكقاعدة للكماليات التي تضيفها إلى نفسها، فإلى جانب نظافة الملابس نجدها تعتني بشعرها وذلك بغسله وتمشيطه وتضميخه بأنواع المواد العطرية، ومشطه «بالمشاط» «البلالة» وهو مخلوط من عدة عناصر عطرية منها زهر الورد الجاف، والمسك، والظفر، وهو قشور حيوانات بحرية يُحرق فتظهر له رائحة طيّبة،وورق الريحان الجاف،وحب المحلب، وورق الدرس الجاف، وصبغ أحمر، وزهر العصفر، وأحياناً يضاف إليه لب كرب النخل، تجمع هذه العناصر وتطحن برحى خاصة ثم تعجن عجينة رخوة وبعد أن يغسل الشعر ويجفّف من الماء ويدهن بالسمن البري يمشّط ويشبّع بهـذا المخلوط «المشاط» وفي مفرق الرأس تضع المرأة مسحوقاً آخر «القدود» «الذرير» وهذا المسحوق عطري أيضاً، فهو مكوّن من زهر العصفر، والمسك والعنبر، والصبغ البرتقالي مع عناصر أخرى تطحن جيداً حتى تصير غاية في النعومة، ويذر في مفرق شعر الرأس ليعطيه طيباً بالإضافة إلى ما فيه، وتقوم المرأة باستخدام الحناء في كفّها، وبعضهن تضعه في أطراف أصابع قدميها وتحرص على وضع الحناء بكفّيها، فلا تكاد تجدها بدونه ولون الحناء في الكف يكون أحمر داكن، ولكي تجعله النسوة أسود يضفن إليه «الشناذر» كلوريد الأمونيوم مع الرماد وتعدّ المرأة الحناء من قواعد الزينة التي تبرز بها، لنستمع إلى إحداهن تتمنىّ زوجها أن يراها عند استكمال لون حناها:

٣٨٣ ــ لا يا خلف يالفغم واين انت عنـــا
ليتـك ضحى العيـد عنـــدي تشـوفي

٣٨٤ ــ حطّيت لك باطراف الأصبـاع حنّا
وخضّبت لـــك حتى مشـــاني كفـــوفي

(. . . . . .)

وإذا أضافت إليه المواد المذكورة أصبح لونه أسود داكن، وتضعه المرأة بوسط كفّها وتنقش به أصابع يدها من اخلف وأظافرها القصيرة، ولا تستعمل

المرأة من المساحيق شيئاً ولا تغيرّ من معالم وجهها بنتف حواجبها أو تكثيف رموش عينيها، وتعتني بتنظيف أسنانها بالمسواك وقشور شجر مرّ المذاق يسمّى «الديرم» وتكتحل بصفة مستمرة، وذلك للعناية بعينيها، أما الحلي فتلبس منها القرطين في أذنيها على اختلاف درجاتها، و«الزمام» في أرنبة أنفها، و«الهامة» فوق مفرق رأسها، والقلّادة في رقبتها و«المورقة» على صدرها، والقلائد الخرزية في رقبتها، والأساور «المجاول» و«السعيفة» و«المطاوي» و«الخصور» في معصمها، والمعضد في عضدها والخواتم والمحابس في أصابعها والحجول والخلاخيل فوق قدميها في أسفل ساقيها، وتفصيل هذه الحلي في موضع آخر من هذا الكتاب في الفصل الأول من الباب الثالث، والمرأة في الأحوال العادية لا تلبس كل الأشياء السابقة وإنما تكتفي بما هو ضروري لجمال مظهرها وما يحافظ على نظافة شعرها وجمال عينيها وأسنانها، أما جسمها فغالباً ما يكون رشيقاً، فهي إلى النحافة أقرب ريانة العود ضامرة الخصر مكتنزة العضلات والمجاسد، عبلة الذراعين، ويعود الفضل في هذا الوضع الجسماني إلى ما تقوم به من جهد يومي، يبعد عنها السمنة والترهّل ويجعل جسمها متناسقاً بصفة دائمة حتى عندما تبلغ الستين من عمرها، وبناء عليه فإن أدنى درجة من التجمّل تظهر عليها، أما في المناسبات كالأعياد والأفراح وغيرها لا تبقي من زينتها بحليها شيئاً إلا أعدّته ولبسته.

□ □ □

الفصل الرابع والعشرون:

الأسلحـــة

□ الأسلحة القديمة والحديثة:

الأسلحة الموجودة بهذه المنطقة هي الأسلحة القديمة في معظمها إلى أن دخلت عليها الأسلحة النارية الحديثة، ولا بدّ من إلقاء نظرة عليها للتعرّف على أنواعها سواء القديم منها أو الحديث، وهي كما يلي:

١ ـ **السيف**: وهو أشهر من نار علم وغني عن التعريف، وقد تغنّى به الأقدمون منذ آلاف السنين، وبقي هو السلاح الفتّاك إلى بزوغ فجر النهضة الأوروبية الحديثة واختراع الأسلحة النارية، وهو نوعان: السيف الطويل المنحني قليلاً، والسيف القصير المعتدل «الكردة» وكلاهما من مادة واحدة غير أن لكل واحد منهما ميزته، فالطويل يفيد صاحبه عند مقارعة الخصم عن بعد، أما القصير فهو أقوى ضربة من قرب ويمكن أن يطعن به عند اللزوم في الصدر أو الخاصرة.

٢ ـ **الرمح**: وهو كذلك من الأسلحة العريقة مثله مثل السيف، وقد تغزّل بتثنيه الشعراء، ووصفوا شدة طعناته، والرمح معروف بهذه البقعة وهو نوعان كذلك، فالرمح العادي ذو العصا الدقيقة الطويلة وله رأس واحد وأذنان صغيرتان، والنوع الثاني هو «الشلفا» وهي ذات عصا غليظة وقصيرة نوعاً ما ولها رأسان متوازيان رقيقان حادّان من الجانبين كلسان

الثعبان، وما بينهما يقصّ ما يمر عليه ولها أذنان خلفيتان حادّتان، فعند الطعن يفعل الرأسان فعلهما وعند النزع تفعل الأذنان فعلهما كذلك.

٣ ـ **القوس والنبال**: القوس والنبال والكنانة استعملها الإنسان منذ القدم للصيد ثم استخدمها للحرب وهي باقية في هذه المنطقة إلى أن حلّت محلّها الأسلحة النارية قبل حوالي قرنين من الزمان.

٤ ـ **المقلاع**: وهي سلاح بدائي يقذف به الحجر بحجم البيضة ويرجم به الجهة الثانية، وله فعّالية عند المناوشات على بعد خمسمائة متر فما دون، وهو سلاح غير قاتل وإنما يترك كسوراً وشجوجاً، وبعد الاستغناء عنه استخدمه الفلاحون لطرد الطيور الضارّة من مزارعهم وقد جرت الإشارة إليه في موضعه.

٥ ـ **الفاعوس «الكلنك»**: وهو أداة كالفأس مصنوعة من الفولاذ ذات عصا قصيرة لها وجه حاد رقيق ويقابل هذا الوجه رأسان آخران حادّان معقوفان قليلاً إلى الخلف، ويفيد هذا السلاح بالضرب عن قرب في رأس الخصم، أو كاهله وأكتافه، وذلك عندما يفقد فعالية سيفه لسبب أوآخر، أو لا يكون ضرب السيف مجدياً.

٦ ـ **الخنجر «القُدَيمي»**: وهو سلاح يشبه السيف في سلته، مصنوع من الفولاذ غير أنه قصير يبلغ طوله ٣٠ سم وهو معقوف قليلاً وله غمد بحجمه مزخرف ومطعّم بالفصوص، وقد يكون ذهبياً أو مذهّباً ويعلّق بالحزام تحت السرة، وهو السلاح الأبيض المستعمل للطعن والقدّ عند الاشتباك بالأيدي وقد يستخدم بعض منها لأغراض أخرى.

٧ ـ **المُدْية أو السكين «الخوصة»**: وهي شبيهة بالخنجر من حيث الاستخدام غير أنها تختلف عنه من حيث الصنع، فهي تصنع من الحديد الطري وليس لها غير وجه واحد، وأقل عناية في غمدها، وتستخدم للأغراض والخدمات الأخرى، وعند الضرورة تقوم مقام الخنجر.

٨ ــ **القناة «العجراء»**: وهي عصا غليظة ذات رأس كروي، إما أن يكون جذع شجرة والعصا أحد أغصانها ورأسها الجذع، أو أن يكون العصا الغليظ قد ثبّتت به قطعة من الصخر المثقوب بحجم الكف المقبوضة أو أكبر قليلاً، وفي الآونة الأخيرة صاروا يضعون بدلها «صامولة» عجلة إحدى المعدّات الثقيلة، وتستخدم القناة للمضاربة في الهجوم والدفاع، وتحدث رضوضاً وكسوراً وشجاجاً وتقتل بضربتها في جمجمة الرأس.

٩ ــ **العصا**: وهي العصا العادية منها الغليظ ــ الهراوة ــ ومنها الرفيع وتكون من أغصان الشجر، وتنفع للمضاربة في حالتي الهجوم والدفاع وتحدث كسابقتها رضوضاً وشجاجاً وتقتل إن أصابت مقتلاً، هذه الأنواع من الأسلحة القديمة التي عرفت منذ بدأ الإنسان يتخطّى العصر الحجري، ويستخدم هذه الأدوات لإيذاء أو قتل أخيه الإنسان أما الأسلحة النارية الجديدة فأولها:

١٠ ــ **البندقية ذات الفتيل**، وهي ذات أنبوبة مجوّفة طويلة بقعر مسدود وبأسفلها قناة تنتهي بحوض صغير بارز، وهذه القناة تصل بين الحوض وقعر سبطانة البندقية، وبجانب الحوض زناد يوضع فيه فتيلة تبقى بعيدة قليلاً عنه حتى إذا أشعلت النار في طرف الفتيل وضغط على الزناد لامست النار المشتعلة بالفتيل الحوض الملآن بالبارود وعندها يشتعل وتنتقل النار من خلال القناة إلى كمية البارود الموجود في أسفل السبطانة، وعندها ينفجر بقوة دافعاً كرة القصدير إلى خارج السبطانة، ويصل مدى الطلقة من ٢٠ ــ ١٠٠٠م تقريباً حسب قوة فعالية الملح وطول سبطانة البندقية.

ولا يفوتني الإشارة إلى أعداد القذيفة، حيث توضع كمية من ملح البارود في قعر السبطانة ويوضع فوقه مادة لابدة ثم توضع كرة أو كرات من القصدير فوق العبوة وتملأ القناة الواصلة بين قعر السبطانة والحوض الخارجي بالبارود

أيضاً بما يسمح للنار بالانتقال من خارج البندقية إلى داخلها، حيث يتم الرمي كما سبقت الإشارة إليه وقد أثارت ضجة كبيرة في وقتها وأدّت خدمة ممتازة، وتغنىّ بها الشعراء حيث يقول أحدهم:

٣٨٥ ـ ليا حركوا عبثات هي تاخذ القضا
لـو هـو صـديق من يـردّد أنشـوره
(محسن الشايع العمير)

ثم أصبحت بعد ذلك تعبأ بالملح والبارود والحصى وتصاد بها الطيور، وجاء بعدها «القبسون» وهي من نفس الشكل مع تطوير بسيط بالزناد، حيث أصبحت عين التعبئة صغيرة والزناد ينطبق ذاتياً بعد همز إصبعه، وأصبح الزناد له قعر صغير يلبس بقمع مشبع بمادة قابلة للاشتعال أو يملأ «بسقوة» أعواد الثقاب، وعندما ينفلت الزناد يقدح العين فيشتعل ما بها من ملح البارود، وتنتقل النار إلى داخل بطن السبطانة وينفجر البارود دافعاً القذيفة من خلال الفوهة إلى بعد يتراوح بين ١٠٠ ـ ٣٠٠ متر تقريباً حسب قوة فعالية البارود التي بداخلها، وتعد أكثر من سابقتها وذلك بسرعة إطلاقها كما أشار إلى ذلك أحد الشعراء يصف ناقته بقوله:

٣٨٦ ـ كـالنبل كـالبابـور عجـل التـراتيب
كـالبـرق كـالقبسـون عجـل مثاره
(خضيري الصعيليك)

كما تمتاز عن سابقتها بعدم تأثير البلل والمطر عليها وذلك لعدم تعرّض ملح البارود للمطر بخلاف ذات الفتيل التي يطفىء المطر فتيلها ويخرب البارود الموجود بعينها مما قد يكون له أثر عكسي على سير القتال كما حدث بإحدى المعارك في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، حيث أمطرت السماء على أحد الطرفين المتحاربين فأبطل المطر مفعول سلاح هذا الطرف وحلّت به الهزيمة، ثم تلى ذلك البندقية، ذات القذيفة المستقلّة الموجودة في الوقت الحاضر، وقد ورد

منها عدة أشكال ومستويات، كالماطلي، والصمعاء، وأم أصبع، التيـزي، والشرفاء، والألماني، «العصملي» وكلما ورد نوع منها أحدث دويّاً هائلاً واحتل مكانة مرموقة بين الناس وقتاً من الزمن، وأطراه الشعراء بقصائدهم حيث يقول أحدهم:

٣٨٧ ـ أمهـات إصبـع لـلروح نـزاعـة
مـع خـطاة الـولـد تبعـد مـراميهـا
(.......)

ثم لا يلبث أن يأفل نجمه ويبزغ مكانه نجم سلاح جديد أفتك منه حتى وقتنا الحاضر الذي تعدّى فيه مستوى السلاح الفردي إلى الأسلحة الفتّاكة كالأسلحة الجرثومية والكمياثية والذرّية والنووية والنترونية، كفانا الله شرّها وسخّر العقول التي اخترعتها إلى تغيير سيرها ليوجّهوا الجهد والمال التي تصنع به أسلحة الدمار إلى ما فيه خير البشرية ورفاهية الإنسان.

١١ ـ المدفع، والمدفع المستعمل آنذاك على مستوى الحكومة وقد جاء في فترة متأخّرة بعد الحرب العالمية الأولى.

□ □ □

الفصل الخامس والعشرون:

متفرقات

□ **الوسم:**

ولما كانت ممتلكات الناس في ذلك الوقت معظمها من بهيمة الأنعام وهذه بطبيعة الحال تتشابه في كثير من الصفاة في بعض الأحيان وإن اختلفت في ملامح أخرى إلا أنها غالباً ما تكون متشابهة لاسيما وأن فحلها واحد كما سبق أن مر بنا في فصل من هذا الكتاب، ولكون هذه الأنعام تختلط في أغلب الأحيان بمرعى واحد فلا بد من إيجاد رمز يصنعه كل إنسان على ممتلكاته من هذه المواشي، لذلك نجد لكل قبيلة أو عمارة أو بطن أو فخذ أو فصيلة أو رهط وأحياناً لكل أسرة علامة تضعها على ماشيتها تسمى «وَسْمًا» وهي بمثابة السمة التجارية في الوقت الحاضر التي تتميز بها الشركات والمؤسسات وحتى السلطة الحاكمة لها وسم خاص تضعه على ما يخصها من المواشي، والوسم هو أما كية النار بالإشارة المعنية تكون على سطح فخذ البعير أو على خده أو رقبته أو خاصرته من اليمين أو الشمال أما بالنسبة للغنم فتكون على أذنها أما الحمير والبقر فتكون على رقبتها وفخذها وأحياناً يكون الوسم بشق الأذن من الأمام أو الخلف أو قطع طرف الأذن من اليمين أو الشمال أو سرد شريحة من الجلد وتبقى عالقة بمكانها والوسوم هي على سبيل المثال لا الحصر كما يلي:

ولكل وسم من هذه الوسوم اسم خاص وبمجرد ما يملك الشخص الدابة فإنه يضع عليها وسمه حتى إذا ضاعت هذه الدابة بدأ بالبحث عنها فإنه يسأل عنها بموجب سماتها ومواصفاتها الطبيعية بالاضافة إلى الوسم، والوسوم التي عليها حتى يهتدي إليها فمن قد رآها أو مرت به ويعتبر الوسم العلامة الفارقة في الوقت الحاضر ووسم الحكومة هو ٥١٥ على ما يخصها من مواشي ولكل أمير مقاطعة وسم ينبثق من هذا الوسم كأن يكون (   ) في الشمال مثلاً وهكذا نرى أهمية هذه العلامة، وهي باقية حتى الوقت الحاضر.

□ عادة التدخين:

لم تكن عادة التدخين منتشرة في ذلك الوقت كما هي عليه الآن وإنما كانت مقتصرة على أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة في كل بلد وكانت عادة التدخين مذمومة، وتعد ذنباً يصعب التغاضي عنه، وربما ذهب البعض إلى اعتبار الشخص المدخن ناقصاً وبه مثلباً لا يحق له أن يؤم الناس في الصلاة إذا وجد غيره ويسمى الدخان «التتن» وشاربه «تتانا»، وفي مقابل ذلك يعتبر كيفا للرجال المرموقين، والفرسان البارزين، وعِلْيَةِ القوم، وهؤلاء يشربونه كنوع من التسلية إلى جانب القهوة العربية مع شعورهم أنه يساعد في معالجة مشاكلهم، ويكوي مواضع آلامهم، ويساعد على استجماع أفكارهم، واختيار أنسب الحلول لمشاكلهم، هذا ما تخيل به إليهم نفوسهم وإن كان خلاف ذلك ولنستمع إلى أحدهم يعرب عن هذه الناحية بقوله:

٣٨٨ ــ والله يا لولا العظم يوم اني أملاه
اكويه بالجمرة ويكوى جروحي[1]

٣٨٩ ــ مع دلة صفرا على النار مركاه
أقصر بصتبها على قد روحي

---

(١) من نوادر الأشعار، ص ١٢٨.

٣٩٠ ـ فنجالها يشدا خضاب الخوانده
الجادل اللي عند أهلها طموحي

(ذعار مشاري، بن ربيعان)

ولم يكن التبغ بلفائف وعلب كما هي عليه الآن، إنما كان التبغ من الورق الجاف الطبيعي الأخضر والأشقر، ويسمى «التنباك» ويكون إما بصرة أو بكيس من القماش أو جراب من الجلد، أو بعلبة مناسبة ويشرب «بالغليون» وهو «السَّبِيْل» وهو آنذاك من عظم ساق الغنم وغيرها، يقطع بطول مناسب ويعبأ بالتبغ ثم يكوى من طرفه بجمرة من النار كما أشار إليه الشاعر آنفاً ويمصه شاربه فإذا ضاقت على أحدهم الدنيا وكثرت همومه ومشاكله لجأ إلى غليونه وصرة التبغ وبدأ يعبىء ويكوي، ويمص وينفث آلامه ومشاكله مع سحابة الدخان المحيطة به، وربما دمعت عيناه ورف شاربه وانجلت التقطيبة عن حاجبيه وجلى «عماسه» ويسمى عملية التدخين «بالتعميرة» أو «جلية العماس» كما أشار إليه أحدهم بقوله:

٣٩١ ـ ليادك بالخاطر ثمانين هوجاس
الشاوري بالكيس والنار حية

٣٩٢ ـ مزيت ما يبس معاليقي ايباس
يكوي جروح القلب لوبه شكية

(عبد الله الرشيد)

ويتواكب شرب القهوة العربية مع شرب التبغ ويقترنان في أغلب الأحيان لدى هذه الفئة حيث يبدأ بارتشاف فنجان القهوة ثم يمص بعده مصة من «غليونه» كما ذكر أحدهم بقوله:

٣٩٣ ـ شربت من بكره ثلاثة فناجيل
وكيس الشقيري فاتحين مصره

٣٩٤ ـ مزيت ما يكوى العروق المغاليل
لـو أن شربـه مـا ذكـر بـه مسرة

(خضيري الصعليك)

ولا يفوتني بهذه المناسبة إلا الاشارة لموقف وحديث جرى بين سطام بن هذال العنزي وزوجته الشاعرة عند أحد أركان بيت الشعر وهي تردد:

٣٩٥ ـ يا شارب التنباك شاربك لا طال
إيـاك وايـا واحـد جـاز دونـه

ولم تدر أنه بقربها ويسمعها وعندما التفتت وإذا هو بجانبها يسمع ما تقول، عند ذلك نهرها بقوله: ماذا تقولين؟ فاستدركت الموقف الحرج الذي وقعت فيه بسرعة بديهتها وبادرته قائلة:

٣٩٦ ـ شرابة التنباك معهم سعة بـال
ليـا طـال شـارب واحـد يقصـرونـه

٣٩٧ ـ يستاهـل التنباك مثل ابن هـذال
الـلي يحـطه في مـشـاني ردونـه

وقد أعجب بسرعة تصرفها الذي يدل على ذكائها عند ذلك قال لها لقد نجوت.

وقال آخر:

٣٩٨ ـ والله يـا لـولا مـزة العظم مـرة
وفـنجـال بـن عـشـر عـفـر بهـاره[1]

---

(١) نوادر الأشعار، ص ١٦٩.

٣٩٩ ــ ليا خذت من خطو الغلايين جره
اتبعتهــا الـفـنـجــال يــطفي حــرارة

(محمد العوني)

أما الآن فقد انتشر بشكل غريب وأصبح ظاهرة ضارة من جميع النواحي رغم التحذيرات التي تصدر من الحكومة والمبنية على رأي الهيئات العلمية بالاقلاع عن هذه العادة الضارة.

□ الحمى:

معروفة هذه المنطقة بالأحماء منذ القدم، وذلك لخصوبة أرضها وطيب مراعيها على قلة مطرها، وأول من عين حَمى فيها هو كليب وائل في بداية القرن السادس الميلادي ثم بعد ذلك حمى الربذة وحمى ضرية واستمر هذا الوضع بين الحين والآخر إلى أن انتهى آخر هذه الأحمية في نهاية الستينات من القرن الهجري المنصرم، وصفة الحمى أن تخصص قطعة من الأرض الخصبة في ترتبتها المشهورة بالنباتات الجيدة والأعشاب الممتازة للرعي، فتحميها السلطة للخيل والابل والأغنام الخاصة بها، وذلك لتبقى هذه البقعة كمستودع طبيعي لمراعي هذه الأنعام ولا يرعى منها أحد من أصحاب المواشي المحيطة بها، وتوكل مسؤولية حمايتها إلى عدد من خدم السلطة يسمون «خدام» الحمى ويمنحون كامل الصلاحيات لحماية هذه البقعة من أي طارق يقترب بمواشيه منها سواء أكانت خيلاً أو إبلاً أو غنمًا، ولا يمر بها ويرخص للمسافر الذي يأتي طريقه من خلالها الرعي لدابته أثناء سيره عبرها ولا يأخذ من الحشائش والأعشاب لدابته شيئاً، وتتم مراقبة هؤلاء الخدم لهذا الحمى على ظهور إبلهم التي تدلج بهم بصفة مستمرة عدا فترات الراحة، وتقوى ملاحظتهم على المناطق المتاخمة للقرى المجاورة للحمى أو الأماكن التي يوجد بقربها مياه، وتكثر حولها مضارب البادية فهذه النقاط لا يكادون يفارقونها بصفة مستمرة، والخادم في هذه الحالة مسلح بسلاح فردي يتدرج من عصا الخيزران إلى الخنجر والمسدس والبندقية، وعادة

تكون الدوريات من اثنين أو ثلاثة، يمتطون ظهور مطيهم، ويجوبون الروابي والوهاد في أطراف الحمى مقتفين أثر أي حائف تزين له نفسه أن يطأ أرضه وتنعم مواشيه في رعى قفاره فيخرجوه من حدود الحمى، وكما أشرت فإن لديهم كامل الصلاحية في اتخاذ أي إجراء من شأنه حماية الحمى، وفي ظل هذا التفويض يقع منهم حيف على من يقتربون من الحمى سواء من الرعاة الذين يخترقون بمواشيهم مراعيه، أو من مزارعي القرى المجاورة الذين يدخلون الحمى لأخذ الحشيش والعشب من داخله لمواشيهم وخاصة إذا كانت السنين مجدبة وقد يتصرف الخدم «الحماي» ويتعسفون ويظلمون من يقع تحت طائلتهم دون أن يعلم الأمير بذلك، لكن إذا رفع إليه الأمر قد يرد الحق إلى نصابه وقد يقتنع برأي الخدم ويُحمِّل المعتدي على الحمى تبعة خطئه، ولنستمع إلى أحد «الحواشيش» الذين يجمعون العشب والحشيش من الحمى يتوجد على مكان بالحمى مغطى بأنواع الأعشاب ويرغب أن يحش منه لولا خوفه من «الخدام» إذ يقول:

٤٠٠ ـ لولا سمي الغدا واذعار
لا أحش وسط القنيناتي

٤٠١ ـ مار البلا عندهم لي كار
أضرب لاما ازور الأموات

٤٠٢ ـ والخرج يجدع بوسط النار
والقش مابه مراوات

(حماد الذايد الجهني)

وحسب معرفتي البسيطة أدركت اثنين من هذه الأحمية في شمالي نجد تابعين لامارة منطقة حائل، أحدهما حمى «العِشّ» ويمتد من حدود بلدة السَّبُعَانُ شرقاً إلى حدود قرية «سَرَّاءْ» غرباً بطول حوالي خمسين كيلاً ومن جبل سَابِلْ الواقع شمال بلدة الرَّوْضَةُ جنوباً إلى حزون الْبَدَنَه» الواقعة جنوب حائل شمالاً بطول حوالي ٦٠ كيلاً، والحمى الثانية هو حمى «الْغَبِيَّةْ» ويحد من الشمال بجبل

أُدْقِيَةُ «دَقِيَّة» الواقع جنوب بلدة «الْمُسْتَجِدَّةِ» إلى حافة وادي الرُّمَةِ جنوباً بعرض حوالي ٤٥ كيلاً ومن قرب قرية البَلازِيَّةِ شرقاً إلى قرب بلدة السُّلَيْمِي غرباً بطول حوالي ٦٠ كيلاً هذان الحميان أدركتهما حيث لم يرخص بهما إلا في عام ١٣٧٠ هـ.

وفي رأيـي أن إيجاد أحمية من هذا النوع بصورة أخرى أن تحمي قطعة من الأرض لمدة سنتين ثم يرخص بها بعد أن تحمى قطعة مماثلة لها بجانبها، وذلك لا مكان انتقال بذور الحشائش والأعشاب إلى البقعة المجاورة بواسطة الرياح وتبقى هاتان القطعتان المتجاورتان بالتناوب وتنظيم المراعي على هذا المنوال من شأنه توفير المراعي الدائمة وتنميتها وبالتالي تكون دعمًا للثروة الحيوانية التي نفتقر إليها وتوفيراً للغطاء النباتي المطلوب، وذلك لما شاهدته بعيني ويعرفه كثير من الناس من أن هذه الأحمية تنمو فيها الحشائش والأعشاب وتكتسي الأرض بالغطاء النباتي الكافي، وأذكر أن السحاب يأتي من مكان بعيد دون أن يمطر فإذا كان فوق الحمى بقدرة الله تراكم وبدأ يرعد ويبرق وأمطر ماؤه على هذه البقعة المغطاة بالحشائش والأعشاب فإذا تعداها تمزق من صحن السماء وانتهى.

هذه الظاهرة يعرفها كل المجاورين للحمى والذين يلاحظون ذلك، ويعلل الجغرافيون هذه الظاهرة لنظرية علمية تقول: «إن الغطاء النباتي له جاذبية يمتص بها دزات بخار الماء المكونة للسحاب فتتكثف هـذه الذرات والجزيئات وتتراكم وبالتالي يسقط منه المطر» ومع ايماني بقدر الله على ذلك إذ هو الذي ينزل الغيث فانني لا أستبعد صحة هذه النظرية وبالإضافة إلى ذلك فإن لي تعليل آخر من وجهة النظر الدينية حيث أن الله قد كفل أرزاق كل خلقه من إنسان وحيوان ونبات وبما أن هذه القطعة المحمية مليئة بالبهائم والدواب والزواحف والحشرات وكل هذه رزقها يأتي بسبب نزول المطر على هذه البقعة فهذا وفاء من الله عز وجل بكفالته لرزق هذه المخلوقات، وقد شاهدت بنفس في حمى «الغبية» بالإضافة إلى الخيول والابل والأغنام فرقاً من الظباء والغزلان، وأعداداً من الحباري، وأنواعاً لا تحصى من مجموعات الطيور على اختلاف أحجامها وأسمائها وأشكالها ومجاميع منتشرة من الضبان واليرابيع والجرذان

وحشرات لا تحصى أشكالها وأنواعها وغيرها كثير من هذه المخلوقات التي وجدت الأمان والغذاء بهذه البقعة المحمية، وينزل المطر على الحمى بقدره الله بسبب منطوق النظرية السابقة لغرض ضمان أرزاق هذه المخلوقات، فلذلك أتمنى على وزارة الزراعة أن تدرس هذه الناحية وتنسق مع الجهات المختصة ذات العلاقة لاحياء فكرة الأحمية بإطار جديد يضمن التنمية الزراعية والرعوية بهذه البقعة الطيبة.

□ الأسماء السائدة:

لكل منطقة طابعها الخاص فيما يتعلق بالأسماء للذكور والإناث، لها رَنَّةٌ جذابة وطلاوة ساحرة قبل أن تدخل عليها الأسماء ذات الصيغة الأجنبية، مثل «جوزيف وشاهناز وكاميليا»، والأسماء بهذه المنطقة لها صبغة معينة وهي تنطلق من ثلاث ركائز أولها ما يعتمد على ما نصت عليه الشريعة الإسلامية السمحاء، التي ورد فيها أن خير الأسماء ما عُبِّد وحُمِّدَ، ثانيها النظرة التفاؤلية بمعنى الاسم كأن يسمى منصوراً أو غانماً أو نافعاً، أما ثالثها فيكون لظرف الزمان أو المكان سبب في التسمية كأن تولد الفتاة في وقت المطر وتسمى «مُطَيْرَةْ» أو يولد الصبي في زمن الغزو فيسمى غازياً، بالاضافة إلى ما يروج من الأسماء للأبطال البارزين والنساء الشهيرات، وأحياناً تكون أسماؤهم ليست جيدة من حيث المعنى، ولكن الهالة التي اكتسبها صاحب الاسم طغت على ضحالة معناه، فيندفع الناس إلى إطلاقه على أبنائهم وبناتهم تلذذاً بهذا الاسم الذي غطت شهرته الآفاق وكل يود لو يكون ابنه أو بنته مثل صاحب الاسم الأول، وعادة يسمى الأبناء والبنات بأسماء آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم مهما كانت أسماؤهم وبعضهم يسمى بأسماء والديه وهم على قيد الحياة والبعض الآخر لا يسمى بأسمائهم إلا بعد وفاتهم. وبالاضافة إلى الأسماء الصحيحة فهناك الكني والألقاب التي يلقب بها الشخص أو يكنى بها وتلتصق به وبعائلته وأحياناً تطغي على الاسم الحقيقي ولا يعرف فيما بعد إلا بها بالاضافة إلى ما يلصق بالشخص أو العائلة من الألقاب والكني التي لا تخلو من الهمز واللمز وتسمى «معيار

أو عيارة» يعير بها الشخص أو العائلة عند ساعة الغضب والعناد وربما المداعبة وقد تجد للشخص الواحد أكثر من «معيار» وهذه «المعايير» يطلقها أناس قد تفرغوا لمراقبة الناس ويكون سببها إما تصرف من الشخص «المعَيَّر» سواء بالقول أو الفعل أو بسبب كلمة غريبة لا يُعْرَفُ معناها، وأحياناً يلصق به «المعيار» رغمًا عنه و«المعيار» يغضب منه بعض الناس وخاصة في ساعة الغضب أو عندما يكون فيه ما يمس العظم، والبعض الآخر يرى أنه عبارة عن فقاعات زبد تزول دون أي أثر وقد يرمز للاسم إذا كان لا يريد التصريح به لسبب أو آخر، كما قال الشاعر:

٤٠٣ ـ سميها بالعين والنون والقاف
ما يفهمه غير القلوب الولايف

ومن الأشياء المألوفة إدخال الترخيم، والتصغير على بعض الأسماء للاستملاح فتجد اسم عبدالرحمن يسمى «دُحَيْم» أو «دُحَيِّمْ» وعبدالعزيز يسمى «عُزَيِّزْ» أو «عَزُّوْزْ» أو «اَلْعِزِّيْ» وسالم بدعى «سُوَيْلِمْ» وسليمان يدعى «سُلَيِّمْ» وعلي يدعى «عُلَيْ» وابراهيم يدعى «بُرَيْه» وسارة تسمى «سُوَيِّرْ» أو «سُوَيْرَةْ» والجوهره تدعى «جُهَيِّرْ» وغير ذلك.

وغالباً تطلق هذه الأسماء عندما يكون المسمى صغيراً وعندما يكبر يعود إلى اسمه الحقيقي، وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد جزءاً من الأسماء المنتشرة في نجد قبل ورود الأسماء الحديثة التي غزت هذه المنطقة الآن والأسماء مرتبة حسب الحروف الهجائية للذكور والإناث على التوالي وهي:

أ = ابراهيم، أحمد، اسماعيل.

ب = بدر، بندر، بداح، براك، بجاد، بادي، بتال، بكر، باتع.

ت = تركي، تراك.

ث = ثامر، ثاني، ثويني، ثعيل، ثنيان.

ج = جلوى، جاسر، جابر، جازي، جازع، جزاع، جبر، جبير، جمعان، جمعه.

ح = حمد، حماد، حامد، حميد، حميدي، حمدان، حسن، حسين، حسان، حجاب، حمود.

خ = خالد، خلف، خليف، خليفة، خليوي، خمسان، خميس.

د = دخيل، دخيل الله، دواس، دحل، دعيج، داعج، دوود، دوخي، دبيان.

ذ = ذايد، ذعار، ذياب، ذيب.

ر = راشد، رَشِيْد، رُشيد، رشدان، رشود، راكان، راضي، راجي، رجاء، رحيل، رافع، رفاع، رخيص، ركيان.

ز = زيد، زويد، زايد، زيدان، زامل، زويمل، زعل.

س = سالم، سويلم، سلمان، سليمان، سعد، سعود، سعيد، سعدي، سعدون، سلطان، سطام، ساجر، سراي، سطم، سمير، سلامة، سند، سنيد، سعوي.

ش = شاهر، شايع، شلاش، شلاح، شعيفان، شخير، شالح، شافي، شعبان، شايش.

ص = صالح، صايل، صلال، صلفيق، صلف، صياح، صخى، صنيدح.

ض = ضيدان، ضاري، ضاوي، ضحيان، ضحوى، ضاحي.

ط = طلال، طامي، طلق، طارى.

ع = عبد الله، عبد الرحمن، عبد العزير، عبد الكريم، عبد الرزاق، عبد الوهاب، عبد المحسن، عبد اللطيف، عبد الهادي، عبد الجبار،

عبد الاله، عقاب، علي، عليان، عيسى، عايد، عويد، عيد، عواد، عياد، عيادة، عودة، عامر، عمار، عقيل، عبيد، عثمان، عمير، عياش، علوي، عويد.

غ = غالب، غازي، غزاي، غانم، غنام، غنيم.

ف = فهد، فهاد، فهيد، فاضل، فضل، فضيل، فريح، فرحان، فارس، فيحان، فيصل، فلاح، فرج، فريج.

ق = قاعد.

ك = كاسب.

ل = لافي، لاحق.

م = محمد، محمود، محيميد، محماد، مفرح، مرضي، مطني، مزعل، منصور، مشهور، ماجد، مفضي، مسعود، مذود، مخلف، مضحي، مشعان، منديل، متعب، مِرْشد، مَرْشَد، محدي، ممدوح، معدي، موسى، مزيد، مقرن، ملفي، مطلق، مسفر، مرزوق، مشعل، مطرف، مطرب، مفلح، مريع، مانع، موينع، مناع.

ن = ناصر، ناشي، نويصر، ناهض، نافع، نفاع، نويفع، نشوان، ناشي، نادر، ناهس، نايف، نواف، نوار.

و = وافي، وارد، وادي، وصل الله.

هـ = هاشم، هادي، هديان، هتاش، هزاع، هايس.

ي = يوسف، يحيا.

□ أسماء الإناث:

أ = أسما.

ب = بدري، بنية، بتلا.

ت = تركية.

ث = ثريا، ثنية.

ج = الجوهرة، جملا، جميعه، جوزاء الجازي.

ح = حسناء، حمدة، حصة، حجية.

خ = خديجة، خزنة، خولة.

د = دوسة،

ذ = ذوب.

ر = رقية، رجوي.

ز = زهوة، زينب، زعبية.

س = سلمى، سعدى، سهية، سارة، سراء سكينة.

ش = شماء، شاهة، شهرة، شعاع، شعيع، شقراء، شقحاء، شيمة، شيخة، شائعة.

ص = صفية، صيتة.

ض = ضحية.

ط = طرفه، طفلة.

ع = علياء، عبدية، عفراء، عبلة، عنقاء، عمشاء، عاشة، العنود.

غ = غزيل، غزية، غزوى.

ف = فاطمة، فهدة، فهيدة، فضة، فضية.

ق = قوت.

ل = لطيفة، لولوه، ليلى.

م = موضى، مضاوي، مويضي، مزنة، مريم، ميثاء منيرة، منية، مطيرة، مريفة، مشاعل، مليحة، مرزوقة.

ن = نورة، نوير، نوف، نصرة، نبوي، نهية، نوار.

و = وطفا، وضحى، وحيشه.

هـ = هيا، هيلة، هيفاء، هدلا، هند.

□ ظاهرة الرضاع:

رضاع الأطفال من غير أمهاتهم ظاهرة منتشرة بهذه البقعة كغيرها من البلدان الأخرى في ذلك الوقت قبل انتشار طريقة الأرضاع للأطفال من الحليب الجاف بالوسائل الحديثة، ولولا ما يترتب على هذه الطريقة من الآثار السلبية والايجابية لما أشرت إليها، على اعتبار أنها شيء طبيعي، ولكن لهذا السبب واستكمالاً للبحث أردت التنويه عنها بايجاز، مع أنها تحتاج إلى بحث طويل، والرضاعة موجودة منذ القدم وجاء الإسلام فجعلها تحلل وتحرم ما يحلل ويحرم النسب، إذا رضع الطفل ثلاث رضعات مرويات، ومن الأسباب الداعية إلى ذلك عندما تتوفى الأم تاركة طفلها فيضطر من يعوله تحت وطأة الحاجة إلى البحث له عن مرضعة أو مرضعات إن لم يلجأ إلى إرضاعه من لبن من الماعز، وربما تصاب الأم بمرض أو يجف ثديها فتلجأ إلى هذه الطريقة وأعني بها طريقة إرضاعه من الغير، وربما لا تتوفر مرضعة واحدة فتجد الطفل يمر على عدد من المرضعات بما يصاحب ذلك من اختلاف في ألبانهن على جهازه الهضمي مما قد يسبب له اضطراباً هضمياً وما قد يؤثر فيه من الناحية الوراثية من جراء رضاعة ألبان مختلفة لآباء متعددين، وللمرء أن يتصور طفلاً يتيمًا لا أم له يرضع من ثدي هذه، وتلك، والثالثة، فيقبل على التهام ثدي هذه وينكف عن تلك ويكره الأخرى فيجبر على رضاعها بالاكراه، لتصور المردود الغذائي لهذا الطفل، ولكنها الحاجة!!!

وبعض الأمهات تجف ألبانهن لسبب أو آخر فيبحثن عن مرضعات لأطفالهن وربما أرضعنهم من ألبان الماعز أيضاً وقد تكون الأم بنيتها ضعيفة أو من زوجات الأمراء والطبقة الغنية، فيستعينون بمرضعة لأطفالهم، لهذه الأسباب وغيرها نجد ظاهرة الرضاعة منتشرة بين الناس بدوافع معينة، منها بالدرجة الأولى الجانب الإنساني المتمثل في انقاد حياة هذا الطفل الذي ربما يكون له شأن آخر فيما بعد، وثانيها الجانب التعاوني الذي يكون الركيزة الأولى في ذلك المجتمع، فربما جاءت المرضعة إلى بيت أهل الطفل من باب التعاون وإسداء المعروف، وبعد هذا يأتي الجانب المادي للاستفادة مادياً من ذوي الجاه والأغنياء لقاء إرضاع أطفالهم، فيجعلون للمرضعة شيئاً معيناً بالإضافة إلى الهدايا والهبات، أما الجانب الاجتماعي فهو ما تذهب إليه بعض النسوة بدون ضرورة من إرضاع الأقارب أبناء العم أو الخال لتقريبهم من بعض من ناحية ولابعادهم عن بعض في الحياة الزوجية من ناحية أخرى، وهذا يحدث في بعض الأسر الكبيرة التي تعيش في بيت واحد، فيضطر أبناء وبنات العم من العيش تحت ظل هذا البيت فإن كانوا أخوة من الرضاعة فلا حرج بينهم عندما يكبرون، وفي نفس الوقت يبتعدون عن بعضهم في الزواج، ولننظر إلى إيجابيات هذه الناحية وسلبياتها فمن الايجابيات، توثيق الروابط بين الأسر بعضها مع بعض، وتقوية أواصر الأخوة والمحبة بين الناس، وانتفاع بعض الأسر الفقيرة من اخوانهم من الرضاعة الذين يتمتعون بدرجة كافية من الثراء، كذلك استفادة بعض الأسر من اخوانهم للرضاعة، ذوي الجاه والمراكز المرموقة، .

وكم من أسرة فقيرة تمتعت بالغنى أو حظيت بمكانة بارزة أو نالت مغنمًا في ناحية معينة بسبب صلة الرضاعة، إلى جانب ذلك توجد الآثار السلبية، وتتمثل في تفريق أبناء وبنات الأسرة الواحدة من التزاوج فيما بينهم وبالتالي قد يأتي إلى تفكيك روابط أرومة العائلة، كما أنه يحول في كثير من الأحيان دون اجتماع قلبين متحابين، وقد حالت الرضاعة دون زيجات كادت أن تتم، وأخرى قد انتهت كامل ترتيباتها ولم يبق إلا الزفاف فجاءت الرضاعة وحالت دون ذلك، ولقد وصلت إلى ما هو أبعد من هذا، فحطمت بيوتاً وأسراً بعد الزواج وانجاب

الأطفال حينما برزت بين هذين الزوجين الذين أنجبا مجموعة من الأطفال.

وعند ذلك لا مناص لهما من الافتراق شرعاً وبذلك تَقَوَّضت أركان بيت هذه الأسرة، أو أصيب بالاهتزاز والخلخلة على أقل تقدير، وكم من أسر أصابتها هذه النكبة مما كان له أثر كبير على الزوج والزوجة يتسرب إلى أعماقهما وربما صاحبة شعور بالذنب قد تنعكس آثاره على حياتهم بكاملها وربما أثر ذلك على الأطفال أنفسهم.

□ □ □

شرح الأبيات
الواردة بالشعر الشعبي

ويشتمل بيان معاني الكلمات الواردة باللهجة العامّية ومعناها باللغة العربية الفصحى، كما يتضمّن المعنى الإجمالي للبيت وذلك لإيضاحه لمن لا يفهم مقصود البيت باللهجة النجدية ويمر عليه دون أن يعرف معناه ولا يفهم غور مقصده، وذلك حسب أرقام تسلسل الأبيات وموقعها في نفس الكتاب.

١ ـ غثاها: أكدارها. عذاها: نقاوتها.

٢ ـ عَقَّبَ: ترك خلفه بعد مماته.

المعنى: في البيت الأول يذكر الشاعر أن نجداً يمحو أكدارها ونكدها ما يوجد فيها من نقاوة الهواء ونظافة الأرض، وصفاء الماء، وبالأخص في وقت الربيع، ولو كانت في بعض الأذكار مقرّ لإبليس، ويشير بذلك إلى الأثر الذي يقول أن إبليس جاء إلى النبي ﷺ على هيئة شيخ كبير وعندما سأله الرسول ﷺ عن هويّته قال: أنا الشيخ النجدي.

وفي البيت الثاني يصف نمط الحياة فيها بأنها دأب وكفاح، ومثّل باصطياد الجرادة وهي أصغر الصيد، بأنهم لا ينتظرون طبخها بل يتم شواؤها وأكلها في الحال مما يوحي بشحّ الأرزاق أحياناً، ويعكس نفسية الناس في التمتّع بالحياة وملذّاتها، يعيشون ليومهم ولا يحسبون لغدهم حساباً ولا يريدون أن يورثوا درهماً أو ديناراً.

٣ ـ معصفر: أي وضع فيه زهر العصفر. يشوفه: يراه. حد الغرض: على ما يرام.

المعنى: تشير الشاعرة أن شعر تلك الفتاة لونه أشقر قريب من الصفرة، وقد ضمّخ بالرياحين الممزوجة بزهر العصفر مما أكسبه صفاراً على صفاره، وتتمنّى لو يراه ذلك الشخص المدعو محسن في هذا الوقت الذي قد فرغت لتوّها من مشطه وجدله في ضفائر.

٤ ـ صدر: بدأ بنزف الماء من البئر. محاحيل: مفردها محالة، وهي البكرة التي تركّب على البئر لنزف الماء منه. الرقيب: نجم، هو والثريا على رأسي مستقيم واحد، إذا غاب أحدهما من الغرب ظهر الثاني من الشرق. معلوم: وقت محدّد.

٥ ـ كيل: أي أن الفلاح قد بذر مقدار أربعمائة صاع من الحَب. حب حمر: أي حب القمح. كومى: هي النياق السمان التي تكوّمت الشحوم في سنمها.

٦ ـ عقائبها: أي التي تقوم مقامها في نزف الماء عندما تتعب الأولى. كنس: ما تراكم الشحم في ظهورها. حيل: لم تلقّح ولم تلد ولذلك شحومها في ظهورها. وساع الكموم: أي االغروب التي تخرج الماء من البئر.

المعنى: في هذه الأبيات الثلاثة يتوجّد الشاعر على محبوبته توجّد ذلك الفلاح الذي قد بدأ بسقي زرعه على أربع من النياق السمينة التي لها بدائل أربع مثلها، كلما كلّت أربع استبدلها بالأخريات وكلهن على نفس المستوى من السمنة، ويبدأ العمل عليهن في الهزيع الأخير من الليل عندما يحين مغيب نجم الرقيب، وقد بذر في الأرض مقدار أربعمائة صاع من القمح الأحمر وهو ثروة لها مقياسها في ذلك الزمن، وينزف الماء في الغروب الكبيرة ذات الأكمام الواسعة التي يصبّ منها الماء بغزارة.

٧ ـ ما هان: ما سهل. فتور: تواني أو انقطاع.

٨ ــ أوايله: أوائله. بكور: مبكر.

٩ ــ كنّة الصيف: وقت حرارة الشمس واحتياج الزرع للماء. منها: منه.
الحصايد: وقت الحصاد.

المعنى: في البيتين الأولين يشير الشاعر إلى أن الزرع يُسقى لمدة ثلاثة أشهر، تسعين ليلة، بسهولة وذلك وقت الشتاء، قد يصل من عشرة إلى خمسة عشر يوماً ثم يأتي وقت احتياج الزرع للماء وهو أربعون يوماً، وبعد ذلك يستوي الزرع وتبدأ أوائل السنابل دانية للحصاد، ويجد المحتاج من الفلاحين المبرّة والغذاء من تلك السنابل الناضجة حين يقطفها ويقتات منها.

أما في البيت التاسع فيقول الشاعر أن الاعتماد في سقي الزرع على الأربعين يوماً الأخيرة من عمره، حيث يحتاج إلى الماء ليرتفع عن الأرض ولتكتنز سنابله بالحبوب، ومن لم يعطه حقّه من الماء في هذه الفترة فسوف يفلس من جودة غلّته عند الحصاد عندما يكون الزرع هزيلاً ذا حبوب ضامرة.

١٠ ــ الريعان: مفردها ريع وهو الفراغ الفاصل بين جبلين لمسافة طويلة.

١١ ــ متخالط: مختلط. حوذان: نوع من العشب. رقم، قحوان: نوعين من العشب أيضاً.

المعنى: تقول الشاعرة أنهم بالأمس قد جنوا العشب من تلك الريعان وبالذات من ريع سرهيد في جبل رمان الأسمر، ذلك المكان المختطّ بأزهار مختلف أنواع الأعشاب الممتازة.

١٢ ــ شعيل: اسم ابنه. ياحيل أباالحيل: أي الحيل والقوة للّه. المخاليق: البشر.

١٣ ــ فرة: جافاها النوم. ماكنّ به: كأن بها. السماليل: شوك شجرة الصمعاء الرفيع شديد الوخز. النويفج: الرمد الحُبَيبي. لافها: ألّم بها. عقب، بعد ذرّه: عندما يذرّ بها الدواء.

المعنى: يشكو الشاعر لابنه من سهره ومجافاة النوم لجفونه، حيث بات ليلته وكأن عينيه فيها من أشواك الصمعاء شديدة الوخز أو أنها قد أصابها مرض الرمد المزمن، ولم يستطع النوم لأسباب أوردها في بقية القصيدة.

١٤ ــ حمراء: ناقة حمراء اللون. صعالة: صلف وصعوبة. منوة: ما يتمنّاه. الطارش: المسافر. ليا: متى. صنقر اللال: اشتدّ الحر.

١٥ ــ الحوير: تصغير حوار وهو ابن الناقة الصغير. مشاله: ضرعه. قلطه: أدناه. مقطب: امتلاء. جمّال: هو من يتولىّ نقل البضائع.

١٦ ــ الديدحانة: شجيرة تنبت بمسائل الأودية، تزدهي بالزهور الحمراء الأرجوانية وتبرز من بين الأعشاب كالعروسة. دلاله: ما يوضع على المطية من خرج، به عثاكيل ملوّنة جميلة تتدلىّ من تحت بطن المطية. شاف: نظر. مولع: من اشتاق للهجن بهذا المنظر الجيد. يهتال: يندهش.

المعنى: ينادي الشاعر راكب تلك الناقة الحمراء ذات الصلف والغرور وسرعة المشي التي يتمنّاها كل مسافر ليقطع عليها ظهر البيداء لا تبالي بوقت الهجير وحرارة الشمس، تلك الناقة التي لم تلقح ولم تلد ولم تستخدم لنقل الأحمال وإنما أعدّت كمطية للركوب فقط، وهي تزدهي بما عليها من خرج مزيّن بالعثاكيل الملوّنة الجميلة وهي بهذه الصورة تشبه عشبة الديدحانة الجميلة بين سائر الأعشاب، هذه المطية إن رآها أحد هواة الهجن يشعر بالدهشة ويتمنىّ لو يمتلكها.

١٧ ــ ١٨ ــ يا فرحتي: يا شدة ما فرحت. سهرن: أسهرني. نبد: نبدأ.

المعنى: يشير المنشد إلى شدة فرحته بهذا الغالي الذي يحبّه وهو زرعه ونتيجة جهده وعرق جبينه لمدة ستة أشهر أيامها ولياليها التي سهر فيها لرعاية هذا الزرع، والآن حان موعد الحصاد لنتائج ذلك الجهد المضني ويطلب من ربّه عزّ وجلّ أن يبارك له في حصيلة زرعه.

١٩ ــ شقاق: شقائق. مهزعات: متدنيّ. الرطيب: الرطب. يرقاه: يصعدها. وبار: الملقّح الذي يضع اللقاح في شقائق كافور النخل.

المعنى: يصف الشاعر خد محبوبته لوناً ورائحة بشقائق كافور النخل عندما تنشقّ عن شماريخ البسر وتكون بيضاء ناصعة بين الكافور الأخضر ذات رائحة عطرية نفاذة.

٢٠ ــ رمان: جبل جنوب شرق جبل أجا بمنطقة حائل. جمار: أصل عذق النخلة. قنيه: أعذاقه.

المعنى: يصف الشاعر ساق تلك الفتاة في بياضه وصفائه بجمار أعذاق النخلة عندما تكون طريّة، قد جذبها الرجل من فرع أمها بيضاء ناصعة طريّة متغطرفة ناعمة الملمس حلوة المذاق.

٢١ ــ المرزم: النجم المعروف. كالف أو خارف: وهو الرجل الذي يجني الرطب من فروع أمهاته. الغيد: جمع غيداء وهي النخلة المرتفعة بقدر ستة أمتار. أنحن: انقضى وقتهن.

المعنى: يشير الشاعر إلى أنه إذا ظهر نجم المرزم وهو من نجوم الصيف فإنه يتوفّر بالنخيل التمر ويشبع كل جان للرطب من عذوق النخيل وينقضي وقت الشدة على بعض الأسر الفقيرة المحتاجة إلى الأكل.

٢٢ ـ اللي: التي. ينقد: ينقر. ناشها: نقرها. جريد: جرائد النخل. نواش: ناقر.

المعنى: هذه الرطبة التي يأكل جزء منها العصافير ويبقى جزء منها، تتركّز كمية السكريات في الجزء المتبقّي ويكتسب نكهة ممتازة وحلاوة مزكرة يضرب الوصف بحلاوة ونكهة «القرم».

٢٣ ـ النسرين: نجمان من نجوم الصيف، يسيران في سمت واحد وفي موعد غيابهما وقت الفجر يحين وقت نضج الرطب. مخارف: الأوعية والقفف التي يلتقط بها الرطب من فروع النخل.

المعنى: يصف الشاعر وقت جني الرطب ومن علاماته غياب النسرين في وقت الفجر، فعند ذلك يمكن للفلاح أن يعلّق إناءه لجني الرطب من فروع النخل.

٢٤ ـ ديرة: بلد. سمر الغرايب: جبيلات سمر. قباله: أمامها. أجا: أحد جبلي شمر. يا زين: ما أحلى. زمة: ارتفاع. حيوره: بساتينها.

٢٥ ـ حروة: وقت. سهيل: النجم اليماني وبظهوره يبدأ موسم التمر. عنا له: قصدها. زافات: مجموعات. تطابل: صوت الأوعية الجلدية الفارغة. سفورة: جمع سفرة وهي إناء جلدي كبير خاص بنقل التمر يسمّى «العيبة».

٢٦ ـ البوادي: جمع بادية. الهطلي: نوع من التمر كثير الدبس. سيوره: مخارز «العيبة».

٢٧ ـ خطو: بعض. الودية: الفتاة من النخل التي ترتفع عن الأرض بحدود ثلاثة أمتار. شلّته: شمراخ البلح. هباله: جهلها. بوع: طول اليدين معاً مع الصدر. ليا: متى. عذوره: أعذاقها.

المعنى: يصف الشاعر بلده «قفار» الواقعة شرقي جبل أجا، بكثرة بساتينها التي ترتفع بأصناف النخيل ويقصدها مجموعات كبيرة من البادية المحيطة بها، وذلك في موسم صرام التمر ليكتالوا من تمرها الفاخر الرطب الذي يتسرّب دبسه من خلال مخارز الأوعية، ويصف كمية التمر المتوفّرة بهذه البساتين التي تكفي لجميع البادية المحيطة بهم، كما يصف جودة النخيل وذلك بطول شماريخ التمر وبالطبع كل شمراخ مكتظّ بالتمر، والنخلة تحمل عشرات الأعذاق وكل عذق به عشرات الشماريخ، إذاً فالنخلة الواحدة تحمل كمية كبيرة من التمر خاصة إذا كانت الأرض خصبة مثل بلدة الشاعر.

٢٨ ـ شفناه: رأيناه. جعله: لعلّه. اللي: الذي.

٢٩ ـ طويق: سلسلة جبال قرب الرياض. شغاياه: أوديته الصغيرة. ليا: متى. حدر: تحدّر. ضلع: جبل. بنا: اسم جبل.

المعنى: يشير الشاعر إلى أنه رأى البرق يلوح سناه في الليل، ويتمنىّ أن يكون مطره على سلسلة جبال طويلة ويتّجه شرقاً إلى جبل بنّا، حيث موطن الشاعر الذي يتمنىّ له كثرة الأمطار والخصب والنماء.

٣٠ ـ كريم: كرّمك الله. نزيز: صوت الرعد بعد أن ينعكس صداه على سطح الأرض.

٣١ ـ ما حلا: ما أحلى. الطرش: أذواد الإبل. مفاليه: مراعيه.

المعنى: يدعو الشاعر لذلك البرق بالكرامة والعزّة، حيث يسمع أزيز الرعد عن بعد ويتصوّر تلك الرياض الخضراء التي تعقب نزول المطر، وما أحلى رعى أذواد الإبل من تلك الرياض السندسية.

٣٢ ـ كريم: كرّمك الله. تلظّى: لمعاناً وبريقاً. بخشوم: بأطراف المزن المتراكم. ناض: ارتفع. ياضي: يضيء.

المعنى: يدعو الشاعر لذلك البرق بالكرامة والعزّة، حيث يضيء بوسط تلك الطبقات المتراكمة من المزن، وكلما لمع البرق أضاء تلك الطبقات وانعكس ضوءه على زعانف تلك المزن المتراكمة والشامخة إلى أعلى.

٣٣ ــ الوسم: أول بوادر نزول المطر. مبدار: مبكرة. اللي: الذي. جذبنا: لفت نظرنا. رفيفه: لمعان البرق بسرعة.

٣٤ ــ تومر: تؤمر. المفالي: المراعي. خدان: أراضي. مريفه: معشبة.

٣٥ ــ غب: بعد. الحيا: المطر. تخالف: اختلف. النوار: الزهور. القطيفة: زاهية الألوان.

المعنى: يتمنّى الشاعر تلك المزنة الغراء التي تأتي في بداية موسم الأمطار والتي يرفرف البرق في ثناياها مما جعله يلفت النظر إليها، ويدعو الناس إلى الرحيل إلى طريقها، ويتمنّى أن يأمرها الله بسكب مطرها على أرض قومه لتصبح تلك الأرض مغطّاة بالأعشاب المتوّجة بمختلف الأزهار الفواحة، بحيث يشبه زهرها نقوش القطيفة من كل الألوان الزاهية.

٣٦ ــ خايل: تخيّل. مهنا: اسم شخص. الغضي: غضيض الطرف وهي صفة المحبوب.

المعني: يأمر الشاعر ذلك الشخص أن يستخيل البارق الذي يلوّح بالأفق ويتوقّع أن يكون مطره على أرض محبوبته.

٣٧ ــ العد: بئر الماء. ماهيف: لم يبرحوه. الشديد: الرحيل. طاري: نية.

٣٨ ــ ذعاذيع: نسائم. الوسم: أوائل فصل الأمطار. المهاريف: المسرعة. سهيل: النجم المعروف. يبدي: يبدو.

٣٩ ـ مضاليل: بالظل. توقيف: وقوفاً. أمسوا: قضوا المساء. تالي: آخر. يقطعونه: يبتّون فيه.

٤٠ ـ راحوا: ذهبوا. الربدا: البيداء. أطاريف: أطراف. يبونه: يريدونه.

المعنى: يصوّر الشاعر حالة العرب الرحّل في أواخر فصل الصيف وأوائل فصل الخريف، عندما يشتاقون للرحيل من المياه التي أقاموا عليها طيلة فصل الصيف البالغ تسعين يوماً، وذلك بطلوع نجم سهيل وهبوب نسماته التي توحي بقرب سقوط الأمطار، ومتى علموا بنزول الغيث في مكان ما اجتمعوا من وقتهم وقد يكون الخبر قد بلغهم آخر النهار، فعند ذلك تبدأ المشاورات بقية ذلك النهار ولا يبيتون إلا وقد اتّفقوا على رأي معينّ في الرحيل، وعند الصباح يبدأون بالرحيل وانتجاع مسالك البيداء الواسعة متّجهين إلى ذلك المكان الذي نزل عليه المطر والمنتظر أن يتوفّر فيه العشب.

٤١ ـ شالوا: رفعوا. نوهو: نوو. الزمل: الإبل المعدّة للأحمال. شلاه: أطراف ثوبه.

٤٢ ـ يخم: يمسكه بدون ترتيب. العلق: ما يعلّق من الأثاث أو المتاع. يخطيه: يخطئه. يشيل: يحمل. تقلّل: ارتحل. لزوم: حاجة.

٤٣ ـ شالوا: حملوا. قفن: ذهبن. الضعاين: الإبل المحمّلة ببيوت الشعر والمتاع. زعاجيل: مسرعات. شفوا: بلغوا رأس الشفا، سمت الأفق. هفوا: ذهبوا. اتقوا: اختفوا. الحزوم: الحزون.

المعنى: يصف الشاعر بصورة دقيقة ناطقة عملية رحيل البدو من مكان إلى آخر، تلك الصورة التي ترى من خلالها الإبل الباركة على الأرض وبيوت الشعر المقوّضة، والأمتعة والأثاث المطروح على الأرض هنا وهناك، وحمل تلك البيوت والأمتعة على ظهور الإبل، وتعليق الأمتعة على هذا البعير أو ذاك وما يحدث من التردّد وشيء من الاتباك

عن حمل ذلك الشيء على هذا الجمل إن كان يستطيع حمله أو على ذلك، وما تفعله النساء من تجميع أغراضهن وأمتعتهن، وما يفعله الرجال من تحميل تلك القطع من الأثاث وقد ذهلوا أنفسهم فلم يهتمّوا بهندامهم، فترى أحدهم قد تحزّم ورفع أطراف ثوبه في حزامه وربما بقي دون حزام تتراقص أطراف ثوبه، ومتى رفعوا الأحمال على الإبل أخذت طريقها حتى ذهبت واختفت خلف سمت الأفق، وأخفتها الروابي والحزون عن الأنظار.

٤٤ ــ نجاع: مرتحلين. راع: صاحب.

٤٥ ــ طوو: طوو بيوت الشعر. رووا: ملؤوا أوانيهم بالماء. انتووا: قطعوا النيّة. مرباع: مكان الربيع. مبناه: بيت الشعر. اشتدّ: وضع عليها الأشدّة. زمل: الإبل المهيّأة للأحمال.

٤٦ ــ غدا لهم: صار لهم. الرفيعة: مكان. تزلواع: حركة. اللي: الذي. بغى: أراد. يضرب: يتّجه. قسم له: سلكه.

٤٧ ــ أقفوا: ذهبوا. مزن: السحاب المتراكم. أنزاع: ولى. السدايم: أواخر السحاب. تدم: تهبط قرب الأرض.

المعنى: يصف الشاعر في هذه اللوحة حالة البدو عندما يريدون الرحيل، بتقويض بيوت الشَعر وطيّها وتعبئة قِرَب الماء، وتحضير الإبل لحمل البيوت والمتاع، وحمّلوا عليها متاعهم واتّجهوا كلّ للوجهة التي يريدها، ويشبههم بالمزن الذي أمطر ماؤه وأصبح بعد ذلك ضباباً لا ماء فيه تلعب به الرياح كل مذهب، وصار برقه الخفيف يرفرف حيناً ويغطّيه ذيل السحاب الملامس للأرض حيناً آخر، وفي هذه الصورة فقد تفرّق الأحباب في كل صوب.

٤٨ ــ الغوش: الشباب. الرمالات: أحد فروع قبيلة شمر.

المعنى: تعجب الشاعرة بالشباب المتمنطقين بحزامات الأسلحة على وسط كل منهم، وتعتزّ بهم لحماية الظعن من أي معتد.

٤٩ ـ كني: كأني. خلوخ: الناقة الحزينة على ولدها. صفق: اختلاط. المفلى: المرعى. لما: حتى. روحني: عدن.

٥٠ ـ سوّت: فعلت. سوايا: أفعال. يعلمن: يفهمن.

٥١ ـ ساجت: ذهبت. راجت: بحثت. ما لقت: لم تجد. حلايا: أشباه. خرشت: أصابتها حالة هستيرية. نشت: ذبلت حالها. القوائم: قوائم الناقة. جثني: جثت على الأرض لا تستطيع حراكاً.

٥٢ ـ تصن: ترهف السمع وتصغي. تبي: تريد. أسموعها: أذنيها.

٥٣ ـ لاجت: أجدت بالبحث. شافت: رأت. هفايا: الطيور التي تحط على الجيفة، مثل النسور والرخم. حوائم: الطيور الحائمة. مداسه: موضع جثته. هفني: نزلن.

٥٤ ـ جتهن: جاءتهن. الحوايا: الأمعاء. مدراج الحمر: دمه. ثني: برك للذبح.

٥٥ ـ شوايا: قطعاً. تاقت بطيحة: ارتمت على الأرض. أعولني: حنت حنة العويل التي لفضت أنفاسها معها.

٥٦ ـ علايق: معاليق قلبها. أصرمني: تقطعن.

المعنى: يعبّر الشاعر بصورة يصف فيها حالته ويقارنها بصورة مجسّمة لتلك الناقة التي ضيّعت إبنها، ومعروف أن الناقة من أحرص الحيوانات على إبنها وأشدّهن محافظة عليه، وهي رءوم لدرجة تصاب معها بالهستيريا ونوع من الجنون إذا فقدت إبنها، ويقارن حالته بحالة تلك الناقة التي فقدت إبنها وبدأت تبحث عنه هنا وهناك بهلع وتصرّفات

هستيرية، وتفعل أفعالاً لا يصدّقها أو يتصوّرها العقل، واستمرّت بالبحث المضني عنه تستمع تارة وتبحث أخرى حتى وجدت ما يدلّ عليه من الطيور الحائمة على جثّته ورأت بعض قطع لحمه وأمعائه ودمه، وعندها جادت بأغلى شيء لديها وهي روحها وصاحب ذلك حنة عميقة لفضت في نهايتها أنفاسها الأخيرة وتقطّع قلبها ولعب بجثّتها الدود.

٥٧ ــ خلوج: سبق شرحها. بأتلا: بآخر. عوالها: حنينها. طوحت: رفعت. هجالها: خفقتها واضطرابها.

٥٨ ــ تهيض: تذكر. مفجوع: من أصيب بفاجعة. سلالها: عويلها.

المعنى: يصوّر الشاعر حالة تلك الناقة الحزينة تجسّد حزنها بآخر حنينها، وكلما رفعت بصوتها زاد اضطرابها وقلقها، وهي بهذه الحالة تبعث بالشاعر أو من لديه حالة حزن كحالتها إلى أن يتذكّر أحزانه وآلامه ويجعل تلك الآلام والأحزان تتجدّد عليه وتتكسّر في صدره وتحطّم قلبه.

٥٩ ــ مشة: عظم الزور. لاجاني: إذا جاءني.

المعنى: يقارن الشاعر بين ريق حبيبته وبين حليب الناقة إذا كان لتوّه قد حلب من ضرعها، وهذا بالطبع ألذ شيء جرّبه وذاقه في البيئة الرعوية التي عاش بها.

٦٠ ــ حبة: قبلة. معاش: مأكل.

٦١ ــ در: حليب. المباكير: الأبكار. ليا: إذا. جت: جاءت. تحاش: تساق.

المعنى: وهذه صورة ثانية من نفس البيئة، يقارن فيها الشاعر بين قبلة الحبيبة والماء وقت الظمأ أو حليب النياق الأبكار، إذا كانت قد رعت من زهور الرياض وقطفت زماليق الأعشاب في فصل الشتاء والربيع، وكل شاعر يشبّه ويقارن بما جرّب من الأشياء.

٦٢ ــ الرِّسُّ: البئر قليل الماء. تساودت: رأيتها مظلمة. جّمته: قاع البئر المملوء بالماء. تملاه: تملأه. الخشاش: دويبات الأرض. دحال: زبالة.

٦٣ ــ العِدُّ: البئر عميق الماء غزيره. تعاسرت: كان عسيراً. مجذبه: نزف الماء منه. يزمى: يرتفع.

المعنى: يقارن الشاعر بين بئرين أحدهما قليل الماء وهو الرّسّ ويحذّر من الركون إليه والبقاء حوله، فإن ماءه سينضب قريباً ويمتلىء من الأوساخ التي تأتي بها الرياح أو تجلبها دويبات الأرض، وينصح بالنزول حول البئر ذا الماء الغزير مهما كلّف ذلك من ثمن ومهما اكتنفه من الصعاب، فإن القاطن حواليه سيرتوي من مائه الغزير الذي يزداد كلما أخذ منه، ويشبّه الرجال ويقارن بين الغث والسمين منهم ببئر العد والرّسّ، فيقال فلان عدّ وفلان رسّ.

٦٤ ــ سقوى: أي أسقاك الله. ليا: متى. نقضت الجز: وقت دخول فصل الصيف. نقعه: إذا غار ثرى الغدران بسبب اشتداد الحرارة. كنّت: احتجبت.

٦٥ ــ صفر: بدا لونه أصفراً. شعوف: أطرافه. الهيف: النسائم الساخنة. الراعي: راع الغنم. سمونه: وعاء الماء.

٦٦ ــ جتنا: جاءتنا. جراريرهم: جموعهم. المشانيف: أوتاد البيت. البيت: بيت الشعر. يقهرونه: يوقفونه.

٦٧ ــ تقاطروا: وقفوا صفوفاً. الحرار: النادر من اصقور. المقاييف: الواقفة المترقّبة. مرحهم: مكان بيتهم. يفهقونه: يبعدونه قليلاً.

٦٨ ــ تواردوا: وردوا الماء. عِدّ: البئر ذو الماء الغزير. قراقيف: عذب زلال. بالفضا: بالمكان البارز. يشحنونه: يكتظّ بهم.

المعنى: يصف الشاعر بصورة واضحة المعالم كيفية حركة مضارب البادية عندما يحين موعد حاجة مواشيهم للماء، وذلك عندما يبدأ العشب بالاصفرار وتذبل أطرافه بسبب حرارة الجو، عندها تزحف تلك المجموعات من مكان تواجدها في فصلي الشتاء والربيع إلى قرب المياه ليمكثوا هناك فصلي الصيف والخريف، وترى جموعهم تترى ويصفهم بالأحرار من الصقور وهم حول الآبار ذات الماء الغزير الذي يكفيهم طيلة إقامتهم، وهم يحرصون على المياه العذبة بقدر الإمكان وذلك لمصلحة مواشيهم وبالتالي مصلحتهم، ومهما كثرت مياه تلك الآبار وبرز مكانها فإن تلك الجموع كفيلة بأن يكتظّ بهم المكان، وتضيق بدليهم أفواه تلك الآبار.

٦٩ ـ تهرجن: تكلمن. كود بعيونك: في عيونك فقط. وأهرج: تكلم. بالي: ذهني وعقلي.

٧٠ ـ أهيلك: تصغير أهلك. يعذلونك: يعذلون دونك. يحني لي: مجهز لقطع رأسي.

المعنى: تقول الشاعرة لمن تود لا تكلّمني بلسانك ولا بإشاراتك وإنما يكفي لغة العيون، وأن كلامك بها كاف لعقلي فاستوعبه واعرف محتواه وما يرمز إليه، وهذه الإشارة إلى لغة العيون التي تغنىّ بها الشعراء منذ أمد بعيد، والدافع إلى الاكتفاء بلغة الإحداق هي المخافة من أهلها إذ ربما يتطوّر الأمر يؤدّي إلى قتلها بما سبّبته لعائلتها من تدنيس سمعتهم بينما قد يجد الرجل من يعذره ويعذل دونه ولا يصاب بشيء، ولهذا السبب أوصته بأن يكتفي بلغة الطرف فقط.

٧١ ـ ظعينهم: جمع ظعن. هنيت: يهنيّء. جوه: جاؤوا إليه.

٧٢ ـ شدّوا: حملوا أمتعتهم. مدوا: ساروا. الغزال: رمز للفتاة. العجوبي: كثير العجائب والمِلَحْ. جملة: ضمن. خلوه: تركوه.

المعنى: يشكو الشاعر شدة وقع رحيل البدو وسِير ظعينهم: ويتمنىّ لو لم يعرفهم، وسبب إزعاجه هو أنهم رحلوا بتلك الفتاة التي تشبه الغزال في كثير من الصفات، وتفوقه بالمزاح وإيراد المِلَحْ والحركات التي تعجب الشاعر، ويتمنىّ لو تركوا تلك الفتاة من ضمن المقيمين في الحضر ولم يرحلوا بها.

٧٣ ــ دلية: تصغير دلو. الرعية: رعية الغنم وقد تُطلق على الإبل.

٧٤ ــ البل: الإبل. زعب: نزف الماء من البئر. راعيها: صاحبها.

٧٥ ــ جانا: جاءنا. بريح: رائحة.

٧٦ ــ يا محلى: ما أحلى. الذود: مجموعة من الإبل من ٧ ــ ٣٠. بعضودي: بيدي.

٧٧ ــ هذي: هذه. الوضيحا: تصغير وضحاء وهي البيضاء من النياق. تردى: ترد. وردي: شربي.

٧٨ ــ غزال الجرد: يشبّه الفتاة بغزال البراري. ثويب: تصغير ثوب.

المعنى: يكاد يكون كل بيت له معنى مستقلّ بذاته من هذه الأهازيج، فالبيت الأول يطلب من الدلو أن تصبّ الماء على الرعية حتى ترتوي، والثاني يرى أن الإبل لا يرويها من الماء إلا ما تنزفه سواعد أصحابها، أما الثالث فيقول أن نسمات الهواء القادمة من الشمال حملت معها ريح المحبوب الذي ينعشهم، وفي الرابع يتغنىّ بسقي الذود من الإبل التي استعدّ أن يسقيه بسواعده، وفي الخامس يطرب إذا رأى النياق البيض ترد الماء وهي من أحبّ الألوان من الإبل حتى اتخّذها البعض عزوة يعتزى بها عندما يقول «أنا راع الوضيحا»، أما البيت السادس فيشبّه الفتاة القادمة إليهم بالغزال وهي كناية، غير أنها تلبس الثوب ذو اللون الوردي.

٧٩ ــ فاطر: هي المسنّة من النوق. شعيله: لونها أشقراً. حنّا: نحن.

٨٠ ــ نهتني: نرتاح. الضحضاح: الماء القليل.

المعنى: ينادي الحادي رحله المسنّة ذات اللون الأشقر ويخبرها بأنه سيواصل السري هذه الليلة ولن يرتاح بهذا المراح ولن يشرب من الماء القليل، وسيوردها الماء الغزير الذي ترتوي منه.

٨١ ــ حل: حان. الدبش: الإبل والغنم. قاد: سار. سرحت: ذهبت. للأجواد: الكرماء. قيد: هو ما يقيّد به الدابة.

٨٢ ــ تلقى: تجد. القهاوي: القهوة التي تجهّز بالغرفة الخاصة بذلك. ضرب حداد: صوت دق القهوة وسحقها تشبه ضرب الحدّاد بمطارقه. وجود: الزاد الذي يقدّمه الكرماء بتلك المقاهي.

المعنى: يصف الشاعر حاله عندما يحين موعد انتهاء العمل اليومي ويستريح الناس من عناء التعب، ويذهبون إلى المقاهي لتناول القهوة العربية وما تيسّر معها من أنواع الأكل، فإن هذا الشاعر يدنف إلى تلك المقاهي فيجد القهوة تسحق وحدث دقّها بالمهراس دويّاً يشبه ضرب الحدّاد بمطرقته الثقيلة ويتناول ما تيسّر له من الطعام في مقاهي هؤلاء القوم الكرماء.

٨٣ ــ يا بيه: كلمة تركية تطلق كنوع من الإجلال والتقدير. كروش: اسم الفرس. فيصل: يعني فيصل الدويش رئيس قبيلة عتيبة. ابن هادي: يعني محمد بن هادي رئيس قبيلة قحطان بنجد.

المعنى: يبدي الشاعر اعتزازه بفرسه، وأنه لا يريد إعطاءها ولا يرغب في بيعها فقد طلبها قبله إثنين من رؤساء القبائل العربية ذوي الشأن والمكانة ومع هذا فقد أبى بها عليهم، قال الشاعر هذا البيت

عندما طلب منه الوالي التركي على المدينة المنوّرة أن يهبه تلك الجواد الأصيلة فردّ عليه بقصيدة منها هذا البيت.

٨٤ ــ لا واجوادي: لا بمعنى إن. مقافي: منطلقات بسرعة. حبل الشبيلي: أعنه الخيل ربوعي: وأصحابي.

٨٥ ــ تهذل: الأهذال نوع من جري الفرس يقابل الوخد للإبل. السرحان: الذئب. السبايا: النزل. فزوع: من يطلبون النجدة.

المعنى: يمتدح الشاعر جواده ويصفها بأنها تلحق الخيل المنطلقة بسرعة، وخاصة إذا أطلق لها العنان مع أصحابه الذين أرخو الأعنة لخيولهم، ويشبّه هذالها بجري الذئب لخفّتها على الأرض وذلك عندما يحل بطرف مضاربهم عدو مباغت ويتنادون لنجدة أصحابهم.

٨٦ ــ حر: من كرائم الإبل. مشذر: حاد قاطع صافي تشبيهاً بحديد الفولاذ أو المعادن الصافية من الشوائب. دنق: انحنى. الرقاع: من يرقعون أخفاف الإبل ضد الحفى وهو تشقّق خف البعير من كثرة المشي واجتياز الأرض الخشنة المكسوة بالحصى المضلّع الحاد. رموقه: شقوق خفّه.

٨٧ ــ يشـدا: يشبه. ظليم: ذكر النعامة. حماد: الأرض المنبسطة يكسوها حصى صغيرة. النداوي: نوع من حرار الطيور المعدّ للقنص. سبوقه: جناحيه.

٨٨ ــ لفتنا: جاءتنا. عمان: مشهورة عمان بحرار الإبل. قعدان: مفردها قعود وهو الفتى من الجمال. عِلْوَى: فرع من قبيلة مطير المعروفة وتشتهر بتربية السلالات الممتازة من الإبل. عموقه: أصله.

المعنى: يصف الشاعر ذلك الجمل الحر المـنـقّـى من السلالات الممتازة والذي لم يؤثّر فيه كثرة المشي والإدلاج، فلم يحف ولا رقّعت

أخفافه، وهو يشبه في سرعة جريه ذكر النعام إذا انطلق مع أرض منبسطة لا عوائق فيها، أو الصقر المنقضّ على صيدته حينما يطلق جناحيه الصياد، وأم هذا الجمل جاءت من حرائر الإبل العمانيات وأباه من حرائر الإبل الموجودة لدى قبيلة مطير فرع عِلوي، وبذلك أصبح هذا الجمل خلاصة سلالتين ممتازتين من أشهر حرائر الإبل.

٨٩ ـ عنس: الناقة الصلبة ويطلق على الجمل مجازاً. سحوان: ضامر. الفيافي: المساحات الشاسعة. عماني: من عمان.

٩٠ ـ سبرس: ما يسبر به القوم. السواد: ظلمة الليل. الوغطس: شديد الظلمة. دو: المسافات الطويلة. هوذلي: سريع الجري. سوسحاني: سريع الإدلاج.

٩١ ـ هزته: أومأت عليه. عود اللوز: الخيزران. نازح: بعيد. السمهدان: المفازة.

المعنى: يصف الشاعر ذلك الجمل الحر الصلب الضامر الذي يقطع المساحات الشاسعة والذي يستخدم لسبر أرض الأعداء تحت ظلام الليل الحالك، سريع الإدلاج الذي يقطع بنا المساحات الشاسعة عندما أومىء عليه بعصا الخيزران دون أن أضربه فيه، فهو تكفيه الإشارة دون الضرب لينطلق براكبه ويقطع به ما يريد من المسافات الطويلة.

٩٢ ـ يداني: لا يتحمّل. الصفير: صوت ينهر به الإبل. هميلع: ضخم، قوي. نقوة: خيار. سرحاح: سريع.

٩٣ ـ نعامة: اسم الناقة. أضربوها: لقحوها. مشبهاني: يجمع بين صفة أبيه وأمه في الخفّة والسرعة.

المعنى: يقول الشاعر أن جمله لا يتحمّل أي نهر أو حثّ على الجري، فهو من خيار الإبل في ضخامة جسمه وخفّته على الأرض

وسرعة جريه، ولا غرابة في ذلك فإن أمه النعامة ناقة مشبّهة بسرعة النعامة، وقد لقحت من جمله الحر الأصيل، فجاء هذا الجمل يجمع بين صفتي أمه وأبيه وأصبح مضرب الأمثال في سرعة جريه.

٩٤ ـ مذعور: من الذعر والصلف. مخمر: مدّخر. العساف: ترويض الإبل أو الخيل على الركوب وغيره.

٩٥ ـ الخرج: ما يوضع على المطية وقد سبقت الإشارة إليه. الزل: القطيفة. دويرع: جزء من الخرج يضفي على مقدّمة المطية وبه دلال وعثاكيل قصيرة. وافي: حبل شامل.

المعنى: يصف الشاعر جمله بأنه من النوع الصلف الذي به نوع من الذعر، وبعد ترويضه على الركوب لا يزال لم يركب بكثرة وليس عليه من التجهيزات سوى الخرج بأجزائه الجانبية والأمامية، وهذا التجهيز لتخفيف حمله حتى لا يثقل عليه ويعوقه عن السير براكبه.

٩٦ ـ حمراء: الناقة الحمراء. صعاله: صلف. منوة: ما يتمنّاه. الطارش: المسافر. ليا: متى. صنقر: اشتد. اللال: وقت الظهيرة عند اشتداد الحر.

٩٧ ـ الحوير: تصغير حوار وهو ابن الناقة. مشاله: ضرعها. قلطه: قدمها. مقطب الجمل: الحمل الممتلىء. جّمال: الذي يقوم بنقل البضائع والسلع من مكان لآخر، وسبقت الإشارة إليه.

٩٨ ـ هبطه: خفضها. حيد: حزن ونتوء في الأرض أصغر من الجبل. نبا له: ارتفع أمامها. ليا: كأنها. الربدا: النعامة. أزوال: أشباح.

المعنى: يصف الشاعر ناقته الحمراء بالصلف والنزق والنشاط والخفّة، وهي ما يتمنّاه المسافر لقطع الفيافي حتى في شدة الحر وقت الظهيرة، وهذه الناقة بكر لم تلد فهي تحتفظ بكامل قوّتها وفتوتها ولم

تستخدم كذلك لنقل الأحمال والأثقال، ويشبّهها بالنعامة المنطلقة الجافلة فترى كأن تلك الوهاد ترفعها تارة وتخفضها أخرى.

٩٩ ـ الفاطر: المسنّة الصلبة من الإبل. ذبي: أتركي. خرايم طمية: آبار بجبل يسمّى طمية. اشمخرّت: برزت واقفة شامخة. خشم: مقدمة الرأس للحصان.

١٠٠ ـ العذية: المعشبة. تنحري: أقصدي. برزان: قصر الإمارة بحائل في عهد الشاعر.

المعنى: ينادي الشاعر ناقته بترك الأماكن التي ترغبها وتطلب الرعي منها، وأن تقصد المكان الذي يرغب أن يزوره للسلام على الأمير في ذلك الوقت ببرزان.

١٠١ ـ تذب: تقطع. الطواريق: الطرق. جدعية: متناسقة الأعضاء قصيرة الأفخاذ كأنها مقطوع من أفخاذها وهذه ميزة جيّدة. الفيافي: القفار. مناها: ما تتمنّاه.

المعنى: يصف الشاعر ناقته بأنها مما يقطع الطرق والفيافي والمسافات الطويلة، ولها صفة محبّبة في الناقة السريعة وهو قصر أفخاذها وكأنها مقطوعة، متناسقة أعضاء جسمها مما يعطيها خفّة وسرعة في الجري.

١٠٢ ـ عوص: العوصاء هي الناقة الطويلة الصلبة. الأنضا: الهزيلة بسبب السير. زماله: راحله. صنقر: اشتد. اللال: شدة الحر وقت الزوال.

١٠٣ ـ خله: أتركها. الديان: جمع دو وهو المفازة من الأرض. لحاله: لوحدها. لمسة الخشم: كناية عما يلحقك من أذى. حمال: متحمّل.

المعنى: يقول الشاعر في البيت الأول إذا كانت لك تلك الذلول العوصاء التي دبّ الهزال بجسمها من كثرة الإدلاج والتي توصلك إلى

ما تريد حتى في شدة حرارة القيظ، ولا تستطيع تحمّل ما قد ينالك من أذى أو همز ولمز فأطلق لها الرسن وأنت على ظهرها تجوب بك الأراضي الواسعة وتبعد عن ذلك المكان الذي قد نالك فيه ما نالك من أذى.

١٠٤ ـ هذي: هذه. تهل: تمد. النطو: خيوط النسيج. الأوتاد: ما يثبّت بالأرض لمد خيوط النسيج عليه. تلحم وتسدى: اللحمة والسدو هي خيوط النسيج الطولية والعرضية.

١٠٥ ـ هذات: هذا. والي الأقدار: هو الله. مشقيه: ملزمه ومتعبه.

المعنى: يصف الشاعر جزء من المهن التي يقوم بها بعض فئات المجتمع كمن تشتغل بالنسيج فتضع له اللحمة والسدو، ومنهم النجار والحداد وغيرهم، وكلّ قد ألزمه الله القيام بعمله فهو يعمل بكل جدّ واجتهاد.

١٠٦ ـ الديدحانة: شجيرة ذات أزهار حمراء أرجوانية كبيرة وهي جميلة المنظر. دلاله: زهوها. شاف: رأى. مولّع: شديد الاشتياق. يهتال: يندهش.

١٠٧ ـ تشدي: تشبه. هنوف: الفتاة الجميلة الطويلة وهي ما تهنف النفس لها. خله: زوجها. قباله: أمامها. دلت: صارت. تزين: تتقن. مشيته: مشيها. تقل: كأنها. تختال: تمشي الخيلاء.

المعنى: يصف الشاعر تلك المطية بشجيرة الديدحانة الزاهية الحمراء بوسط تلك الروض الأخضر، بحيث يشتاق لها من يعتني بركوب الهجن وتبهره بمنظرها الجذّاب فهي تشبه تلك الفتاة الجميلة التي صار زوجها أو حبيبها أمامها، فهي تحاول إظهار حركاتها الجذّابة وقد تمشي بخيلاء لجذب انتباه من حولها.

١٠٨ ـ طقو: ضربو. الزير: الطبل.

١٠٩ ـ الخلاصة: الحديدة إذا أحميت في الكير وأصبح لونها أحمراً ضارباً إلى الشقرة والاصفرار. الكير: ما يحمّى به الحديد عند صنعه وتثقيفه. عيذه: أعيذها. ينحتونه: ينظرونها بالعين أي يصيبوها بما يضرّها.

المعنى: يصف الشاعر تلك الفتاة صبيحة يوم العيد عندما يضرب الطبل إيذاناً بإعلان العيد، وتبدأ الفتيات بلبس أغلى ما لديهن من الملابس والحلي، وإظهار أقصى زينتهن فإنه يصفها بلون الخلاصة تلك الحديدة المحمّاة في نار الكير حتى يصير لونها أشقراً بين الحمرة والبياض، تتصارع فيها الألوان الجميلة التي تسبي أبصار الناظر إليها.

١١٠ ـ أطمر: أقف لاستقبالهم. سلام المحبة: أهلاً وسهلاً، حيّاكم الله، تفضّلوا. ليا: إذا. جو : جاءوا. هجن: الركائب من الإبل. خرابي: قد أثّر فيها مسك العصا ولفح البرد، فأصابعهم منحنية على عصيهم من شدة البرد.

١١١ ـ بنسرية: هي الريح التي تهبّ على نجد من مطلع نجم النسر ما بين الشمال والشرق، وعادة يكون بردها قارساً لما تحمله من برد سيبيريا. كليب: اسم الشخص الذي يسند عليه الكلام. صلف مهبّه: شديد هبوبها. مكتنفين: متلفّفين ومتلثّمين لاتّقاء شدة البرد. سوقهم: حثّهم لمطاياهم. بالعقاب: بعقوب أرجلهم لعدم مقدرتهم على تحريك أيديهم من شدة لسعات البرد.

المعنى: يقول الشاعر أنه متى شاهد الضيوف القادمين إليه فإنه يباشرهم بالترحاب والبشاشة، وهذه أولى بوادر الكرم ثم يدخلهم في مكانه ليقدّم لهم الدفء والطعام والشراب بدون مقابل إلا ما يرجوه من الله وتمشّياً مع العادات السائدة واستجابة لتلك السجية الكريمة التي خصّ الله بها العربي، ويصف ضيوفه بأنهم قد أتوا إليه في ذلك اليوم

شديد البرد الذي هبّت فيه تلك الريح المشهورة ببرودتها، وقد التفّ كل منهم بما لديه من ملابس ووصل قرب درجة التجمّد على ظهر مطيته حتى أنه لا يستطيع أن يحثّها على السير بيده أو عصاه، وإنما اكتفى بلكدها بعقب قدمه، في هذه الحالة هؤلاء الضيوف بأشد الحاجة إلى الراحة والدفء والطعام والشراب وهو مستعد لذلك وأهل له.

١١٢ ـ طرابة: ما يطرب. معاميل: أدوات القهوة من دلال ومحماسة ونجر. وفراش: ما يفرش تحت صواني الطعام. صينية: الصواني الكبيرة التي يوضع عليها الطعام واللحوم للضيوف.

المعنى: يقول الشاعر أن ما يطربه في هذه الحياة هي أواني القهوة العربية، وفراش السفرة التي يوضع فوقها الصواني الضخمة التي يقدّمها لضيوفه وقاصديه، وهذا دليل على ما يقدّمه لضيوفه بنفس راضية، ويطرب لهذا الفعل ويفتخر به ويجعله بمكانة المتعة الروحية، وهذا يدل على تأصّل الكرم والجود بالشاعر.

١١٣ ـ خَيِّرٍ: جواد. حاديه: أحاجه. لوعات: مصائب. حادي: حاجه.

١١٤ ـ راح: عاد. مطموع: ما يطمع به من المال. للنفادي: للإنفاق.

المعنى: يقول الشاعر كم من الأجواد الذين أصبتهم مصائب الدهر حتى فرغت أيديهم، جاءوا قاصدين لنا يرجون نوالنا فلم نتركهم يرجعون خائبين وإنما أعطيناهم من رأس مالنا الذي لم ندّخره لوارث وإنما نجمعه لننفقه في طرق الكرم والجود.

١١٥ ـ مبرهج: مفتوح على مصراعيه. تسفى: تجلب وتراكم. السوافي: الرمل الناعم الذي يتراكم بفعل الرياح. خلقته: منذ أن ركب. ما طق: ما قرع. ركزة: مقبض.

المعنى: يشير الشاعر إلى أن بابه مفتوح على الدوام منذ أن ركب، وهو على حالته حتى أن الأتربة تراكمت عليه بفعل الرياح منذ أمد طويل، وهذا دليل آخر على الكرم والبذل لكل من قصد هذا المكان المفتوح بابه على مصراعيه.

١١٦ ـ جن: جئن. الخل: فجوات بين دعوص النفود. دعاثير: قد أتعبهن المشي. عجلين: مسرعين. باليمنى: كف اليد اليمنى. نخضب: نضع علامة، وكان من عادات المضيف إذا نزل عنده الضيوف أن يضع كفه في دم الذبيحة التي ذبحها للضيوف ويضعها على فخذ مطية الضيف، حتى يعرف جيرانه أنه قد ذبح لضيفه ولا يعملون أي ترتيب للضيف في تلك الليلة، وإلا فإن الجيران ربما قاموا بعمل الواجب نحو الضيف. ركابه: مطيته.

١١٧ ـ وافقت: تيسّرت الأمور. حطيت: قدمت. مير: الطعام. عاضبت: تعسّرت الأمور. يكفيه: أي الضيف. هلابه: التحية التقليدية.

١١٨ ـ سويت: عملت. فنجال: يقصد القهوة. عوج الدناقير: يعني الدلال ذات المذالق المنحنية. خطر: ربما. العذراء: التي تهتمّ بجمالها. خضابه: هو ما يخضب به البدين وذلك لجودة القهوة التي صنعها.

١١٩ ـ شفّه: ارتشفه. الطرقي: المسافر. بلج: تبسم بلجة الطير، شع البشر والارتياح على وجهه. يزين: يتحسّن. وسم: أثر. الخلا: البر من لفحات الرياح ولسعات البرد، مما يبدو أثره في سمرة وجه المسافر.

المعنى: يقول الشاعر إذا جاءت الركائب مع أحد فجوات النفود وعليها التعب وعلى أصحابها السأم، فإنهم سيجدوننا أمامهم على أهبّة الاستعداد وبكل عجلة سنخضّب ركابهم بوضع العلامة المعروفة على فخذ المطية، هذا إذا كانت الأمور متيسّرة فإننا نضع الخراف وتحتها الطعام اللازم، وإذا كانت الأمور عسيرة في سنوات الشدة والمسبغة فإن

التحية وطلاقة الحبيبين وبشاشة الوجه قد تكون كافية مـع القهوة العربية التي نعملها لهم باتّقان حتى تكاد تضبغ على الفنجان، وقد تتمنىّ المرأة أن تضعها بكفّيها لتكون لها بمثابة الحناء، وهذه القهوة إذا ارتشفها الضيف فإنه ستنبلج أسارير وجهه ويذهب أثر التعب والسأم الذي أحدثه طول السهر والسرى.

١٢٠ ـ ليا: إذا. مفطح: الفطحة وهي وركي الخروف مع جزء من ظهره وليّته. الحيل: التي حال الحول على الشحم فيها، وهي كناية عن السمن. صباب: سكاب.

١٢١ ـ الكوم: هي النياق التي تكوّم وارتكم الشحم فوق ظهورها. حرش العراقيب: هي الإبل. وإعـطاء المهار: إعـطاء الخيل وهي أثمن ما يعطى في ذلك الوقت وما دونها.

١٢٢ ـ نمرا: يعني الصينية الكبيرة وسمّاها النمراء لما فوقها من طبقات العيش واللحم مما جعل منظرها يشبه منظر جنب النمر. تفجا: تفاجىء بها الأجانب وتحاول تخفيف حدّة كراهية أعداءك لك، لأن الكرم يطفىء الكراهية والحسد كما يطفىء الماء النار وربما يؤجّج الحقد في قلوب الحساد. غرات: عثرات. ضـدك: عدوك، لأسباب ما تقدّمه من طعام وشراب للقاصدين مكانك.

المعنى: يقول الشاعر في ممدوحه أن عيبك إذا أوجد الناس لك عيباً، فهو الكرم والجود وذلك بما تقدّمه لضيوفك من الطعام المتوّج بالخراف الناضجة وزيادة على ذلك سكب السمن البري عليهـا، ولا تكتفي بذبح الغنم وإنما تذبح الإبل إلى جانبها، وهذه قمة الكرم، وإعطاء الخيل وهي أنفس ما يعطيه العربي في ذلك الوقت من الناحية المادية والمعنوية، وما تلك الصينية النمراء الضخمة التي يختلط فوق سطحها الزاد بأصنافه واللحوم بأنواعها إلا دليل على كرمك، وقد

تكسر بها ناظر عدوّك وتفاجىء بها الضيف الوافد والممدوح له صينية مما تسحب على عجلات حسبما سمعت من محدثين ثقات.

١٢٣ ــ عزيزه: كريمة جواده. جاد: أعطى. ساد: تسنم مكان السيادة. كف يمناه: يقصد ما تحت تصرّفه. غالبه: قويه.

المعنى: يقول الشاعر أن اليد لا تعطي إلا إذا كان صاحبها كريماً جواداً، وإذا كان كذلك فسيكون سيداً في قومه وغالب في أمره، وهذه من الفوائد التي يعود بها الجود على صاحبه.

١٢٤ ــ تر: ترى. التناشيد: كثرة الأسئلة. ننشده: نسأله. يا كود: إلا إذا. حدينا: أحدنا.

١٢٥ ــ شيمة: سجية. الحكي: الكلام. حنّا: نحن. الهرج: الكلام الكثير.

المعنى: يفتخر هذا الشاعر بأن من عادة قومه ألّا يبادروا الضيف بالأسئلة من أين أتى؟ وأين يقصد؟ ومتى سيغادر؟ وغيرها، وإنما يتركون ذلك للضيف ليبدأ بذلك وبأنهم يعرفون معنى ذلك منه وهذه السجية يراها الشاعر فضيلة بينما رآها غيره خلاف نظرته، حيث يقول:

الضيف مايطنيه كثر التناشيد

مار البلا كان المعزب تطينا

(محمد القنزع)

يطنيه: يغضبه. تطينا: تظاهر بالغضب. مار: لكن. فيرى أن الكلام مع الضيف من اللطافة وطيب المعشر وتسلية الضيف إلى جانب ما يقدّم له من ضيافة، وبذلك يرى عكس الآخر.

١٢٦ ــ أكفخ: أنقض. جنحان السعد: تشبّهاً بالنادر من الصقور إذا انقضّ على صيدته. لا تدرا: لا تداري وتتهاون. ما ياقاه: لا يحميه.

المدارى: التردّد وعدم الإقدام، وما كتب للإنسان فسوف يجري عليه.

١٢٧ ـ عميله: صديقه وصاحبه. تبرا: تبرأ. حطيت: جعلت. الأجرب: السيف. عميل: صديق. مباري: ملازم.

١٢٨ ـ رميت: نزعت. برقع: هو ما يغطّى به عيون طيور الصيد، ومتى أراد صاحبه أن يهده رفع البرقع عن عينيه. برا: بعيداً. يدوس: يصل. المحاري: الأهداف التي ينشدها.

المعنى: يجسّد الشاعر روح المغامرة بهذه الأبيات ويوصي من أراد المغامرة أن يحدّد هدفه ويتوكّل على الله وينقضّ كانقضاض الصقر على فريسته، ويضرب مثلاً في نفسه أنه عندما أراد أمراً وهو تحت أسر الأتراك في مصر عندما تبرّأ منه أصحابه اتّخذ سيفه صاحبه الوفي وصديقه الحميم، وطوّح ببرقع الذل وانطلق من مصر متّجهاً إلى ملك آبائه وأجداده في نجد ليستردّها من الأتراك، وهكذا فعل، ويقول أنه لا خير فيمن لا يصل إلى الهدف الذي صمّم في الوصول إليه.

١٢٩ ـ الرشا: الحبل الذي ينزف به الماء من البئر. المحالة: هي البكرة التي يدور الرشا مع فلكها. استثقلت: ثقلت. ملّال: عاجز.

١٣٠ ـ تنهزع: تميل. حافر: كناية عن الخيل. نعال: كناية عن المشاة.

المعنى: يقول الشاعر أنه متى اشتدّت الحرب ودار الرشا على فلك المحالة وحملت دلاء الحرب، فإنني لا أعجز عنها وسأصبر عليها كما تصبر الراسيات من الجبال التي لا تنحني أو تميل في وطي الخيل والمشاة لها.

١٣١ ـ كفّه: كناية عما يضرب به. شنيع: فظيع. المضاريب: المضارب. الوغى: ساحة الحرب. سم ساعة: السم الزؤام من شفار السيوف وألسنة الرماح.

١٣٢ ـ صكت: أحاطت. المغاليب: الفرسان. يلكد: يحثّ فرسه بلكدها، يعقب رجله لتندفع إلى جوف المعمعة. باندفاعه: بانقضاضه عليهم.

المعنى: يصف الشاعر هذا البطل بأن ضربات كفّه فظيعة بأعدائه الذين يسقيهم وقت المعارك السم القاتل في الحال من شفرة سيفه أو لسان رمحه، ويضحك ضحكة الواثق من نفسه متى أحاطت به فرسان الأعداء فينقضّ عليهم يخطف رؤوسهم باندفاع وتصميم حتى يقضي عليهم.

١٣٣ ـ اللي: اللواتي. كنهن: كأنهن. الشنينا: القِرَب اليابسة، وهذا يدل على شدة ضمرهن ورشاقة أجسامهن. خيل الصحابة: من سلالات عريقة. اعترضهن: خالطهن سلالات أخرى.

١٣٤ ـ قطيهن: مؤمؤخّرة ظهر الفرس إلى أسفل مكان الراكب قليلاً، وهي كناية عن ظهر الفرس. حدينا: طردن. رد: انحراف. وجيههن: اتجّاههن. قفانا: ينحرفن بنا.

المعنى: يقول الشاعر أن خيلهم من الخيل العريقة منذ زمن بعيد قد يصل إلى بزوغ الإسلام ولم يخالطها سلالة أخرى، وتمتاز هذه الخيول بتناسق أجسامها وشدة ضمورها حتى شبّهها وكأنها القِرَب اليابسة، وأن هذه الخيول سريعة الانقضاض سريعة الانحراف حسب توجيه راكبيها، وسيجد من يقترب منها الموت الزؤام في سيوف راكبيها.

١٣٥ ـ شفتهن: رأيتهن. يقفن: يذهبن. تراهن: فإنهن. مقابيل: مقبلات. الملزمات: اللزوم. انقلابه: عودته بسرعة.

المعنى: يصف الشاعر هذه الخيول في سرعة الانحراف عند الكر والفر فإذا رأيتهن ذاهبات فلا تأمن انحرافهن وقدومهن في نفس

اللحظة، لأنهن ينحرفن بسرعة فائقة عندما يلزم الأمر ذلك وبإيعاز من فرسانهن.

١٣٦ ـ صلاة الضحى: الإشراق. لين: حتى. غابت: أي الشمس. هوش: المقارعة بالسيوف.

١٣٧ ـ الشوبة: شدة وطيس المعركة. قرايا: قرى. مزبن: ملجأ. جال: مرتفع نلوذ به.

١٣٨ ـ عمار: أعمار. سوق الموت: ميدان المعركة. تالي: باقي.

١٣٩ ـ الكرم: يقصد الجود بالنفس وهي أقصى غاية الجود. لاحل: إذا حان. ما جوبه: حاجتها. المعاسر: أوقات الشدة. حزّات: أوقات. ورجال: من يصمدون فيها.

المعنى: يرسم الشاعر صورة ناطقة لتلك المعركة التي دارت رحاها من طلوع الشمس حتى غربت، وكلما قضوا على مجموعة من الفرسان جاءهم مدد آخر حتى جاء الأمير ومَن معه، وهنا اشتد وطيس المعركة وضاقت بهم الأرض ذرعاً، فلا قرى يلجأون إليها ولا مرتفعات يلوذون بها، وهنا بسط سوق الموت وبضاعته الأرواح من أبطال الطرفين، وكلّ يجود بروحه وتلك أقصى درجات الجود كما قال الشاعر: والجود بالنفس أقصى غاية الجود ولا يتّضح الرجال إلا عند ساعات الشدّة العسيرة.

١٤٠ ـ جبلات: جمع جبلة وهي السجية والطبع. حطّها: أودعها. الرواسي: الجبال. ناصبة: واقفة.

المعنى: يقول الشاعر أن الطبائع التي طبع الله الإنسان بها وأودعها فيه صعب زوالها فقد تزول الجبال ولا تزول الطبائع، يقول المثل العربي «يزول جبلاً ولا تزول جِبِلَّة».

١٤١ ــ تنطحه: تتلقّاه.

المعنى: يقول الشاعر أن الإحسان يجري بمثله، أما الشر فهناك من يتلقّاه ويستقبله، ومفهوم هذا البيت من الآية الكريمة «هل جزاء الإحسان إلا بالإحسان».

١٤٢ ــ أحشم: احترم، نزه. خويك: صاحبك. الرزالة: الملتوية، غير المستقيمة. الأجاويد: جمع جواد. حال: له وضع خاص.

١٤٣ ــ المرجلة: طرق الرجولة. بالك: إياك. ترخى: تتساهل. حباله: طرقها. تعيل: الميل والحيف. عال: لا تتوانى لمن عال عليك.

١٤٤ ــ الداني: القريب. ليا: إذا. شفت: رأيت. حاله: الوضع الذي يكتنفه. أحمل: تحمل على نفسك. المعاليق: المهمات التي ينوّطها بعاتقك. ما شال: ما حمّلك.

المعنى: يوصي الشاعر إبنه في عدة وصايا يجملها في هذه الأبيات، حيث يطلب إليه أن يحترم صاحبه ورفيقه، وينزّهه عن أي طريق من طرق الشر ويشرح قدر الرفيق عند الأجاويد، ويوصيه بالتزام طرق الرجولة والشرف، ويحذّره من العيلة على الآخرين، وفي نفس الوقت يحذّره من التواني بحق من عال عليه، ويبينّ له أن الرفيق إذا كان قريباً فله حق آخر يجب القيام به، وخاصة إذا نابته نائبة فيجب عليه أن يتحمّل من رفيقه كل المهمات التي يوكلها إليه.

١٤٥ ــ ما نجدعه: نرميه. القصاصيب: المقصود هنا قصاصيب البشر بألسنتهم. حيد: جبل. ما يضامي: بعيد عن الضيم، منيع بحق صحبته لنا.

١٤٦ ــ باصليب: قبيلة بعيدة عن نسب الشاعر. السنام: ذروة الشيء.

المعنى: يشير الشاعر إلى الحماية التي يوليها لرفيقه حتى يعيش في مكان منيع عن أي أذى حتى ولو كان هذا الرفيق من أبعد الناس إليه ولا يمتّ له بصلة قرابة ولا نسب فهو في قمة المنعة والحماية.

١٤٧ ــ حر: النادر من طيور الصيد شلع: انقض. عال الطويلات: أعلى قمم الجبال. للصيدة: الفريسة. اللي: التي. حطّ: وضع. خمسه: مخالبه.

١٤٨ ــ غز: طعن. الثنادي: لحم الصدر للطائر. تل: جذب بعنف. فراها: مزّقها.

المعنى: يشبّه الشاعر ذلك الشخص الذي اتجّه إلى خصمه بتلك الحر النادر من الطيور الذي انقضّ من رأس أحد شماريخ الجبال العالية على صيدته، بحيث تمكّن منها وغرس مخالبه في ثندءتها ومزق لحم الثندءة وتمكّن من نزع القلب من داخل الصدر، فقضى على الصيدة بتلك الصرامة والقسوة.

١٤٩ ــ يا لاعن: يا أيها الذي تلعن. حطاب: اسم. فاني: منتهي.

المعنى: تتجسّد العنفوانية وشدة الغضب بهذا البيت حينما يسمع الإنسان ما يخدش كرامته أو ما يسيء إلى سمعته، فيردّ اللعنة على قائلها غير مبال بمصدرها كائن من كان، ولا سيما إذا تساوت عنده الحياة والموت.

١٥٠ ــ ينخاك: يستنجد بك. من خير: لا يستنجد بك إلا مظلوم.

المعنى: يوصي الشاعر من سينقل له الكلام أن يسلّم على صاحبه ويقول له أنه لا يستنجد أحد إلا من حاجه، ولا يمكن أن يصيح أحد إلا تحت طائلة الحاجة ووطأة الظلم، فهلمّ أنقذنا.

١٥١ ــ الصياح: من يصيح بطلب النجدة. طارق: آخذ. حيل: ما أحال الشحم في ظهورها.

١٥٢ ـ مفهوق: تركوه خلفهم وسبقوه. ياطن: يطأن. شخانيب الوعـر: الأرض المغطّاة بقطع من الصخر الثابت في الأرض، وله رؤوس كأنها السكاكين. السماحي: الأرض السهلة الخالية من العوائق.

المعنى: يصف الشاعر كيف يسرعون بالنجدة إذا صاح طالبها ويلحقون إبلهم التي أخذها الأعداء، بحيث يسبقون خيل الأعداء ويخلّصون إبلهم على خيلهم التي تجري بهم فوق أي أرض، لا يهمّها أكانت لينة أم خشنة بها من الصخر الحاد ما يشبه سكاكين الجزّار.

١٥٣ ـ أولاد علي: عزوة أهل القصيم. ذا: هذا. لا رحم أبو نفس: لا رحم الله نفس.

١٥٤ ـ ذي: هذه. قالة: مشكلة أو مهمة. ينطحه: يتحمّلها. كود: سوى. نادر: الحر النادر الذي يشبّه به الأبطال.

المعنى: يطرح الشاعر هذه المهمة بأسلوب يستفزّ فيه مشاعر سامعيه، حيث يجسّد عظم هذه المهمة وثقل تلك المسؤولية، ويجعل الكل أمام خيار واحد وهو الاستجابة لهذه الاستغاثة، وكل يقول في نفسه أنا لها، حتى لم يبق بعد ذلك من لا يقول أنالها.

١٥٥ ـ مجرم بنا: ركّب جرم بحقّنا. جمرة: جمرة النار. درى: شعر.

١٥٦ ـ نرفي: نساعده ونواسيه ونستر عليه. خماله: زلته. واس: ارتكب. زلّة: خطأ. نرفاه: نداريه ونرقّع شقوقه. العذارى: النساء.

المعنى: يقول الشاعر أنه تحمّل خطأ جاره لمدة ثمان سنوات، كل هذه المدة وهو يرجو أن يتنبّه جاره إلى خطئه ولكنه لم يتنبّه، وشبّهه بمن يطأ جمرة النار ولا يعلم بها، وفي خلال هذه المدة فهو يداري جاره ويساعده ويواسيه ولا يظهر له أي شيء يمسّ شعوره أو يجرح كبرياءه،

كل هذا برجاء الانتباه، لكنه لم يحصل. ويشبّه مرفاته لجاره بما تقوم به النساء من العناية بملابسهن ومداراتها وترقيع شقوقها وخياطة فتوقها.

١٥٧ ـ كار: طبيعة، عادة. الطريفة: ما يستطرف من الأكل والشرب.

١٥٨ ـ نرفي: نساعده ونواسيه ونستر عليه. خماله: زلّته أو عوراءه. العش: عش الطيور. الغار: الكهف. نودع: نجعل.

١٥٩ ـ نبدي: نعلن. الخافي: السر. صار ما صار: إذا بدر منه ما يسيء إلينا. يفلج: يثبت له الحق. قصير البيت: الجار. حيفه: ظلمه وتجاوزه.

المعنى: يعدّد الشاعر حسنات قومه بأن من طبائعهم ألاّ يخفوا عن الجار شيء، وبالأخص ما يستطرف من المتاع، وأنهم يواسون جارهم ويعتنون به مثلما تعتني الطيور بأعشاش صغارها، حيث تنقلها عوداً عوداً وتضع اللينّ من المواد في مهدها، ومتى لم تجد مادة ليّنة لفراخها نتفت من ريشها ووضعته في أعلى العش مما يلي الصغير، وكذلك أشار إلى أنهم يوطنون أنفسهم للجار لا خوفاً منه ولكن احتراماً له، وإذا بدر منه أي بادرة سيّئة فإنهم لا يعلنونها للملأ وإنما يتحمّلون حيفه ويجعلون الضيم على أنفسهم ويثبتون الحق لجارهم مهما كان.

١٦٠ ـ تر: ترى. رفقته: صحبته. يزيد مع زايد سنينه وقاره: كلما زادت مدة جيرته لنا زاد عندنا محبة ووقاراً.

١٦١ ـ اليا: إذا. قزت: فارقها النوم. الشيخ: شيخ القبيلة. الخسارة: لا يحمله شيئاً. حد ومسموم: الحد للسيف والمسموم الرمح. كسر اعتباره: ظلمه أو الحيف عليه وإهانته.

المعنى: يقول الشاعر أن جاره ليست رفقته عندنا يوم أو أيام

وتنتهي، وإنما كلما زادت مدة جيرته ورفقته لهم كلما زاد احترامه ووقاره لديهم، فإذا لم ينم تلك الليلة فإننا لا ننام ونبقى بجانبه نواسيه أو نعزيه أو نحميه، وشيخ القبيلة لا يحمّله ما يحمل أحدنا من المهمات والمصاريف، ونحمي ذماره فنذود عنه بسيوفنا ورماحنا ونرخّص أعمارنا في سبيل حماية جارنا أو أن يناله أي حيف أو ظلم أو إهانة.

١٦٣ ــ متى: إذا. الثريا: النجم المعروف. سنا الصبح: طلوع الفجر. وايقت: ظهرت. كل خضراء: يعني جرائد النخل. ودعت بالسنايد: أي وضع لها ما يسندها لثقل العذق.

١٦٤ ــ عقبها: بعدها. نجم: يعني الدبران «التويبع». فرخ متلى: شبّهه بفرخ الطير الذي يمشي وراء أمه ببطء. على الشوف يتلها: أي من بعيد. يعادو: بطيء.

المعنى: ينظّم الشاعر بهذه القصيدة التي منها هذين البيتين كيفية طلوع النجوم واحداً بعد الآخر بوصف بديع، ونجم الثريا أول نجوم الصيف وتتبعها النجوم الأخرى التي آخرها سهيل مع بداية فصل الخريف.

١٦٥ ــ سبك: أي صاغ. الدهر: السنة. حاذق: بارع.

١٦٦ ــ القيظ: الصيف. سبع: يقصد الثريا. رصايف: متلاصقات. جيب وضحا: شبّهه بجيب المرأة لأنها كانت تنظّم في جيبها مجموعة من الأزرار الذهبية اللامعة، ومنظره من بعيد يشبه منظر الثريا. صنيع الدرك: جاءها ما يشغلها فتذهل نفسها. دالق: مفتوح، يقصد الجيب.

١٦٧ ــ الناريز: الصافي. الصعل: صغير الرأس من الخيل ويعتبر من أجودها. الطهال: صفة للحصان. الأطلاب: الحصان الجيد الذي تتم النجدة على ظهره.

١٦٨ ــ الزير: من أسماء الأسد. الزحار: صبوت الأسد مادون الزئير.
النمر: النمر المعروف. الليث: اللايوث. الشبل: من أسماء الأسد.
الداب: الثعبان.

المعنى: يجمع الشاعر لممدوحه عدة صفات من المعدن الصافي والعطر الطيّب والحصان الأصيل والأسد الهائج والنمر الهصور والذئب الحذر العساس والليث المحتد والداب المتلوي، وهذه الصفات مجتمعة قلّما تتوافق في شخص واحد وإن وجدت فهي نادرة، وربما قصد الشاعر ذلك.

١٦٩ ــ يا قلب: يقصد قلبه. الدار: المقصود أهل الدار.

١٧٠ ــ ندا: نداء. زجر الملك في صفوقه: كان هناك اعتقاد بأن صوت الرعد في السحاب هو زجر الملائكة للسحاب، والبرق هو ضربهم للسحاب بسياطهم. صفوقه: مثانيه. قضى: أي بتّ. القضا: هو الله. التفت الساق بالساق: هذا الوصف مأخوذ من الآية الكريمة في وصف يوم القيام «حتى إذا بلغت التراقي . . . والتفت الساق بالساق».

المعنى: يصف الشاعر بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات السحابة، يتمنّاها أن تمطر على ظالميه وتمحي منازلهم عن الوجود في ساعة غضب منه.

١٧١ ــ أهل: يتناثر. ذواريف: تذرفه بغزارة. تاليه: آخره. غثرب: عكر.

المعنى: يرسم الشاعر الصورة التعبيرية الصادقة من أن يذرف دمع عينيه بغزارة شديدة، وأول الدمع ماءاً صافياً وآخره عكراً بالدم، وذلك لتجرح مآقي عينيه وبدل أن يخرج الدمع ماءاً صار يختلط بالدم العكر.

١٧٢ ــ تشوفه: تراه. كقلب الذيب: يشبّه سهيلاً بقلب الذئب بسرعة خفقاته وزوغانه لأن الذئب أسرع الحيوانات خفقاناً بالقلب، ذلك لأنه إما أن يكون مجهداً من الركض أو خائفاً مما حوله. يلعج: يزوغ. مويق: مطل. على غرّات: يفاجئهن. حدب الجرايد: يقصد النخل.

المعنى: يصف الشاعر نجم سهيل عندما يطل من مطلعه في الشرق المائل إلى الجنوب، أحمراً شديد الزوغان والرفيف وكأنه قلب الذئب الخائف، عندها يبدأ موسم الرطب.

١٧٣ ــ انتفاض الفرخ: يقصد انتفاض الفرخ الصغير في عشه، عندما ينفض زغبه الباهت والضارب إلى البياض والصفرة. حندس: شديد الظلمة. الدجى: الليل المظلم. يفوج سناه: يرتفع قليلاً. سناه: ضوءه. الشعايل: النار المشعلة.

المعنى: يصف الشاعر البرق في ثنايا المزن المتراكم وكأنه انتفاض فرخ الطائر في عشّه حينما يكسوه الزغب الأبيض الضارب للصفرة، ويتحرّك نافضاً زغبه ببطء، يتحرّك ولا تكاد تراه يتحرّك لو لم تدقّق النظر فيه، وأن هذا البرق يبينّ حركته ما حوله من ظلمة الليل الشديدة التي تلفّ الكون من حوله، فتبدو هذه الحركة البسيطة وكأنها شعلة النار التي تتأجّج ثم تنطفىء بسرعة.

١٧٤ ــ الإجهاد: الاجتهاد. عدا: أبعد. اللايمات: اللوم. بالغصايب: بالقوة.

المعنى: يقول الشاعر أن الإنسان إذا اجتهد في طلب الرزق فإنه لا يلوم نفسه على الركون والدعة، وما كتب الله له من رزق فسوف يأتيه من خلال سعيه، هذا وأن الأرزاق لا تأتي الإنسان بالقوة وإنما هي بالسعي وما كتبه الله له.

١٧٥ ـ العبد: المقصود به الإنسان. يوريك: لا ترى. الزود: الزيادة. تراك: فإنك. الفي: الظل. عجل زواله: سريع ذهابه.

١٧٦ ـ دنياك: يقصد الحياة. بواقه: خائنه. جاله: جانبها.

المعنى: يرسم الشاعر المعالم الحقيقية والخطوط الرئيسية لسنّة الله في خلقه، وينصح الإنسان بألّا يغتر بدنياه وما آتته وما حباه الله منها، فيقول أنها مثل ظل الإنسان في لحظة يراه ممتداً بجانبه، وبعد برهة يزول من هذا المكان وكأنه لم يكن، ويقول أن الأيام لو أعطتك مواثيق وعهود على الدوام فإنها لا تفي بعهودها لأنها تتمشّى مع ناموس الوجود الذي رسمه الباري العظيم، فهذه الوصية للإنسان بألّا تطغيه الدنيا وتنسيه أصله وما سيؤول إليه أمره، وقد أصبح لهذين البيتين دويّ عظيم في فترة من الزمن، وقد أشار إليهما عدد من الشعراء منهم حمود العيد، بقوله:

دنياك هذي مثل ما قال مشعان
وأنا بها بخص من طبيب عريف

وعبد المحسن الهذيلي، بقوله:

مر قبول ومر تعطي مقاريش
عجل زواله مثل ما قال مشعان

١٧٧ ـ تذعذع: تهب له. الأقذال: الذرى. الوزا: الحاجة. عيشة الذيب: يصارع الحياة.

المعنى: يقول الشاعر، بعض الناس يسعفه الحظ وتهب رياحه على مرأى من الناس في الغور والذرى، والبعض الآخر تلسعه الحاجة ويبقى في مصارعة الحياة من أجل البقاء ينهب لقمته نهباً كما يختطفها الذئب.

١٧٨ ـ عفر: أصفر ضارباً إلى الحمرة. شعشاع: زوغان، تذهيل. تنويش: درجتان من الزوغان وتصارع الألوان. يتشاعل: يبرق. شعاعه: ضوءه.

١٧٩ ـ ذوايبه: رؤوس الضفائر. الأرداف: العجز. شراع: متدلّيات.

المعنى: يصف الشاعر خد فتاته بأنه أصفر أعفر يتصارع فيه البياض بالحمرة والصفرة، ومن هذه الألوان الممتزجة يبدو البريق والإشعاع الذي يجذب نظر المبصرين، وأن جدائلها تكسوها من الخلف حتى سبحت إلى أسفل عجزها، وأن طولها ذراعين على ذمة من ذرعها، وهذه الضفائر من المميّزات التي تمتاز بها النساء.

١٨٠ ـ يدوس الرأي: أي يدرسه ويتبادله مع الآخرين. ما ديس: قبل أن يسبقه إليه الآخرون. داسوه: أي درسوه واتّخذوا صائبه. العيال: الفتيان. القروم: الأفراد.

١٨١ ـ يقلط: يبرز. شذرة السيف: أي ظُبَاه. والكيس: المقصود به الكرم. يبدي: يتّضح. من الليالي: من الزمن. ثلومي: إحن ومصائب.

المعنى: يقول الشاعر أنه من لم يدرس الرأي ويأخذ بصائبه ويكون سبّاقاً للمبادرة فإنه سيسبقه إليه الرجال غيره، ومن لم يتّخذ الشجاعة والكرم سبيلاً فسيكون عليه من الدهر مثالب ويرمز للشجاعة بشذرة السيف وهي عربية، ويرمز للكرم بالكيس أي إرخاء فم الكيس، وهذا دليل الكرم، وهاتان الخصلتان من الخصال التي يتّصف بها العربي منذ القِدَم، وهما أساس الرجولة والسيادة.

١٨٢ ـ جان: جاءني. مسّني: جسّ النبض. افتكر بي: قرّر علّي. غير الشهادة: شهادته بثبات وجود المرض الذي أشعر به. مثاب: ليس لي علاج لديه.

١٨٣ ـ الأنجاد: النواجذ. اصتقر بي: مما يغلي في نفسي. ليا ما: حتى. غطس: اخترق. الناب: آخر القواطع وقبل الأضراس.

المعنى: تقول الشاعرة أنني أعاني ألماً خفياً على معظم الناس ولا يعلم به سواي، وعندما عرضوني على الطبيب لم يعرف لي دواءاً، وإنما اكتفى بشهادته أنني مريضة ولا يعلم سر هذا المرض، وعندها عضّيت على شفتي بنابي ومما يجيش في داخلي لم أشعر إلا وقد اخترق نابي شفتي.

١٨٤ ـ حماد: اسم. ربعي: رفقتي. الغدير: الماء المتجمّع من المطر.

المعنى: ينعي الشاعر نفسه إلى صديقه حماد، ويقول له أن رفقته تفرّقوا من حوله عندما رأوا ضيق ذات يده وكبر سنّه، فلم يبق منهم لديه أحد، وأصبحوا كالملح الذي وضع في الغدير فذاب مع الماء وأصبح لا وجود له.

١٨٥ ـ عنيزة: مدينة بالقصيم. الزهيد: الرخيص. فرعن البيض: كشفن عن شعورهن. البيض: النساء. جالها: حماها.

١٨٦ ـ يحايد: يدور. يقلط: يتقدّم. الديرة: البلد.

المعنى: يفتخر الشاعر ببلده ومدى عزّها لديه، وأنه لن يبيعها مهما كان الثمن، وإذا النساء استنهضن الهمم فينا بالكشف عن رؤوسهن فلسوف نبذل الأرواح وهي أغلى ما نملك في سبيل الذود عن الوطن وستر نسائنا، ويتوعّد الطرف الثاني، حيث يقول: إن كنت رجلاً فقرّب منا ولا تدر من بعيد.

١٨٧ ـ الحر: الأصيل من الإبل. الربدا: النعامة. خبية: نوع من جري الإبل أسرع من الوخد. الطير: يقصد الحرار من الصقور. عدا به: هدّه.

١٨٨ ـ نصَّه: وجهه. شباب: يبدأ. الحربية: الحرب. راية أهل الدين: راية التوحيد المكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لجا به: التجأ إليه.

١٨٩ ـ شيخ: زعيم. جهّال: فتيان. يبون: يريدون. الضريبة: الحرب والضرب. مناشيهم: نشأتهم. يشبون: يبدأون. الحرابة: الحرب.

المعنى: يقول الشاعر وهو يوصي راكب تلك الحر الأصيل الذي يشبه الحر من الطيور إذا انقضّ على فريسته، أن يوجّهه إلى الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ وهو الذي يبدأ بالحرب وأهل لها تحت راية التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي خير ما يلجأ إليه وهو شيخ وزعيم تلك الفتيان الذين شبّوا على الحرب منذ نشأتهم، وألفوها في سبيل نصرة دينهم وتوحيد بلدهم تحت راية التوحيد.

١٩٠ ـ رَوَّح: قدم في آخر النهار. الرايح: القادم، والمقصود به السحاب. ديرة العوجا: العوجا، عزوة أهل الرعية قبل انتقال آل سعود منها إلى الرياض، وعندما انتقلوا إلى الرياض صارت عزوة أهل الرياض والدرعية معاً، والمقصود بها الآن الرياض. يخيلونه: يتوقّعون مكان سقوط المطر منه. بارقة: يقصد السحاب. لايح: مضيء. وبله: مطره. درج: إناء، يقصد أنه غزير المطر. صافي الجوهر: يقصد به السيف. الضريّين: جمع ضاري وهو الشجاع المقدام. يروونه: أي من دم الأعداء. ما عودوا: ما استطاعوا. ربعه: رفقته. يشيلونه: ينقلونه.

المعنى: يشبّه الشاعر كثافة الجيوش بالسحاب المتراكم المظلم الذي يضفي على المكان في وقت الأصيل وفي مقتبل الليل، وهذا السحاب هو جيش أهل العوجا وهي كناية عن جيش الملك عبد العزيز

ـ رحمه الله ـ ذلك الجيش الذي يشبّهه بالسحاب ذو المطر الغزير، وسلاحهم تلك السيوف ذات الجوهر الصافي الذي تعهّد به كل شجاع مقدام أن يروي شذرته من دم الأعداء، ومن حاربه هذا الجيش فلن يعتني به صحبه ولن ينقلوه لأنه أصبح جثة لا جدوى من نقلها سوى مواراتها في مثواها الأخير.

١٩١ ـ الديرة: البلد. اللي: التي. حاميها: السور المحيط بها.

١٩٢ ـ تهاوي: لا تطرد. جاها: أخذها.

١٩٣ ـ تفزع: تنجد. اليمنى: اليد اليمنى. وطا: أصاب. هاذيك: تلك. واطيها: مصيبها.

المعنى: يحذّر الشاعر أهل بلده بأن طول المبنى لا يحمي البلد إن لم يكن معه سواعد الرجال، وأن المباني وحدها لا تدفع عن نفسها، وكل من دخلها أصبح يحتمي بها فتحميه، وأنها لا يذود عنها غير أهلها، وإذا لم تساعد اليمنى يسراها فإن ما أصاب اليمنى سيصيب اليسرى، وهذه كفاية عن طلب التكاتف والتعاون في الدفاع عن التراب والأوطان.

١٩٤ ـ يا عل: لعل. سدرة الغرمول: اسم سدرة. مزنه: السحابة. هلت: سكبت. عقرية: وقت العقرب الثالثة بدخول الربيع «السماك».

١٩٥ ـ باغ: أريد. ليا جيت: حينما أمرّ. سار: أمشى بالليل.

المعنى: يدعو الشاعر لشجرة السدر التي يحمل لها في نفسه كل تقدير ربما لأجل الذكرى، يدعو لها بأن يصيبها مطر تلك السحابة التي تأتيها في وقت العقرب الأخيرة دخول فصل الربيع الذي يسوق الماء في كل عود وتورق الأشجار، يريد لتلك السدرة أن ترتوي حتى إذا جاء سار من عندها قادماً من محبوبته ربما يسترح تحتها أو ربما يكون لها في نفسه ذكريات غالية.

١٩٦ ـ الغابة: الشجر الكثيف المتشابك. ينوحي: يتبادل الهديل. ساجع: يغني. لا واهنية: يهنئه.

١٩٧ ـ جعل: لعل. زمل: الركائب التي تحمل الأثقال. تبي: تريد. تروحي: تذهبي. شعيب الحامرية: وادي الحامرية الواقع بين الروضة وحائل، والآن أصبح قرية مستقلّة.

المعنى: يهنّىء الشعر الحمام المغني على شجر الغابة طرباً، ويتمنىّ لو يكون مثله، ويطلب من الله أن تتعثرّ الركائب التي ستنتقل عليها محبوبته وتنكسر في واد قريب من بلدة الروضة، ويكمل تمّنياته في ثنايا القصيدة.

١٩٨ ـ با حي: افتضح أمري. صبري: نفذ صبري. مزاحي: اختلط جدي في المزاح. كنه: كأنها.

المعنى: يشكو الشاعر آلامه وفقدانه الصبر وافتضاح أمره لأنه رأى تلك الفتاة التي تشبه حور الجنة كما وصفتها كتب الأثر.

١٩٩ ـ يا مرة: يا امرأة. تذبين: ترمين. القناع: ما يغطّى به الوجه.

٢٠٠ ـ شاقني: أعجبني. راعي: صاحب. الصفرا الصنيع: المهرة البيضاء، وهو كناية الفتاة التي أعجبته. سنهّا: عمرها. وقم: مقدار. الرباع: من لها أربع سنين وهي الناضجة من الخيل في عنفوان شبابها، وهي ترمز للفتاة.

٢٠١ ـ اشترى منه: أي صاحب المهر. بالعمر: أفديها بحياتي إذا كان يريد لها بيعاً.

٢٠٢ ـ مي: اسم الفتاة أو رمز لاسمها. نازلين: مقيمين. على حد الرفاع: مكان بالمنامة بالبحرين.

٢٠٣ ـ شيّبتني: أصابني الشيب في صغري. جاهل: حديث السن.

المعنى: يصف الشاعر معاناته في هذه القصيدة، وفي البيت الأول أنقذ نفسه من مأزق ثم بدأ يرمز للفتاة بالمهر المكتمل، ويتمنىّ لو أن صاحبه يبيعه مهما كان الثمن حتى ولو كانت حياته، ويتذكّر أيامه في المنامة بالبحرين عندما كان أهله وأهل مي قاطنين على حد الرفاع، تلك الفتاة التي تسبّبت في شيبه وهو حديث السن.

٢٠٤ ـ نطيت: ارتقيت. رجم: هو ما يرجم يراكب من الحجر حتى يرتفع، وربما سمّي الجبل رجماً. أثار: إذا. ممسيني: مدركني المساء. بديار: بأرض غريبة. السيل: المطر. ما جاها: لا يصيبها.

٢٠٥ ـ أضحك مع اللي ضحك: أضحك مع من حولي، والهم يلوي قلبي ويطويه. طوية: مثلما تطوي. شنون: جمع شنة وهي القربة البالية. قطروا: أفرغوا.

٢٠٦ ـ وراك: ما لك. تزعجين: تذرفين. هنوف: الفتاة الجميلة الطويلة، المتناسقة الجسم. يزهاها: يجمّلها.

المعنى: يقول الشاعر أنه ارتقى رأس ذلك الرجم أو ذاك الجبل ولم يعلم أن وقت المساء قريب منه حتى أدركه الليل بأرض غريبة عليه، ويدعو عليها بعدم نزول الغيث، وأعرب عن حالته السيّئة، حيث يضحك مع من حوله والهم يطوي قلبه كما تطوي القربة البالية بعد تقطير الماء منها، وذلك بسبب تلك الفتاة الجميلة التي يطلب من عينيه أن تذرف الدمع لفقدها، تلك الفتاة التي تزدهي باللباس الجديد فيزيد جمالها جمالاً.

٢٠٧ ـ زمانين: حولين. حقوق: غزير مطره. الساري: الذي يستمر بالسفر ليلاً.

٢٠٨ ـ فرعة: أعلاه. تحدرا: انحدر. الحاير الجاري: السيل في الوادي الذي يجري بعضه، والبعض الآخر راكداً تلعب الطيور وتصدح فوقه.

المعنى: يقول الشاعر أنه سرى ذلك البرق الذي لم يشهد مثله منذ عامين، وهو غزير المطر وبارقه الشديد يضيء للساري طريقه ويطربه ويساعده على المضي طول الليل، وعلى أثر ذلك سالت الأودية وأصبح الوادي ممتلىء بالماء في منخفضاته في نفس الوقت الذي يجري السيل فيه، والمشاهد يحسب أن الماء راكداً، وتغنيّ الطيور فوقه صادحة مفردة.

٢٠٩ ـ واوجودي: يتوجّد من الوجد. الأبلال: الماء القليل الضحضاح. واهج القيظ: حر القيظ. مطوية: بدون ماء ملفوفة.

٢١٠ ـ طاب كيفي: استأنست. جاب الخبر ليّة: أتاني بالخبر الصحيح.

المعنى: يقول الشاعر بقصيدة طويلة منها هذين البيتين، يتوجّد على صاحبه مثل وجد العطشان الذي خليت قربته من الماء فطواها وورد على ماء ضحاح لا يروي وإنما يبلّ الحلق فقط، وفي البيت الثاني يقول أنه استأنس بتلك الأخبار التي جاء بها ابن مرشود ولا شك أنها أخبار سارّة بالنسبة له.

٢١١ ـ لكبارها وصغارها: يقصد لكبار الجمع وصغاره.

٢١٢ ـ الطروق: الطرق.

٢١٣ ـ تجتلد: تتردّد وتكثر السفرات. الذهيبة: الشيء الضائع، ويقصد هنا المرأة التي يريد الزواج بها.

٢١٤ ـ ودّي: أريد. طلعك: ما تريد الحصول عليه. على قد المقام: في مستواك.

٢١٥ ـ ما تلقى: ما تجد. يتبعك المحام: تقع في مشاكل تحتاج إلى محام. أحرارنا: أبناؤنا الأصائل. لأوكارها: لمواطنها، يقصد أن يتزوّجوا من بنات وطنهم.

٢١٦ ـ السلع: يقصد المرأة. تسام: طلب شراءها بكذا. تخطب: يأتي من يريد شراءها.

المعنى: يتناوب الشاعران في عرض الموضوع، كلّ في بيت يشرح فيه وجهة نظره، فبدأ الأول بالسلام على الجميع، وردّ عليه الثاني بالترحيب، فباشره الأول بأنه يريد أن يتزوج من خارج وطنه، ويطلب ألّا يتسهّل أمره، فردّ عليه الثاني بأنني أريد أن أختار على نظري، حيث لم يحصل لي الاختيار ببلدي، فقال له الأول: عساك لا تجد ما تريد وتعود مع غيرك إلى بنات وطنك، فردّ عليه الثاني أن بعض السلع تجلب ولا تجد من يشتريها، أما السلع الباقية فيأتي من يريد شراءها وهي في بلدها.

٢١٧ ـ شفته: رأيته. صقرني: كسر حدّة نظري إليه. الحباري: جمع حبارى. الصارم: الحر النادر من الطيور. صقرها: استسلمت له.

٢١٨ ـ أرنب سلف: الأرنب الخائفة المستسلمة. حجرها: عندما تلجأ الأرنب إذا أحسّت بالخوف من أي شيء تعتقد أنه يحميها.

٢١٩ ـ جريف: تصغير جرف وهو الحد الناتج عن جريان السيل وغيره. طمرني: قفز من فوقي. تراي: ترني. غبة بحر: الجزء العميق المظلم من البحر.

٢٢٠ ـ لخاطر: لأرتكب المخاطرة. كلّش: كل شيء. الغرمول: لقب الشاعر. عود: رجع.

المعنى: يسلّم الشاعر الأول على خصمه ويصفه بأنه مثل النادر

من الطيور الذي يسيطر على الحبارى وتستسلم له، فيردّ عليه الثاني أنه يقبل منه تلك التحية ويصف نفسه بأنه مثل الأرنب التي إذا رأت الخطر لاذت بأقرب جحر أو منخفض أو خبنة أرض، لكن الأول رفع عقيرته مقتزاً في نفسه ويقول لخصمه: لا تحسبني هيّناً سهلاً فإنني مثل غبة البحر العميقة التي لا يستطيع أي سبّاح أن يجتازها، وهنا اشرأبّ عنق الثاني متحدّياً بأنه سيخاطر بنفسه حتى يغلب خصمه، وكل شيء يهون عليه سوى أن يقال أنه عجز عن مقارعة خصمه والتغلّب عليه.

٢٢١ ـ اللي: الذي. وسم: ترك له أثراً. المحوص: هي الحبال التي تستخرج بها الدلاء الملآنة بالماء من جوف البئر. بجال: بجانب. خـطو: بعض. الركية: البئر المعدّ للشرب.

٢٢٢ ـ تعاطن: تبادلن. المعبار: جسر العبور. دواس: اسم مكان. الخابور: أحد روافد نهر دجلة. مطية: راحلة.

٢٢٣ ـ عزوة: ما يعتزى به. شمرية: نسبة إلى قبيلة شمر المشهورة.

المعنى: يقول الشاعر أن ما أثّر بحاله ووسمها خفى على كثير من الناس، ذلك الأثر الذي يشبه أثر المحص على جانب البئر المطوي بالحصى ومن كثرة مرور الحبال عليه تركت لها أثراً واضحاً، هذا الذي أثّر بنفسية الشاعر هو ذهاب أصحابه أو من يودّهم عنه، وقد اجتازوا النهر وتركوه خلف نهر الخابور ليس له مطية يصاحبهم عليها، وكلما يتذكّر أحد أصحابه عزوة يعتزى بها، يتذكّر عزوته الشمرية، والقصيدة طويلة في موضع آخر.

٢٢٤ ـ يا غصن: رمز للفتاة.

٢٢٥ ـ مصلوح: مصلحة. يا عزوتي: ما أعتزي به. وش نوحي: ما ذنبي، ما جرعتي.

المعنى: يصف الشاعر فتاته بالغصن المائس الأخضر، ويقول أنها لو أخذت روحه فلا اعتراض عليها، ويشكو منها فيقول أنها أخذت روحه بدون مصلحة، فما هو الذنب الذي اقترفه حتى يحصل منها ما حصل.

٢٢٦ ــ مطراشي: سفري. ذالوفي: مصيبة. انتحوا: أبعدوا كثيراً. هلالة: اسم.

٢٢٧ ــ جمة غدير: الغدير الصافي. بقفقوفي: الأرض المستوية الصلبة تحيط بها الرياض من كل جانب. محاجر: الأرض الليّنة ذات النبت الطيّب. فيضه: الأرض الواسعة المستوية التي تكثر فيها أنواع الأعشاب والحشائش. عقب: بعد. ما ساله: غب المطر والسيل.

٢٢٨ ــ الجدايل: جمع جديلة وهي الظفيرة. قياطين: حبال الذهب. عماله: صانعها.

المعنى: يشرح الشاعر في قصيدة طويلة منها هذه الأبيات أن سفرته مع البدو صارت وبالاً عليه، حيث أبعدوا به عن محبوبته التي يصف نقاوة وسعة عينها بالغدير الصافي الواقع وسط مبسط من الأرض تحيط به الرياض والأزهار، وذلك غب نزول المطر عليه فهو واسعاً منبسطاً صافياً، ويصف جدائلها الشقراء وكأنها خيوط الذهب المجدولة لدى صائغ الذهب.

٢٢٩ ــ لا تجي: لا تقترب. العنود: وهي قائدة الظباء ويشبّه الفتاة بها. تداري: من المدارات.

٢٣٠ ــ العنود سهيل: يشبّه فتاته بسهيل من بين النجوم. البيض: النساء. المجرة: نجوم المجرة الواضحة بالسماء. الفتيل: نوع من السلاح القديم جرى الكلام عنه في موضعه من الكتاب. السواري: نوع من السلاح الحديث جرى الكلام عنه.

المعنى: يحذّر الشاعر من الاقتراب من بيت تلك الفتاة التي تشبه قائد الصيد أو الاقتراب منه، ويشبّه تلك الفتاة بنجم سهيل المضيء الجميل بين نجوم المجرة الكثيفة والخافتة، وقارنها ببندقية الفتيل القديمة التي هي أقل جودة واتّقاناً من بندقية السواري الحديثة الفتّاكة في الزمن الذي قيلت القصيدة فيه.

٢٣١ ــ واوجودي: يتوجّد على محبوبته. فاطر: الذلول المسنّة الصلبة. غرّة القيد: قيّدها لترعى من حواليه فانطلق قيدها وضاعت منه. فروع المضامي: في المضماة والمهالك.

٢٣٢ ــ الموارد: جمع مورد، وهو مكان تواجد الماء. الدحل: الماء القريب على سطح الأرض في الأودية، ويمكن الحصول على الماء بالبحث قليلاً في التراب. جرة: أثر. غشاها: أضاعها. العسام: الغبار العالق بالجو أو الضباب الذين يحجبان الرؤ ية.

٢٣٣ ــ خشف: الفتى من الظباء. دقه وجلّه: كبيره وصغيره. عذبت: أتعبت. ناقل البندق: الصياد. سريع الولامي: سريع الاستعداد.

المعنى: يتوجّد الشاعر على محبوبته كوجد من ضيّع راحلته في وسط مفاوز الصحراء التي لا ماء فيها، حيث يخشى على نفسه من الهلاك عطشاً، وقد قيّد مطيته لترعى من حوله فقطعت القيد وضاعت ولم يعثر لها على أثر بسبب ما يلبّد الجو من الغبار الذي ضيّع أثرها، ويصف تلك المحبوبة بقائد الصيد وهي الغزلان، هذا القائد الذي عذّب الصياد الذي يطارده بسرعة استعداده وكلما مدّ بندقيته عليه زاغ من أمام بصره.

٢٣٤ ــ غدو به: أخذوه وذهبوا به. المحال: بكرات ينزف عليها الماء. العساكر: جمع عسكر. لجته: صوت طنينها وجلبتها. الضبط: جزء من بلدة قفاء.

المعنى: تقول الشاعرة أن الماء أخذه جزء من أهل البلد، وكانت بلدة قفار بقرب حائل قد شحّت فيها المياه الجوفية في أحد السنين مما دعاهم إلى أن يبدأوا بنزف الماء من الآبار في آن واحد وعلى صوت طلقة البندقية، وهذه الفتاة تتوجّد على الحصول على كمية أكثر من الماء لسقي نخيل أبيها.

٢٣٥ ـ واونتي: من الأنين. الصغير: صغير السن. يشيب: يبدأ الشيب برأسه. كبـر الجبل: هذه الونة كبر الجبل ويقصد به جبلي أجا وسلمى ورمان. والنير: الجبل المعروف بنجد. خشوم سنجار: جبال سنجار الواقعة في شبه جزيرة الفرات.

٢٣٦ ـ عليل: مريض. لقوا له: وجدوا له. طبيب: مداوي. غادي: صائر. عظمه انثار: قد تناثر عظمه.

المعنى: يصوّر الشاعر تلك الأنّة التي خرجت من بين جوانحه كبراً بأنها كبر تلك الجبال الثلاثة مجتمعة وهي الجبل، أجا وسلمى ورمان والنير وسنجار، تلك الأنّة التي تشبه أنّة مريض لم يجدوا من يداويه أو كسير أصبحت عظامه أنثاراً، والقصيدة طويلة يجسّد بها الشاعر خلجات قلبه.

٢٣٧ ـ نطيت: ارتقيت. المرقاب: ما يعتلى برأسه كالجبل وغيره. لين: حتى. الثـريا: النجم المعـروف. أدبحنى: ملن إلى الغرب عـلى وشـك الغروب.

٢٣٨ ـ واهنيك: أهنئك. المدابيح: اللواتي أوشكن على الغروب. جال: شاطىء. شرعنى: كرعن كأنهن يردن الشرب منه.

المعنى: يقول الشاعر أنه ارتقى رأس ذلك المرقاب طوال الليل حتى غاب القمر وحتى مالت النجوم ومنها الثريا نحو المغيب، ويهنّىء تلك النجوم التي غابت أو أوشكت على الغياب، حيث شرعت على

البحر وكأنها تريد الارتشاف منه، يهنئها أنها لم تشعر بآلامه المبرحة التي أسهرته طول الليل.

٢٣٩ ــ زعجت: أكثرت الأنين. تهيّضت: تداعت عليك أشجانك وخواطرك. بعالي: بمرتفع. رفيع الحمام: يقصد القصر ذو الشرفات النائفة المرتفعة.

٢٤٠ ــ المشقي: الذي أشقاه الله بالحب. الضوامي: الضامئة المتعطّشة. ما عليهن ملام: لا أحد يلومها خاصة فيمن يعرف سبب ظمأها.

المعنى: يقول الشاعر لصاحبه فهد أننا لا نلومك الآن بعدما رأينا ما رأيت، ولا لوم عليك لو هاضت عليك أشجانك وأنت تبني على شرفات تلك القصور المنيفة، لأن من تولّع بما تولّعت به لا لوم عليه خاصة من ذاق طعم اللوعة وأصبح قلبه ضامئاً إلى الارتواء.

٢٤١ ــ من قيل يا مرحوم: أي مات.

٢٤٢ ــ شدّوا: رحلوا. بارق الكنه: ربما كنه الثريا في أوائل فصل الصيف، عندما يعود العرب الرحّل إلى قرب مواطن الماء، كما سبقت الإشارة إليه.

المعنى: يتوجّد الشاعر وجد من فارق الحياة إلى العودة إليها، وذلك لأن صاحبه رحل مع أهله في بداية فصل الشتاء وسيمكث بعيداً عنه الشتاء والربيع، ولن يعود إلا في نهاية فصل الربيع وبداية فصل الشتاء حينما يعود العرب الرحّل إلى قرب المياه.

٢٤٣ ــ لا وابن عمي: أي إن ابن عمي. جيت: أردت. أبا أنساه: نسيانه. ليا هي: وإذا هي. الهجن: الركائب. حائل: ما حال الشحم بظهرها ولم تلقّح.

٢٤٤ ــ تطرب الهجن: يطرب المطايا بصوت حدائه. زعج فوقه: أي غنا فوق

ظهورها. بحامي: بشدة. القوايل: وقت القيلولة عند اشتداد الحر في منتصف النهار.

المعنى: تتوجّد الشاعرة على ابن عمها وزوجها الذي فقدته في إحدى غزواته، أنها كلما أوشكت على نسيانه ذكّرتها إياه مطيته التي طالما أتعبها في السير والسري وجلب الغنائم، لكن تلك المطية تراكم عليها الشحم بعد وفاته لأنها ارتاحت مما هي فيه، ومن ميّزات ابن عمها المفقود أنه يطرب الركائب بغنائه على ظهورها، والإبل تطرب مع الغناء وتغذ السير وتسرع في الوخد والذميل، وعادة يغنون على ظهور الإبل عندما يشعرون بتعبها، وخاصة في وقت القيلولة عند اشتداد الحر.

٢٤٥ ـ شيلن: أي أسرعن. بناشله: أي أسرعن بنا إسراعة بعد أخرى. شائيات: ذات شعر أبيض. المحاقيب: مكان حبل الحقب في أسفل البطن أمام الورك، وذلك لكثرة ما يشدّ حبل الحقب فيتأثر الشعر ويتغيّر لونه، وهذا دليل على صلابة المطية وطول خدمتها في الركوب.

٢٤٦ ـ واردن: أي وردن. مارد الذيب: المكان البعيد الذي يمناه.

المعنى: يقول الشاعر أيها الهجن أسرعن بنا مرة بعد أخرى، يا من لكن خبرة طويلة في قطع الفيافي والقفار، أسرعن بنا حتى تصلن بنا إلى المكان البعيد الذي قصدناه.

٢٤٧ ـ أشرفت: ارتقيت. ميقوع: أكمة بجانب منهل بوادي السرحان. طبيت: وصلت. من عرض: من ضمن.

٢٤٨ ـ الطعس: أصلها الدعص وهو المرتفع من الرمل الناعم المتراكم بفعل الرياح، ويكثر في الفنود وبرؤوس الحزون من الأرض الليّنة. بدموعي: بدموعه من البكاء. الهماليل: شآبيب السحاب.

٢٤٩ ـ يا للي: يا أيها الذين. منفوعي: نفع. حطوا: ضعوا. ضبة: رتاج الباب وهو بمثابة القفل له مفتاح جرى تفصيله في موضعه وهي من منتجات النجار.

٢٥٠ ـ فرا: شق. الجيب: جيب الثوب. لا فر: إذا أصابه الفرار. وش طبه: ما علاجه.

المعنى: يقول الشاعر أنه ارتقى الأكمة على منهل ميقوع وهو من ضمن من وصل إليه غير أنه يختلف عنهم لأنه غرّق ذلك الدعص بدموعه التي تشبه شآبيب السحاب عندما تصب، ويطلب ممن يريد نفعه أن يضع على قلبه قفلاً محكمًا لأن قلبه شق جيبه وضلوعه وخرج منها ولا يدري ما علاجه.

٢٥١ ـ فريحة: اسم إمرأة. ناح: أي جرّ صوته بالهديل. سلال الأرواح: الموت.

٢٥٢ ـ الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة. وشاح: أتوشّح به. طوق: يحيط بالرقبة من المنظومات. مسباح: منظومة من الخرز للتسلية والتسبيح.

٢٥١ ـ مار: لكنك. ما تنصاح: لا تقبل النصيحة.

المعنى: أن فريحة قالت له أن الحمام ناح على الأغصان وذكّرها بأشجانها، وتدعو على ذلك الحمام بالموت الذي يسلّ أرواحه، وتنادي الحمام بأن يعطيها أجنحته لتطير بها إلى من تريد، ومقابل ذلك تعطيه أغلى ما تملك وهو طوقها الذي يزيّن عنقها ومسباحها الذي تسبّح به وتتسلىّ به، لكن الحمام لم يستجب لنصحها رغم وقوفها على بابه مادحة مثنية متمنّية عليه ما تريد منه.

٢٥٤ ـ قراهن: ميزتهن وعلامتهن. النسانيس: جمع نسنوس وهو أعلى أنف الناقة. الغارب: مقدمة الظهر ما بين الكتفين، والهجن التي تتّصف

بهذه الصفة تدلّ على قوتها وصلابتها وكثرة مراسها في قطع المسافات.

٢٥٥ ـ يلفن: يصلن. ابن جابر الشايب: الممدوح أمير بلدة الحائط «فدك».

المعنى: يوصي الشاعر راكب تلك المطية التي شاب مقدمة أنفها وغاربها من كثرة الإدلاج بأن يقصدن بيت الممدوح وهو ابن جابر ليجد ركابها الترحيب والكرم والجود وهو ما اشتهر به الممدوح.

٢٥٦ ـ شفت: رأيت. طفلة: أي فتاة. ريفي: ما أرتاح لرؤيته.

٢٥٧ ـ ريمية: تشبه الظبية. هين جفلة: سهل نفورها. ما ينعرف له: لا يعرف لها. مواقيفي: أماكن وقوف وتواجد.

المعنى: يقول الشاعر أنه رأى بالأمس فتاة جميلة لم يرها اليوم، وهي تشبه الظبية التي يسهل نفورها، ولا يعرف مكاناً تقف فيه مرة أخرى ليمتّع عينيه بمشاهدتها.

٢٥٨ ـ يومك: حينما كنت. تتّقي: تلوذ. بالعريش: صف من جريد النخل، ويسقف على هيئة غرفة من نفس الجريد. الشرف: جمع شرفاء، وهي بنادق جاءت إلى نجد في عهد إمارة الأشراف بمكة. ما فكيتها: أي لم تحمها.

٢٥٩ ـ خريش: به فزع وخوف. المرجلة: طرق الرجولة. خليتها: تركتها.

المعنى: يقول الشاعر لو كنت تتقي شر ضرباتنا بالعريشة ولم تحم سلاحك الذي يعتبر من أفضل السلاح في ذلك الوقت، وذلك لأن قلبك أصابه الفزع والخوف فتركت طرق الرجولة وانهزمت.

٢٦٠ ـ سابقي: يقصد فرسه. عند اللزوم: عند الحاجة. خيالها: عندما أكون راكبها.

٢٦١ ـ سماريت الحزوم: الحزون الممتدة لمسافات طويلة. المعمعة: وسط المعركة. تجوالها: المكان الذي تتجوّل فيه.

المعنى: يقول الشاعر أن فرسه عند الحاجة تصل به إلى ما يريد بعد أن تقطع المسافات الطويلة وتصل إلى قلب المعركة.

٢٦٢ ـ النضا: الركائب النجيبة. المكرمات: الخيول الأصيلة.

٢٦٣ ـ رد النقا: معناه أتحدّاه أن يبارزني. قولوه: أي أعلنوه. الموجفات: المغيّرات، يقصد من أرسلهم إلى خصمه.

المعنى: يتحدّى الشاعر خصمه بهذه الأرجوزة، ويقول له إذا كان لم يأتنا فإننا سنأتيه فوق الهجن والخيل، وإنني أتحدّاه أن يقابلني ويبارزني وأعلنوا ذلك للملأ أيها الركب المتوجّهين إليه.

٢٦٤ ـ الدحة: مكان الاحتفال.

٢٦٥ ـ القمراء: ضوء القمر. تفضحنا: تبينّ سرنا. يبرق موضينا: في وقت الظلام تضيء وجوه الصبايا اللواتي يلعبن معنا.

المعنى: يقول الشاعر أنهم أتوا إلى مكان الحفل عندما سمعنا صوت المنادي بذلك، ونلعب تحت ستار الليل، وإذا سطع نور القمر فإنه تضيء عليه وجوه الحسان اللواتي يلعبن في ميدان اللعب.

٢٦٦ ـ بالمصنع: مكان الملعب. العندا: هي الظبية ويرمز للفتاة. حليلة: ما أحلاها.

٢٦٧ ـ تجفل: تتذيّر. شليله: أسفل الفستان.

المعنى: يقول الشاعر أن سهرتهم تلك الليلة بميدان اللعب الذي تلعب فيه تلك الفتاة التي تشبه الغزال الصحراوي والتي يفزعها لمس أسفل فستانها إذا لامس ساقيها.

٢٦٨ ـ ليا جا: إذا جاء. صوتنا: أي تنادينا. على الملعب: هلمّوا للعب. يا غزلان: يعني الفتيات.

٢٦٩ ــ العود: يقصد الرجال المسنّين. يجنبنا: لا يأتون إلينا. بس: فقط. الصبيان: الفتيان.

المعنى: يقول الشاعر، هلمّوا أيها الشباب والشابات إلى ميدان الملعب، ولا يأتي إلينا الشيوخ المسنّين، وإنما يأتي إلينا الفتيان والفتيات القادرين على اللعب كما ينبغي.

٢٧٠ ــ نطيت: ارتقيت. المذيريب: جبيل ملموم له ذروة عالية. طلعة البيضاء: طلوع الشمس. غابة: إلى غياب الشمس.

٢٧١ ــ عوى عاوي الذيب: أي جاوبني الذئب بالعواء عندما سمع صوتي. ذاب القلب وجداً، ودمعة العين رابة: أي رأيت الدموع في عيني تكثّفت وتخثّرت.

٢٧٢ ــ جاك خطيب: جاءها من يخطبها. يبغاه مني: يريدها مني. مار قولي: ينبغي أن ترحّبي به.

المعنى: يقول الشاعر أنه ارتقى رأس ذلك الجبل العالي من طلوع الشمس حتى غيابها، وبدأ يغنيّ أو يصيح، وعندما سمعه الذئب ظن أن يعوي مثله فبدأ يجاوبه، وقد ذاب قلبه وجداً وراب الدمع في عينيه، ويطلب الوساطة من سعود لدى أمه أن تقبل به خطيباً لها إذا جاءها خاطباً.

٢٧٣ ــ فرير: من الفرار والفزع. تمزع: تفطر. ضميري: قلبها. العشير: الصاحب. دب: على مدى. ما أنساه: لا يمكن أن أسلو عنه.

٢٧٤ ــ يهله: يسكبه. نظيري: عينيها. لو هو: لو كان. واد الحليفة: وادي الرمة.

٢٧٥ ــ عليه: أي على فراقه. مزعنا: مزقنا. شوك الهصير: شوك جريد النخل

الغض. بروس الأقدام: برؤوس الأقدام أي كأننا نمشي على الشوك العاسل.

المعنى: تصف الشاعرة ما هي فيه من الوجد على من فقدته والذي لا يمكن أن تنساه في يوم من الأيام، وبدأت تسكب عليه الدمع الذي لو كان على وادي الرمة التي تقع عليه الحليفة لسال من كثرة الدمع، وهذه مبالغة، وتقول من شدة الحزن فقد مزعت ثياب الحرير التي كانت ترتديها وداست بقدميها شوك النخل العاسل.

٢٧٦ ـ نطيت: ارتقيت. المرقاب: ما يرتقب به من المرتفعات والجبال. أوميت بالخمس: أومأت بكفّ يدي. وادي النضا: اسم وادي. وين: أين. خليّ: صاحبي.

٢٧٧ ـ كان أمس مثل اليوم واليوم مثل أمس: أي إن كان اليوم مثل أمس لم أحصل على ما أريد. وإن كان باكر مثلهن: والمصيبة إن كان الغد مثلهن لم أعرف شيئاً عن صاحبي. زاد غلي: زادت أشجاني.

٢٧٨ ـ خلي عقد لي عقدتين بلا لمس: ربما أن هذه العقد التي تشير إليها عقد العهد والميثاق. وأنا عقدت الثالثة: زيادة في التأكيد على الوفاء بعهدها.

المعنى: تقول الشاعرة أنها ارتقت رأس ذلك المرقب العالي ولوحّت بيدها تستفسر من ذلك الوادي وتسأل عن صاحبها، وتتأوّه على إن كان يومها مثل أمسها والمصيبة إن كان غدها مثلها، وأفادت أنهما تعاهدا على شيء بينهما وقد التزمت بالحفاظ على العهد الذي تم بينهم.

٢٧٩ ـ تمّ شرحه برقم ١١٢.

٢٨٠ ـ بيض: النساء. تعاطن اللحن: يتبادلن اللحن. فوق: بقرب.

مهباش: ما يهرس به الحبوب. قاس العود: تلك العصا الغليظة التي يهرس بها الحبوب.

المعنى: يقول الشاعر أن ما يطربه في هذه الحياة وجود الدلال التي تعمل بها القهوة العربية، وتلك الصينية التي يقدّم بها الطعام واللحم للضيوف، وكذلك صوت النساء إذا صرن يردّدن أهازيجهن أثناء هرس الحبوب بالمهراس لتجهيزها للطبخ للضيوف، فهذه الأشياء هي التي يتمنّاها ويسعد بها.

٢٨١ ـ نجم: نجم معين. تلالا: تلألأ وهي مخففة. صوب: جهة. ديرة هلي: بلد أهلي. المجمول: الجميل. حصلتناه: حصلت عليه.

٢٨٢ ـ صاحبي: أي محبوبي. ينقش الحنا: يضعها بكفّيه بطريقة فنية تشبه نقش الكاتب للحروف من التنقيط وغيره. المطوع: الخطيب الذي يجيد الكتابة.

المعنى: يقول الشاعر يا أيها النجم المتلألىء ناحية بلد أهلي بشّر والدتي أنني حصّلت ما كنت أتمنّاه وهي إلى جانب جمالها الطبيعي فهي ممن يتفنّن في العناية بجمالهن، حيث تضع الحناء في كفّيها بطريقة فنية تجلب الانتباه.

٢٨٣ ـ يا غزيل البكر: تصغير غزال، ويرمز إلى الفتاة. وش جابك: ماذا جاء بك. تجلب: تبيع أو تباع إن كان على رمز الغزال. البكيرية: مدينة بالقصيم.

٢٨٤ ـ تجلب خفى: تبيع خفية. ما درينا بك: دون أن نعلم بك إلا بطريقة الصدفة. باتية الخير: إن هذا مجيء الخير، ذلك المجيء الذي حصل بالصدفة.

٢٨٥ ـ ما تشوف حالي: أما ترى حـالي من أسباب تعلّقي بك. مثل العيادين: كأنها الأعواد المبرية، حيث لم يبق عليّ لحم وبقيت جلداً على عظم.

المعنى: يشبّه الشاعر تلك الفتاة بالغزال الذي جاء بدون أن يعلم به ورآه في سوق البكيرية بالصدفة، ويقول أن هذا المجيء هو مجيء الخير، ويشكو إليه حاله وما به من الآثار التي تسبّب هذا الغزال له بها حتى أصبح وكأنه الأعواد الدقيقة المبرية.

٢٨٦ ـ واونتي: أنتى من الأنين، أنة ذلك المريض. عنوا به: جاءوا به من بعيد. عضيض غلث: قد عضّه الغلث وهو الكلب أو غيره من السباع المصاب بداء الكلب. وشم دم البرازي: البرازي فخذ من قبيلة مطير يقال أن من عضّه الغلث فإما أن يشفيه جزء من دم ذلك الإنسان من ذلك الفخذ، هذا إذا كان المرض جديداً، أو يقضي عليه في الحال إن كان داء الكلب قد توغّل في جسمه.

٢٨٧ ـ على الذي: على ذلك الذي، يا خليف اسم. ماني بصوبه: لست بقربه. ولا هو مجازي: لا قريب لي بالعصبة، ولا يجوز أن أحصل عليه.

٢٨٨ ـ الخد قرطاس الشريف: يشبّه خدّها بالقرطاس الأبيض، في ذلك الوقت لا يرد الورق إلا للحكام والشريف حاكم الحجاز آنذاك. عين اللي ربت بالنفازي: يشبّه عينها بعين الظبي التي ريت في البراري القفر لا يردعها أحد.

المعنى: يئنّ الشاعر مثل أنّة ذلك المريض الذي جاءوا به من مكان بعيد ومرضه «الغلث» داء الكلب الذي أحضروه لذلك الرجل من فخذ البرازات من مطير، الذين يقال أن جزء من دم الواحد منهم يشفي من هذا المرض إن كان المرض حديثاً أو يقضي على المريض إن كان لمرض مستعصياً به، هذه الأنّة وذلك التشبيه على تلك المحبوبة التي ليست بقريبة للشاعر ولا يمكن الحصول عليها، هي صاحبة الخد الأبيض الناصع الذي يشبه بياض الورق الموجود لدى الحكام وعينها

تشبه عيني تلك العنو دمن الظباء التي عاشت في قفر البراري لا يذيرها مذير.

٢٨٩ ـ لو جان: لو جاءني. ما همن: ليس له أهمية عندي. لا عـاد: إذا كنت. ما أعايد الغالي: إذا كنت لا أبادل المحبوب التحية والمعايدة.

المعنى: يقول الشاعر أن العيد ليس ذا أهمية عنده ما دام محبوبه بعيد عنه.

٣٠٠ ـ وديده: من يودّه.

المعنى: يقول الشاعر من قصيدة أن يوم العيد كان عليه ترحاً وذلك لأن الناس في يوم العيد كلّ يزور من يحب ويتبادل معه التهاني بالعيد، أما هو فإنه نهار العيد بقي يبكي ويذرف من الدموع.

٣٠١ ـ يا خلف يا لفغم: اسم شخص. ليتك ضحى العيد عندي تشوفي: ليتك تراني ضحى العيد.

٣٠٢ ـ حطيت: وضعت. خضّبت: وضعت الخضاب وهو ما تتزيّن به النساء آنذاك.

المعنى: تتمنىّ الشاعرة أن يكون زوجها الغائب عنها قريب منها في يوم العيد الذي أظهرت فيه أقصى درجة تجمّلها، ولكن هيهات فهو بعيد عنها.

٣٠٣ ـ كبش مقرن: الخروف ذو القرون الطويلة. عيش العـراقي: الأرز العراقي «التّمن». فراش: تحت اللحم.

المعنى: يقول الشاعر أنه يقدّم لضيوفه الخراف الكبيرة فوق الصواني الكبيرة، وتحت هذه الخراف الناضجة الأرز العراقي «التِّمَّن» وهو من أفخر أنواع الأكل آنذاك، وهذا دليل على كرم الرجل الممدوح بالقصيدة.

٣٠٤ ــ أحوف: أجهز. المعاميل: أواني القهوة من الدلال والمحماس والنجر وغيرها. أثنيه: أطبخه مرة ثانية.

المعنى: يقول الشاعر أنه إذا ضاق صدره جهّز أدوات القهوة وبدأ يعملها ويرتشفها ويتسلىّ بها، فتؤانسه مع أنها تجمع عليه بقية صحبه ليرتشفوها معاً ويتبادلوا أطراف الحديث.

٣٠٥ ــ مزيت: ارتشفت. من بكره: أول طبخة لها. ثلاثة فناجيل: من عادة بعض القبائل شرب ثلاثة فناجين فقط من الطبخة حتى يشرب منها أكبر عدد ممكن. كيس الشقيري: التنباك «الفلة» بدون تجهيز. مصره: صرّته.

المعنى: يقول الشاعر من قصيدة طويلة أنه شرب من دلّته ثلاثة فناجين، وبدأ يشرب من التنباك الموجود في صرة مفتوحة إلى جانب دلال القهوة، وبعض الأحيان يقترن شرب القهوة مع شرب الدخان للمدمنين عليه، وهم قلّة آنذاك.

٣٠٦ ــ دنيت: جهّزته ووضعته على النار. المحماس: هي المحماسة التي يحمّص بها البن. خذا ميل: أخذ ملئه. برية: القهوة البرية القادمة من اليمن، صنعاء اليمن. مقره: مصدرها.

٣٠٧ ــ ياماحلا: ما أحلى. برقط الفناجيل: الفناجين المزركشة والمنقّشة. دولابة: الإبرة. تجره: يقصد أن صبّتها تشبه سلك الإبرة عند الصب.

المعنى: يقول الشاعر أنه بدأ بعمل القهوة وذلك بتجهيز المحماسة وأخذ ملء يده من تلك القهوة البرية القادمة من صنعاء اليمن، وهي من أفخر أنواع القهوة، وما أجمل صبّها بالفناجين المنقوشة على مهل، حيث تبدو بين الدلة والفنجان وكأنها سلك الإبرة، وهذا من باب التكيّف والتفنّن في شرب القهوة.

٣٠٨ ـ دنيت: أحضرت. ما لاق: اللائق. بالكف ناقيها: منقيها من الشوائب والعوالق وهو العذف.

٣٠٩ ـ نديمي: منادمي على القهوة. على ساق: متتابعة. جمر الغضي: نوع من الشجر ناره شديدة الحرارة. يفضح: تنتشر رائحة. السوق: الشارع القريب من المكان.

٣١٠ ـ إياك: أحذّرك. النية: النيئة. أصحا: انتبه. مطفوق: مستعجلاً.

٣١١ ـ ليا: إذا. أبشت بالأعراق: إذا كسى حبيبات القهوة المحموسة العرق، وهي مادة دهنية تخرج من حب القهوة عند تحميصها على النار. الياقوت: نوع من الأحجار الكريمة. يطرب لها الموق: يرتاح لها النظر.

٣١٢ ـ عطت: انتشرت رائحتها بسرعة، تلك الرائحة الفاضحة الفاخرة النفاذة، وكأنها رائحة العنبر التي تستنشقه بالأنفاس.

٣١٣ ـ مشتاق: من يرغب شرب القهوة. راع: صاحب. الهوى: من يهوى القهوة وعملها وارتشافها بدافع الكيف. دق بخفوق: أي أن دقة النجر على الطريقة الفنية.

المعنى: يجسّد الشاعر بقصيدة طويلة تعتبر من غرر الشعر الشعبي فيما يتعلّق بالقهوة العربية، يصف بها صنع القهوة وما يجب أن تكون عليه من المواصفات الفنية الدقيقة التي تنبىء عن خبرة ودراية بالقهوة، ووصفاً كاملاً لأوانيها وكيفية تقديمها للضيوف، والقصيدة في مجملها تبينّ مكانة القهوة في المجتمع آنذاك قبل حوالي قرن من الزمان.

٣١٤ ـ الطبخة: عادة ملء الكف، والمقصود هنا القهوة. أعزم وزم: توكّل على الله وابدأ بعملها. كب: أترك. التحاسيب: حسابات الربح والخسارة.

٣١٥ ـ خلّه يسوّيها: وليعملها. الربع: الأصحاب. عجاب: مرح. خلّه يزيّن: يجمّل عمله للقهوة. بالتعاجيب: بالملح والحكايات المسلية.

٣١٦ ـ كبه: أسكبها من المحماسة. العرق: المادة الدهنية التي تخرج من حبيبات القهوة عند تحميصها. كالورد: كأنه دهن الورد. الزمرّد: نوع من الأحجار الكريمة. ليا ذيب: أي كأنه دهن الورد المذاب على الزمرّد.

٣١٧ ـ النجر: ما يدق به القهوة. عقبه: بعدها. الرعابيب: جمع رعبوبة، وهي الفتاة الطويلة البيضاء الجميلة، يشبّه صبغة القهوة بالنجر من درجة اتّقان حمستها وكأنه لون الحناء بكف تلك الفتاة البيضاء الجميلة.

المعنى: يقول الشاعر من قصيدة طويلة، إذا كان لديك قهوة فلا تردّد في عملها ولا تلتفت للربح أو الخسارة، واختر من يعملها من الأصحاب الظرفاء الذين يسلّون الحاضرين ويؤانسونهم بالملح والنكات والابتسامة والمرح، فإذا طفح العرق من فوق حبيباتها فهو دليل نضوجها، ذلك العرق الذي يشبه دهن الورد إذا أذيب فوق حبات الزمرّد، وستجد أنها قد صبغت بالنجر كما تصبغ الحناء بكفّ الفتاة البيضاء الجميلة.

٣١٨ ـ كليب: اسم أو لقب. شب النار: استعداداً لعمل القهوة. إيجابي: يحضر.

٣١٩ ـ الهيل: وهو ما يضاف للقهوة العربية «تُبهّر به». تقليط: وضعها على النار. العذابي: النقيات النظيفات.

المعنى: يدعو الشاعر كليب بأن يشب النار وسيحضر له الحطب والقهوة والهيل وكل ما يلزم وما على المنادى سوى وضع الدلال على النار والبدء بعمل القهوة، والقصيدة طويلة وهي من القصائد البارزة بهذا المعنى.

٣٢٠ ـ سو: أعمل. مقصور: أي الماء على مقدار الطبخة. إبهار: الطعم والرائحة والنكهة.

٣٢١ ـ لا شف: إذا ارتشف. مدمور: غير متّقن. مخملينا: مخالفين للقواعد الصحيحة.

٣٢٢ ـ التول: هو فثال القهوة. منزهات: منظفات عن أي شيء.

٣٢٣ ـ الكاس: الفنجان. بهجور: النكهة التي تعلق بالدلة إذا أبطأ عمل القهوة فيها.

٣٢٤ ـ مذلقة: ثعبتها. حيمور: صبغ دم الشريان. الوتينا: الشرايين.

المعنى: يوصي الشاعر بعمل فنجان من القهوة ماءها على قدر حبّها مع الإكثار من الهيل، ويوصي من يعمل القهوة باتّباع الطرق الصحيحة لعمل القهوة حتى لا تمتد ألسنة النقاد إليها وحتى يصبح لونها كأنه لون الصبغ المركّز الذي يشبه دم الشريان في قوة اندفاعه.

٣٢٥ ـ فْيَ: الظل. مشمرخات: الذرى المرتفعة. الهضاب: الجبال.

٣٢٦ ـ أدغث: أكثر. جزل خبة: الحطب الجزل وهو الأرض المجلوبة من خبائب النفود. قلط: ضعها على النار. لون الغرابي: يعني الدلال السوداء من كثرة ما توضع على النار.

٣٢٧ ـ حنكية: شديدة السواد. نربه: تجلى وتطلى بـالخارصـين لتبييضها. لفودها: مثانيها. سنا النار: سواد النار. هابي: متجمّع.

المعنى: يوصي الشاعر ابنه عليّاً بأن يشب النار وقت الأصيل إذا مال عليه ظل الجبل واستقبل الليل استعداداً لضيوف الليل. ويحثّه على وضع الجزل من حطب الأرطى المجلوب من النفود وذلك ليبقى مدة طويلة تشتعل فيه النار، وأفاد أنه لا يعتني بنظافة مظاهر الدلال وأن

لونها أسوداً من كثرة ما توضع على النار لعمل القهوة، وهذه القصيدة من أجود ما قيل بالقهوة.

٣٢٨ ـ بمنومس: يعني الدلال. لقّم: أي وضع القهوة المسحوقة بالدلة. شغل ابن سكران: نوع من الدلال. توليف: صنعة.

٣٢٩ ـ السنافي: القرم، السريع. شامية: يعني الدلة صنع الشام. طرف: أجذب لها شيء من الجمر وضعها عليه.

٣٣٠ ـ الغوش: الفتيان. شافي: نبيه يعرف كيف يصنع القهوة باتّقان.

٣٣١ ـ زلّه: أسكبها. سريب المصافي: فثال القهوة الذي يوضع بالدلة الكبيرة. خوفة: مخافة. الكيف: القهوة. يا حيف: كلمة عتاب لمن لمس شيئاً غير مرض.

٣٣٢ ـ إبهارها: أي الهيل الذي يوضع بها: يمة: جهة. لافي: قادم. مركب: سفينة. يقداه: يتبعه. العواصيف: الرياح والأمواج.

٣٣٣ ـ فنجالها: أي القهوة. شف: ارتشف. الأشافي: الشفائف. ليا تقل: كأنه. يجذب: يقتلع. شفا: حافة. شاربه: شعر الشارب. شيف: شوك جريد النخل.

المعنى: يضع الشاعر بقصيدة طويلة ممتازة منها هذه الأبيات، النقط على الحروف في كيفية صنع القهوة العربية، فيختار أجمل الدلال صنعاً وهي صنع ابن سكران، ويتفنّن في اختيار من يعمل القهوة، إنه شاب قرم من ذوي الخبرة والدراية في صنع القهوة، وزيادة على ذلك يوصيه باتّقانها مخافة أحد ينتقدها، تلك القهوة التي جاء هيلها من الهند وهي مشهورة بإنتاج الهيل في تلك السفينة المحفوفة بالأخطار، والبيت الأخير هو روعة في التركيب والمعنى فكأن الشارب من هذه القهوة إذا ارتشف منها فنجاناً كأنه يقتلع من شعر شاربه شوك، وذلك لشدة تأثير

القهوة المتّقن صنعها، فامتزاج طعم القهوة المرّة وطعم الهيل القارص ذو الرائحة النفاذة جعل لارتشاف الفنجان لسعة قوية يشعر شاربها أنه يقتلع من شاربه شوك النخل شديد اللذع.

٣٣٤ ـ الفنجال: المقصود فنجان القهوة. سيحة البال: عندما يكون مستأنساً. نفوس ثقيلة: يقصد ذوي النفوس الثقيلة.

٣٣٥ ـ ندور: نبحث. بديله: بديل له.

المعنى: يتمنىّ الشاعر فنجاناً من القهوة في مجلس كلهم من ذوي النفوس الكريمة، وكلهم أقاربه ابن العم وابن الخال والصديق الذي لا نرغب عنه بديلاً.

٣٣٦ ـ لاجا محله: إذا جاء وقته. خطو: بعض. الغشمري: النجيب الكريم. حومة الطير: قبيل أذان الظهر عندما تكون الشمس فوق الرأس.

٣٣٧ ـ يوقد بجرم: وقودها من جذوع الرمث. جله: دمن الإبل.

المعنى: يتمنىّ الشاعر فنجاناً من القهوة عند الحاجة إليه، وذلك قبيل أذان الظهر عندما يلعب التعب بالرؤوس، وذلك من دلال بعض الكرماء الذين يرحّبون بمن جاءهم والذين يوقدون النار بأحسن الحطب وهو جذوع الرمث.

٣٣٨ ـ صبّه: أي القهوة. يثني: يدافع. خلاف المقافي: عن ظهور المنهزمين. الفرنج: يقصد البنادق. تقذف الملح: يقصد قذف ملح البارود مع الطلقات من أفواه البنادق، فهذا هو الذي يستحقّ القهوة أولاً.

٣٣٩ ـ اللي: الذي. إذا غليت: يقصد القهوة. شراها جزافي: أي شراها بالجملة. ما رطله: لا يشتريها بالرطل والوزنة. الدلالين: البياعين. بانصيف: مكيال يساوي نصف الصاع وقيل ربع، وهذا الثاني الذي يستحقّ القهوة.

٣٤٠ ــ نفل: خصه بها. بالمروات: بالمروءات. ما دوّر: لم يبحث. التجرات: لم يتاجر بها ويبحث عن المكاسب بها، وإنما يقدّمه لقاصديه بالمجان مع طلاقة الحبين.

المعنى: يأمر الشاعر في هذه الأبيات من قصيدته من يعمل القهوة بأن يصبّها أولاً لأولئك الشجعان الذين يذودون عن الحمى، ثم بعد ذلك أولئك الكرماء الذين يشترونها بالكميات الكبيرة وينفدونها في البذل للآخرين، وبعدهم أهل المروءة والبذل والعطاء، وبعد ذلك يصبّ لمن سواهم ودليل تقديم هؤلاء بالقهوة لمكانتهم بين قومهم.

٣٤١ ــ ما راخص: لن يرخص. مير صنعاء: القهوة الواردة من اليمن. ابن الحيدان: من الكرماء المشهورين على زمن الشاعر وهو من تميم يسكن وادي الحفن شرق جبل رمان. على جاهد القاع: أي حيّاً يدب على الأرض.

٣٤٢ ــ الزوم: من يرى في نفسه ماليس فيها من الكِبَر. ثلاث الأصباع: الذي يأخذ طبخة القهوة بقبضة أصابع يده الثلاث الخنصر والبنصر والوسطى.

المعنى: يقول الشاعر لن يرخص من بضاعة صنعاء اليمن وهي القهوة شيئاً، وابن لحيدان ناصر ممدوح الشاعر حيّاً يرزق لأنه يشتري بكميات كبيرة ويقدّمها لضيوفه، وما تنفد يده من القهوة في ساعة واحدة فهو يكفي شهر لمن يرى في نفسه ويزعم فيها.

٣٤٣ ــ ليا: إذا. جبت: أحضرت.

٣٤٤ ــ سوّ: إعمل. خمسة أجناس: هي القهوة، والهيل، والقرنفل، والزعفران، والعنبر. حرقة: تحرقها. نياها: نيئة.

٣٤٥ ــ خلك: كف. عذروب: عيب. قيس لها الطبخة: إجعل الماء على قدر الحب.

٣٤٦ ـ يجي: يصير. الأعماس: التعب والإرهاق. عقب: بعد. الصلف: شدة التعب. السهر: عندما يكون ساهراً.

٣٤٧ ـ خصّص: صبّ لهم أولاً. مشاكيل: عليّة القوم. على النار: بقرب النار. حبوس: عقوم، والمراد بهم الذين يركن إليهم في المهمات. بعيد مداها: على المدى البعيد.

المعنى: يقول الشاعر أنه إذا ضاق صدره جهزّ أدوات القهوة وأمر «القهوجي» أن يعمل فنجاناً من القهوة من خمسة أجناس، ولا تكن حمستك لا نيّئة ولا محرقة، وإجعل الماء على قدر طبخة الَحبّ، حتى يكون فنجانها مركّزاً يجلي التعب وينبّه عن السهر، فإذا جهّزت فإبدأ بعليّة القوم وخصّصهم، أولئك الرجال الذين يركن إليهم في وقت المهمات، وبعد ذلك أدر القهوة على بقية الحاضرين.

٣٤٨ ـ ضبيح: ضربها بخفقات موزونة متتابعة. المهاريس: النجور، مفردها نجر. شرّاب القهاوي: المدمن على شرب القهوة.

٣٤٩ ـ مجاليس: جالسات على النار. لزومي: لازم علينا.

المعنى: يقول الشاعر أنه يمحو صدأ نفسه صوت دقّات النجر، وعندما يسمع تلك الخفقات المدمن على شرب القهوة تهفو نفسه إلى قربها وارتشاف فنجان منها من تلك الدلال اللواتي دائمًا فوق النار، وهذه علامة الكرم، وإن إكرام تلك الدلال والعناية بهن حق علينا يلزمنا الوفاء به.

٣٥٠ ـ در: حليب. المباكير: الإبكار. ليا جت: إذا جاءت. تحاشي: تساق.

المعنى: يصف الشاعر ريق محبوبته بأنه ألذ من حليب الأبكار في وقت الربيع إذا جاءت من تلك الرياض المعشبة، وقد رعت من زماليق وزهور الأعشاب يكون لحليبها مذاق مميّز ونكهة ممتازة.

٣٥١ ــ يشادي: يشابه. در: حليب. عرب: معربات. مباهيل: لهن حليب كثير.

المعنى: يصف الشاعر حديث محبوبته بالحلاوة وكأن فيه العسل المذاب، ويشبّه حليب النياق المعربة ذات الحليب الغزير التي تدرّ به عند الحلب.

٣٥٢ ــ وضحا: الناقة البيضاء. الذود: مجموعة من الإبل من ٧ ــ ٣٠ ناقة. معطار: ذات الثدي الكبير. غبوقة: التي يشرب حليبها في المساء. الخطار: الضيوف. عطيفة: سريع درّها بالحليب.

المعنى: يقول الشاعر من قصيدة طويلة أن تلك الأرض المطلوبة ترعى بها نياقهم ذات الضروع الكبيرة والتي يُتّخذ من حليبها غبوقاً للضيوف، وهي بذات الوقت سريعة التعويض عما حُلِب منها من حليب.

٣٥٣ ــ سخى: أعطى. العضيبا: كلبة الصيد «السلقة». جروة: ابنة الكلبة. حضرمية: من سلالة حضرمية. أطارف بنانيها: أظفارها. خاضب: مخضّب.

٣٥٤ ــ ترى: تجد. ثوب راعيها: صاحبها. شلوح: شرائح. وحبلها: الحبل الذي يربط به رقبتها. كثير العقد من كثر ما هي تجاذب: من كثر مجاذبتها للحبل تريد الإفلات كثير العقد واللويات.

٣٥٥ ــ تحط: تضع. الجوازي: يقصد بها الظباء وهي من الجوازي التي لا تشرب الماء إلا قليلاً. رأس ذا عند رجل ذا: أي تطرح هذا بجانب هذا. كما الودع: كأنها نظم الودع الذي تنظمه الفتيات الكاعبات ويتّخذنه كقلائد لهن.

المعنى: يقول الشاعر أنه أعطى تلك الكلبة الجيّدة المخصّصة

للصيد والتي يرجع أصلها إلى سلالة حضرمية فهي ممتازة للصيد، ومن كثرة ما تحاول أن تفلت من صاحبها للانقضاض على الصيد وهو يمسكها، ولذلك تجد ثيابه قد تشرّحت بفعل أظفارها كما تجد الحبل الذي ربطها فيه كثير العقد واللويات من كثر ما تجاذبه، وهي تصيد كثيراً لدرجة أنها تضع الصيد هذه عند تلك وكأنها الودع التي نظمتها تلك الكاعب الحسناء لتضعها قلّادة لها.

٣٥٦ ـ الردات: التردّد. غراته: غفلة. يجي: يأتي.

٣٥٧ ـ قابل: جلس. المشراق: مكان تسطع به الشمس وهو مفضّل في أيام الشتاء الباردة. الكِنْ: الملاذ. الذرا: المكان الذي لا تطرقه الريح. حاشت: كسبت. الفوايد: جمع فائدة.

المعنى: يقول الشاعر أن من أكثر من التردّد على أماكن الصيد فلا بد أن يصيد منها في وقت تكون غافلة وغير منتبهة له، أما من جلس في الدفء بالمكان الذي تشرق فيه الشمس والملاذ عن الهواء البارد فيموت جوعاً من قلّة الفائدة التي يدركها بيمينه، وهذا البيت يحثّ على طلب الرزق.

٣٥٨ ـ بندق: بندقية. نحال: أي أصابهن النحول من كثرة مسك الأيادي بها. مقاضبها: مقابضها.

٣٥٩ ـ اليا: إذا. لفونا: عادوا. المقناص: مكان وزمان القنص والصيد. زعالي: غضبى. يعذر بها: يسبها ويبدي مثالبها.

٣٦٠ ـ مقيال: بعد فترة القيلولة. القائدة: تلك العنود التي تقود الظباء. مدق الكوع: المرفق والطلقة التي تضرب مع هذا الموضع ستصيب القلب ومعناه صيدها لا محالة.

المعنى: يقول الشاعر حتى إذا عاد الصحب من يوم القنص ولم

يصيدوا شيئاً، وكلّ يضع السبب والمسؤولية على بندقيته التي لم تصب الصيدة، ارتفعت القذيفة عنها أو انخفضت أو مالت يميناً وشمالاً، في هذه الحالة أنا بشرتهم بالصيدة السمينة التي أصابتها بندقيتي مع مدق المرفق ومع بسرة القلب، تلك البندقية العريقة التي صنعت قبل زمن في بلاد الهند البعيدة، وقد نحلت مقابضها من كثرة ما تمسّها الأيدي.

٣٦١ ـ الضاري: من الضراوة والقسوة. الهيلع: طويل الجناحين شديد الانقضاض. عقاب: من أشد الطيور الحارجة. المراقيب: ذري الجبال المرتفعة. نافل: متفوّق على جيله منهم في سنّه. بعيدين واقراب: أي البعيدين والقريبين.

٣٦٢ ـ الحر: النادر من الصقور. الكفوف: المخالب. المعاطيب: التي تعطب الصيدة. التبع: آخر درجة من الصقور. قناصة: من يقنص به. ما جاب: لم يحصل على شيء.

المعنى: يمدح الشاعر ذلك الرجل ويشبّهه بالعقاب الصارم شديد الضربات الذي تفوق على أقرانه الأقربين والأبعدين، فهو كالنادر من الطيور الذي يضرب بمخلبه الجارح ويظفر بالصيدة، وليس كالتبع وهو أردأ طيور الصيد الذي لا يصيد مالكه شيئاً.

٣٦٣ ـ راح: ذهب. العقاب الصيرمي: الذي يصرم ما أمامه من الصيد. ذايع الصيت: الذي شاع صيته وانتشرت أخباره. تراعد: ترتعش.

المعنى: يشكو الشاعر أنه فقد أعز شيء في حياته وهو ابنه الذي يشبّهه بالعقاب الصارم، والذي قد شاع خبره فملأ الدنيا، ويتعزّز لنفسه بعد فقده فهو لا يأمن على نفسه بعد حماية ابنه له ولذلك تجده ترتعش مفاصله.

٣٦٤ ـ حلياك: شبيهك. حر: النادر من الصقور. ملحوم: وهو الذي تزيد

ضراوته عند مشاهدته لحم الصيدة. متفهق: أي مائلة جناحيه إلى الخلف قليلاً وهو من ميزة الطيور الجيدة بحيث إذا انقضّ يشبه السهم. قطوعي: أي قاطع.

٣٦٥ ـ علم بالصيد: أي أن غريزة حب الصيد موجودة لديه قبل أن يعلّم ويدرّب. تعلوم: تعليم وتدريب. يودع: يجعل. بداد الريش: الريش المتناثر من الصيدة التي يضربها بمخلبه. شت: متشتّت. مزوعي: مزعاً.

المعنى: يشبّه الشاعر ممدوحه بالحر النادر الذي تزداد ضراوته عند مشاهدته للصيدة، فإذا انقضّ مال جناحاه إلى الخلف وأصبح مثل رأس السهم، وذلك الممدوح الذي علم بالصيد قبل تعليمه وتدريبه، فهو يجعل نثر الريش ومزع اللحم مشتّتة قرب مكان الصيدة، وهو كناية عن فعل الممدوح بأعدائه.

٣٦٦ ـ ٣٦٧ ـ سبق شرحها برقم ١٤٧، ١٤٨.

٣٦٨ ـ شلع: طار وارتفع. مقيله: مكان استراحته في وقت القيلولة. لم: إلى. مجمع: مكان التجمّع. أدلى: انقضّ عليها.

المعنى: تمدح الشاعرة من تشبّهه بذلك الحر الذي طار من مكان استراحته إلى مكان تجمّع الصيد وانقضّ عليها وأعمل فيها مخالبه ليصيد منها ما أراد.

٣٦٩ ـ ريعت: رجعت. تريبع: مثلما يعود الطير لصاحبه. لا شاف: إذا رأى. نسره: العلامة التي يضعها للطير. أجهزه: أسمعه. اندبانه: النداء الذي يناديه به.

المعنى: يقول الشاعر أنه عاد إلى صاحبه كما يعود الطير إلى صاحبه إذا رفع له العلامة المميزة وأسمعه الصوت الذي يندبه به ويناديه.

٣٧٠ ـ طير السعد: الطير الذي نتفاءل به. يا نور عيني: يا أغلى شيء في عيني. شهر بي: ارتفع بي. لم: إلى. الثريا: النجم المعروف والمقصود به الارتفاع. رقى بي: ارتفع بي.

٣٧١ ـ سلك العنكبوت: ذلك الخيط الرفيع الواهي. انحدر بي: انحدار حاد. يا جديع: اسم. بنقرة حضوضي: هي المنخفض السبخ الرخو الذي يقع بوادي السرحان، وهي حفرة سبخة رخوة يصعب على من دخل فيها الخروج منها، ويقال أنه لا يستطيع أن يخرج منها أحد، بل يغوص فيها ويموت. رما بي: أي قذفني.

المعنى: تقول الشاعرة أن ذلك الطائر اختطفها وارتقى بها إلى أعلى حتى قاربت النجوم ثم انحدر بها في مثل سلك العنكبوت إلى أن رمى بها في تلك الحفرة التي لا يخرج منها أحد، وهذا تصوير لحالة هي فيها، واستخدمت الرموز عوضاً عن التصريحَ بالأشياء التي تريد التعبير عنها.

٣٧٢ ـ طيور السعد: طيور الخير التي يتفاءل بها وهي كناية عن الرجال. الحباري: جمع حبارى وهو الطائر المعروف الذي تجهز الحملات لصيده، ولحمه لذيذ الطعم. ربعي: رفاقي. رمدها: الرمد الذي يصيب العين والمقصود أن رفاقي يعمي عينيك منظرهم فتطأطىء وتخفض طرفك وكأن بعينيك رمد.

المعنى: يقول الشاعر أن رفاقي هم طيور السعد التي لا تأكل إلا من خيار الصيد من الطيور، وهم لعينيك مثل العمى أو الرمد الذين إذا رأيتهم انكسر طرفك وأغمضت عينيك.

٣٧٣ ـ حنا: نحن. تعلا: ارتفع. بمشراف: بما يشرف من أعلاه. الجل: الكبيرة. الجسامى: السمينة الممتلئة.

٣٧٤ ـ أسمر: يقصد ملح البارود. الأتلاف: ما يتلفه. طقه: أي رماه. حط: جعل. أسبوق: القوادم وهي الريش الطويل في مقدمة الجناح. هدامى: مكسر ومتشتّت.

المعنى: يقول الشاعر أنه ورفاقه يشبهون ذلك النادر من الطيور الذي ارتفع حتى رأس ذلك الذروة الرفيعة من الجبل، يشرف من أعلاها على صيدته، لأنه لا يريد إلا خيار الصيد وهو الحبارى السمينة الجسيمة، لكنه أتته قذيفة قد دفعها البارود الجيد وضربته فنثرت ريشه شتاتاً.

٣٧٥ ـ هد: انقضّ وانطلق. قاره: الجبيل الململوم والمرتفع. لا شاف: إذا رأى. جول: فريق. السماقي: جمع سمّق وهو نوع من الطيور التي تصاد بالصقور.

المعنى: يشبّه الشاعر تلك السيارة الجديدة المنطلقة بأنها مثل انقضاض الحر النادر في صبيحة يوم المطر إذا رأى فريق من السمّق فيكون الطير جائعاً والجو صافياً والسمق ربما يشعر بالبرد فيؤثّر على حركته.

٣٧٦ ـ غدا: ضاع. راح: ذهب ولم يعد. واحلولاه: كلمة تمني بمعنى يا ليت.

٣٧٧ ـ الملواح: الإشارة التي يلوّح بها للطير ليعود إليه. واثريه: وأنه. نزل: استقرّ على كف إنسان آخر.

المعنى: يتوجّد الشاعر على طيره الذي ضاع منه، وكلب صيده «السلوقي» الذي ذهب منه ولم يعد، ورغم أنه يصيح بصوته ويندب طيره للعودة إليه لكن الطير لم يعد واستقرّ على رجل آخر غير صاحبه، وربما تضمن البيتان رمزاً لغير الطير الحقيقي.

٣٧٨ ــ طالع: أي رأى بنـافذ بصـره. راحت يمن: ذهبوا جهـة اليمن. البحاري: القادم من البحر.

المعنى: يشبّه الشاعر في قصيدة طويلة غزو جلالة الملك فيصل ــ رحمه الله ــ لليمن في عام ١٣٤٨، وتلك الجيوش التي معه بأنها تشبه الجراد بكثرته.

٣٧٩ ــ اللي: التي. عد بيها: كأن بها. جبارة: شرائح الخشب التي يجبّر بها الكسير. فم البرج: بابه.

٣٨٠ ــ الله يبيّض وجه: الدعوة ببياض الوجه من الدعاء الحسن لمن بذل معروفاً. راع الخبارة: صاحب الخبارة وهي جحور الجرذان، وصاحبها هو الحرذان. ليادلا: إذا بدأ. يقد المسامير: بدأ بالجري بين جحوره ينقل من أعواد وأغصان الشجر ليدخلها في جحره.

٣٨١ ــ سماره: حلكة السواد. تقابلن: يقصد زائراته من نسائه. يشدن: يشبهن. المخاوير: النياق المسنّة.

المعنى: يجسّد الشاعر ما يعانيه من العزلة والبعد عن الناس في ذلك المكان الموحش تحت وطأة المرض الثقيل الجدري وكأنه مكسور الرجلين لا يستطيع التحرّك، ويدعو ببياض الوجه لذلـك الجرذان الذي يؤنسه في وقت الأصيل عندما يخرج من جحر إلى جحر وكأنه يرى في حركته الحياة المتحركة بعد موت وجمود كل ما حوله، ففي حركة ذلك الجرذان يشعر بالحياة وبأن العالم من حوله حيّاً يرزق فينبعث فيه الأمل إلى البقاء، وليس ما يؤانسـه سوى نسوته الباكيات الحزينات اللواتي يحضرن إليه تحت ظلمة الليل ليؤانسنه ولكنهن عكس ذلك يزدن حزنه حزناً ببكائهن عند رأسه.

٣٨٢ ــ هنى: هنيئاً. لفة: طوتها على يديها. ردونك: أكمام ثوبك. قصاف: ما يقصف. الآجال: الأرواح.

المعنى: تتمنىّ هذه الشاعرة لو تطوي أردانه على يديها بقربها منه قبل أن تختطفها يد المنون.

٣٨٣ ــ ٣٨٤ ــ سبق شرحها برقم ٣٠١، ٣٠٢.

٣٨٥ ــ عبثات: هي البنادق. القضا: التأثر. نشورة: آثارها.

المعنى: يقول الشاعر أنهم إذا حرّكوا تلك البنادق التي متى عبث بها ثارت فأكلت البعيد والقريب، ولا أحد يستطيع أن يحصى آثارها وما ينتج عنها، وهذه صورة مصغّرة من صور آثار الحرب.

٣٨٦ ــ كالنبل: كأنه النبال. البابور: القطار. القبسون: اسم نوع من البنادق القديمة. مثاره: ثورتها.

المعنى: يصف الشاعر ناقته بأنها سريعة كانطلاق سهم النبال أو انطلاق القطار، وربما كالبرق أو كأنها انطلاقة قذيفة بندقية «القبسون»، وكانت آنذاك يضرب بها المثل بالقوة والسرعة.

٣٨٧ ــ أمهات أصبع: أي ذات الأصبع. نزاعة: تنزع الأرواح. خطاة: بعض. الولد: الفتى. تبعد مراميها: تبعد مدى رميتها.

المعنى: يمتدح الشاعر تلك النوع من البنادق في أول ظهورها وكانت تعتبر سلاحاً متطوّراً وهي ذات الأصبع التي تعدّ من الدرجة الثالثة في تاريخ تسلسل الأسلحة النارية، وبأنها تنزع الأرواح وتبلغ مدى بعيداً، ذلك المدى الذي لا يتعدّى خمسين متراً تقريباً.

٣٨٨ ــ والله يا لولا: لو لم يكن. العظم: الذي يستخدم عوضاً عن الغليون أملاه: أملأه بالتنباك. جروحي: الجروح بداخله كما يعتقد.

٣٨٩ ــ مركاه: موضع على حافة النار بشكل مائل قليلاً. أقصر بصبّتها: أصبّها بهويني. على قدّ روحي: على مقدار نفسي.

٣٩٠ ــ فنجالها: يعني الدلّة. يشدا: يشابه. الخونداه: المرأة الجميلة الشابة. الجادل: رشيقة البنية. اللي: التي. طموحي: طمحت عن زوجها ربما لا تريده.

المعنى: يتوجّد الشاعر على شرب التنباك ويقول لولا هذا العظم الذي إذا ملأته وكويته بالجمرة فإنه يكوي ما بي من الجروح لما جلست وبقيت وإلى جانبه تلك الدلّة الصفراء التي أسندتها على جانب النار، ارتشفت من قهوتها التي اتّقنت صنعها فقهوتها تشبه الحناء الذي تصنعه الفتاة الجميلة التي طمحت عن زوجها عند أهلها ولا ترغب زوجها لسبب أو آخر، وتريد زوجاً غيره، فهي كثيرة التجمل والاعتناء بنفسها بالوسائل المتاحة للجمال وهي الحناء.

٣٩١ ــ دك: خطر. الخاطر: البال. هوجاس: هاجس. الشاوري: التنباك الأخضر قبل أن يعمل على شكل لفائف، كما هو في الوقت الحاضر.

٣٩٢ ــ مزيت: امتصيت. معاليقي: هي الشرايين والأوردة التي يتعلّق بها القلب. جروح القلب: ما بالقلب من لواعج، هكذا يعتقد المدخّنون. شكية: ما يشتكى منه.

المعنى: يقول الشاعر أنه إذا كثرت عليه همومه وداهمته هواجسه لجأ إلى شرب التنباك، يأخذ من الكيس الملأن ويعبّىء غليونه ثم يكويه بجمرة النار ليمتصّ منه ما يظن أنه يكوي جروحه ويبرىء لواعج قلبه التي يشتكي منها.

٣٩٣ ــ بكره: المعمول لأول مرة. الشقيري: التنباك الأخضر الضارب إلى الشقرة بدون لفائف. مصره: صرّته.

٣٩٤ ــ مزيت: امتص. العروق المغاليل: العروق التي بها غل، ويقصد بها عروق القلب. مسرة: منفعة.

المعنى: يبينّ الشاعر أنه إذا ضاق صدره أحضر القهوة البكر التي عملها لأول مرة، وشرب منها ثلاثة فناجين كما هي العادة عند بعض القبائل، وإلى جانبها الكيس المملوء بالتنباك فيأخذ منه ويملأ غليونه ويشعل فيه النار ويمصّه بعمق حتى يشعر أن حرارته تدخل في أعماق جوفه وتكوي العروق التي تؤلمه، هكذا يظن وهو وبال عليه من جميع النواحي، وقد شهد بنفسه على ذلك، حيث قال أن شربه لم يذكر فيه نفع، وهذه الشهادة القديمة قبل حوالي قرن من الزمان على ضرر الدخان صحيّاً وماديّاً، وقد أجاد بعضهم بقوله يصف مضرّته، أول عذابك مسكة النار بيدك، وثاني عذابك دخلته مع وريدك، وثالث عذابك بنقصك ما يزيدك، ولعلّ المدخّنين يسمعون ذلك ويعونه.

٣٩٥ ــ جاز دونه: أي اتركه وابتعد عنه.

المعنى: تقول الشاعرة لا أطال الله شاربك «وهي كناية عن الرجولة والشهامة والمروءة» أيها الشارب للتنباك وليتك تركته وابتعدت عنه.

٣٩٦ ــ شرابة: الذين يشربونه. سعة بال: حسن خلق.

٣٩٧ ــ يستاهل: أهل لذلك. ابن هذال: اسم الممدوح. يحطه: يضعه. ردونه: تلك الأكمام الطويلة في الثوب راجع للملابس في ذلك الوقت.

المعنى: استدركت الشاعرة الخطر المحدق بها بسبب البيت الأول، وهنا تداركت الوضع ولجأت إلى المدح عوضاً عن الذمّ، فقالت أن الذين يشربونه من الرجال المرموقين الذين يتمتّعون بحسن الخلق والذين يوقفون كلّ عند حدّه، فإذا ما أراد أحداً أن يتطاول عليهم أرغموه بالخضوع، وهذا معنى إذا طال شارب واحد يقصّرونه، وأن ابن هذال هو من أهل هذه السلعة وكفؤ لها، ولذلك فهو يضعها في مثاني أكمام ثوبه دليل على معزّته لها.

٣٩٨ ــ مزّة: مصّة. العظم: هو بمثابة الغليون. عشر عفر: هيل وزعفران. بهارة: ما يبهّر به القهوة.

٣٩٩ ــ خطو: بعض. الغلايين: جمع غليون. جره: طول نفسه.

المعنى: يقول الشاعر أن الذي يسلّيه هو ما يمتصّه من الدخان وما يرتشفه من القهوة التي اختلط في بهارها الهيل والزعفران، فإذا أخذ من بعض الغلايين طول نفسه ونفثها في الهواء وارتشف بعدها فنجاناً من القهوة المذكورة ليطفىء حرارة الدخان في صدره، وهكذا سولت له نفسه بالانتحار البطيء الذي يعصف بصحته.

٤٠٠ ــ سمى الغدا: بسيسه. ذعار: اسم. أحش: أقطع الحشيش والأعشاب وأجمعها. القنينات: جمع قنة وهي الجبيل الصغير المنحاز في نفسه.

٤٠١ ــ مار: لكن. كار: طريقة. أضرب: يضربوني.

٤٠٢ ــ والخرج: هو خرج الدابة. يجدع: يرمي. القش: العفش. مراوات: مواربة.

المعنى: يعرب الشاعر عن تخوّفه من أولئك الخدم الموكل إليهم حماية الحمى، وقد جاء بأسمائهم لولا ذلك لجمع العشب والحشيش من ذلك المكان الخصب المعشب، لكن خوفه من أن يمسكوه ويضربوه حتى يغمى عليه فيزور الأموات لفترة ثم يعود للحياة بالإضافة إلى ذلك فإن خرج دابته وبقية عفشه سوف يكون طعمة للنار.

٤٠٣ ــ ع.ن.ق: اسم رمزي للمقصودة. الولايف: التي جمعتها الألفة.

فهرس بأسماء المراجع

عدد	اسم الكتاب	المؤلّف	الطبعة
(١)	القرآن الكريم		
(٢)	منهاج مسلم	عبد الكريم الجزائري	١٣٨٥ هـ
(٣)	كشف الخباء ومزيل الألباس	اسماعيل العجلوني	١٣٥١ هـ
(٤)	الطب النبوي	ابن القيّم الجوزية	٧٥١ هـ
(٥)	الترغيب والترهيب	الحافظ بن محمد	١٣٧٩ هـ
(٦)	رياض الصالحين	للنووي	١٣٦٦ هـ
(٧)	رسالة عبد الرحمن بن قاسم	عبد الرحمن بن قاسم	١٣٥٤ هـ
(٨)	منهاج الصالحين	عز الدين بليق	١٣٩٨ هـ
(٩)	الأحاديث الصحيحة	محمد ناصر الألباني	١٣٩٢ هـ
(١٠)	قلب جزيرة العرب	فؤاد حمزة	١٣٥٢ هـ
(١١)	المعجم الجغرافي للمنطقة الشمالية	حمد الجاسر	١٣٩٧ هـ
(١٢)	السماع عند العرب	مجدي العقيلي	١٩٧٣ هـ
(١٣)	جواهر الأدب	أحمد الهاشمي	١٩٥٧ هـ
(١٤)	ديوان زهير بن أبي سلمى	تحقيق كرم البستاني	١٩٦٠ هـ
(١٥)	رحلة إلى نجد	الليدي آن بلنت	١٣٨٩ هـ
(١٦)	الصحاح في اللغة العربية	نديم مرعشلي	١٩٧٥ هـ
(١٧)	نبذة تاريخية عن نجد	وديع البستاني	١٣٨٦ هـ
(١٨)	من شِيَم الملك عبد العزيز ج ٣	فهد المارك	١٣٩٨ هـ
(١٩)	من شِيَم العرب ج ٣	فهد المارك	١٣٩٨ هـ
(٢٠)	مشاهير كرماء العرب	هزاع بن عيد الشمري	١٣٩٧ هـ
(٢١)	من أحاديث السمر ج ١	عبد الله بن خميس	١٣٩٧ هـ

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
(٢٢)	أبطال من الصحراء ج ١	محمد الأحمد السديري	١٣٨٨ هـ
(٢٣)	ديوان أبو الطيب المتنبّي	أبي البقاء العكبري	١٣٧٦ هـ
(٢٤)	ديوان امرؤ القيس	حسن السندوبي	١٣٧٨ هـ
(٢٥)	خيار ما يلتقط من أشعار النبط	عبد الله الحاتم	١٣٨٧ هـ
(٢٦)	الشوارد ج ٣	عبد الله بن خميس	١٣٩٧ هـ
(٢٧)	خفايا الروح	طلال السعيد	١٩٨٠ هـ
(٢٨)	الأزهار النادية ج ٣	محمد سعيد كمال	١٣٨٥ هـ
(٢٩)	المجموعة البهية من الأشعار النبطية	عبد المحسن البابطين	١٣٨٩ هـ
(٣٠)	من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية	منديل الفهيد	١٣٩٨ هـ
(٣١)	ديوان سويلم السهلي	سعود العريني	١٤٠٠ هـ
(٣٢)	من نوادر الأشعار	عبد الله الصقري	١٤٠٠ هـ
(٣٣)	الأدب الشعبي في جزيرة العرب	عبد الله بن خميس	١٣٧٨ هـ
(٣٤)	راشد الخلاوي	عبد الله بن خميس	١٣٨٦ هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

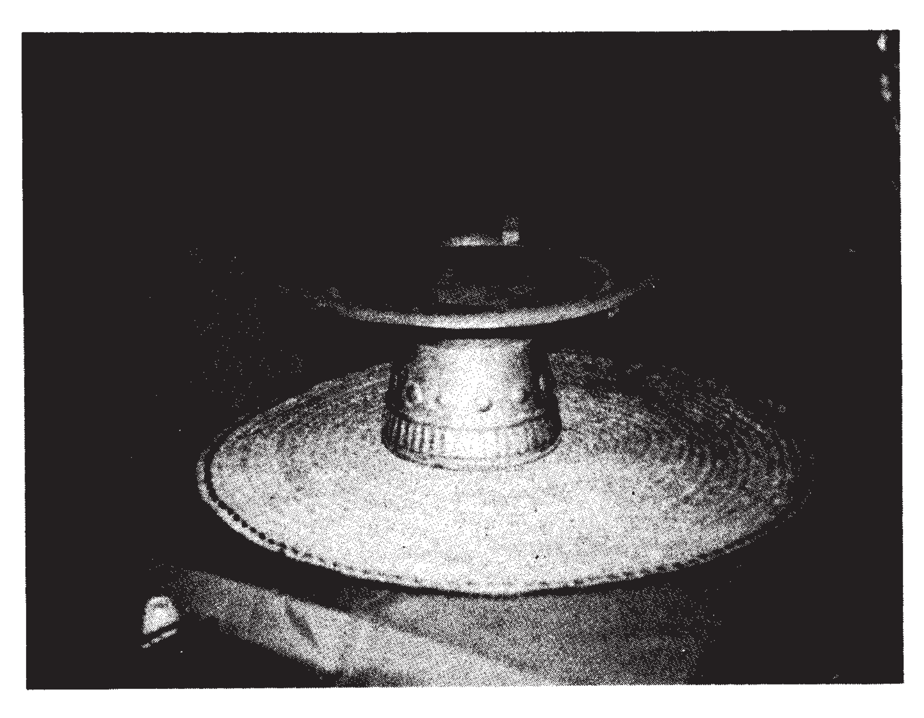
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

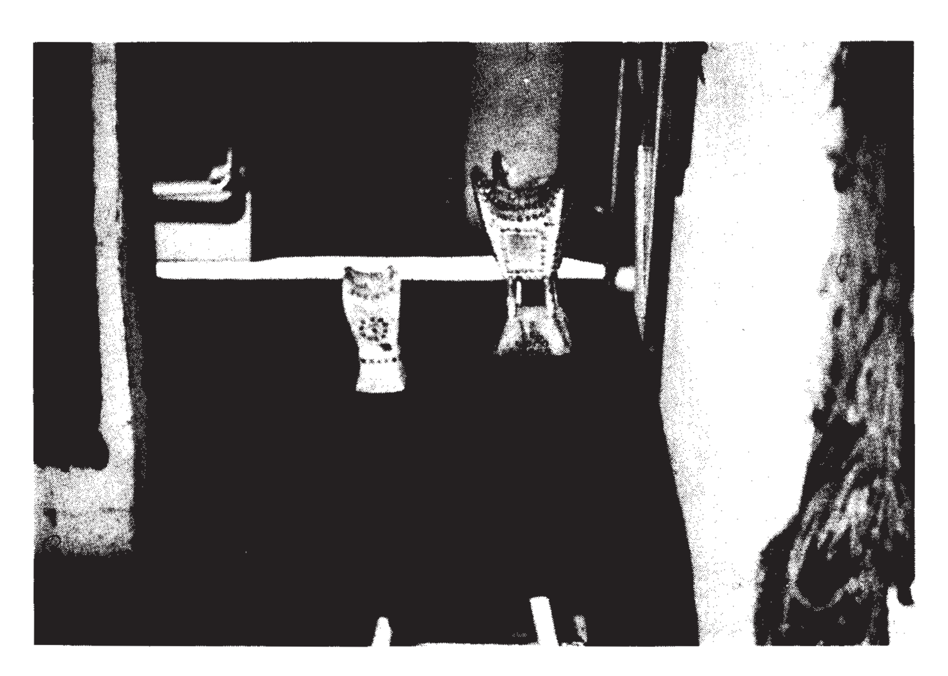
صور توضيحية
تتعلق بمواضيع الكتاب



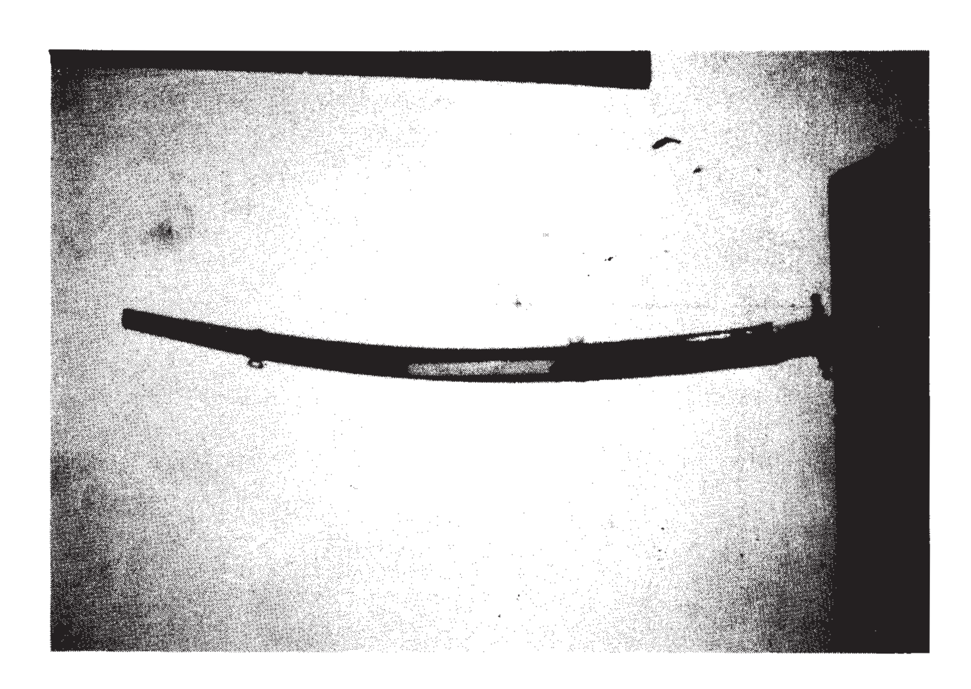
الصينية النحاسية وتحتها سفرة الخوص



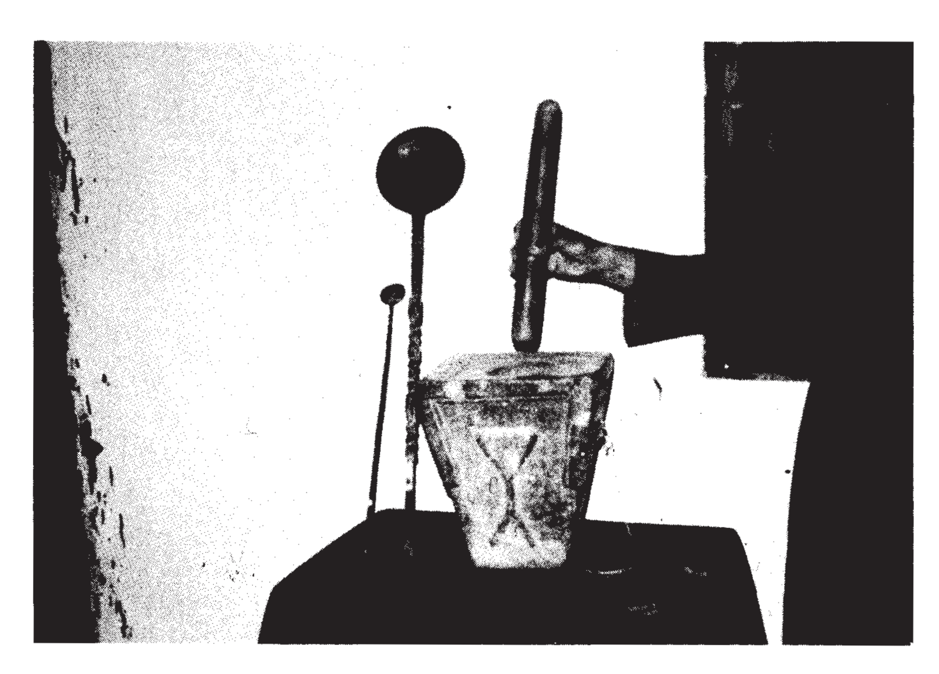
الميزان الكبير مع بعض الأواني المنزلية وقطعة نسيج



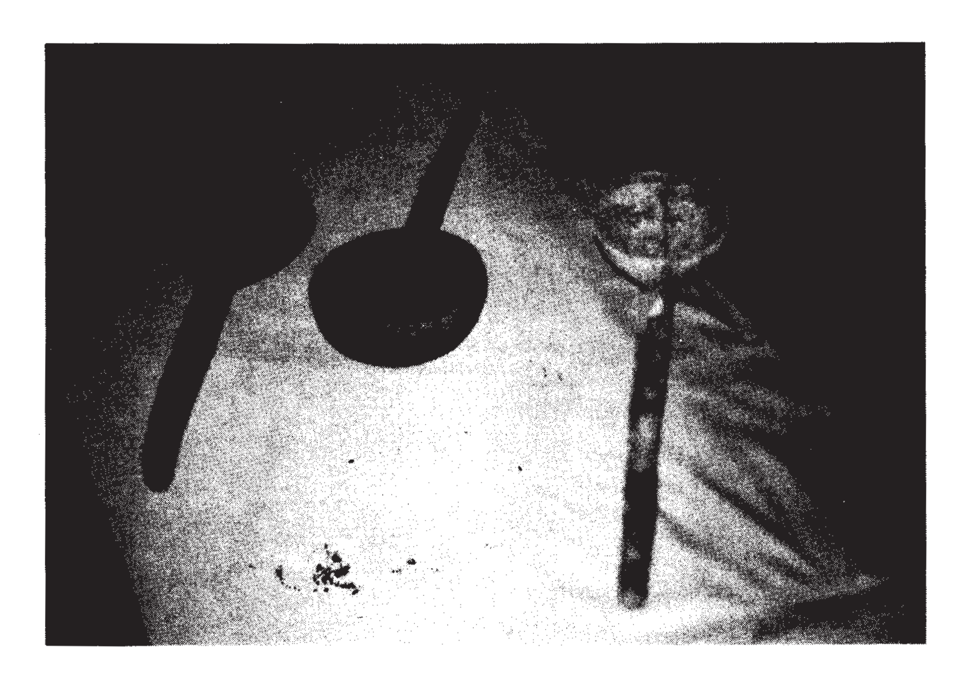
نوع من المباخر



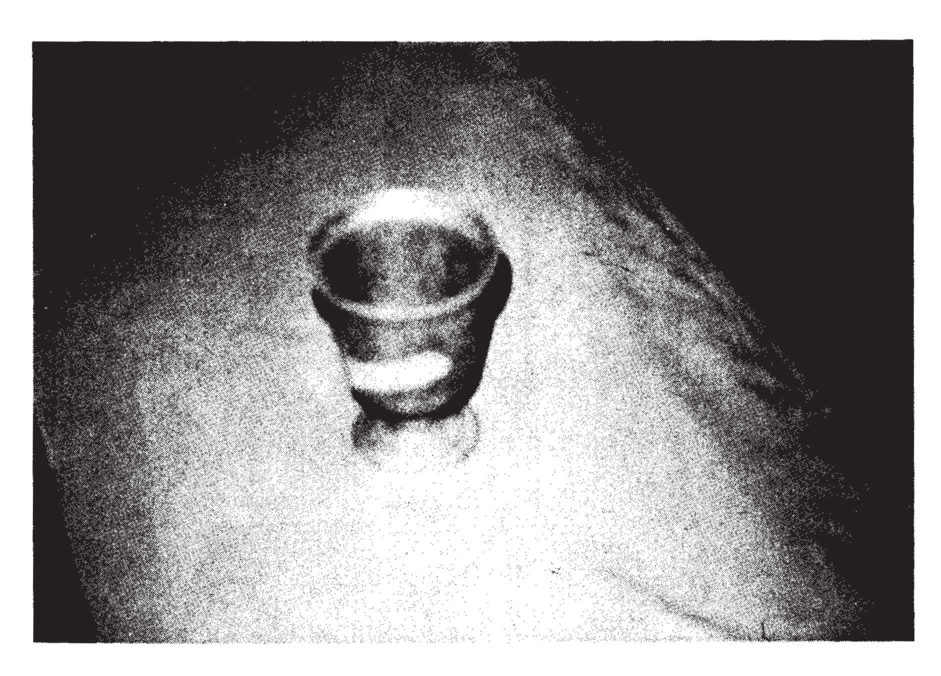
نوع من السيوف



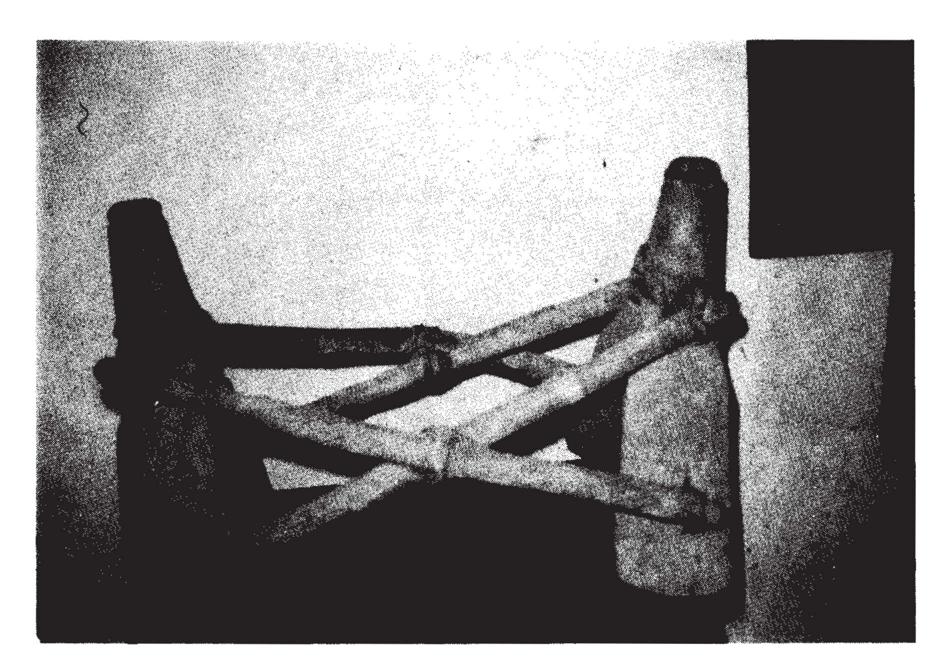
محماسة القهوة والنجر الحجري مع يده الحجرية



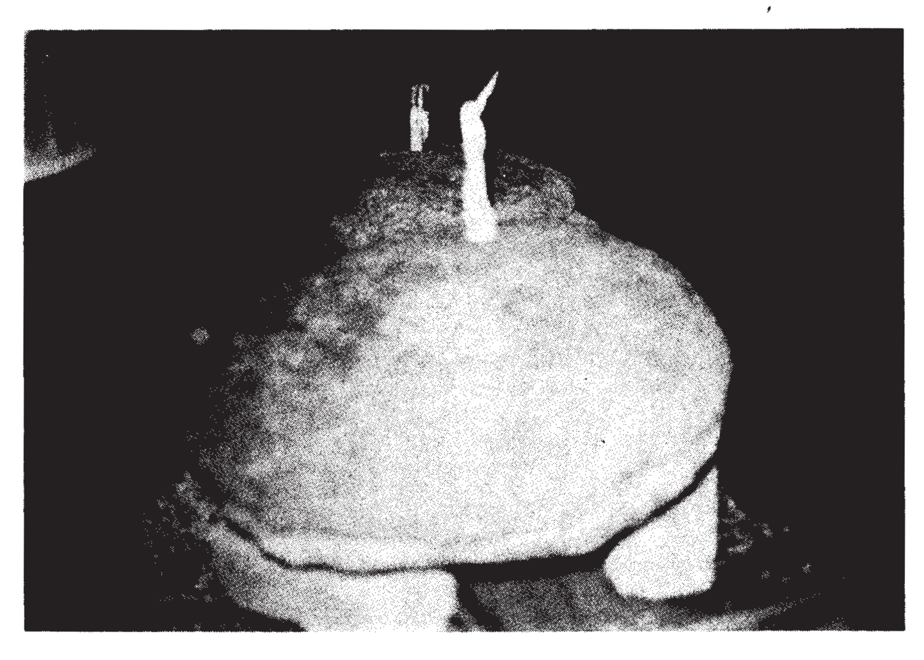
المغارف الخشبية



نجر القهوة من النحاس «ماد»



نوع من الأشدة يسمى المسامة لنقل الأحمال



الرحى وبعض الأواني المنزلية



«الضبة»، وكل جزء منها على حده وهي رتاج الباب



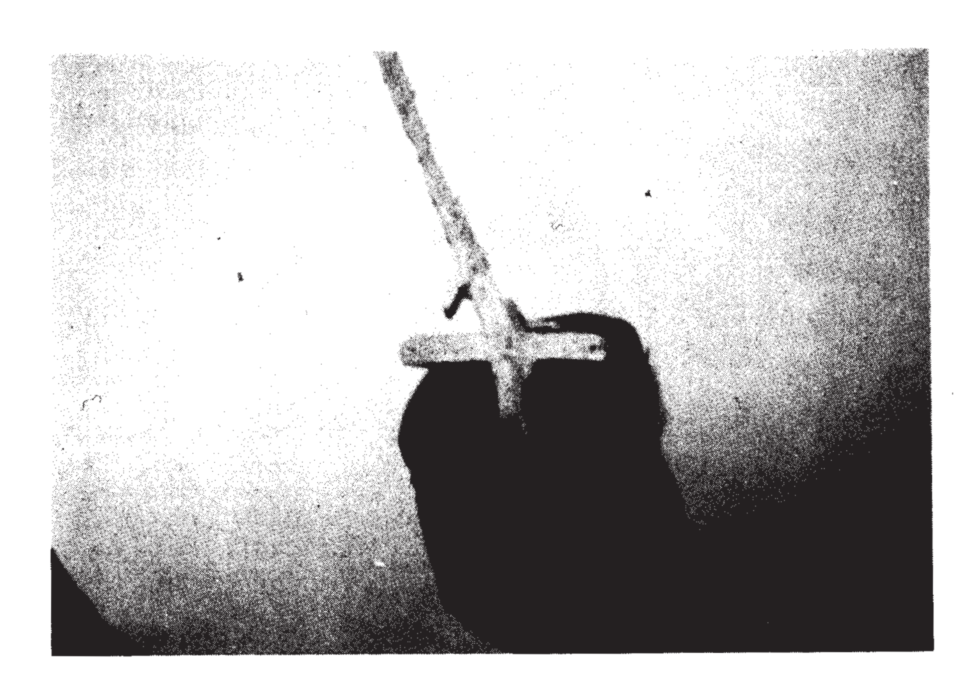
نوع من الأقداح الخشبية



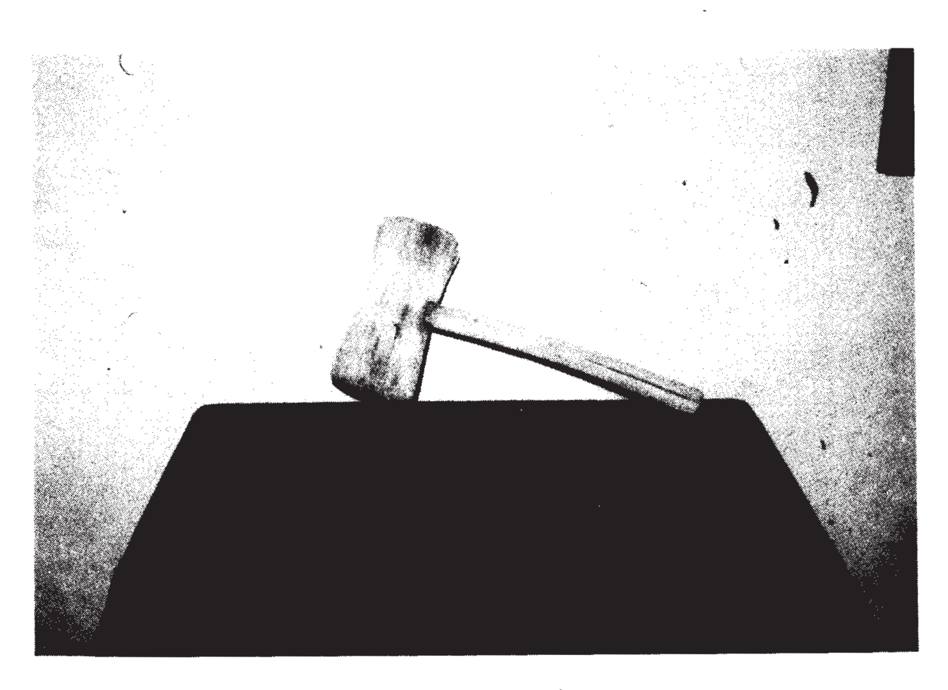
المنخل الذي ينخل به الطحين



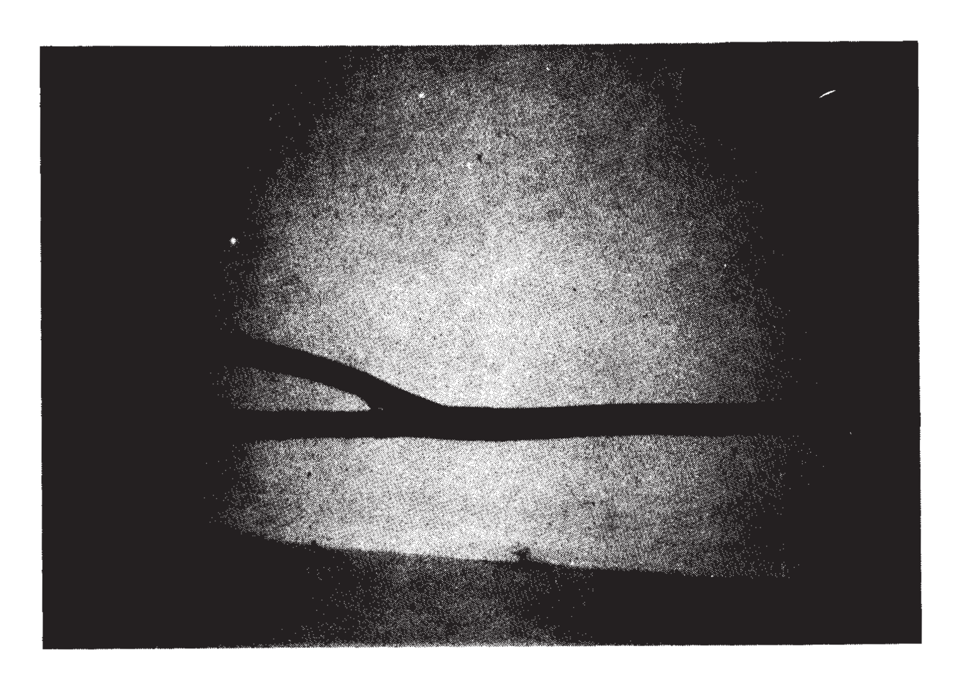
نوع من الأقدام الخشبية



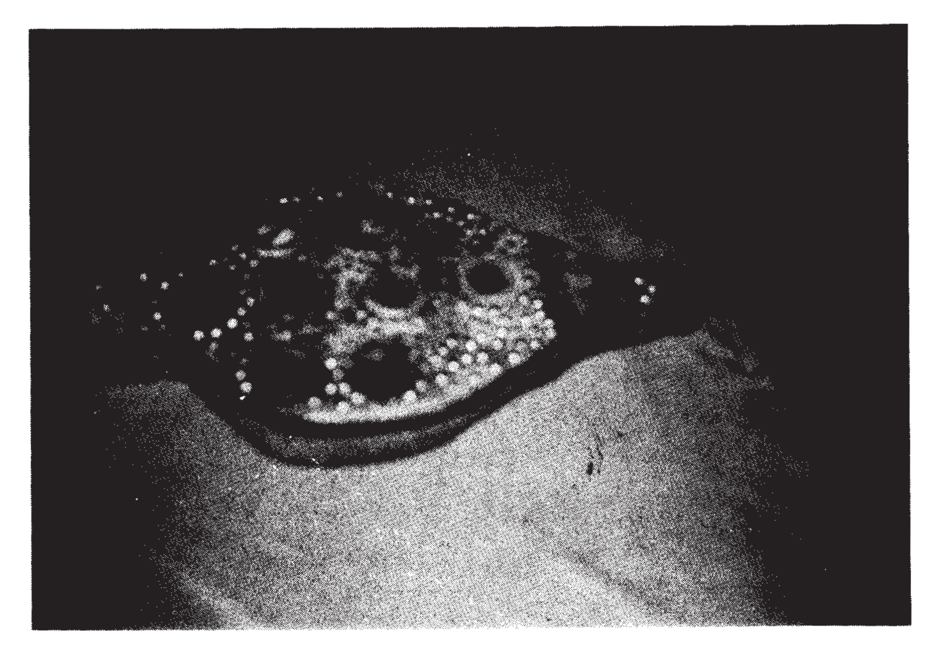
الدلو الصغيرة «القلص» يمتح به الماء من البئر



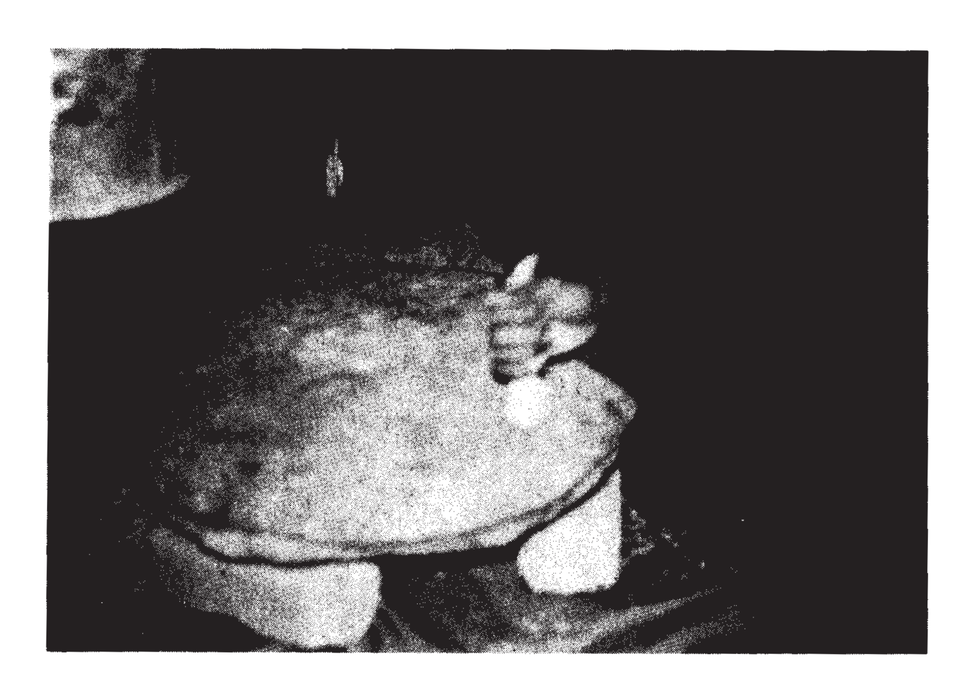
نوع من أدوات الدق تسمى «ميجمة»



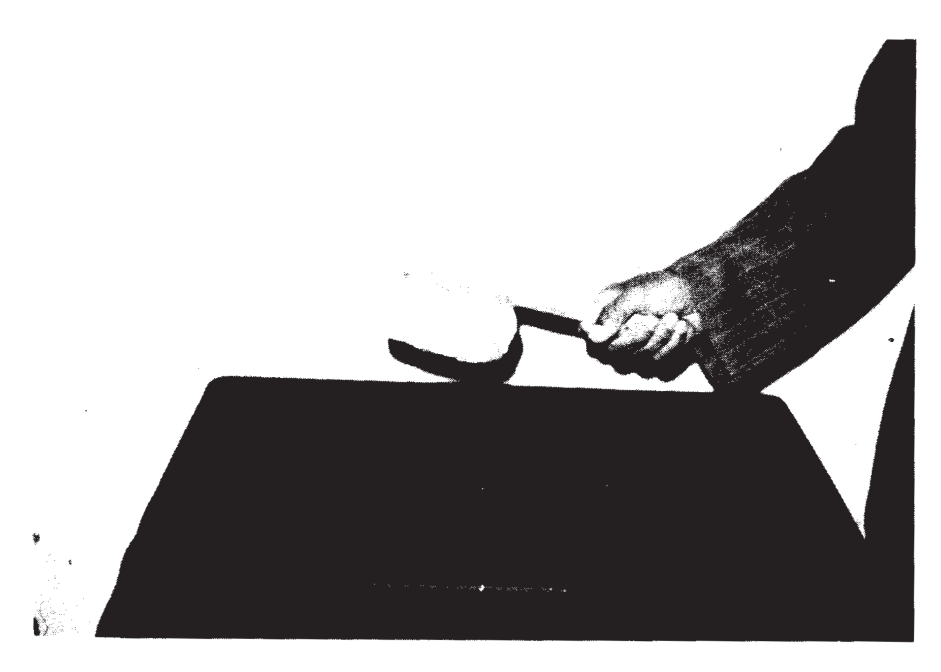
محراث، وهو ما يحرك به الزرع عند درسه



منفاخ النار



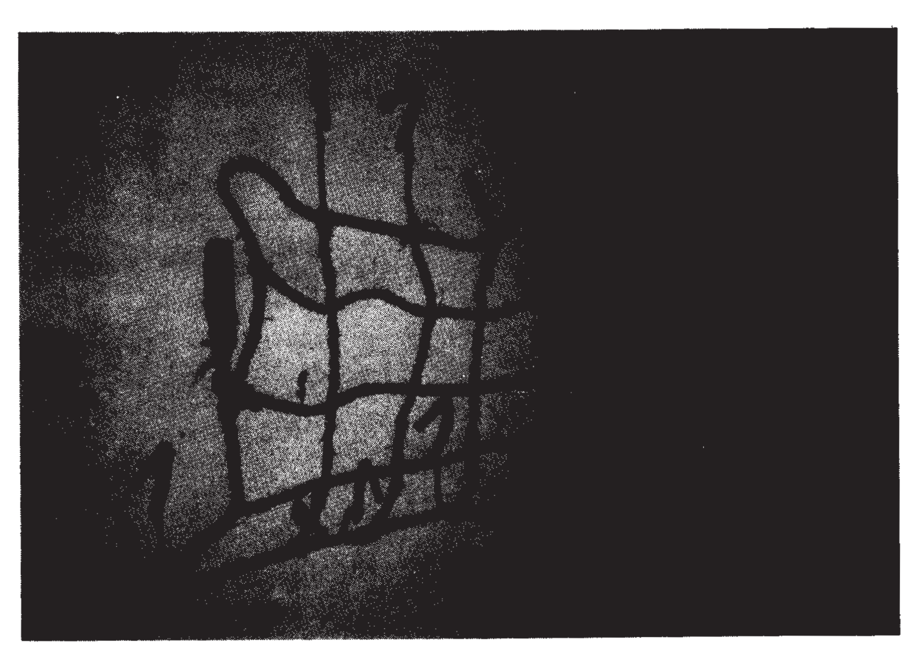
الرحى التي يطحن بها الحب



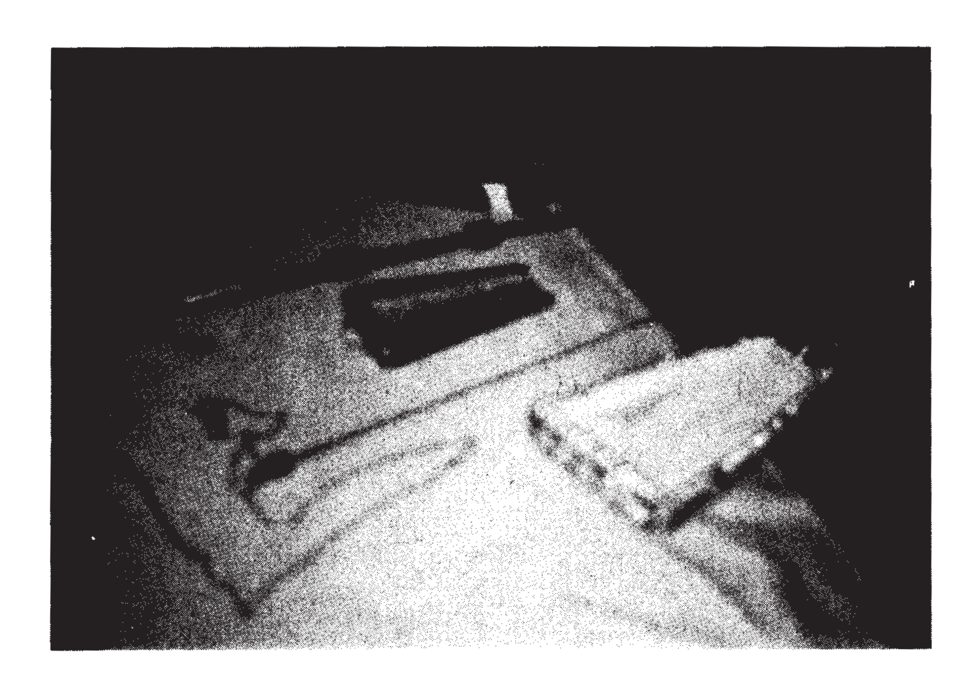
نوع من أدوات الدق الصخرية للأشياء الصلبة يسمى «مردع»



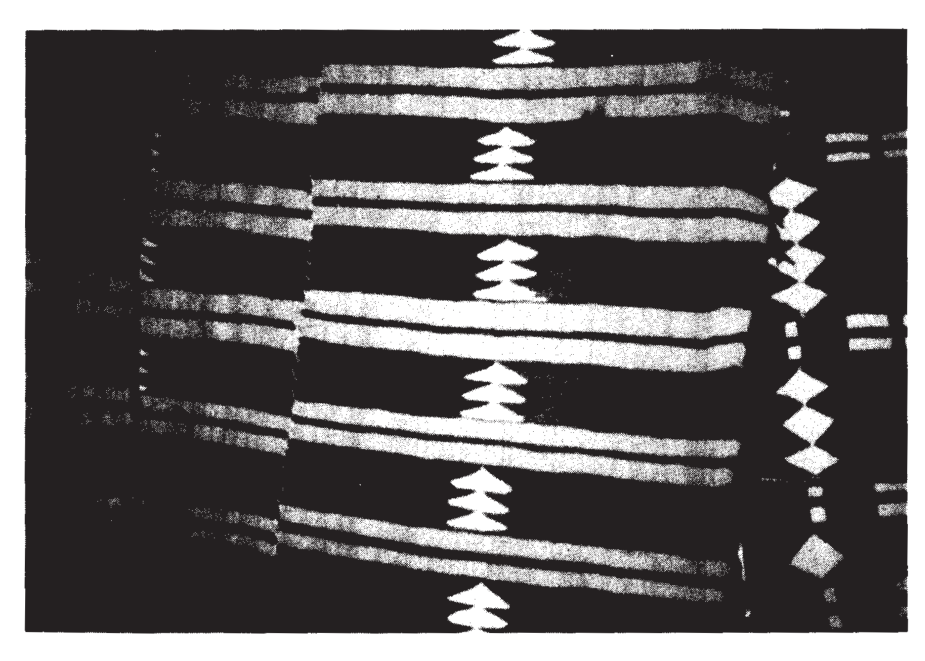
أداة «الحيف» يقطع به العلف



الشبكة التي يحضر بها الحطب والعلف



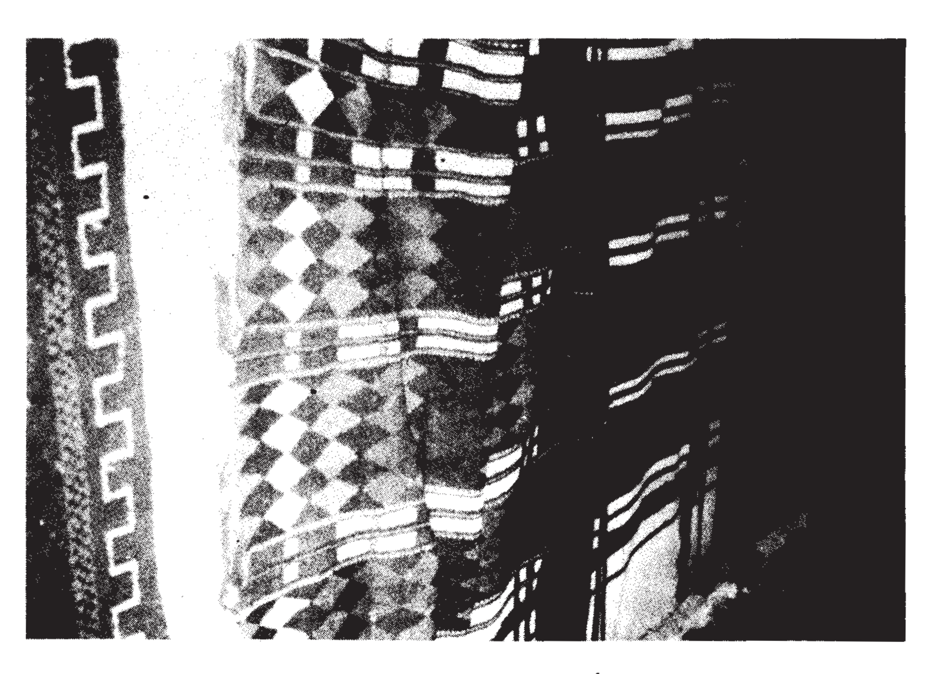
محماسة القهوة والمبرادة



نوع من الأنسجلا الصوفية «بساط»



نوع من النسيج الأسمر «العدل»



ثلاثة أنواع من المنسوجات الصوفية «البسط»



نوع من الأنسجة الصوفية المزركشة «ساحة»



خرج، وهو ما يوضع على الدابة